كونستانتين سيمونوف



يوميات صحفي شاب

ترجمة

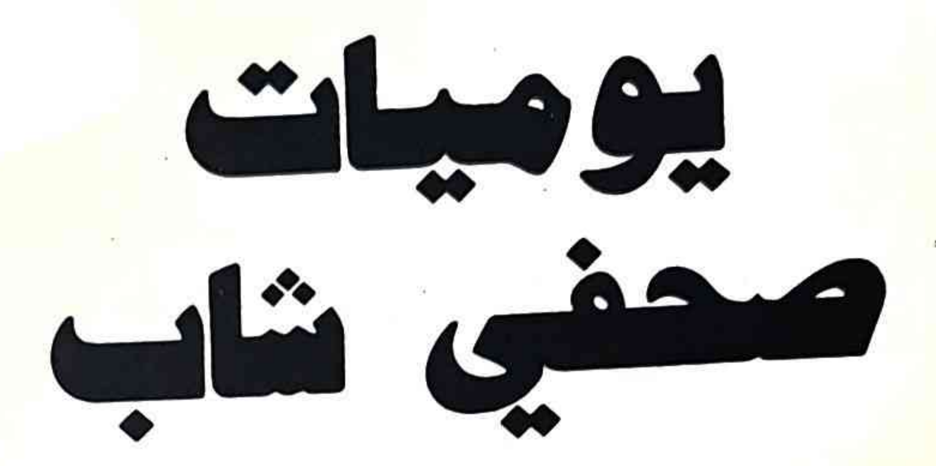
صادق الجلاد

سلسلة المأمون

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 20 /جمادى الأولى/ 1445 هـ
الموافق 22 / 11 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

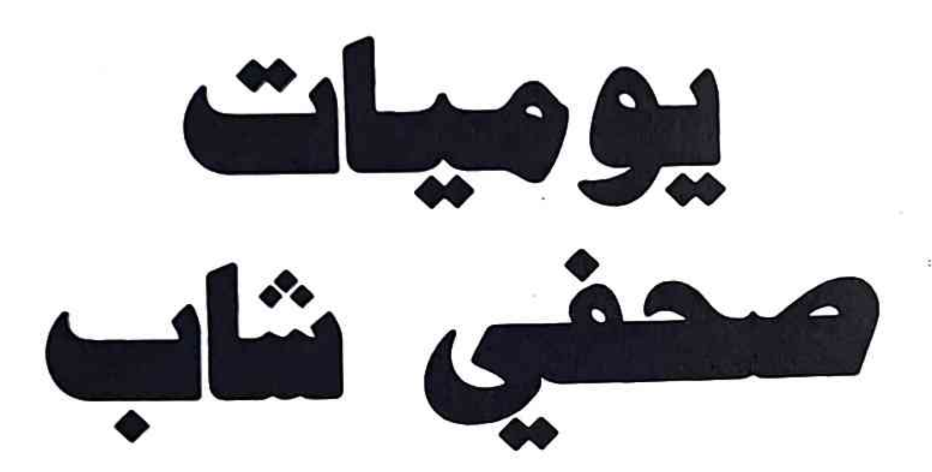




يوميات صحفي شاب

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي -Sarmed Twitter: @sarmed74
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books





يوميات
صحفي شاب



دار المأمون

كونستانتين سيمونوف

يوميات صحفي شاب

ترجمة

صادق الجلاد

دار المأمون للترجمة والنشر
بغداد - ١٩٩١

ЗАПИСКИ МОЛОДОГО ЧЕЛОВЕКА
ТРИ ПОВЕСТИ ПОЧТИ О ТОМ ЖЕ

КОНСТАНТИН СИМОНОВ

يوميات صحفي شاب

كونستانتين سيمونوف

دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
الطبعة الاولى

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٣٢) لسنة ١٩٩١
توجه المراسلات الى :
دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد : جمهورية العراق
ص . . ب ٨٠١٨
تلكس : ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة - بغداد

مقدمة المترجم

ان ما شدني الى ترجمة هذا الكتاب (يوميات صحفي شاب) موضوعه الصحفي بالدرجة الاولى الذي يدور في مهمات صحفية في الحرب العالمية الثانية. وقد احببت ان انقل الى زملائي الصحفيين في العراق خاصة، والوطن العربي عامة، تجربة صحفية رائدة، مارسها احد ابرز اعمدة الأدب السوفيتي، عندما كان في مرحلة الشباب، في ظل السلطة السوفيتية، الروائي الروسي كونستانتين سيمونوف، صاحب الروايات الخالدة مثل "اخوة بالسلاح" و " احياء واموات" و " لا يولدون جنودا " وغيرها مما ترجم او لم يزل غير مترجم الى اللغة العربية.

ومما يزيد هذه التجربة الصحفية ثراء انها جمعت بين رشاقة الاسلوب، ووضوح المعنى، وتحديد الهدف وشمولية النظر، والجمع المتناسق للمنحى الروائي الادبي والعرض الصحفي، وبين ما تتسم به الصحافة والعمل الصحفي، مما جسده سيمونوف بهذا الكتاب خير تجسيد من صبر الصحفي، وجلده، واستعداده الدائم للتضحية حتى بالحياة اذا اقتضت الحال، وتفانيه ونكران الذات لديه، وجرأته، في سبيل حفظ شرف هذه المهنة - مهنة المتاعب - وصيانة اسم الصحفي، نقيا

وكريما، وهو يحمل سلاحه الجبار - الورقة والقلم - ليسجل دقائق حركة الزمن في دماء الناس، وارواحهم وافكارهم، وقلوبهم وسواعدهم، ويرسم صور تقلبات الاحداث والمآثر والامجاد الفردية والاجتماعية في ساحات السلام والحرب كافة، وليعطيها محتوى انسانيا، يتجاوز حدودها الوطنية الى حدود قومية وعالمية اوسع.

وجدير بالذكر ان هذا الكتاب يتألف من قسمين رئيسين، ومن ملحق يتوسطهما لأحاديث شخصية لعدد من المقاتلين الذين التقاهم على خطوط القتال، ولصور فوتوغرافية من ايام الحرب لجنود ومواقع حربية، ولمراسلات بعد الحرب بسنوات مع من بقي حيا من اولئك الجنود والضباط، ولبضع قصائد من شعر الحرب ذائعة الصيت.

ويندرج القسم الاول تحت عنوان " يوميات صحفي شاب "، وهو عن نشاطه الصحفي في السنة الاولى من الحرب الذي مارسه في جبهة البحر الاسود في الجنوب، ومنطقة مورمانسك في اقصى الشمال الغربي من الاتحاد السوفيتي، وفي ضواحي موسكو عندما كان الالمان على مرمى حجر من قصر الكريملين، مقر الحكومة السوفيتية في وسط العاصمة موسكو.

ويحمل القسم الثاني عنوان "ثلاث قصص اخرى"، وهي قصص غير قصيرة، جمع فيها بين فن الرواية والتحقيق الصحفي استنادا الى الاحداث التي كان فيها شاهد عيان،

في القسم الاول من هذا الكتاب.

فالى زملائي الصحفيين في القطر العراقي والوطن العربي عموما، سواء من واكبت معهم مسيرتي الصحفية المتواضعة ام من الاجيال الجديدة التي ستشغل اماكنها الجديرة بها في ميادين مهنة المتاعب، بجميع الوانها واشكالها ومهامها، اقدم هذا الكتاب المترجم عن اللغة الروسية، الذي هو الى جانب انه سجل صفحات خالدة للنشاط الصحفي الجاد في الحرب العالمية الثانية، اكبر حرب كونية شهدتها الكرة الارضية حتى الان، فقد وضع بين ايدينا صفحة مشرقة انسانية عن الزمالة الصحفية النبيلة والواجب الصحفي المقدس، واخوة القلم ، والحرص على جعلها اطارا جديرا بكل ما تضمه من المعاني الانسانية التي تتبناها الصحافة التقدمية الرائدة.

واني بدوري بذلت في الترجمة كل جهد ممكن كي انقل صور هذا الكتاب ومعانيه بالدقة والامانة المطلوبتين، صيانة لشرف الكلمة في العمل الصحفي النبيل، واغناء للمكتبة الصحفية التي ما تزال بها حاجة الى المزيد من انواع مصادر المعرفة في هذا المجال الذي يحتم علي الواجب الصحفي ان اذكر ان اتحاد الصحفيين العرب يسهم بدور كبير جدا في رفده بعدد متزايد سنويا من المؤلفات التي تخدم مهنة الصحافة بفروعها كافة، وكذلك دائرة الاعلام

في وزارة الثقافة والاعلام العراقية التي تبنت، مشكورة، ترجمة هذا الكتاب ونشره.

صادق الجلاد

١٩٨٩

مقدمة المؤلف

كل ما يدور في هذا الكتاب من حديث كان قد حصل منذ زمن بعيد جدا.

كان عمري ستا وعشرين سنة، عندما قمت في السنة الثانية من الحرب، باملائها من ذاكرتي، في دفتر المذكرات، وهي بذلك الشكل نفسه الذي بقيت عليه عندي وما تزال. اما عندما طرت في تلك المأمورية الاولى الى الشمال، التي هي مذكورة هنا، فقد كان عمري خمسا وعشرين سنة . وان هذا هو سبب تسميتي اياها "مذكرات صحفي شاب".

وعلى مدى سنوات الحرب الاربع (الحرب العالمية الثانية - المترجم) كانت هيئة تحرير "جريدة كراسنايا زفيوزدا" التي اعمل فيها قد ارسلتني حوالي ثلاثين مرة الى الجبهة في مهمات طويلة الأمد وقصيرة. وأولاها كانت قرب مدينة ماغليف وآخرها قرب برلين. وفي دفتر المذكرات هذا، يدور الحديث في تلك المهمات التي حدثت في اول خريف وشتاء من الحرب، عندما وجدت الثقة التي انتعشت حية بعناد في نفوسنا، بأوائل الانتصارات الصعبة على الالمان، التأكيد باننا صامدون.

وقد استبعدت بعض الاسهابات ذات الصلة، بالدرجة

الاولى، بمختلف التفصيلات المرتبطة بحياتنا الصحفية. اما بشأن ما يتعلق بالبقية من ذلك، فأنني لعدم رغبتي بالانقضاض على ما سبق من أفكاري وملاحظاتي، القائمة آنذاك، التزمت بتصحيحات محددة، فيما يتعلق بالاسلوب والاغلاط. وانني التزمت بمثل هذا المبدأ حتى قبل ذلك، عندما قمت في السنة الاخيرة من الحرب بنشر بعض صفحات هذه المذكرات.

وفي اثناء اعداد الكتاب للطبع، قمت بالبحث في دفاتر الملاحظات الجبهوية، عن الاحاديث مع أولئك الناس انفسهم الذين دار الحديث عنهم في يومياتي، وانتعشت عندي رغبة في ان اضم، كملحق، بضع عشرات من صفحات دفاتر اليوميات...

ثم ظهرت رغبة اخرى، وهي ان ادرج في الكتاب بعض القصائد القديمة، مع الاخذ بنظر الاعتبار ان يكون موقعها ضمن تلك الاحاديث نفسها التي تدور فيها، ومتى كتبت وكيف.

١٩٦٩

القسم الأول

يوميات صحفي شاب

كانت الارشادات التي عندي وعند ميشكين بيرنيشتين الذي يطير معي تقول:

" حال تسلمكم اياها، يجب عليكم التوجه الى الجيش الشمالي العامل والاسطول البحري الشمالي لتنفيذ واجبات هيئة التحرير. "

جرت الامور هكذا: بعد العودة من القرم، وصلت انا الى هيئة تحرير جريدة "كراسنايا زفيوزدا" لتسليم اخر تقرير عن المعارك في الجنوب، والتقيت هناك ميشكين الذي لم اره منذ خولخين غول (موقع معركة في منغوليا في الثلاثينات ضد اليابانيين - المترجم). وكان قبل قليل قد اصيب بجروح، ولكنه تشافى منها الان، واستقبلني بنوع من الضجيج واخذني بالاحضان. ووعدته بأن نتوجه معا الى الجبهة في المرة القادمة.

في تلك اللحظة نفسها التي استدعوني فيها لمقابلة رئيس التحرير، سلم له بيان من وكالة تاس للانباء، عن مشاركة الطيارين الانكليز في المعارك على الجبهة الكاريلية. واخذت الحماسة فورا تتقد في نفس رئيس تحرير جريدة "كراسنايا زفيوزدا"، اورتينبيرغ، فقال انه ينبغي ارسال شخص الى هناك. وبما اني كنت موجودا

في تلك اللحظة بمكتبه، فان الاختيار لفكره كان سيتجه نحوي طبيعيا. واجبته اني مستعد للذهاب، ولكنني ذكرته بان نيكولايف ينتظر في القرم عودتي الى هناك.

- قال اورتينبيرغ، لابأس، فانت ستطير ليس الى بعيد، وعندما سترجع ستتوجه عائدا الى القرم.

اقترحت ان يرسلوا معي بيرنيشتين مصورا صحفيا. وهكذا تقررت سفرتنا. وعلى اثر ذلك مباشرة، بدأت تقرع اجراس الهواتف: حصل اورتينبيرغ على طائرة.

طرنا من موسكو حتى فولوغدا على طائرة طراز ب -٥، اما هناك، فبعد اربعة ايام غير مناسبة الاجواء للطيران قضيناها بالانتظار، انتقلنا الى طائرة ت ب - ١ ذات المحركين، اوصلتنا الى آرخانغلسك.

ان الايام الاربعة التي مرت علينا في فولوغدا كانت مثيرة للضجر وعديمة الفائدة. فأنني كان بودي ان انغمر في العمل فورا، ولكن هذا التأخير ازعجني جدا.

كانت فولوغدا تبدو في تلك الايام مدينة مؤخرة. وعند المطاعم كانت تقف جموع الناس، وتقع مشاجرات، ويشتعل عراك بالسكاكين في بعض الاحيان. وقد حصل ان اشخاصا بالملابس القتالية، قادمين بمأمورية من احد الاماكن من قسم ادارة الميرة او اقسام التموين، دفعوا اناسا اخرين، واخذوا بتلابيبهم، وهم يصرخون "نحن مقاتلون من الجبهة" بشكل لايسمح به لنفسه، حسب رأيي، المقاتل الحقيقي في الجبهة.

اما المدينة نفسها، فكانت خريفية وممطرة، وكلها بجسور خشبية صغيرة من الواح ذات صرير، مع بيوت رمادية واطئة ذات اجنحة مشابهة لما رسمه ريريخ في لوحاته. لقد بقيت عندي ذكريات حسنة عن المدينة نفسها. فهناك في هذه الرحلة بالذات، تولد عندي اول احساس بالشمال، الذي قد تكرر من بعد ذلك بدون تبديل في آرخانغلسك. وهناك في فولوغدا كتبت مطلع قصيدة "في البلدة الخشبية للغزل المنزلي" والتي اتممتها فيما بعد.

وبعد ان طرنا من فولوغدا، هبطنا بعد ساعتين ونصف في آرخانغلسك. ان كل شيء من حولنا كان واطئا ومستويا: البحر الرمادي، والمدينة الشمالية الرمادية التي امتدت الى العرض بعيدا. والفضاء الواسع كبير، والاشجار كثيرة، وهناك البرد والجمال.

وفي اثناء الجلوس في المطار مع الحارس، املا بالحصول على شيء نأكله - وهو ما شرع ميشكين من أجله في التحرك بالحيوية المعروفة عنه، انهيت في الجريدة المحلية، القراءة عن المسرحية التي ستعرض اليوم في مسرح آرخانغلسك الدرامي، بعنوان "فتى من مدينتنا". لقد كانت الطائرة المتوجهة الى مورمانسك قد اقلعت صباحا قبل وصولنا، وان المبيت في المطار سيكون قاسيا علينا، ولهذا فقد تركنا المطار واتجهنا الى آرخانغلسك.

بدت آرخانغلسك مدينة آمنة تماما. ففي الشوارع

كثير من البشر، وفي بعض الاماكن كان بحارة انكليز يتجولون. وعند التطلع الى الناس الآخرين، لاحظنا فجأة الى اية درجة كنا بحاجة الى الحلاقة والنظافة. ولهذا، وقبل الوصول الى المسرح، عرجنا على حلاق، ثم نظفنا احذيتنا.

في المسرح تعارفنا مع مديره اندرييف، الانسان الروسي ذى الوجه الملتحي البشوش، ومع المدير الفني بروستوفوي، وهو شخص سيبيري، على شيء من الحيلة، ولا يخلو من الدعابة.

وبعد المسرحية شربنا معه الشاي الذي سكبته لنا امه، وهي سيبيرية ذات شعر مسدول في تمشيطه، ووجه كأنه قد من الحجر، كرسوم الأيقونة، وصوت يسيل بهدوء.

وبعد ان شربنا الشاي، هيأوا مكانا لنا للمبيت على ارائك المسرح التي فرشت بعناية، في غرفة خلفية وراء شرفة جلوس الادارة.

وعند الفجر خرجنا عبر المدينة التي لم تستيقظ بعد، نحو ارصفة البحر. وهناك في اثناء انتظار زورق للنقل، لمحت فجأة اثنين من رجال التموين، واحد من المشاة والآخر من البحرية. ولاح لي من وجه مشاة التموين، انني اعرفه حق المعرفة. وبعد التركيز تذكرت انه يورى غيرمان. وظهر ان جندى التموين البحري، هو مراسل لجريدة "سيفيرنايا فاختا"، ويدعى كونوفالوف، وهو شاب اشقر ذو ملامح لينينغرادية، ولبق حاد اللسان.

اشتكى غيرمان من انه منذ يومين لم يستطع الوصول الى مورمانسك. وقد طار مرتين وعاد راجعا مرتين بسبب سوء الاحوال الجوية.

وفي الطريق تحدث غيرمان عن انه هناك في آرخانغلسك، ما يزال ينتظر العبور الى مورمانسك ايضا، الكسندر جاروف، والمصور الصحفي لجريدة "ازفيستيا" زيلما.

وعندما وصلنا الى المطار، علمنا من المناوب هناك، ان جميع الاماكن على الطائرة محجوزة. ولأحساسي بانني سوف لن اطير في هذا اليوم، وسأمكث هنا بقدر ما مكثت في فولوغدا؛ شرعت اشدد على مناوب المطار، بانني احمل اضافة الى تعليمات جريدة "كراسنايا زفيوزدا" ورقة اخرى من الدائرة السياسية للمجلس العسكري الثوري، وهي موقعة من قبل ميخائيل نفسه. وبالنتيجة قام المناوب فشطب من جدول المسافرين على الطائرة اسمين اثنين من الركاب بلا تمحيص، وسجل بدلا منهما نحن الاثنين، ومن ثم قيل لنا ان نسرع بالتوجه الى الطائرة.

ان كل هذا جرى علنا امام نظر يورى غيرمان وكونوفالوف اللذين اصيبا بالدهشة: وانهما بدورهما اخذا يضغطان على المناوب، بيد انه لم يكن في وسعه ان يفعل شيئا، اذ ادرجوا اسميهما على الطائرة التالية.

لسوء حظي، ظهر اني مذنب بدون ذنب. اذ كما اتضح

فيما بعد في مورمانسك، فان الاسمين اللذين شطبهما المناوب، كانا اسمي المراسلين الحربيين الآخرين غيرمان وكونوفالوف. وانني لأخشى انهما لن يسامحاني فيما بعد على هذا، رغم انني اقسم بالله، لم اعلم بذلك الا قبل بضعة ايام مضت.

في بحر خمس دقائق صعدنا الى الطائرة التي حلقت بنا.

كان الجو زمهريرا باردا. وحلقت الطائرة فوق البحر، ومن ثم فوق المساحات المقفرة من البشر، للطرف الشرقي لشبه جزيرة كولسك. واخذ الجو يزداد بردا فوق برد.

وحلقنا فوق شبه جزيرة كولسك نفسها مدة ساعة ونصف تقريبا. ولم يكن لدينا ما نفعله سوى انني كنت اتطلع طول الوقت الى تحت . ولكنني رغم مواصلتي النظر، فان عيني لم تعثرا على اي مبنى سكني للناس من تحتنا.

في الساعة الثانية عشرة ظهرا، حطت بنا الطائرة.

كان الثلج يغطي كل شيء من حولنا. فالشمال بدأ يمارس حقوقه كاملة: والصورة معروفة لي منذ عام ١٩٣٨ عندما حللت بهذه الاصقاع لاول مرة.

وجلسنا مدة ساعتين في مقر الفرقة الجوية، انتظارا لسيارة نتمنى ان تنقلنا الى المدينة. واستنطقني الطيارون عن الاحوال في الجنوب وكيف تسير. ولسبب ما

فان هذا كان يثير اهتمامهم اكثر من غيره. ولربما ان ذلك يعود الى التباين في المواقع.

ووصلنا الى مورمانسك بسيارة شحن صغيرة متداعية. وان هذه المدينة قد اعيد بناؤها بشكل ملحوظ، يختلف عما كانت عليه منذ زيارتي الاولى لها قبل ثلاث سنوات ونصف السنة. فبدلا من الدور الحجرية المنفردة، صار فيها شارعان او ثلاثة شوارع ذات دور حجرية متصلة ببعضها البعض، وشارع عريض من بنايات ذات خمسة طوابق يحمل اسم ستالين.

وبعد، مرورنا على هيئة تحرير الجريدة العسكرية، وزيارتنا في نفس ذلك المساء لمركز قيادة الجيش الرابع عشر الواقع في ضواحي المدينة بمنطقة مهجورة لا تلاحظها العين بين التلال، وصلنا ليلا الى فندق "آركتيكا" الذي وجدنا فيه، لحسن حظنا، مكانا شاغرا، ويا له من مكان، اذ يسمونه في فنادق الاطراف عادة، بالمكان الحكومي. وكانت في ذلك المكان غرفتان اثنتان كاملتان بالاثاث الذي يسمى "اثاث لوكس" وحمام حوضي - بانيو - متعطل، قام زميلي المصور الصحفي بتحويله الى مختبر تحميض له.

اننا بعد جميع هذه التحليقات والسفرات في هذا اليوم - بحرا وجوا وبرا - غفونا كالاموات.

وفي اليومين التاليين خرجنا للتعرف على الناس، والاستيضاح عن كيف، ومع من، وبأي تصريح يمكن الذهاب

الى الطيارين الانكليز لأجل ان نكتب عنهم تحقيقات صحفية. وفي نفس ذلك الوقت، وصل من آرخانغلسك بالطائرة، يورى غيرمان، حيث قمنا سوية بصحبة واحد من التوجيه السياسي في الجيش بالذهاب الى الانكليز.

بدأت سفرتنا بالتوجه الى غريازنويا، نحو مقر قيادة قائد طيران البحرية، جنرال - ميجركوزنيتسوف. فالطيارون الانكليز كانوا موجودين تحت أمرته مباشرة، وتتوقف على موافقته زيارتنا للانكليز.

كان مقر قيادة كوزنيتسوف مبنيا تحت الارض، داخل حفرة في تل، واستطيع القول انه مجهز باقسام مفصولة كما في البواخر، وبغرف صغيرة وبالانارة الساطعة. وهو نظيف ومنير. والجنرال نفسه كان رجلا وسيما، ويبدو بسبب شيبه، انه في الاربعين من العمر على اكثر تقدير. غير انني عندما تطلعت اليه عن قرب ادركت انه لم يتجاوز الثلاثين الا قبل قليل. وتحدث معنا بتحفظ واعتداد، وبذلك الاعتياد، الذي صار تقليديا لكل من له صلة بالاسطول، على التركيز بقدر ما على انتسابه الى الاسطول، والاشارة الى تفوق كل ما في الاسطول على المشاة. وعموما يمكن القول ان الجنرال كوزنيتسوف نفسه، وجميع الطيارين المقاتلين الذين لديه وان كانوا قد تدربوا في القوات البرية، الا انهم يختلفون عن الطيارين المقاتلين المحليين الآخرين بالدرجة الاولى، بلباسهم الزي البحري.

وحدثنا كوزنيتسوف انه تحت قيادته قد وحد كلا من الطيران القتالي والدفاع الجوي، وبفضل ذلك حصلت امكانية اكثر جدوى، في صد غارات الالمان الجوية.

وذهبنا من عند كوزنيتسوف الى الانكليز. واستقبلنا هناك، مدير تموين هذا الجناح هو المستر هودسون. وكان هذا شخصا متماسكا صغير الجسم، احمر الوجه، كثير الحذر والاحترام، ولكن بصوت ينسل انسلالا، وبنبرات معدنية احيانا. وكان قد عاش مدة طويلة في روسيا ما قبل الثورة. ففي اثناء حرب التدخل كان، حسب قوله، في آرخانغلسك ومورمانسك، ومن بعد ذلك اشتغل مدة السنوات العشرين الاخيرة في مكتب انكليزي للسياحة. وخلال هذه المدة سافر مرتين او ثلاث مرات الى الاتحاد السوفيتي، بيد انه اختص قبل كل شيء، باللغة الالمانية وعرفها حرفيا على حد تعبيره.

وانه منذ بداية الحرب، وحتى مجيئه الينا في مورمانسك، بدأ يعمل في وزارة الطيران. وكما هو اوضح لنا، فان ارض انكلترا قد جزئت الى عدة عشرات من الدوائر، ولكل دائرة منها رئيس للمترجمين، وكذلك، وحسبما فهمت، فانه واحد من عناصر المخابرات، ويقوم في المنطقة التي يعمل بها باستجواب كل من يسقط او يقع في الاسر من الطيارين الالمان. ومثل هذه القاعدة، قد ضمنت، حسب كلام مستر هودسون، التنظيم لهذا العمل، وانشأت كوادر من الناس المجربين في هذا الميدان.

واستنادا الى النظرة الثاقبة لمستر هودسون، وبموجب سلوكه المتأدب، فانه نفسه كان انسانا صاحب تجربة. وينبغي القول بانه خلال عشرين سنة من العمل في مكتب للسياحة، لابد وان فهم اللغة الالمانية والالمان. وانه بالتأكيد يملك قدرة جيدة على استجوابهم.

كان يبدو لي في بعض الاحيان وكأنه مدير لأية مزرعة ضخمة بل وحتى كنت اتصوره احيانا، انه ليس انكليزيا بل مهاجرا روسيا. ومن الواضح انه ليس كذلك رغم انه كان يتكلم الروسية بشكل مدهش تماما. وعلى صدر مستر هودسون التمع خط كامل من قوس قزح، هو عبارة عن شريط من الأوسمة الانكليزية والفرنسية التي كرم بها في الحرب العالمية الاولى.

وانه كان قد رافقنا مرافقة ودية خلال وقت مكوثنا لدى الانكليز كله.

ان القطعة الجوية الانكليزية المرابطة في مورمانسك، سميت "الجناح" والجناح هو الوحدة الاساسية في القوة الجوية الانكليزية. وقد يحصل ان يكون الجناح اكثر او اقل من حيث العدد. ففي بعض الاحيان يكون عدده مساويا لما لدينا في فرقة، وفي احيان اخرى يفوق قليلا من حيث عدد الطائرات الفوج الجوي الكامل لدينا.

ومما ادهشني، وظهر انه يستحق الانتباه، مدى قلة الناس الفائضين عن الحاجة لدى الانكليز في جهاز القيادة، فان مركز القيادة كله كان يتألف من عقيد،

الذي هو قائد الجناح، ومن ضابط استخبارات - انتليجينت سيرفيس - وهو مدير القيادة، ومن رئيس المخابرات برتبة نقيب، ومن مستر هودسون الذي هو مدير القسم الاداري، ومن ثلاثة ضباط آخرين لخدمات المقر. والباقون كلهم طيارون وملاك الفنيين.

اقتضى مني يومان للتعرف على الانكليز. وكان مستر هودسون قد اطلعنا بدقة خاصة وبالتفصيل على الجانب المعيشي من القضية. فالانكليز جاؤا، وهم ليسوا مستعدين للتخلي عن عاداتهم المنزلية، فجلبوا معهم كثيرا من اللوازم المنزلية الوطنية والمعيشية. وعرض لنا المستر هودسون جميع تلك التجهيزات التي يحملها الضابط الانكليزي معه، في غرف سكن الطيارين. وانها منتقاة بحصافة وتبصر، وسهلة الحمل نسبيا فوق ذلك. وهذا هو المطلوب عند الاقامة في مكان واحد، انني لم اعد اتذكر كل شيء، ولكنني لا أنسى بالاخص، ان كل ضابط يجب ان يكون عنده خمس بطانيات، يمكن ان يتشكل منها سرير او خيمة عند الضرورة. وبالاضافة الى ذلك، فهو يحمل معه حوضا مطاطيا غير كبير للأستحمام، وسطلا، لان الانكليزي الذي يحترم نفسه، من المفروض به انه لا يستطيع العيش بدون حمام.

قادنا مستر هودسون الى مختلف غرف المقر، وفي واحدة منها جرى حديث مضحك.

- قال هودسون، هذا هو جهاز شفرتنا. واشارعند ذاك

الى قطعة كروية يجلس شخص امامها. انني لم اشاهد مثل هذه القطعة طول حياتي، بيد انني مع غيرمان، احنينا رأسينا علامة على الفهم. ومن بعد ذلك قال هودسون عرضا:

- و لكنكم كما يبدو لستم ترون هذا لاول مرة. فهل لديكم مثل هذه الاجهزة ايضا.

انتا لذنا بالصمت.

وتجاوز هودسون هذا الصمت قائلا:

- ما هي الاجهزة التي لديكم، هل هي كروية مثل هذه. نعم؟

قال يوري غيرمان نعم، انها كما يبدو. مع العلم انه لا يعرف ذلك بدقة.

- قال هودسون ملحا. ولكن الشفرة لايكتبونها عندكم يدويا. فهل هذا صحيح؟ ان الشفرة لديكم تكتب بجهاز على كل حال.

اعتصم يوري غيرمان بالصمت في هذه المرة، بينما قلت انا ، انها لا تكتب يدويا كما يبدو، ولكني شخصيا ارى لاول مرة في حياتي جهاز شفرة.

وعلى رغم ان كلامي كان حقيقة صادقة ، غير انني لاحظت في وجه هودسون انه غير واثق بكلامي، ظنا منه اننا حذرون معه ونتجنب الصراحة.

وبعد الجولة في غرف المقر، توجهنا الى المطار. وهطل ثلج ناعم وصار الجو قارس البرد. وفي كل مكان من حولنا كان الجنود الانكليز يسعون ذهابا وايابا وكلهم

يمشون بملابس خفيفة، وهي سراويل رمادية وقمصلات صوفية مع بيريه على الرأس، اما في اليد او عند الحزام فهناك الخوذة الحديدية، التي تشبه اكثر ما تشبه من حيث الشكل صحنا مقلوبا.

وعندما سألت هودسون عن سبب حملهم الدائم لهذه الخوذة قال، ان الجيش مأمور بهذا: لا يجوز التخلي عن الخوذة الحديدية تحت اي ظرف من الظروف. وقد يسمح الضباط احيانا لأنفسهم بالتحرر منها، الا ان الجنود ممنوع عليهم ذلك منعا باتا، وان واحدا منهم قد سيق الى المحكمة لهذا السبب.

ان الانكليز عند اللقاء يؤدون التحية، ولكنهم يؤدونها بشكل لا تكلف فيه، وقد اقول انه بسيط. فالهيئة العسكرية بالمفهوم المعتاد لهذه الكلمة، غير محسوسة، ولكن وراء هذا، يمكن الاحساس بصورة اخرى من الانضباط.

وهذا المطار، شأنه شأن المطارات المحلية الشمالية هو عبارة عن ارض واسعة رحبة كثيرة التعاريج جرت تسويتها وتنظيفها من الصخور، وهي محاطة من جميع الجهات بالسفوح الصخرية. وما عدا طائرات الحراسة، فان جميع الطائرات الاخرى تقف عند اطراف ارض المطار، تحت سقوف غير كبيرة مموهة من فوق. وكان عدد من الانكليز يلعبون كرة القدم في وسط ارض مدرج الاقلاع المغطى بالثلج.

ذهبنا نحن بالسيارة الى مقر قيادة الجناح، وتسلقنا الصخرة التي كان المقر يقع عليها.

في غرفة قيادة المقر جلس المقدم هيشيرفود، وهو شخص وسيم متوسط الطول، ذو رأس ضخم بدأ يغزوه المشيب ووجه يلوح عليه الذكاء. والى جانبه جلس ملازم، هو ضابط مخابرات يتحدث الروسية بشكل لابأس به، وخلق لدينا انطباعا على عكس الانطباع الذي تركه المقدم تماما. فالمقدم كان بلا شك عسكريا عندما كان هذا الملازم مخبرا آنذاك. وعلى كل حال فانه لم يتستر على نفسه.

دار بيننا حديث اعتيادي قصير، حيث تحدثنا قليلا مع هيشيرفود بمساعدة اندريوشين، ممثلنا لدى الانكليز الذي هو ملازم في الطيران البحري. وبعد ذلك توقفنا في مرصد مراقبة. ومن ثم التقط بيرنشتين مع الانكليز الصيورين، دزينة كاملة من الصور الفوتوغرافية، وبعد ذلك تحركنا نحو ملاجىء الاسراب الكائنة في اطراف ساحة الاقلاع.

في هذه الملاجىء كان الطيارون يجلسون ويتناوبون الخفارة. ومررنا في البداية على ملجأ سرب الرائد روك. وكان هذا شخصا طويل القامة في الثلاثين من عمره او اكثر من ذلك بقليل. وشعره اسود وعيناه طافحتان بالبشر، وشارباه اسودان ايضا. واذا كان الرائد روك طويلا جدا فان شقيقه الملازم روك يمتاز عنه في انه اضخم قامة من جميع الوجوه. وبالمناسبة فان هذا

الاختلاف كان قد تم تثبيته في صورة كاريكاتيرية معلقة في الملجأ، توضح ان الملازم روك انطلق طائرا للقتال وهو يمتطي صهوة الطائرة "هاريكين" بينما ساقاه تتدليان من السماء الى الارض. وحسب قول هودسون فان الشقيقين روك ينحدران من اسرة "عريقة" حسب تعبيره.

ورغم ان الملاجىء التي يقيم فيها الانكليز واطئة ولكنها واسعة بما فيه الكفاية، فانهم قاموا بكل ما يمكنهم عمله، لقتل وقت الخفارة بالمتعة. ففي الملجأ يوجد غراموفون - الحاكي - لتدوير اسطوانات لموسيقى راقصة. وتوجد عدة العاب: مثل لعبة بيلبوك (كرات مربوطة الى عصي تضرب الى اعلى وتعود الى مكانها)، وبيليارد صيفي، ولوح دائري من الفلين، مخطط الى قواطع، تطلق عليها سهام معدنية كأهداف. وهذه لعبة تبدو للعين سهلة، ولكن النجاح فيها يقتضي تدريبا طويلا جدا. ولدى الانكليز الوقت الكافي لتحقيق ذلك في ظروف الطقس الشمالي القاسي.

ومن الالواح الخشبية والمراتب المحشوة جيدا بالحلفا، صنع الانكليز لأنفسهم في وقت الخفارة كراسي يدوية واطئة، بالامكان استخدامها للجلوس المريح باسترخاء، وحتى للنوم - وقد ادهشني بارتياح، ما يفتقد لدى الانكليز من جدية ورسمية، حيث لا تكون لا هذه ولا تلك مطلوبة جملة وتفصيلا، وهو ما يتناقض مع ما هو موجود عندنا. فعندنا في الفوج الجوي ينبغي بلا ريب،

اقناع القيادة المعنية بان هذا سوف لا يخدر يقظة احد، ولا يصرف انتباه اى واحد عن اي شيء ، وانه سوف لن يحصل اي شيء سيء، اذا ما ظهرت في الملاجىء التي يمارس فيها الطيارون خفاراتهم، مثل هذه الالعاب او الحاكي مع الاسطوانات الموسيقية. ان هذا عندنا نحن الروس يعتبر اثما. فان عندنا عزلا ويا له من عزل قاتم: ان تذهب للنهر للسباحة فاسبح كما ينبغي، وان تحارب فحارب كما ينبغي، وان تحرس فأحرس كما ينبغي وانت تعقد يديك بكآبة على بطنك. ولكن هذا لن يرفع المعنويات مطلقا بل انه يهبط بها الى الحضيض.

وفي الملجأ لدى الانكليز، يسيطر جو من المرح الخالي من التكلف. اما في الحياة والعلاقات الشخصية، فهم يتعاملون احدهم مع الاخر معاملة رفاقية وببساطة وسهولة، وهم في ذلك يشبهون طيارينا كل الشبه.

وقام بيرنشتين مرة اخرى بالتنكيد على الانكليز الصبورين مدة طويلة. ففي البداية التقط لهم صورا وهم في الملجأ، ومن ثم أخرجهم الى حيث الصقيع، والتقط لهم صورا الى جانب الطائرات، وصورا من اليسار واخرى من اليمين. وصورهم وهم في كابينة القيادة، يرتدون قبعات الطيران، وبدون قبعات ايضا، الى حد انهم تجمدوا من البرد تماما. غير انهم تحاملوا على انفسهم، وبذلوا كل ما في وسعهم لكي لاتصطك اسنانهم، ولكي يسجلوا صورا فوتوغرافية بوجوه تشع بالحيوية.

وتهيأت لنا فرصة للتأكد عمليا من صحة ما سمعنا حول ان الانكليز والامريكان هواة كبار للشارات التذكارية. فلدى كثير من الطيارين الانكليز، كانت نجومنا مثبتة على بدلاتهم العسكرية. بينما ثبت آخرون عليها، علامات التفوق، ولدى البعض الاخر كانت ازرار الملابس بشكلها الرسمي مثبتة في ملابسهم. وانبغى علينا نحن ايضا ان نقلب جيوبنا لنعطيهم كل ما كان متوفرا لدينا.

في هذا المساء، وقبيل رحلتنا التالية الى الانكليز جلس يورى غيرمان على سرير النوم في غرفة الفندق، واضعا على ركبتيه معطف المطر، الذي كان يبدو ان ليس له به حاجة بعد، في تلك الظروف المناخية، وشرع ينتزع ازراره الواحد بعد الاخر بسرعة، وذلك استعدادا للقاء القادم الجديد مع حلفائنا.

في هذا اليوم واليوم الذي تلاه تعارفنا الى عدد من الطيارين الانكليز، ومن بينهم الطيار روس الصغير، وهو كما قالوا لنا طيار ممتاز، ومرشح في انكلترا لتسلم اعلى اوسمة الطيران. فانه كان قد اسقط فوق لندن ما بين اثنتي عشرة او ثلاث عشرة طائرة المانية. اما هنا في مورمانسك فلم يسعفه الحظ بعد، حيث انه لم يفلح طول هذه المدة في اسقاط حتى ولو طائرة واحدة، بينما نجح الملازم الطويل روك في اسقاط ثلاث طائرات.

وبصورة عامة فان الانكليز اسقطوا للالمان هنا ما

بين ست عشرة او سبع عشرة طائرة، علما ان ثلاث عشرة منها او اربع عشرة اسقطها سرب الرائد روك. اما السرب الثاني بأمرة الرائد ميللر فكل ما اسقطه هو ثلاث طائرات.

والرائد ميللر طويل القامة ايضا مثل الرائد روك، ولكنه اكبر عمرا، وهو امغر الوجه واصلع الراس واشقر الشاربين كثيفهما. ولا ادرى لماذا ذكرني شكله بفرسان الدروع، اولئك الذين قرأنا عنهم في صفحات "التواريخ العامة" اثناء الطفولة، سوى انهم بدون الخوذات. وكان الرائد ميللر يشبه رئيس جندرمة مرتزقة، اما سربه، فكان مهتما بالدرجة الاولى بتسليم طيارينا، مقاتلات "هاريكين" التي تصل من انكلترا بالبواخر. واوضح لنا ان هذا هو السبب في ان الطيارين في سربه لم يدمروا الا القليل من الطائرات. ولكنه رغم هذا التفسير المنطقي فان هذا الواقع كان يزعجه بوضوح.

وعندما دعانا الانكليز، نحن الصحفيين لتناول الغداء، اتضح حول المائدة، انهم قادرون على العمل مثل الاخرين، فان واحدا بينهم من رجال الدين يخدم في مقر الجناح، ظهر انه يعمل في نفس الوقت مراسلا صحفيا لجريدة كبيرة تصدر في لندن، ويرتدي بدلة نائب ضابط.

ذهبنا من مطعم الضباط لمشاهدة مطعم الجنود. الى جانب المطبخ هناك، كانت تقف على الارض مباشرة قنان فخارية من الروم. ومقياس جراية الروم، هي كوب معدني

واحد، حجمه سبعون غراما، ولكنهم يضيفون اليه الماء، لان احتساء الروم ممنوع بدون مزجه بالماء.

وحل المساء، ومررنا على اماكن سكن كادر الطيران. واجتمع الطيارون العائدون من الخفارة في غرفة كبيرة ذات ارائك واطئة مصنوعة يدويا . وكان معلقا هناك لوح مستدير من الفلين مثل ذلك اللوح المعلق في غرفة الخفارة، وامامه عدد من الطيارين يطلقون الاسهم عليه بلا انقطاع. وكان اثنان او ثلاثة منهم يطالعون في مجلات، بينما الاخرون جلسوا على الارائك يتبادلون الاحاديث.

وفي الغرفة كان نائب ضابط يمر ويقدم الويسكي مع الصودا لكل من يرغب، ولدى الانكليز طريقتهم في تناول المشروبات الكحولية، هي مناقضة تماما لطريقتنا وعلى خط مستقيم. فانهم يسكبون في قعر القدح مقدارا ميكروسكوبيا من الويسكي ثم يضيفون اليه الماء عدة مرات. ولا يزيد مقدار الويسكي في القدح عن ثلاثين غراما . ولكنم يظلون يرتشفون منه طول مدة السهرة.

وانكشفت امامي فجأة تفصيلات مضحكة. فلدى نائب الضابط الذي يقوم بتوزيع الويسكي. دفتر صغير يسجل فيه اسم كل من يدار له ويسكي. وعندما سألنا هودسون مندهشين عما يعنيه ذلك، اوضح لنا ان المقدار المقرر من الروم، يتم تقديمه مجانا لكل من الضباط والجنود على حد سواء. اما الويسكي فانه يقدم على الحساب

الشخصي. ولهذا فان كل واحد يوقع على كميته التي يأخذها.

ان هذا واضح على العموم، ولكني ضحكت فجأة، عندما تصورت لبرهة، ان طيارينا المجتمعين للاستراحة، يقدمون لهم اقداح الفودكا بقياس ثلاثين غراما ويطلبون منهم ان يضعوا تواقيعهم ازاء كل ثلاثين غراما يشربونها.

رجعنا من الانكليز الى غريازنويا مرة اخرى. وبعد ان بتنا ليلتنا هناك، ذهبنا الى كوزنيتسوف مرة ثانية. وبعد الانكليز حصلت الموافقة على الذهاب الى سربنا الجوي المرابط غير بعيد. وفي اثناء التشاور الى من سنذهب بالذات، امتدح كوزنيتسوف طياريه بما اثار اعجابي، من مشاعر التقدير الخاص والتحفظ الذكي الذي ليس دائما يمكن ان تلاقيه عندنا. ان الرؤساء عندنا كثيرا ما يتحدثون عن مرؤسيهم بتلكؤ، دون ان يدركوا عقليا جميع الظروف والتفاصيل، ودون ان يلتزموا بأقوالهم بقوة، ودون التعهد بالمسؤولية عن كل واحدة منها حتى النهاية.

واننا لم نفلح في ان نرى اكثر الطيارين شهرة هنا في الشمال، وهو النقيب الطيار سافونوف، اذ قد تفاوتنا معه، حيث ظهر انه ذهب الى الانكليز. ولكننا التقينا ببعض الناس الطيبين الاخرين بدلا منه، ومن بينهم آمر السرب، النقيب تومانوف، والملازم الاول.

كوفالينكو الذي كتبت عنه فيما بعد مقالة بعنوان "مقاتل المقاتلين" *.

وعند المساء رجعنا الى مورمانسك، واضافوا الى جناحنا في الفندق نزيلا ثالثا هو المصور الصحفي لجريدة "ازفيستيا" غريشا زيلما. اما يورى غيرمان فقد بات ليلته، وسافر في الصباح الى بوليارنايا. واتفقنا معه باننا سوف لن نرسل من هنا موضوعا عن الانكليز، بل سنقوم بذلك عندما سنعود الى آرخانغلسك، وذلك تحاشيا لعدم تكرار احدنا للاخر.

وفي خلال الليل كتبت تحقيقا عن الانكليز "اللغة المشتركة". وفي الصباح تصفحت الجرائد فرأيت بألم، ان في جريدة "الازفيستيا" توجد رسالة صحفية بتاريخ ٥ تشرين الاول - اكتوبر، بقلم سيكليوزنوف حول هؤلاء الانكليز انفسهم. ومن وجهة نظري لم تكن هذه الرسالة الصحفية جيدة الى حد كبير، ولكن هذه المادة ستستنزف في القريب العاجل بهذه الصورة او تلك. ومن ثم اعدت قراءة تحقيقي الذي كتبته طول الليل ووضعته في حقيبة الميدان.

واتضح ان المهمة الاساسية التي جئنا من اجلها، وهي ارسال مادة الى الجريدة لم يتحقق. ونشأ السؤال التالي: وماذا بعد؟ والمعنوية كانت متردية. وبدأت تصل

---

* انظر الملحق

من موسكو انباء مفزعة حول ان الالمان قد اخترقوا الجبهة، ويواصلون الهجوم. والاحساس الاول عندي، كان ان اترك كل شيء وأعود.

ولكنه من جهة اخرى، يكون من غير الجائز، عمل مثل هذه الخاتمة العقيمة. زد على ذلك، انه قد افزعني، ان في مرحلة الانسحاب - وهذا ماصرت ادركه جيدا من تجربتي الخاصة - سوف لا تستطيع الجريدة ان تتسلم تقريبا المواد القيمة بالنسبة لها، وهذا يعني ان الجريدة ستجلس جائعة. ففي مثل ايام كهذه، وليس في واي وقت اخر غيره، تكون ضرورية جدا تلك المواد الواردة من اقسام صامدة اخرى من الجبهة.

وبالاضافة الى ذلك، وعدا كل شيء غيره، فقد كنت شديد الرغبة، بعد أوديسا- اقصى نقطة جنوبية في الجبهة - ان اكون في شبه جزيرة ريباتشي، في اقصى نقطة شمالية في الجبهة. غير ان البحر كان في حالة عاصفة، ولم يبق هناك امل لا اليوم ولا غدا للوصول الى ريباتشي. اما الجريدة فانها لا تنتظر.

ولهذا فاني عكفت على قضية احبها اقل الحب، وهي جمع مادة من الحوادث الغريبة، لاجل ان ابعث على اساسها بتحقيق مهما كان، على جناح السرعة.

وبالمناسبة فان التوفيق قد حالفني في هذا الموضوع، حيث تعارفت مع عدد من الناس الذين اصبحوا

فيما بعد اصدقاء جبهة معي.

في الاستطلاع البحري تعارفت مع مديره، النقيب فيزغين وهو انسان مرح قوي البنية، طيب النفس، رغم بعض الشدة في التعامل، وبالذات مع نوابه؟ ومن بينهم المقدم دوبروتين؟ وهو شخص متحفظ ثابت الجأش. وكان في يوم ما قد بدأ خدمته العسكرية في جيش الخيالة، وطوحت به الحياة كثيرا في العالم، ومن ثم لا أدري بفضل ماذا؟ قد تعلم اللغات جيدا، وكان شديد الاحترام وملتزما، وباختصار فهو من النوع العالي ثقافيا في المسلك العسكري، وممن لا يمكن الالتقاء بمثله كل يوم.

وقد حدثني بتفصيل كاف مستفيض عن عمل الاستطلاع البحري، وهو يواصل المشي في الغرفة مع عرج خفيف في رجله، من جراء جرح قريب لم يشف منه بعد ، كان قد اصيب به في اثناء احدى العمليات التخريبية ضد الالمان في النرويج.

وتعارفت ايضا مع المساعد الثاني لفيزغين، وهو الملازم الاول ليودين، الذي ذكرت عنه فيما بعد بالتحقيق المعنون " عيد ليلي ".

كان ليودين على النقيض تماما من دوبريوتين. فهو عسكري يهودي من الخيالة، فريد من نوعه، قامته متوسطة الطول، مكتنز الجسم واصلع الراس وذو نظارات سميكة تعطي لمعانا خاصا من زجاجها المثمن الحاشية. وكان ديدنه الضجيج على عادة ابناء مدينة اوديسا، وعنده

عـادة الـترنـم دائـما بـنـوع مـن الالحـان المنفـردة (آرى وآريـزو). وقـيـاسـا الى كـل شـيء، فـان لـديـه كـما لـدى دوبـريـوتـين، خـبرة محترمـة تـسنـد ظهـره، وايفـادات الى الخـارج، زيادة على حب جارف لكل ما هـو سري وخيـالي. وكـان يتحدث عن ذلك بصخب وحيوية، رغم انه في الواقع لم يكـن يـثرثـر عن اي شيء، اي انـه لم يكـن على العمـوم نـافخ بـوق بـالنسبـة لـلاسـرار الفعليـة، الا ان في اسـلـوب تعـامـلـه وكـلامـه، قـد غـاب ذلـك القليـل مـن عـدم الجـديـة والثرثـرة. وقـد الحقت بـه كـنيـة "المخـرب" التي هـو معجب بها كل الاعجاب.

وبـالنسبة لمهامه، فانه آمر مقاتـل، سبق وتغلغل ست او سبع مرات في استطلاعات عميقة بمؤخرة الالمان. غير ان مـا اضـر بتقـدمـه المسلكي كـما يبـدو، هـو انـه كـان كـثير الصخب والضحك اي انه امـا ان يتدفق نكـاتـا او يتقمص حالة التكتم.

قبل يوم من وصولي الى الاستطلاع البحري، كـانت قـد عـادت الى هنـاك مـن عملية تخـريبيـة مجمـوعـة صغـيرة بقيـادة الملازم الثـاني كـاربـوف. وقـد تحدثنا نحن معه طويلا. وكـان هـذا فـتى جـديـا وقـويـا وقصـير القـامـة عـريض المنكبـين. ويـوحي وجهه بشيء من الانطباع الغريب، وذلك لانه اصيب بجرح نـادر الحدوث في عمليـة الاستطلاع مـا قبـل الاخـيرة، حيث ان الطلقة قـد خـرقـت انفـه مـن الجـانبـين، وهـو الان يبـدو وكـأن لـديـه على جـانبي الانـف حبتين سـوداوين اثـنـتين

مزروعتين.

وقد تحدث الينا بجد وتحفظ. وان ما حدثني به، افادني في الموضوع الرئيسي للتحقيق الاول والاخير للجريدة من هنا من الشمال وهو بعنوان " الاستطلاعيون البعيدون " *.

ان كاربوف الذي هو مهندس هيدروغراف من حيث المهنة، بعد ان قتلوا شقيقه، طلب الالتحاق بالاستطلاع البحري واصبح عاملا فيه. ومن بعد ذلك، وفي تشرين الثاني - نوفمبر، تحركنا في وقت واحد معه في عمليتين استطلاعيتين. واخذني ليودين معه في واحدة منهما اما كاربوف فقد سار مع الاخرى. وانه لم يرجع من تلك العملية حيث انه هوى قتيلا بنار رشاشة اثناء معركة ليلية في ملجأ الماني.

وبالاضافة الى كاربوف، فقد تعارفت مع المستطلع العريف موتوفيلين، وقد كتبت على لسانه كثيرا جدا. غير انه لم يسعفني الوقت لأبعث بها الى الجريدة فبقيت في دفتر الملاحظات** .

ان موتوفيلين شاب من النوع الجذاب الذي لم يحصل على تربية جيدة في الماضي. وتسنى له ان يعثر على نفسه في الحرب، بصفة رجل استطلاع بالذات، وشجاع حازم ،

---

* انظر الملحق.

** انظر الملحق.

ومشاء رائع، وباختصار فهو انسان كما لو انه اختصاصي بالتكيف مع كل احداث الحياة ذات الصلة بعمل رجل الاستطلاع.

ويضاف الى ذلك، ان من الطرافة ان لا تجد عنده اي طموح شخصي، رغم انصرافه التام الى عمله. فهو لم يشغل باله بلقب قيادي، ولا يحب الدراسة، لأجل ان يكون آمرا، وماكان عنده استعداد للبقاء في الجيش بعد الحرب. لقد كان مهتما بالصيد البري وصيد السمك، ولهذا فهو في علاقته الخاصه مع عمل الاستطلاع كان على الارجح صيادا اكثر منه جنديا.

وبعد الحديث مع كاربوف وموتوفيلين، دعاني رجال الاستطلاع فجأة للنزول الى اسفل في قاعة اجتماعاتهم. واتضح لي انني كنت بالصدفة موجودا في اثناء "احتفالهم العائلي" الصغير ، كما هم اعتادوا على تسمية هذا اللقاء. فانهم كانوا قد أعدوا عشاء رفاقيا بعد عودة احدى مجموعاتهم الاستطلاعية.

وجلس حول المائدة اكثر من عشرين شخصا وهم موتوفيلين وكاربوف وليودين ودوبريوتين وفيزغين والممرضة المجندة للفصيل اولغا باريبفا وهي فتاة جميلة القوام وقوية البنية وشعرها مقصوص ولها وجه روسي وسيم. وقد سبق لها الخروج بعدة طلعات استطلاعية. وانني كثيرا ماتذكر بدقة هذه الامسية بالذات في

الدار الخشبية المصنوعة من سيقان الاشجار، والواقعة في اطراف مورمانسك. فخلف زجاج النافذة كانت عاصفة ثلجية، والطقس سيء ولكن الجو في الدار كان حارا من التدفئة. وان الجميع قد شربوا وتحدثوا بصخب، اكثر قليلا مما كان ينبغي ، لأجل ان يسمع بعضهم بعضا. ورفعت هناك الانخاب بصحة العائدين، وفي ذكرى الشهداء ، ومن اجل اولئك الذين هم الان موجودون في مؤخرة العدو.

وضربت بأنفي رومانسية هذا العمل، فاحسست بأنه ليس من اللائق لي ان اسأل هؤلاء الناس، مادمت قد ازمعت، ولو مرة واحدة، ان اجرب بنفسي، ذلك الذي هم يجترحونه.

قلت لفيزغين بأنني احب ان اخرج مع رجال الاستطلاع في واحدة من العمليات التي سيقومون بها. وهو في البداية قلص كتفيه ومن ثم قال:

- لابأس في ذلك كما اعتقد، فهذا أمر من الممكن ترتيبه.

انني اتذكر بصورة جيدة جدا، جو ذلك اللقاء الودي ولكنه متوتر بعض الشيء، وذلك بسبب غياب اولئك الناس الذين خرجوا الى الاستطلاع، وبسبب وجود الناس الاخرين الذين عادوا توا من الخطر المميت. وفي اليوم التالي تعارفت مع سفيستونوف، النقيب في أمن الدولة. وكان هذا شخصا متحفظا متأدبا من مدينة لينينغراد، ودقيقا في وعوده. ولأجل الحديث معي، استدعى احد الذين

هربوا مؤخرا من اسر الالمان، وهو الجندي في الجيش الاحمر الملقب كومبانيتس والذي كتبت فيها بعد على ضوء كلامه، تحقيقا بعنوان "انسان عائد من هناك" والذي لا ادري لماذا غيروه في هيئة تحرير الجريدة الى "في براثن الوحش الفاشي".

بقيت اوجه له الاسئلة عدة ساعات متوالية. وحديثه كان يبدو لي رهيبا. وهذه الرهبة ليست بسبب انه تحدث عن انواع من الاعمال الوحشية الخاصة - مثل هذه الرهبة بهذا الصدد لم تكن موجودة - بل انه من خلال حديثه الهادىء شخصت صورة للسادية الوضيعة وللمعاملة الدنيئة لحياة الناس، وللقتل الهادىء البطيء للانسان الذي يقع بالأسر. ان ذلك الحديث بجميع تفاصيله الدقيقة - من العظام التي يتعارك من اجلها الاسرى، والمشاجرات والبرد والجوع - كان اكثر بشاعة وواقعية ايضا من حيث طرازه ، من الاحاديث عن حفر النجوم على الظهر وعن كي العيون والاعمال الوحشية الاخرى*.

وفي هذا اليوم تعارفت مع قوميسار الفوج روزوف وهو انسان يبدو ظريفا جدا. وكان قد أمضى سنتين قبل مجيئه الى بابانين رئيسا للبعثة الشتوية في رأس

---

* انظر الملحق.

تشيليوسكين. وقد ألف كتابا عن ذلك. وحصل جميع الرفاق الذين معه، لقاء المساعدة في تحرير سكان تشيليوسكين على الاوسمة، ماعداه هو، وذلك بسبب شتيمة فاحشة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معنى، قد وجهها لاسلكيا الى آمره في المواصلات البحرية الشمالية، ردا على امر بيروقراطي تسلمه لاسلكيا. وفي موسكو طلبوا، مندهشين تأكيدا منه لذلك، فأكد لهم روزوف الجواب.

في الحرب العالمية الاولى كان روزوف استطلاعيا متطوعا، وحصل على وسام "غيورغي" العسكري. وفي الحرب الاهلية خدم في سلاح الفرسان. اما في هذه الحرب، فبسبب انه يعرف لغات اجنبية، قذفوا به الى هنا، على الرغم من ان عمل الاستطلاع يبدو اكثر ملاءمة له حسبما يبدو لي. فقد كان انسانا شجاعا في مناقشاته، وذكيا ومشاكسا وهاويا للخمرة ولمغازلة النساء وللصخب، وراوية للاحداث المثيرة. كان باختصار، انسانا مرحا صاخبا وممن يملك كلا من القلب والعقل والتفكير الخاص بالرأس. وقد كان انسانا عمليا وشجاعا كل الشجاعة في كل مايتعلق مباشرة بالخدمة الوظيفية.

كان تعارفي مع روزوف في غرفة صغيرة، حيث كان يقوم فيها باستجواب طيار الماني اسير، وهو شاب جميل ، بدأ في اطلاق لحيته. كان الجو باردا. والالماني يرتجف ويتكور على نفسه. وعلى الرغم من ان الخشب يتقصف في الموقد الا انهم لم يوقدوه الا قبل قليل.

وكان روزوف يهرول في الغرفة وهو يقوم بالاستجواب، وينحني من حين لآخر بشكل خاطف نحو الموقد ليقرب كفه لحظة نحو النار. وهو صغير الجسم واشيب تماما وذو انف حاد مندفع ببروز امام الوجه. وعلى صدره يحمل وساما وميداليتين.

استقبلني استقبالا غير ودي بالمرة. ولم يغير من سحنته الغاضبة الى الرقيقة الا بعد حين، اي عند حلول المساء. والسبب في بداية عدم الود منه تجاهي، هو، كما تبين لي فيما بعد، احد زملائي الصحفيين الذي عندما اخذ منه موضوعا وثائقيا ذا اهمية، قام فقلبه كيفما استطاع.

لقد التقيت بروزوف ثلاثة ايام متتالية انتظارا لحصول تحسن في الطقس كي استطيع اخيرا ان اذهب الى شبه جزيرة ريباتشي في زورق بخاري.

وفي ١٧ تشرين الاول - اكتوبر، عندما صار معلوما ان الطقس سيتحسن، وان احد الزوارق البخارية سينطلق اليوم في الساعة الثالثة نهارا الى شبه جزيرة ريباتشي، كان ميشكين بيرنشتين الذي سبق وذهب الى المدينة قد عاد منها محتقن الوجه ومتوترا. فقد اتضح انه قد طار اليوم الى موسكو اثنان من صحفيي جريدة "ستالينسكي سوكول"، اللذان عرضا على ميشكين ان يسافر معهما. وبالاضافة الى ذلك فقد طار الى مورمانسك واحد من الصحفيين كان قد جاء بالطائرة من موسكو في العشية

وتحدث الى ميشكين عن بعض تفاصيل ماجرى في ذلك اليوم.... وقد صار الان واضحا بأن الالمان يحاصرون موسكوا حصارا مباشرا.

كان قد حصل اتفاق قبل وصول ميشكين، بأنني مع زيلما سنذهب اليوم الى ريباتشي، أما بيرنشتين الذي لا يحتمل دوار البحر، فيذهب في نفس الوقت برا، نحو الفرقة - ٥٢ الى الجنرال فيشيزيرسكي. ومن بعد ذلك عندما سنعود ونلتقي في مورمانسك، سيقوم زيلما وبيرنشتين فيما بينهما بتبادل الصور التي التقطها كل منهما على حدة.

ولكن ميشكين بيرنشتين اخذ يرغي قائلا بانهم ارسلونا في مهمة لمدة عشرة ايام، وانه لا يستطيع البقاء اكثر من ذلك، بل يجب عليه ان يطير مع جميع الصور التي التقطها، الى موسكو مباشرة، وانه لم يبق لديه مايفعله هنا في الشمال، وانه لا يمكنه ان لا يكون في موسكو.

وشاركته في مشاعره: حيث انني نفسي لا استطيع اكثر من ذلك احتمال التفكير حول مايجري هناك في ضواحي موسكو، وحول امتزاج ذلك بالمشاعر الشخصية، الأمر الذي يعتبر كتمانه حراما. ففي موسكو، بقيت امي وابي وجميع الناس القريبين لي. غير ان الاحساس الصحفي، من الجهة الاخرى، كان يوحي كالعادة، بأن من الضروري الان بالذات ان اهيء للجريدة رسائل صحفية من هنا، من الجبهة

الصامدة، حيث لا يتراجعون، وحيث كل شيء يسوده النظام، لأن هذا سيخلق، بموجب قاعدة التضاد بين الاشياء، دويا جيدا في هذه الايام بالذات لدى الجريدة. وقلت لميشكين مترددا وبعد أن تخلصت من الرغبة الاولى - وهي الطيران فورا الى موسكو - ان افلام الصور التي التقطها يجب أن يبعثها مع الصحفيين من جريدة "ستالينسكي سوكول" وان يذهب هو نفسه، حسب اتفاقنا السابق، الى فيشيزرسكي في الجبهة.

في الساعة الثانية ظهرا، وصلت مع زيلما الى المرسى الخشبي، ورأينا السفينة التي كان علينا ان نبحر على متنها. وكانت هذه السفينة هي الزورق البخاري "تايمين" غير الكبير والقذر جدا. انه سفينة صغيرة جدا وكل طاقمه ثمانية اشخاص مدنيين بما فيهم الربان ورئيس الميكانيكيين والطباخة.

كان الزورق "تايمين" مشحونا في هذه المرة بالحطب الذي يسارعون في ارساله مبكرا الى ريباتشي والى شبه جزيرة سريدني، توقيا من العواصف الشتوية الاكثر هياجا.

وانحشرنا في الزورق البخاري. وابحر الزورق، ولكننا بقينا ساعتين نسير وئيدا في خليج كولسك، ومن ثم كانت مورمانسك ترى من بعيد لمدة طويلة.. ان الجو كان حسنا.

واطلق الالمان عدة رشقات من النار على المدينة. وفوق رؤوسنا، وفوق الخليج حامت الطائرات، وجرت معركة

جوية. وفي مكان في الخلف جرى قصف بالقنابل.

ان ربان الزورق البخاري، وهو رجل طويل القامة نحيف الجسم، يرتدي معطفا قصيرا ملبدا بالقطن، وعليه صدرية حمراء باهتة اللون، ويغطيه دخان التبغ الرديء كله، كان يتحدث لنا كيف ان البطارية الالمانية قد فتحت عليهم نيران اسلحتها في المرة السابقة، عندما كانوا في خليج آينا، واحدثت في زورقه عدة ثقوب صغيرة. وانه كان يروي هذه الحادثة بمختلف الصور، وبصوت عال وكأنه يتحدث الى مصابين بالطرش. وقد استنتجت من ذلك بأنه في المرة السابقة كان يحمل الى ريباتشي، ليس الحطب فحسب بل والفودكا ايضا كما يبدو. ولم يكن ذلك بدون هدف، فأن الربان نفسه هو الذي اضاف الرواية الاخرى، حيث تحدث بولع من يتمتع بالكذب على نفسه امامنا عن ذلك العقيد الاسطوري المجهول، الذي كان جيدا بل وجيدا جدا، وانسانا رائعا، وحتى انه ابقى له قنينة كاملة من الفودكا. وانها " بهذا الحجم " - بدأ الربان يشير محددا حجم القنينة بيديه، وهو يوسع مابينهما اعرض فاعرض، - "خذ ، هذا لك يابيتروشا ! اشرب ايها البحار العزيز. اشرب مادمت حيا " - هكذا ترددت كلمات العقيد، على لسان الربان الذي صرنا نناديه منذ تلك اللحظة مابيننا "بيتروشا".

في بداية الساعة الخامسة بدأ الظلام يخيم، وعندما صرنا بمحاذاة غريازنويا، سرنا في ظلام دامس. وانتعش

الجو فوق البحر. وعبر بيتروشكا عن مخاوفه بأن "موتكا - هكذا نطق اسم خليج موتوفسك بالطريقة البحرية - سيهزنا موتكا القذر هذا، اليوم. آه انه سيهزنا". وقال ذلك بابتسامة ثملة وبتلك الصورة من الارتياح، وكأن توقعاته سوف لن تجلب لنا الا الارتياح الاكيد.

وفيما بعد، وبدعوة من بيتروشا نفسه، نزلنا الى قمرته، وهي عبارة عن خلية صغيرة، ذات منضدة صغيرة جدا وسريرين، واحد فوق الاخر. وقمت انا بالاستلقاء فوق السرير العلوي، بينما تمدد زيلما على السرير الاسفل. وفي هذا الوقت دخلنا في خليج موتوفسك، وبه بدأ فعلا اهتزاز البحر.

وخلال ساعة ونصف جاء الى القمرة بيتروشا، بعدما استبدل المراقبة. واستعاد كعادته، كلمات العقيد الطيبة، وسحب من تحت السرير قنينة من الفودكا غريبة من حيث الحجم فعلا، وسكب منها في اكواب الشاي، الفودكا لنفسه ولنا. وشربنا كلنا. وصار الجو افضل واكثر دفئا وحتى صار يبدو وكأن الاهتزاز قد قل ايضا.

وفي هذه الاثناء جاء الى بيتروشا في القمرة، ميكانيكي السفينة، وهو شخص متجهم الاخلاق، بل وكما اتضح فورا، ذو نظرة متشائمة الى الحياة كلها، انه كان مستاء من الجميع دفعة واحدة: مستاء من بيتروشا بصفته ربانا، ومن حمولة زورقه البخاري، ومن الحالة السيئة للمحرك، ومن قيام الحرب بين المانيا والاتحاد

السوفييتي. ولكن استياءه الاشد من ذلك كله، كان منصبا على الالمان لاطلاقهم النار على الخليج. ان هذا كما يبدو، قد افزعه بوضوح كل الفزع، حتى وهو في هذه الحالة من السكر التي ظهر فيها في القمرة امام بيتروشا. ومن الواضح ان العقيد الطيب، كان قد جهز بالفودكا، ليس بيتروشا وحده، بل والميكانيكي معه. وهنا بدأت اتخوف من اننا بفضل طيبة ذلك العقيد، سوف لن نصل الى خليج آينا، بل الى رأس بيكشويف الذي هو بيد الالمان.

ودار بين الميكانيكي وبيتروشا جدل طويل، كان كل منهما يستغيث بنا في اثنائه. ولم يهدأ غضب الميكانيكي الا بعد ساعة ونصف او ساعتين. ووجه الينا العتاب، لكوننا نحن نبحر الان، ولا ندرك حتى حجم الصعوبات التي يعاني منها الميكانيكي وهو يحملنا في هذا الزورق البخاري المتداعي الذي لا يمكن تصور حالة المحرك الذي فيه. ولام بيتروشا لخروجه من الخليج في وقت كان باستطاعة الالمان فيه ان يطلقوا النار علينا. ولكن بيتروشا الذي جرحته هذه الكلمات، عندما قرر ان يعود مبكرا قبل الوقت الى الخليج، عبر الميكانيكي عن استيائه قائلا "ماذا صرت تتصورني انت يا بيتروشا". وعندها بقي بيتروشا مواصلا طريقه.

وفي نهاية الساعة الثانية من الثرثرة، غفا الميكانيكي اخيرا، ملقيا برأسه فوق المنضدة، بينما

واصل بيتروشا الابحار في الخليج.

ومرت بضع ساعات. وعلى الرغم من شدة هياج البحر - قوة الموج ٥-٦ درجات، الا ان الريح كانت مواتية، بحيث وصلنا الى آينا في منتصف الليل، قبل الوقت المتوقع. وغادرنا متن الزورق مسرعين ومتكورين على انفسنا من البرد على لوح قنطرة العبور الى البر.

امتدت سواحل شبه جزيرة ريباتشي يمينا ويسارا وهي مغطاة بالثلوج. وبالقرب من هذه السواحل المغطاة بالثلوج كان البحر يبدو اسود اللون.

والى يمين المكان الذي رسونا عنده، ارتفعت عاليا صوارى سفينة الابحاث البحرية "بيرسي" المعروفة في البلاد كلها، والتي اغرقت هنا منذ وقت قريب. وغير بعيد عنها امتدت صواري ومداخن اثنتين من السفن الغارقة الاخرى.

بعد ذلك الذي فعله الالمان في الايام الثلاثة الاولى من الحرب، في مسيرتهم نحو الشرق، باتجاه نهر زابادنويا ليتسو، وقطعهم ريباتشي وسريدني عن الارض الأم، فأنهم قد حرموا منطقة شبه الجزيرة من اي طريق بري للمواصلات. اما الان، وفي محاولاتهم عرقلة الطريق الوحيد الباقي للمواصلات، وهو الطريق البحري، فان الالمان يقصفون قصفا وحشيا كلا من ميناء اوزيرسك من شبه جزيرة سريدني، وميناء آينا في ريباتشي. ولم يبق حتى على المراسي والمناطق المجاورة لها، اي مكان مأهول،

بل تحول المكان كله الى حفر مملوءة بالثلج من جراء سقوط القنابل.

تسلقنا نحو الشاطىء، ورحنا نبحث عن مقر القيادة.

كانت الليلة قاسية البرد، وفيها رياح متحركة. وتطاير الثلج عاصفا ملتويا كالافعى تحت اقدامنا. ومشينا متخبطين بالثلج انا وزيلها، نحو تل لاح امامنا، غير اننا لم نعثر هنا على اى احد، فعدنا ادراجنا نحو المرسى. ومن ثم سرنا مرة اخرى، الى جهة ثانية. وهناك عثرنا اخيرا، بفضل دخان خفيف، على حفرة صغيرة كان يتدفأ بها احد الحراس. وقادنا جندي الجيش الاحمر هذا، الى الضابط الذي كان موقعه يقع على بعد كيلو متر واحد من الميناء، وهو محفور في تل صخرى.

وفي هذا الموقع الواسع جدا الذي به اربعة أسرة للنوم، ومنضدة مصنوعة من الالواح الخشبية، جلس عندها ضابط ميناء آينا الملازم الاول غينزبورغ، الذي ظهر فيما بعد، انه من مدينة اوديسا مولدا وايمانا وتربية. وفي خلال مدة اقامته كلها هنا في وقت الحرب، لم يكن عنده في ريباتشي من الصحفيين الا صحفي واحد، ولذا فانه كان سعيدا بوجودنا عنده.

وطفقنا نسأله فورا، كيف يتسنى لنا الوصول الى مقر دفاع المنطقة، فقال، ان الوصول الى هناك بسرعة امر غير ممكن ابدا. ففي النهار لا يمكن المرور من آينا الى اوزيرسك بطريق البحر، بسبب ان البطارية الالمانية

تقصف الخليج مباشرة من بيكشويف طول الايام الاخيرة. اما عن طريق البر فينبغي اجتياز ٤٠ كيلومترا. وبصدد الطريق الذي يربط بين آينا واوزيرسك فانه مسدود الان بالثلوج، حتى ان عدة عشرات من سيارات الشحن المحملة بالمواد الغذائية، صار لها اكثر من ١٢ ساعة وهي متوحلة بالثلج، بحيث ان السائقين فيها لم يبق لديهم سوى كسح الثلوج المتهاطلة لكي لا تطمر السيارات الشحن هذه تماما.

وبعد ان سمعنا ذلك، رجونا من الضابط، السماح لنا بالمبيت الليلة عنده. وقام الضابط بموجب تقاليد الضيافة الشمالية، بتقديم الفودكا لنا، لأجل ان نتدفأ، ثم دعانا للاستلقاء على الفراش.

وفي الصباح ايقظني سعال جبار وانفاس متأوهة قوية. فقد دخل في الملجأ عائدا من تفريغ حمولة الحطب المقدم سويتشاك، وهو محارب قديم، يبدو في الخمسين من عمره ، وله شاربان اشيبان وصوت جهوري، من ذلك الذي لدى ضباط الصف. وفي مناقشته الحيوية مع الضابط، حول نتيجة الشحن والتفريغ، سعل وتأوه ثم بصق، مالئا باصواته التي تشبه اصوات النفير، جميع ارجاء الملجأ. واخيرا غفا سويتشاك وغينزبورغ وانا معهما ايضا.

ومرت نصف ساعة اخرى او ساعة ، وسمعت من خلال النوم كيف ان الضابط يتحدث مع احد الاشخاص بالهاتف. ومن ثم جاء ايضا احدهم الى الملجأ وبدأ الكلام العملي

بلهجة حادة، زد على ذلك، انني رغم كوني كنت بين اليقظة والمنام، الا انني تصورت ان بين المتحدثين امرأة. ولما فتحت عيني رايت فورا امام غينزبورغ تقف فتاة بحالة استعداد، وهي تضع على رأسها قبعة بصورة مائلة، وترتدي معطفا قصيرا من الفرو، وبنطلونا ضيقا عند الساقين - برجس خيالة - وجزمة انيقة. انها كانت تتحدث بصوت مرتفع جدا مع غينزبورغ ورسمي جدا.

- قالت له - ايها الرفيق الملازم الاول، اذا لم توفر لي وسيلة مواصلات لنقل الجرحى فورا من مركز الاسعاف الى المرسى، فانني سأرفع تقريرا حول ذلك الى القيادة.

لقد كانت تتحدث بدقة واضحة جدا، مراعية جميع المراحل وجميع الفواصل. وجلس غينزبورغ متعبا نصف نائم وراء المنضدة وأجابها بلطف وهدوء:

- تاييسيا ايفانوفنا، لماذا تقدمين تقريرا الان؟ انني بدون ذلك انفذ لك كل شيء. ولماذا انت جئت في هذا الوقت؟ ان عندي الان اناسا نائمين. لقد وصل صحفيون الى هنا. فلماذا انت توقظين الناس بتقريرك؟

ولكن تاييسيا ايفانوفنا، طالبت بغضب شديد، وبكل الرسميات الثابتة للسنوات التسع عشرة من عمرها، بتنفيذ تلك التعليمات التي كان يجب على ضابط ميناء آينا ان ينفذها.

- انك الضابط المأمور. أو ليس انت كذلك ايها

الرفيق الملازم الاول؟ - هكذا وجهت له السؤال.
وافقها على ذلك غينزبورغ بود كالعادة، بأنه الضابط المأمور.
- سألته تاييسيا ايفانوفنا بدون ملاينة - اذن ما الامر؟.
قال الضابط المأمور مضيفا بضع كلمات ودية، تعبر عن انه سينفذ طلب تاييسيا ايفانوفنا. وبعدها خرجت اخيرا من عنده ملقية علينا نظرة تأنيب متغطرسة.
عندما استيقظت للمرة الثانية، لاح قليل من الضوء الابيض من خلال كوة صغيرة. وقفز زيلما خاطفا جهاز التصوير، ومضى يتجول في الميناء، ويستعجل في التقاط صور لكل ما يمكن التقاط صورة له هنا في هذا الوقت المضيء. اما انا فقد بقيت في الملجأ منتظرا غينزبورغ الذي خرج الى مكان ما. وسرعان ما عاد وجلسنا معا لتناول الفطور.
وحول مائدة الافطار، لم يتريث غينزبورغ في الشروع بسؤالي عن اوديسا. واول سؤال منه كان بالطبع عن مسرح الاوبرا، وكيف حاله في اوديسا؟ وعندما قلت له بان قذيفتين قد سقطتا على مسرح الاوبرا، واصابتا واجهته بقليل من الخراب، اخذ غينزبورغ يتوجع مثلما توجع في حينه ابناء اوديسا الاخرون عند الكلام عن ذلك، وتنهد طويلا وقال انه ليؤسفه ان تسقط القذائف على هذا المسرح المدهش. لقد تألم الى درجة، بحيث بدا وكأن

الواجهة التي اصيبت باضرار في مسرح الاوبرا باوديسا تكاد تكون هي الخسارة الرئيسية لنا في الحرب.

واخذت استوضح منه، دون الاجابة عن جميع اسئلته عن اوديسا، كيف يتسنى لنا الوصول الى اوزيرسك. واتضح ان الزوارق البخارية ما تزال حتى الان متوقفة عن الذهاب الى هناك. اما السيارات فلن تتحرك الى هناك ايضا قبل يوم او يومين، حيث ان العاصفة الثلجية ما تزال مستمرة. وكذلك فان الضابط لم ينصح بمحاولة الذهاب على الخيل الى هناك. وقال ايضا:

- في مثل هذه العاصفة الثلجية، كما هي عليه الان، فاننا - مع الاعتذار عن صفاقة التعبير - نسير الى المرحاض بواسطة الحبل، اي نشد الحبل ونمشي ممسكين به، والا فمن الممكن ان نتيه.

ورجوت ان اتصل هاتفيا مع مقر الدفاع في المنطقة، املا في أن يرسلوا الينا في الليلة القادمة من هناك، من اوزيرسك، زورقا بخاريا. ووافق الضابط على خطتي، وأمر عامل المخابرة الشروع بالاتصال. وعند ذاك سألته عما يمكن ان نشغل به النفس خلال هذا اليوم. واجابني بأنه لا يوجد هنا شيء خاص يلائم ذلك، وبأن زيلما الذي التقى به في الشارع قد ذهب لالتقاط صور لافراد المدافع المضادة للطائرات. ولكن هؤلاء لم يظهروا ما يميزون به انفسهم هنا من المستوى الذي يستحقون عليه ان يكتب عنهم.

ومن ثم اخذ الحديث مجراه بيننا. فراح هو يتذكر زوجته وابنته اللتين تركهما في اوديسا، وقال بأنه مشتاق الى الجنوب، والمح ساخرا الى ان شبه جزيرة كولسك، لو كانت انف القارة الاوربية، فأن شبه جزيرة ريباتشي هي اللحية تحت هذا الانف، وبناء على ذلك فهو هنا لا يعدو اكثر من الضابط المأمور لهذه اللحية ولا اكثر من ذلك.

ومن بعد ذلك جاءت تاييسيا ايفانوفنا. ولا تبدو لي غاضبة الى ذلك الحد الذي كانت عليه ليلا، وتحدثت الان مع الضابط آمر الميناء بشكل أقل خشونة. واتضح انها مساعدة طبيب للجراحة في الجيش، ومديرة نقطة الاجلاء في ميناء آينا، والشخص النسوي الوحيد بين كادر القيادة في منطقة شبه جزيرة ريباتشي كلها. ويبدو ان هذه الحالة هي التي اجبرتها على تقمص هذه المعاملة الصارمة الرسمية الجافة مع جميع افراد تشكيل القيادة من جنس الرجال.

وسرعان ما خرج غينزبورغ، بينما بقينا نحن مع تاييسيا ايفانوفنا جالسين في الملجأ. وعندما شرعنا بالكلام، ولما خلعت قبعتها التي ظهر من تحتها شعر رأسها القصير المحلوق بالماكنة، تحولت تاييسيا ايفانوفنا الى تايا (اسم التصغير من تاييسيا ـ المترجم) كبنت من لينينغراد مع امها وابيها واخواتها واخوانها. لقد أمضت هنا في شبه جزيرة ريباتشي ستة

اشهر، ان تحت رئاستها هنا ست نساء هن ممرضات وغسالات ملابس، تديرهن بكل الصرامة التي يتميز بها عمرها.

وبالاضافة الى ذلك ففي ريباتشي هنا، يوجد ثلاثون شخصا من الآمرين الذين ظن الكثيرون منهم في البداية ان من واجبهم المباشر والمريح، مغازلة تاييسيا ايفانوفنا. ولا حاجة للاستغراب من ذلك، فغالبية هؤلاء الناس، يقيمون هنا في هذه التحصينات بالمنطقة منذ مدة طويلة، أي منذ عقد اتفاقية السلام مع فنلندا في اذار- مارس عام ١٩٤٠.

وما عدا ذلك فأن هذه البنت كانت آمرا، ويجب عليها ان تنفذ واجباتها المسلكية، وان تتماحك في خلال ذلك مع الآمرين الاخرين، بشأن المواصلات والتموين والعقاقير الطبية، وبشأن كثير من الاشياء الاخرى. وقد نشأت علاقات رسمية لم يعد في وسعها غض الطرف عنها. ومن هذا نشأت حالتها المتوترة الدائمة، وحالتها الرسمية المتميزة، وكذلك طلبها في أن يتوجهوا اليها باسمها ولقبها فقط. وعندما يكون من حولها الرجال فقط، فأن اقل مستوى من البساطة واية ابتسامة لأى احد معهم، سوف لن تترك لها فرصة العمل فيما بعد وفق ماتراه لازما.

أن كل هذا ذكرني بقصة لغوركي " ستة وعشرون وواحدة" وبذلك الخطر الذي كان فد احدق بالبطلة...

سرت في النهار مع الضابط الآمر الى ملجأ النساء: وكان مسؤول التوجيه السياسي يدير هناك اجتماعا

للكومسومول (منظمة الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي - المترجم).

ما اكثر مايمكن الاعتياد عليه في الحرب! غير انني عندما اتذكر الان مرة اخرى هذا الملجأ الصغير، بأرضياته الخشبية الطويلة الممتدة للنوم، وذلك الغار الذي ينغلق على سبع نساء بآخر الدنيا، فوق ذلك التل المطل على الميناء، الذي يتعرض للقصف المتواصل، واتذكر عواصف الرياح المخيفة الجارفة والاعاصير الثلجية الدائمة، فأن صورة تبدأ بالتكون امامي عن تلك الدقائق التي امضيتها هناك، بأنني لن انساها مطلقا، ولو انها تبدو وكأنها لا تستحق الالتفات.

أن النسوة جلسن في الاجتماع متعبات، وهن يمسحن انوفهن، وليس في وسعهن التغلب على الرغبة بالنوم، وذلك لانهن بالعادة يخلدن الى النوم نهارا ويعملن ليلا. وفي مكان الغسل يغسلن الشراشف وقت الظلام فقط، وذلك في اثناء ما يخرج الدخان من المدخنة دون ان يشير الى مايكشف عن مواقعنا. وعلى ضوء مثل هذا النظام للعمل، فأن النساء لا يرين ضوء النهار على مدى اسابيع، حتى في هذا الوقت الذي لم يحن فيه بعد موسم الليل القطبي.

وقبل المساء، استطاع غينزبورغ اخيرا الاتصال هاتفيا. واعطوه وعدا بانه حالما سيسمح الجو، ولو قليلا، فسيبعثون الينا من اوزيرسك بزورق بخاري. ولكن العاصفة الثلجية ماتزال مستمرة.

وعند اقتراب الليل جاء المقدم سوبتشاك والقى بنفسه مجهدا منهوكا على السرير، ولف سيكارة يدوية، وبدأ فجأة يتحدث عن الحملة الفنلندية، وكيف تعذب انذاك بسبب عربات المواصلات التي تجرها حيوانات الايل وكأنه يلعنها.

قال بلهجة حزينة: ان حيوان الايل قنوع جدا، بحيث انه بسبب هذه القناعة لا يريد طعاما غير الاحراش التي يأكلها. ولكن تلك الاحراش، من اين يمكن الحصول عليها؟ فأن تقدم اليه التبن يهز راسه بالرفض، وان تعطيه الخبز يهز رأسه بالرفض. انه لا يريد ان تقدم اليه الا احراش التوندرا فقط. واحراش التوندرا غير موجودة. انني حاربت بهذه الصورة مع حيوانات الايل، بحيث اضطررت احيانا الى ان انقل الاحمال على ظهري بدلا منها، بينما هي تروح تتجول باحثة عن احراش التوندرا.

واصل سوبتشاك تسطير مختلف الاحداث الادارية والاقتصادية واحدة بعد اخرى، من تلك التي لها علاقة بالخدمة العسكرية في الشمال. وبصدد انني ساتذكرها فأنني لن اتذكرها، ولكنني فهمت تمام الفهم: ان جميع الاوساق، وكل توريدات المواد التموينية والوقود والطعام تسلم اكداسا.

وفي خلال هذا اليوم الذي امضيناه في آينا فقد تعرضت المنطقة للقصف مرتين. وجرت معركة جوية واحدة فوق رؤوسنا، ومن ثم انسحبت هناك الى ماوراء السحب.

وفي هذا الوقت من الليل تحدثوا بعدم اكتراث عن هذا القصف بالقنابل، وهم يناقشون مناقشة اعتيادية، اين ومتى سقطت القنابل، واين سقطت اليوم، واين سقطت في المرة السابقة. وقال سويتشاك لو انه تم جمع الحديد كله الذي القي على هذه البيوت المعدودة التي كانت تؤلف قرية آينا من قبل، فأن من هذا الحديد وحده، كان يمكن ان تبنى ثلاثا من مثل هذه القصبة.

وتحدثوا طويلا حول القصف الذي دام، كما يبدو ، ساعة ونصف. وعندها ادركت انه مهما يكن صبرك طويلا ولكنك عندما تقضي هنا سنة ونصف، فأن هذا يجلب حزنا شديدا للناس، بحيث ان القنابل الساقطة على مختلف المناطق - اليوم هنا وغدا هناك - لربما انها تبعث في حياتهم شيئا من التغيير، الذي على رغم فظاعته، يكون هو بالذات، الموضوع الرئيسي لاحاديثهم الليلية. وان هذا لا يعزى الى كونهم يعيرون اهمية خاصة الى هذا القصف بالقنابل، بل لان ذلك ببساطة هو البديل لما ليس لديهم ما يتحدثون به اكثر من ذلك في هذا المكان.

واخبرونا في الليل هاتفيا بأن الزورق البخاري قد وصل.

وبعدما تودعنا مع الضابط آمر آينا، والمقدم، وتاييسيا ايفانوفا، حملنا انا وزيلما الاكياس المعلقة على اكتافنا وسرنا بمحاذاة الجبل الى الميناء.

توقف الزورق البخاري عند احد المراسي المدمرة.

وكان في الزورق شخصان، هما سائق الزورق وحامل رشاشة اوتوماتيكية. وحالما قفزنا الى الزورق تحرك بنا فورا. وكان الهدوء مخيما على الميناء نسبيا، ولكننا عندما دخلنا في خليج موتوفسك، وسرنا بمحاذاة الشاطىء، صار الموج عاليا. وكانت قوة الموج ٥-٦ درجات. والزورق فوقه يتأرجح مرة الى اعلى واخرى الى اسفل. وكان يغط بالماء بحيث أنني تبللت حتى اخر خيط في ملابسي ، رغم اني كنت ارتدي معطفا ملبدا بالقطن، ومعطفا جلديا فوقه. لقد كان ينبغي علينا ان نقطع مسافة ساعة ونصف الساعة تقريبا، غير ان الزورق اخذ يطفح بالماء منذ البداية. وجلس السائق عند الدفة، بينما سحب الجندي رشاشته من حاملها واضطجع محتضنا اياها في مقدمة الزورق تحت غطاء من جلد مطاطي.

وفي مرة واحدة نادى علينا حارس من جهة شاطئنا. فهنا بين السفوح الصخرية تسير دوريات الحرس، لأن المسافة بيننا وبين الالمان هنا عبر الخليج مباشرة هي كيلومتران في بعض الاماكن.

ولقد سرنا نحن على مقربة من شاطئنا، لكي لا نكون واضحين للرؤية على صفحة السفح الصخري، وبالرغم من ان الليل كان عاصفا غير انه لم يكن قاتم الظلام. وفجأة لاح ظل من جهتنا اليسرى بالقرب من الشاطىء الالماني. وصرخ السائق بحامل الرشاشة:

- فولكوف، استعد للقتال بالرشاشة !

وخرج الجندي ساكتا من تحت الغطاء المطاطي، وثبت الرشاشة على حاملها وتهيأ لاطلاق النار. ومر من جهتنا اليسرى زورق بخاري غير كبير، وهو كما يبدو عائد لنا كان قد قرر ان يقفز تحت جنح الظلام الى اوزيرسك، وهو راجع من هناك الان.

- قال السائق، اترك الرشاشة. وهنا نزع الجندي الرشاشة وهو ساكت، وتسلل معها تحت الغطاء المطاطي.

ومن ثم سرنا مدة ٢٠ دقيقة اخرى. وبموجب حساباتنا فأننا قد صرنا الان قريبين عن اوزيرسك. ولكن الامواج كانت تتقاذف بالزورق اقوى فأقوى، بحيث بدأ في بعض الاحيان وكأنه قد غرق وسوف لن يعوم ثانية. وارتفعت المياه كثيرا في قاع الزورق. وقال حامل الرشاشة الذي صار الان راقدا بالماء، بهدوء:

- الماء - لا يوجد مجال اخر له.

- سأل السائق - كم بقى حتى يصل الى حوض زيت المحرك؟

- اجاب الجندي - اصبعان.

- قال السائق - اذن سنصل. ودرءا لكل احتمال، اقترب اكثر نحو الشاطىء.

أن الماء كان قد غمر الزورق تماما، عند بداية مياه الميناء الهادئة.

ورسونا في اوزيرسك عند رصيف محطم كما هو الشأن في آينا، وتسلقنا الى الاعلى فوق شاطىء زلق. وفي أرصفة

الميناء تكدست الاكياس والصناديق والبراميل، وهم ينقلونها ليلاً بالسيارات. ومن الواضح انها كانت مواد غذائية وصلت الى اوزيرسك على متن الزورق البخاري غير الكبير الذي التقينا به.

وعلى طول الطريق الذي قطعناه الى اوزيرسك كان السائق مستعجلا كل الوقت، بسبب ان على متن هذا الزورق بالذات، كما هو قد بين لنا، ستبحر مجموعة من عناصر الاستطلاع الى الجهة التي بها الالمان، حالما نصل نحن. وبالفعل فأننا التقينا بعد بضع دقائق من نزولنا على الشاطىء، بعناصر تلك المجموعة الاستطلاعية. فقد رأينا خمسة او ستة اشخاص يتجهون نحو الرصيف، بأردية تموهية بيضاء مع رشاشاتهم. وكما علمت في اليوم التالي، فأنهم تسللوا في تلك الليلة الى الطريق المؤدي هنا قريبا من بحر بيتسامسك، وقتلوا احد الالمان واسروا اخر بصفة "لسان" - (الاسير الحي - المترجم).

وسرنا حتى وصلنا ملجأ نقطة حرس الحدود، واتصلنا من هناك بالمقر. وحصلنا على وعد بأنهم سيبعثون الينا بسيارة. ولكن السيارة ما اتت ولا جاءت. وبقينا اربعين دقيقة نرتجف في الريح القارسة البرد، عند البناية السابقة لدائرة البريد.

كانت اوزيرسك قبل الحرب ، مدينة مضيئة غير كبيرة، بنيت بسرعة، وفيها ناد ومدرسة وبريد، وعدة خطوط من الدور ذات طابقين وطابق واحد. وكل هذا تحول في الوقت

الراهن الى اكوام من الانقاض. ومن تحت الثلوج تلوح بارزة الواح الخشب المحطمة، وتتناثر سيقان الاشجار في عرض الطريق. لقد مرت اربعة اشهر والالمان يقصفون البلدة بالقنابل باستمرار، ويوجهون نحوها نيران مدافعهم، على الرغم من انه لم يعد فيها من يعيش منذ مدة طويلة، وان كل شيء فيها قد نزل الى تحت الارض، ماعدا في الليل فقط، عندما يشاهد الناس على الارصفة مسرعين لتفريغ الزوارق البخارية والسفن التي تصل تحت جنح الظلام.

ومن ثم وصلت السيارة اخيرا. واوصلتنا الى الجبل بعد ان غطست مرتين بالثلج وازحناها بأكتافنا ومن ثم سرنا في شق من الارض ابيض خال، ولا يبدو ان فيه اية علامة مهما كانت صغيرة على وجود بشر. واصطدمنا بالحارس وجها لوجه على بعد خطوتين منه تماما. فهو في ردائه الابيض المموه القصير وبنطلونه لم يكن يرى للعين بتاتا على صفحة الثلج. وقام الحارس في البداية بايصالنا الى قسم التوجيه السياسي ومن ثم رافقنا الى ملجأ قوميسار الفوج. وكان مدخل الملجأ مغطى بالكتان الابيض. وهنا نبع امامنا من الغيب حارس جديد على بعد خطوتين ايضا. لقد كان النظام ملموسا هنا.

كان كل شيء في الملجأ الذي نزلنا الى داخله، منتظما ومرتبا. والملجأ نفسه كان مبنيا من جذوع اشجار متينة، ومغلفا من الداخل بالالواح الخشبية. واسرة

النوم فيه كانت موضوعة في تجاويف مبثوثة في جميع جوانبه. وان هذه هي المساكن الدائمة القوية للناس الذين صار لهم مدة طويلة يعيشون هنا او يزمعون العيش مدة طويلة.

ان شابونين نفسه، كان هكذا قويا مشرقا مثل ملجئه. فعمره قد تعدى الخمسين، ويجلس بصفة قومسيار منذ مدة طويلة، ويعرف ، كما هو قد عبر عن ذلك، كل ثقب في كلتا شبهي الجزيرتين. ولكنه بعدما نشب به هنا في الشمال مرض الربو، صار في الايام الاخيرة لا يخرج الا قليلا نسبيا، اي ليس بمقدار مايقوم بذلك، العقيد الهمام كراسيلنيكوف الذي لم يكن موجودا تلك اللحظة في مكانه.

استقبلنا شابونين بترحيب جيد جدا، وقدم لنا الشاي الذي كان عند وصولنا يغلي على فرن مستدير مضلع من صنع فنلندي . وذهب زيلما ليبيت ليلته في قسم التوجيه السياسي، بينما بقيت انا اقضي الليل عند شابونين. وانسللت بنفسي على سرير في تجويف علوي، وتمددت، بعد ان قضيت وقتا طويلا في خلع ملابسي، لأن كل ماكان على بدني منها رطبا حتى اخر خيط فيه. واضطررت ان انشرها كلها خلال الليل لتجف حول المدفأة.

وفي الصباح خرجت الى الهواء الطلق واغتسلت بالثلج جيدا، وتلفت من حولي بارتياح. فالعاصفة الثلجية قد هدأت منذ الصباح، وصار الجو صافيا ساكنا، وكما اتضح على ضوء النهار، فأن مركز القيادة قد أقيم في ممر

ضيق، بين اثنين من التلال الصخرية، غير المرتفعة كثيرا، والمغطاة بالثلج تماما، في هذا الوقت من منتصف شهر تشرين الاول - اكتوبر. وفي الشقوق مابين الصخور، نمت هنا وهناك، شجيرات صغيرة متماسكة، هي النبات الوحيد الموجود في شبهي الجزيرتين. وليس من الممكن تصور ان هناك ارضا اشد من هذه الارض بردا وانعدام مأوى. ففي وضح النهار الان، اذا مااتطلعت بانتباه، فمن الممكن ان ترى على السفوح الصخرية من فوقها وتحتها، مداخل الملاجيء المغطاة بالكتان الابيض. غير ان من المتعذر تماما ان تراها من الجو بأي شكل من الاشكال.

وعندها صار من المفهوم عندي الان لماذا يقوم الطيران الالماني كل هذه الاشهر المتوالية بقصف اوزيرسك الخالية منذ مدة طويلة. ان لدى الالمان امكانيتين: اما ان يقصفوا اوزيرسك هذه، التي هي النقطة الوحيدة المرئية جيدا من الجو على سطح شبه جزيرة سريدني او ان يقصفوا جميع شبه الجزيرة عشوائيا حسب ساحاتها دون ان يروا شيئا. ويبدو ان الالمان قد فضلوا رغم كل شيء، قصف البيوت الخالية التي يتطاير منها ولو حطام الخشب.

وعلى العموم، فأنه كان يكفي النظر في ضوء النهار الى هذا المنظر، لاجل فهم الظروف القاسية التي ينبغي على الطيران ان يعمل بها هنا.

وعندما جاء زيلما فقد ظهر ، لسوء حظه، ان شابونين

هاو للتصوير متحمس. فقد طلب من زيلما فورا ان يحمض الصور التي يلتقطها هنا، ويطبعها هنا ايضا، واوضح انه يوجد عنده في المخزن كل شيء مثل ورق التصوير والكاشف والمكبر.

- قال شابونين - لا تظنوا فيما لو انكم ذهبتم الى اخر العالم كما هو انتم عليه هنا، فسوف لن تجدوا اي شيء. فأن كل شيء موجود هنا بالتمام.

وأدرك زيلما انه ليس لديه مجال للافلات، وانه ينبغي عليه، ليس فقط ان يلتقط الصور، وهو ما يحبه المصورون الصحفيون جدا، بل وان يحمضها، وهو مالا يحبونه بصورة خاصة، وان يطبعوها وهو مايكرهونه اشد الكره. انه ادرك ذلك ولكنه استسلم له. وبالاضافة الى ذلك فأن شابونين قد اتضح فيما عدا ذلك كله، أنه انسان رائع جدا.

لقد تحدث بالتفصيل، في ذلك الصباح، عن الحالة في شبه الجزيرة، وعن تلك الاحداث التي بدأت بها الحرب هنا، والتي بنتيجتها غدت كلتا شبهي الجزيرتين - سريدني وريباتشي، قطعتين من الارض معزولتين عن الجبهة الاخرى كلها، اي انهما صارتا في الواقع تقريبا، ومنذ بداية الحرب، وكأنهما في حالة الحصار من البر، ولا تملكان طريقا للتموين الا من بحر اوديسا فقط.

وخلال الحديث مع شابونين في ذلك اليوم، وفي الحديث مع العقيد كراسيلنيكوف من بعده، ومع غيرهما من الآمرين

استطعت تقريبا ان ارسم لنفسي صورة لما جرى هنا في ايام الحرب.

فعلى ضوء ذلك الذي سمعته، تكون الامور قد سارت بهذه الصورة. ففي اول ايام المعارك هجم الالمان بقوة ثلاثة الوية جبلية على قطعات فرقتنا الخفيفة التي كانت مرابطة عند الحدود مباشرة. وتراجع جنودنا غير قادرين على الصمود بوجه الهجوم المفاجىء، وقتل قائد الفرقة.

وسار الالمان في اليومين الأولين، بمحاذاة الساحل، مسافة ثلاثين كيلومترا، واحتلوا تيتوفكا، وتركوا خلفهم في المؤخرة، الممر الذي يربط شبه جزيرة سريدني بالقارة. وفي اليوم التالي لذلك، وبعد قرارهم احتلال شبة الجزيرة بضربة واحدة، وجه الالمان واحدا من الويتهم الى الممر وشرعوا بالعبور من خلال سلسلة جبال موستا - تونتوري. وبعبورهم هذه السلسلة، سيكون في وسعهم، فيما بعد، التوغل في جميع شبه الجزيرة وانهم قد سعوا سعيا جديا لتنفيذ ذلك.

أن هذه النية مفهومة تمام الفهم، خاصة عندما نأخذ بنظر الاعتبار ان الالمان حتى لو تحركوا ايضا بطريق البر بمسافة قريبة جدا نحو مورمانسك، ولو اقتربوا من خليج كولسك، فأنهم لن يستطيعوا اسناد عملياتهم من البحر، مادامت شبه جزيرة سريدني وشبه جزيرة ريباتشي لم تقعا بايديهم بعد. فأن من تظل بيده سريدني وريباتشي، هو الذي يسيطر على هذه المنطقة البحرية في

جميع الاحوال ابتداء من مورمانسك في الشرق حتى بتسامو في الغرب.

وهكذا بالذات، فأنه بسبب ان السيطرة على الطرق البحرية، تفرض من سريدني وريباتشي، فقد ظهر ان من الصعب جدا الدفاع عنهما من البر من جهة البرزخ. فجميع البطاريات هنا، وجميع المدافع كانت مصوبة لصد الهجوم من البحر. وان بعض المدافع كانت مثبتة بالاصل على منصات ثابتة، ولايمكن زحزحتها من مكانها الا بصعوبة فائقة جدا. وحتى بداية الحرب، لم يكن قد ارسل من جهتنا حتى ولا مدفع واحد الى البرزخ نفسه، وان خط الدفاع البري ماكان يمر عبر البرزخ، بل من خلال القارة، بعيد الى الغرب من البرزخ. ولم يكن هناك اي احتمال لان يستطيع الالمان الوصول الى البرزخ عن طريق البر.

وفي غضون يوم واحد، استنهض الجميع في شبهي الجزيرتين على قدم وساق. وفي خلال الليل، وعبر السفوح الصخرية، سحب رجال المدفعية بايديهم، المدافع الثقيلة الى تلك المواقع التي يكون من المستطاع فيها ان تضرب البرزخ.

لقد كان ذلك عملا عملاقا. ومن السهولة الكلام عنه فيما بعد، غير ان من الصعب ادراك كيف تم تنفيذه، عند النظر الى هذه السفوح الصخرية، والى تلك المواقع التي تموضعت عليها الان بطاريات المدفعية.

وفي الصباح وبعد أن نجح الالمان في سحق حمايتنا الضعيفة في موستا - تونتوري شرعوا ينحدرون من سلسلة الجبال الى الاسفل، سعيا للوصول الى شبه الجزيرة. وهنا على منحدرات سلسلة الجبال، واجهتهم نيران فوهات المدافع، ومن بينها المدافع الثقيلة، وجميع المدافع التي تم تحويل اتجاهها حتى ذلك الحين. واستمر العمل في تغيير مواقع المدافع الاخرى.

اخذ العقيد كراسيلنيكوف لواء الحرس من شبه جزيرة ريباتشي على شكل اقسام، ونقله الى سريدني وزجه بالمعركة. ونقل معه الى الخط الامامي جميع ما كان موجودا من الرشاشات. وعند حلول منتصف النهار كانت في البرزخ قد تمركزت اعداد كبيرة من نيران المدفعية والرشاشات، بحيث ان الالمان الذين اجتازوا السلسلة الجبلية لم يستطيعوا النزول منها. وقد تحولت منحدرات السلسلة الجبلية المواجهة لنا الى مكان لمذبحة كبيرة.

ان خط الدفاع يمر بهذه الصورة بالذات، عبر هذه السلسلة الجبلية، عند تلك المناطق التي تم وقف الالمان فيها. ومنذ ذلك الحين فأن كل مايدور في شبه جزيرة سريدني، هي اشتباكات يومية دامية لجنود الحراسة، واصطياد "الالسن"، وعمليات الاستطلاع العميق في مؤخرة الالمان، وبأعداد كبيرة في بعض الاحيان.

وهناك حيث تم وقف زحف الالمان، توجد الان امام مواقعنا اسلاك شائكة وحقول الغام. ولكن هذا كله كان قد

اقامه رجال الالغام فيما بعد، تحت النيران الالمانية.
اما في اول ايام القتال، فلم يكن في البرزخ اي شكل من اشكال التحصينات.

وعلى كل حال، فمن الافضل العودة الى اليوميات.

في هذا اليوم الاول، قررنا السفر الى اقصى طرف من شبه جزيرة سريدني، اي الى البقعة الصغيرة التي كانت منتجعا فنلنديا من قبل، حيث تكون من هناك رؤية خليج بتسامسك جيدة، بل، وحتى سواحل النرويج في الايام الصاحية، حسب قول بعضهم، اذ المسافة اليها هي بضع عشرات من الاميال لا اكثر.

وفي هذه الجولة استحوذت على اهتمامي بالدرجة الاولى، زوارقنا الطوربيدية التي رست متوارية بامان في واحد من الخلجان الصغيرة. في شبه الجزيرة، وقامت من هناك بالتسلل الى بتسامو والى شواطىء النرويج.

وقرر شابونين الذهاب معنا، وحمل معه بندقية صيد ذات فوهتين احتياطا لصيد الارانب التي يقال ان اعداد كبيرة منها تعيش في هذه المنطقة.

ووصلنا بالسيارة حتى البرزخ الثاني الذي يربط شبه جزيرة سريدني مع شبه جزيرة ريباتشي. وكانوا في حينه قد استعدوا لحفر قناة ستسمح لو تمت، بعدم الدوران حول ريباتشي، بل بالمرور من خلالها، ان جاز التعبير، لاختصار اكثر من مئة ميل من الطريق بين مورمانسك والموانىء النرويجية. وطبيعي ان هذا كله قد طواه

النسيان في زمن الحرب. بل ان الامر انتهى الى الافضل، حيث ان الحفر لم ينفذ.

كانت تتموضع في البرزخ كتيبة هندسة الالغام في ملاجىء اقيمت بين الصخور. وانبغى علينا ان نترك السيارة هنا - حيث ان المرور كان ممنوعا الى ابعد من ذلك بالسيارة، في ذلك الاتجاه الذي كنا نريد الوصول اليه - وان نقف بانتظار ان يعطونا خيلا وزحافات ثلجية.

وفي البداية حدثنا قوميسار كتيبة هندسة الالغام نفسه، كيف ان جنوده قد عززوا، تحت نيران القصف، تحصينات البرزخ، ومن ثم نادى على واحد من احسن جنود الهندسة، وهو من القومية الكازاخية، متوسط القامة وفتى انيق في الخامسة والعشرين من عمره، وذو وجه انثوي جميل ولكنه احول. لقد جاء يمشي وبرجله جزمة نظيفة لامعة، وعليه قمصلة مع حمالة، وبدون ملابس خارجية. وعندما سألوه الا يشعر بالبرد، اجاب: "ولا بأي شكل من الاشكال" . لقد تكلم بلغة روسية، ولكن بلكنة شديدة، عن مشاركاته في المعارك، واكد، لسبب خاص، على اهمية ان تكون في ظروف القتال، بملابس خفيفة، وان تزحف بين الصخور لا بالمعطف بل بالصدرية. وقد نطق كلمة صدرية "بوبايكا" وليس "فوفايكا" الروسية. اما عن نفسه فأنه كان يتكلم بضمير الجمع: "أمرنا"، "ذهبنا" "نفذنا الأمر"؛ وعلى الرغم من انه كان شابا جيدا وشجاعا، وان كل ماتحدث عنه كان حقيقة صادقة

وناصعة تماما، فأنني كدت لا امسك نفسي عدة مرات عن الابتسام عندما كان ينطق "بوبايكا" واستعماله بالكلام ضمير الجمع*.

وبعد الحديث الذي دار في الملجأ لدى رجال الهندسة، جلسنا في الزحافة وذهبنا الى امام. وصعد بنا الطريق الى الجبل، ولكن الحصان كان يركض بقوة اكبر. وميزة الطرق هنا هي انها مجاري انهار ايضا. وفي فصل الشتاء تغمرها الثلوج مرة، وتكشف الرياح مرة اخرى عن قعرها الصخري الذي تزحف عليه اخشاب الزحافة بصرير وصريف.

وسرنا مرة على الصخور واخرى في مياه ضحلة، ومن ثم عودة اخرى الى الصخور. واضطررنا مرتين للنزول من الزحافة وحملناها في سيرنا عبر الانهر الجبلية السريعة. واشتد الصقيع، وصرنا ننزل من الزحافة بين آونة واخرى للركض من اجل تسخين الارجل المتجمدة والمبللة في اثناء عبور المياه.

وبعد قليل من الصعود الى الاعلى هنا، اختفت كل النباتات. ويمكن لتفاصيل واحدة ان تقدم التصور عن مدى قسوة الطبيعة هنا. فبمحاذاة الطريق امتد متواصلا خط

---

* انظر الملحق.

اسلاك للهاتف معلق على اعمدة. ولأجل ان لا تنتزع الريح المحلية هذه الاعمدة من الارض ولا تكسرها، فأنها قد احيطت حتى منتصف طولها باهرامات من الصخور.

وقبيل حلول المساء مباشرة وصلنا الى المكان المعين منهكين يسحقنا البرد. وقد امضينا نهارا كاملا تقريبا في قطع مسافة لا تزيد على ١٢-١٣ كيلومترا.

ان البلدة المنتجع الفلندي السابق هي منظر طبيعي خلاب حفظته في ذاكرتي حتى الوقت الراهن، على نقيض جميع ما رأيته في شبهي الجزيرتين. فالماء رمادي غامق، بل واسود تقريبا. وعلى هذا الماء الاسود زوارق طوربيد عند الرصيف الصغير الذي هو بلون الحديد. وفي مكان بعيد جدا، فوق الماء الاسود، يلوح للعين الساحل الفلندي. اما من الخلف ، على شبه الجزيرة، فالجبال البيضاء، تماما في كل مكان وهي مغطاة بالثلوج، وفي وسط هذا المنظر الثلجي عشرون بيتا فلنديا صغيرا نظيفا وجميلا تشبه بعضها البعض، بلونها الآجري الفاقع، والأطر البيضاء لنوافذها وابوابها. انها بيوت متقنة صغيرة تشبه بيوت الدمى.

وكان الناس حتى اندلاع الحرب الفلندية يأتون الى هنا لمشاهدة الهالة القطبية الشمالية، ولصيد السمك والارانب. غير ان هذه المنطقة الصغيرة المنتجع، هي الان اقصى نقطة شمالية في الجبهة الجبارة، وان في واحد من هذه البيوت، يقيم مقر وحدة زوارق الطوربيد.

ويقود عمليات الزوارق هنا، ممثل مقر الاسطول، الملازم الاول مول، وهو انسان مرح، الى جانب كونه متحفظا وذكيا ومثقفا وعلى احساس ظريف بالنكته.

وحدثنا مول والبحارة الاخرون عن اخر عمليات الزوارق التي اغرقوا خلالها عند مخرج خليج بيتسامسك وفي الخليج نفسه عدة سفن نقل المانية.

وكنت من بعد ذلك قد كتبت حول هذا كله تحقيقا بعنوان "حديث البساطة مع بحر بارنيتس" الذي غيروه في رئاسة التحرير الى عنوان "الجرأة". وبالمناسبة، فأن ذلك العنوان الاول للتحقيق الصحفي، كان قد خطر ببالي بالضبط عندما كنت اتحادث مع مول.

والعدو الرئيسي لبحارة الزوارق هنا، ليس الالمان او الفلنديون بقدر ماهو الطقس الرهيب القاسي طول ايام السنة في هذه الاصقاع. انه لطقس لا يمكن فيه احيانا، لقوارب صغيرة سهلة الانقلاب، كزوارق الطوربيد ان تخرج الى عرض البحر.

- قال مول - اننا رغم ذلك نقوم بالخروج. ورغم ان بحر بارينتس يشدد بالمطالبة ان نعامله بضمير "الجمع" الا اننا مع ذلك نجازف احيانا، ونكلمه بضمير "المفرد".

وفي ذلك المساء، ثمنت عاليا البناء القوي للبيت الفلندي الصغير. فقد كانت الريح في الخارج متزايدة الهياج، ومع البحر عاصفة مرعبة، اما في البيت الصغير

فقد كان موجودا الدفء والضوء. وكان عامل اللاسلكي الجالس امام مفاتيح الجهاز، يرسل اشارات النداء من فترة لأخرى. وكان جميع الذين في الغرفة بحالة انذار: فأحد الزوارق قد خرج في مهمة خاصة، وساد القلق حوله، في مثل هذا الجو العاصف. ووجهت سؤالا الى مول، حول ما اذا كانت زوارق اخرى ستخرج اليوم، فقال ان واحدا منها سيذهب. وسألت مرة اخرى هل من الجائز ان اذهب معهم ولو مرة واحدة في عملية. واجابني بأن ذلك ممكن على العموم، بيد ان هذا الزورق سيذهب اليوم بالذات الى ذلك المكان الذي لا يجوز لي ان اذهب معهم اليه. وشرعت اتساءل لماذا وكيف. بيد أنني ادركت من الجواب الملتوي لمول، بأن الزورق سيذهب في مهمة خاصة كما يبدو ، ذات علاقة باستطلاع عميق ، فاحجمت عن مواصلة طرح الاسئلة.

ومن ثم وانا اتطلع الى الغرفة المجاورة، فهمت بأنني لم اخطىء، فقد جلس فيها خمسة عناصر من الاستطلاع البحري، ومن ضمنهم موتوفيلين. ومن بعد ذلك دلف الى الغرفة شخص ذو قامة جبارة ببدلة ملازم، وعرفت فيه انه واحد من الافراد المدنيين، كان قد دخل في وقت سابق امامي في غرفة عناصر الاستطلاع في مورمانسك.

اكل رجال الاستطلاع واستراحوا قبل المسيرة. ودقق مول مع جندي المخابرة باللاسلكي اخر المعلومات. وبعد ذلك قال احد الآمرين في البحرية : "اذن. حان الوقت"

وأدخل برأسه قبعة جلدية كبيرة خاصة برجال الطوربيد، وزرر المعطف العباءة بقوة، وخرج هو مع ملازم الاستطلاع وخمسة عناصر استطلاع تحت جنح الليل. وبقي مول والبحارة الآخرون.

وسرعان ماجاء قائد كتيبة المدفعية البحرية المرابطة غير بعيد، النقيب الذي قدم له الجميع التهاني بمناسبة تسلمه الان وسام الراية الحمراء. اما هذا الوسام فقد استحقه لكونه في اثناء القصف المستمر الذي قام به الالمان الذين استمكنوا الكتيبة، وصاروا يقصفونها بالذات، في ذلك الوقت الذي حاولت فيه السفن الالمانية المروق الى خليج بيتسامسك، لم يقطع النيران حتى ولو لدقيقة واحدة، حيث اقام مراحل دورية منقطعة النظير: وهي انه مادام عدد احد المدافع يطلقون النار، فأن اعداد جميع المدافع الاخرى تأخذ في الخنادق وضع الانبطاح. ومن بعد ذلك يبدأ عدد المدفع التالي باطلاق النار.. وهكذا باستمرار.

وبعد وصول النقيب، ظهر على المائدة كحول الاسبيرت الممزوج الماء، وسمك شبروتي، وبكمية ما تسنى لي اذ رأيتها من قبل، انها لم تكن علبة شبروتي، ولا اناء شبروتي، بل صحنا كاملا كبيرا من سمك شبروتي شغل ثلث مساحة المائدة. وبعد ما اكلنا سمك شبروتي كله، سقونا الكاكاو ايضا. ومن ثم جلسنا طويلا نتبادل الاحاديث.

وعندما خرجنا الى جناح البيت، كان الوقت في

الهزيع المطبق صمتا من الليل. وكان كل ما حولي سوادا حالكا وفوق البحر تعوي رياح رهيبة، بحيث انني، وبلا ارادة مني، سرحت افكر برجال الاستطلاع الذين ركبوا البحر على زورق قبل ساعتين. فالامواج في البحر لا تقل قوتها الان عن ثماني درجات، بينما هم ذهبوا بعيدا، اذ من المفروض، كما يبدو، انهم توجهوا الى النرويج. وقد ظهر فيما بعد ان الأمر كان هو هكذا في الواقع.

وبتنا ليلتنا لدى البحارة، وفي الصباح، بعدما صحونا، اكتشفنا، والدهشة تأخذنا، بأن سكان غرفتنا قد تضاعف عددهم خلال الليل. فعناصر الاستطلاع الذين اصابهم البلل والتعب والضنى، جاهدوا اربع ساعات في محاولة عقيمة للاقلاع عن الساحل، ولم يفلحوا فعادوا راجعين وناموا كالاموات.

وفي منتصف النهار، وبعد حديث اخر مع مول، تحركنا في الطريق عائدين، الى ان وصلنا قبيل حلول الليل الى مقر قيادة التحصينات بعد ان قطعنا نفس ذلك الطريق.

كان جهاز الراديو رديء الالتقاط جدا بسبب رداءة الاحوال الجوية، ومع ذلك استطاعوا في التوجيه السياسي، التقاط مقاطع من نشرة الانباء، التي اذاعوا فيها مختلف الانباء الجديدة التي تثير الفزع عن موسكو. وكان يخيم شعور ثقيل، بسبب الانقطاع المخيف، وتعذر امكانية المشاركة في الاحداث الجارية هناك. ومثل هذا الاحساس لم يكن عندي وحدي. بل انه موجود لدى كل من كان هنا.

اذ توجد هنا حرب وجبهة، ولكنه يبدو ان موسكو عندما تكون بخطر في هذه الايام، فأننا كلنا نكون خارج القضية الاساسية، عندما لا نكون هناك الان في ضواحي موسكو.

واضطجعت على سرير نومي العلوي في التجويف الذي تحت السقف. وفي هذا الجو من الاحساس الحزين الذي كان مسيطرا على قلبي، بصدد الانقطاع عن موسكو، نظمت قصيدة بعنوان "النجمة الحمراء" ومن بعد ذلك نشرت هذه القصيدة بأسم "صوت الابناء البعيدين". وان هذه القصيدة قطعت طريقا طويلا قبل أن تصل الى رئاسة التحرير. ففي البداية بعثوا بها في مظروف على زورق بخاري، ومن ثم وعلى متن هذا الزورق البخاري نفسه، نقلوها الى مورمانسك، ومن هناك اخذوها الى دائرة برق الجيش، وبعد ثلاثة ايام او اربعة فقط وجدت القصيدة المرسلة برقيا نفسها في موسكو.

لقد كنت قد انتهيت من نظم هذه القصيدة في جوف الليل. ومن بعد ذلك خرجت استنشق الهواء تحت الصقيع. وكانت الرياح قوية، وتسلل البرد حتى العظام، ومع ذلك فلم أشعر برغبة بالعودة الى الملجأ. وفوق رأسي كانت تلوح منيرة الهالة القطبية الشمالية وكأنها واقفة. ولكنها في الواقع لم تكن واقفة، بل تتراكض في كل اتجاه من الافق، وفي بعض الاحيان تتحول الى مايشبه الجسر السماوي المتصل.

وبقيت بعد ذلك اتجول طويلا واتخبط في الثلوج كمحاولة لأطرد عن نفسي جميع الافكار الحزينة التي لم استطع التملص منها طول المساء بعد سماعنا نشرة الانباء.

وفي الصباح، بعدما اعدت النظر في ترتيب كتاباتي، اتصلت هاتفيا مع مول، الذي قال لي، بأن الجو اذا ماتحسن حتى منتصف النهار، مع الأخذ بنظر الاعتبار ذلك في الليل، فأنهم سيذهبون في عملية يمكن ان يأخذوني معهم بها.

وظللت أنتظر النداء الهاتفي من البحارة حتى الساعة الثالثة. وفي الساعة الثالثة اتصلوا هم هاتفيا وقالوا بأن الجو لا يسمح بالخروج في الزورق، حتى في هذا اليوم.

وبعدها جاء الى شابونين مسرعا، القوميسار القديم لفوج المدفعية الثقيلة، دميتري ايفانوفيتش يريمين. ورغم انني يجب أن أقر بأنه لم يعجبني منذ النظرة الاولى، الا اننا قد تصادقنا معه فيما بعد. وما كاد يدخل على شابونين، حتى فهمت بأن هؤلاء الناس الذين يسكنون متجاورين منذ زمن بعيد وفي منطقة واحدة، يعرفون بمنتهى الدقة، ليس الحاجات الاقتصادية التي تخصهم فحسب، بل والتي تخص غيرهم، وكذلك جميع نواقصهم واخطائهم.

ومن خلال احاديثهم، يلوح الاحساس بالضجر الناجم عن

حياة الثكنات العسكرية الطويلة في آخر العالم، هذا الضجر الذي لم تستطع حتى الحرب ان تجتثه منهم نهائيا.
انهما كانا شخصين ظريفين من نوع خاص، ويبدو انهما تحدثا لبعضهما البعض عن اشياء بعينها عشرات المرات.

تكلم يريمين مع شابونين، واقترح علينا انا وزيلما، ان نتوجه اليه في الفوج، من اجل تبادل الحديث في هذا اليوم، ثم الذهاب غدا الى مواقع المدفعية التي تطلق منها القذائف.

وسرعان ما تهيأنا ونزلنا مع يريمين في الاخدود الذي كانت تنتظره فيه السيارة. ومما اثار استغرابي ان سائق السيارة كان ابن يريمين نفسه.

- قال يريمين مشيرا الى ابنه عندما جلسنا في السيارة وتحركنا - انتم تعرفون ماهي القضية. انه ينبغي تكليفه طول الوقت. فما ان يجلبوا الفودكا في الزورق البخاري، والى ان يشحنوها في السيارة، وتنظر اليها تجدها وقد نقصت! وفي الوقت الراهن، ما ان يصل تعيين الفودكا للفوج، حتى ارسل اكثر الأشخاص ثقة، وهو ابني في هذه الحالة، فهو يتسلم حصة الفودكا وهو ينقلها الى المخازن بدون اي تسرب في قواريرها، فتصوروا ذلك.

وبعد عشرين دقيقة وصلنا الى تحت، الى شاطيء البحر نفسه. وعبر سلم ضيق صغير نزلنا الى ملجأ يريمين. ولم يكن ذلك مجرد ملجأ، بل قاعة كاملة من غرفتين. وكانت

الغرفة الاولى على طراز مكتب عمل كامل، اي مناضد عمل مع المصابيح المغطاة بالمظلات الخضراء. اما الغرفة الثانية فهي غرفة سكن خالصة، وكان فيها سريران واريكة جلدية كبيرة ، وجدت نفسها صدفة تحت الارض.

وتحدثنا قليلا مع يريمين عن الاحداث التي جرت في الفوج خلال الاشهر الاربعة الاولى من الحرب. ومن ثم، ومن حسن حظنا ، دخل عليه، عريف في الاستطلاع، ذو مهارة الاستدلال بالصوت. وهو قد عاد لتوه من المستشفى لاثبات الحضور. انه رجل ضخم الجثة ، ويكاد رأسه يصل الى سقف الملجأ الذي هو مرتفع اصلا. وكان وجهه طفوليا، اما يداه اللتان كان يحمل بهما رقية غير كبيرة فكانتا تبدوان وكأنما تمسكان بتفاحة.

وعندما تحدثت معه، بدأ يروي اشياء لاتكاد تصدق تقريبا. ولكن بهدوء عجيب وبتلك الثقة الطفولية التي لولاها لما كان من الممكن ان اصدق اي واحد منها مهما كان، كما صدقته. وبعد ان مرت عدة اشهر على ذلك، سمعت في احد الاجتماعات بالقرب من ستالينغراد، كلمة العقيد اوتفينكو الذي عندما قال، بأنه يجب ان تكون لدى الحرس اعصاب، سمكها سمك الاصبع، تذكرت بصورة لا ارادية، دانيلوف* هذا.

---

* انظر الملحق.

وبعد خروج دانيلوف، حضر امام يريمين حالا، العريف بوكين "شاعر شبه جزيرة ريباتشي"، حسبما وصفه يريمين لي. وكان هذا شابا نشيطا، ويبدو انه انهى تعليمه المتوسط وقرأ كثيرا. لقد وقف بحالة الاستعداد المتميز بالشموخ، وحتى بشيء من الاناقة التي يتميز بها اولئك الذين لم يدخل بعد الاستعداد التدريبي عندهم في اللحم والدم بل يتذكرون دائما بأن عليهم ان يتصرفوا بحالة استعداد تام.

تحدثت معه، ومن بعد ذلك تهامس كل من بوكين ويريمين في الزاوية حول شيء ما وخرج. غير ان يريمين بدأ يشكو بعد خروج بوكين من ان شابونين يريد ان يأخذ بوكين هذا عنده.

- قال - ان بوكين هو لنا، فلماذا نعطيه؟

واتضح من حديث تال، أن فوج المدفعية كان من السكان القدامى، ان جاز هذا التعبير، لهذه المنطقة، وان كل مايقع تحت يديه، هو ملك له. فمثلا المطبعة هي مطبعته، والجريدة جريدته، والشاعر شاعره، والمصور مصوره، والنادي ناديه، وحتى الممتلكات الاضافية الاقتصادية هي ملكه من بقر وخنانيص. ويدور الان في شبه الجزيرة صراع جبار: فأن يريمين قام بمحاولات مستميتة لأن تظل جميع ممتلكات الفوج في ايدي فوجهم، الا ان شابونين يسعى من اجل تحويل بعض من ثروة المدفعية الى ملك مشترك.

وكان بوكين يؤيد وجهة النظر هذه، بصورة خاصة. وقال يريمين عنه بأنه "شاعرنا المدفعي"، ولكن شابونين اراد ان يعطيه لقب موجه سياسي ويأخذه عنده في قسم التوجيه السياسي.

ويبدو ان الهمس مابين بوكين ويريمين دار حول فكرة ظهرت عندهما بصدد عقد اجتماع، وبحضوري، في هيئة تحرير جريدة الفوج، والتحدث الى الشعراء الناشئين في شبه جزيرة ريباتشي وسريدني، الذين كان بوكين الشاعر المجلي بينهم. وانني بطبيعة الحال وافقت على ذلك. وقد طلب يريمين من جندي المخابرة على الهاتف ان يستدعي فورا كل من له صلة بالشعر من رجال المدفعية في كافة النقاط على شبهي الجزيرتين.

وبتنا ليلتنا في الملجأ، الا ان يريمين ظل يغمغم قبل النوم مدة طويلة، ويبدي الاسف لكوننا لم نكن هنا من قبل هذا الحين. فما اروع ماكان عليه النادي الذي كان هنا، والذي هو الان قد صار حطاما بعد قصفه بالقنابل، وما اكمل التجهيزات التي كانت فيه هناك، وما ابهى القاعة ذات الثلاثمئة مقعد!.

ولم يرجع آمر الفوج الرائد ريكليس من نقطة الرصد للمبيت، رغم انتظارنا الطويل له، بينما جاء في وقت متأخر من الليل، النقيب تيودين رئيس مقر الفوج، وتمدد على سريره المرتفع ذي المرتبتين من الريش، الذي قال يريمين عنه ساخرا ان تيودين رغم ان بيته قد

قضى عليه القصف قضاء تاما، الا انه انقذ ما يشكل بالنسبة له ضرورة حيوية، هما المرتبتان من الريش اللتان هما الان موجودتان هنا في الملجأ.

وعندما استيقظنا في الساعة الثامنة صباحا كان الظلام مايزال شديدا. ونادى يريمين على مرافقه، وقال له حسب تعبيره، بأنه من الجيد لو ان "تتدبر خنوصا" حتى المساء. ومن بعد ذلك انطلقنا في الطريق.

ومنذ الصباح ، هاج عندي وجع شديد في ضرسي . واستمر الوجع يعذبني عذابا شديدا حتى نهاية هذه السفرة. وقمت بمضمضة اسناني بالفودكا، وتحركنا مع يريمين الى مواقع المدفعية. ولقد ذهبنا في سيارة شحن ذات ثلاثة محاور، ومع ذلك فأن الطريق كان غير صالح للمرور تقريبا حتى على هذه السيارة نفسها.

واجتزنا البرزخ الى شبه جزيرة ريباتشي. وكان الطريق الى هناك صخريا يمر عبر منخفضات موحلة واسعة. وعبر احد هذه المنخفضات، انطلقنا بأقصى سرعة، ولكن المنخفض كان عميقا جدا، بحيث ان المياه قد غطت عجلات الشاحنة، فتوقف المحرك من اثر الماء، وصرنا محاصرين في حوض الشاحنة، والماء من حولنا وكأننا في جزيرة. وبعد نصف ساعة، سحبونا بشكل من الاشكال الى الخلف بواسطة جرارة.

وقال يريمين، يبدو اننا يجب ان نواصل السير لا بسيارة الشحن، بل بواسطة زورق بخاري. ثم ذهبنا الى

مستشفى ميدان تحت الارض يقع غير بعيد عنا. والى ان اتصل يريمين هاتفيا، مستدعيا زورقا بحاريا، قمنا مع الطبيب بتفقد الردهات كلها واحدة بعد اخرى.

ان من الواجب الاعتراف بفضل رجال الهندسة والصحة. فكل شيء هنا كان مبنيا بناء محكما وجيدا جدا. فقد كانت الجدران والجسور الخشبية قد قطعت من الاشجار الجيدة. بحيث صار نفسه يعد مأثرة، اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان ريباتشي لاتنبت، فيها اية شجرة. اما من السطح فقد صفت عليه الصخور، وجرى تمويهه بحيث انه لا يرى من الجو بتاتا ومن الارض وحتى من على بعد ٣٠ مترا تقريبا. وفي مستشفى الميدان دهليز عام يربط غرفة الاستقبال والتضميد والعمليات وردهة الجرحى الذين اصابتهم شديدة. وبهذا فأنه يمكن عمل كل مايجب عمله مع مثل هؤلاء المصابين دون اخراجهم الى الهواء.

ولعل هذا المستشفى العسكري، كان من حيث بناؤه، المستشفى الوحيد من نوعه هنا في الشمال، ان الاخلاء من ريباتشي وسريدني، والعودة من الارض الكبيرة الى هنا، كانت مصحوبة بصعوبات هائلة. ان هذه حقيقة. وتأخذ الكثير من الوقت والجهد، وخاصة في فصلي الخريف والشتاء، عندما تتعطل الاتصالات اسابيع كاملة مع القارة بسبب رداءة الاحوال الجوية، وان هذا المستشفى الميداني، بعكس مافي امثاله، يبقون فيه كل من يستطيع العودة الى الخدمة العسكرية فيها بعد الشفاء. ومن

بينهم حتى امثال اولئك الذين ينبغي لعلاجهم مدة ثلاثة اشهر. وبسبب ذلك فأن هذا المستشفى الميداني الذي كان يخدم حامية عسكرية غير كبيرة كان يحتوي على مئتي سرير دائم.

أن الطبيب الذي قادني ليطلعني باعتزاز على ردهات المستشفى، واحدة بعد اخرى، عاد في نهاية المطاف معي الى غرفة استقبال المرضى وقال:

- ها نحن نرى الان شيئا مثيرا.

وفتح نافذة خشبية تقف وراءها نافذة زجاجية، واقترح علي ان انظر من خلالها. في الوهلة الاولى من النظر ارتددت الى الخلف، ولم ادرك الا فيما بعد، ان النافذة تطل على قاعة العمليات، وان طاولة العمليات تقف على مستوى النافذة تماما. اما ذلك الذي رأيته قريبا من الزجاج جدا، فهي رِجْل انسان تجري منها الدماء ومتهرئة من الركبة الى الورك تقريبا.

قال الطبيب بارتياح وهو يتملى هذه الرِجْل:

- سيقومون الان بتضميدها. انها حادثة نادرة. فقد انقذنا نحن هذه الرِجْل باعجوبة. انظر اليها كيف هي الان بحالة جيدة.

واقشعر جلدي من هذه "الحالة الجيدة" بسبب عدم التعود، بينما واصل الطبيب، وهو يشير امامي الى هذه الرِجْل التي تستلقي على طاولة العمليات، كلامه بحبور يقول:

- انظر اليها كيف هي الان . انها وردية اللون .
اما عندما جاؤا به، فقد كانت سوداء كلها . وان اللون
الوردي يعني انها ستكون على مايرام. لقد استأصلوا
التعفن. وانه حادث مثير جدا. انظر اليها كيف انها
تبدو بشكل رائع.

لقد تحدث عن هذه الرِجْل ، وكأنه يتحدث عن نتاج
فني. وكان في كلامه ذلك الولع المهني الطاغي، بحيث
انني بعدما تجاوزت الصدمة الاولى ، بقيت انظر طويلا
الى هذه الرِجْل "البديعة".

عند هذا انتهت الجولة التفقدية،وهنا بالذات اوحى
لي الشيطان فشكوت للطبيب من وجع هاج في ضرسي.
ونصحني يريمين وزيلما، بذلك النوع من الاستخفاف
المعروف عن الاشخاص الذين لا يشكون هم انفسهم من وجع
الاسنان، بل الذي يشكو من ذلك هو غيرهم، ان اراجع الان
بالذات، وهنا فورا، طبيب الاسنان. ولم يبق امامي الا
ان اعرض نفسي عليه.

من الواضح انني املك شيئا من الحدس، اذ قد
ارتجفت حالما رأيت الفتاة ذات العشرين عاما، التي
امتدحوها لي طبيبة للاسنان. فانها لم يعجبني فيها ما
رأيت على وجهها من الخلو التام لسيماء الحزم والاصرار
اللذين يتناقض انعدامهما مع مهنتها مباشرة.

وقادتني البنت الى غرفة صغيرة، معزولة عن غرفة
الفحص بستارة فقط، واجلستني على مقعد، ونادت على

عامل التنظيف الذي جاء وهو يحمل قنديلا يعمل بالنفط في يده.

وخلال دقيقة من بعدما، فتحت فمي، اتضح ان ضرسي المريض بحاجة الى قلع، وقامت البنت باختيار الكلابات المناسبة لذلك، واستعدت للعمل. ولاحت الان في عينيها بدلا من التخاذل، سيماء العزم والاستعداد لكل شيء. واصطكت الكلاليب، واذا بنصف ضرسي يصبح مكسورا. واصطكت الكلاليب مرة اخرى، وصار النصف الثاني منه مكسورا ايضا. وتم بهذه الحال،انجاز نصف العمل، وبقي فقط اخراج الجزء الاسفل الثاني مني، او الجذر على حد تعبيرها. وفي البداية، جربت هي اخراج الجذر بواسطة الكلاليب، ومن ثم جلبت آلة تشبه بشكل ما، يد مطرقة حديدية صغيرة، مخصصة لقلع المسامير. وهنا احسست ان حالتي سيئة، ونظرت الى الساعة، فكان الوقت الساعة العاشرة صباحا. ولم يكن ذلك عبثا، حيث لم انهض من على المقعد الا في الساعة الحادية عشرة.

ولو كنت لم اطلع من قبل هذه الحالة، على المستشفى بصفة مراسل جريدة "كراسنايا زفيوزدا "- (النجمة الحمراء- المترجم) لكان من المحتمل ان ازعق واهرب، ولكنه الان مع وجود كادر المستشفى الطبي خلف الستارة بغرفة المعاينة، وهم يصغون بانتباه الى ما يجري هنا، فان الهرب صار متأخرا، اما الصراخ فانه لا ينسجم مع "وقار مراسلنا الخاص".

وفي الساعة العاشرة والثلث، كنت قد رأيت كيف ارتجف القنديل في يد عامل النظافة الذي ينير الضوء للعملية. ومن الواضح انه صار ليس في مقدوره رؤية العذاب الذي اعانيه، فالتفت الى الجدار. وفي الساعة العاشرة والنصف، استندت البنت بركبتيها الى بطني، وانتزعت مني كسرة عظم، وارتني اياها فورا:
- هذا هو جذرك.
- وسألتها متنفسا بارتياح - هل انتهى؟
- قالت - كلا، ان هذا جذر واحد، ولديك هنا جذر آخر.
- قلت - حسنااعطيكم نصف ساعة اخرى، واذا لا تستطيعون في خلال نصف ساعة خلعه، فليظل عندي برعاية الله.

وفي الساعة الحادية عشرة تماما، اعادت هذه الالة في فمي، وحسب ظني انها صارت تعمل الآن بدون مبالاة، ورغم ذلك لم تستطع انتزاع الجذر الثاني من مكانه، فتهاوت خائرة القوى على المقعد الى جانبي مسندة رأسها الى الجدار. وكان وجهها شاحبا، وعيونها مغمضة الى النصف. وخشية من كونها صارت بحالة متردية اخذت كوب الماء من يد عامل النظافة وقدمته لها. فشربت وشكرت.
- وعندما خرجت، سألني يريمين وزيلبا اللذان قابلاني - والآن كيف الحال؟
اجبت لا بأس. بيد ان تعابير وجهي لم تكن لتتفق

باي شكل من الاشكال، مع جوابي، وذلك لان يريمين الذي يعرف، مثل غالبية الشماليين، علاجا واحدا لكل الاوجاع، سحبني فورا الى غرفة رئيس الاطباء وسكب لي اسبيرت. وبالفعل فان هذا قد مارس تأثيره منذ بداية الدقائق الاولى.

وفي هذه الاثناء وصل نداء هاتفي يفيد ان الزورق البخاري قد توجه الينا. فتحركنا لنواصل الطريق.

في ريباتشي يحدث المد والجزر. وعندما خرجنا من المستشفى كانت ظاهرة المد قد بدأت والمياه اخذت ترتفع في الحال: ولهذا فالصخور الناتئة من تحت الماء اكواما، كانت تعرقل وصول الزورق البخاري الى المكان الذي كنا قد نزلنا فيه،وقام سائق الزورق، بانزال زورق صغير، الا ان هذا الزورق الصغير لم يستطع ايضا الاقتراب من الشاطىء، بل انه اقترب من لسان صخري طويل، امتد بعيدا في البحر ولم ينغمر بالماء بعد. وكان ينبغي السير عليه مسافة خمسمئة متر للوصول الى الزورق الصغير. وبدأ الماء يتسرب الى هذا اللسان الصخري، غير ان الصخور كانت ما تزال ناتئة به في كل مكان، بحيث يمكن الوصول الى الزورق الصغير بالقفز من صخرة الى اخرى.

ولكنه بعد مئة متر، اتضح بأننا لم ندرس جيدا اندفاع المد، اذ قطعنا فقط نصف اللسان الصخري، واذا بنا كالمسيح نمشي في البحر مباشرة، ناظرين تحت

اقدامنا ومتحسسين موقع الصخور واحدة بعد اخرى. واخيرا وبعد جهد منهك وبلل كامل بالماء، وصلنا الى الزورق الصغير بصورة من الصور.

كان المد يصفع الزورق الصغير بالصخور. ثم يسير مرة بحرية واخرى يجنح بين الصخور. ومن بعد ذلك صرنا ننزل مرة اخرى بالماء ونقف به حتى الحزام لدفع الزورق الصغير نحو الماء العميق. ومن الزورق الصغير انتقلنا الى الزورق البخاري الذي وصلنا على متنه اخيرا الى ذلك المكان الموجود على الساحل الذي يمكن منه الذهاب مسافة اقرب بالبر الى مواقع المدفعية.

لقد قطعنا حوالي كيلو متر واحد نقفز من صخرة الى اخرى وليس هذا بدون زلل احيانا باقدامنا، وبالاخير وصلنا الى المدافع التي كانت تقف خلف منحدر لجبل صخري شاهق كانت ترى من على قمته جميع المواقع الالمانية، التي ليست على البرزخ، بين شبه جزيرة سريدني والقارة فحسب، بل والتي الى اعمق من ذلك، حتى تيتوفكا نفسها. وكما تبين، فانه بفضل المراقبة الدقيقة لهذه البطارية بالذات، من على قمة هذا الجبل، تم قبل ايام تدمير طائرتين برمائيتين المانيتين، هبطتا على بعد ١٢ كيلومترا من هذا المكان في مياه خليج تيتوفسك.

وبعد ان تسلم يريمين التقارير الاعتيادية، تسلمت البطارية من فوق، من نقطة المراقبة، امرا باطلاق النار فبدأت المدفعية الثقيلة عيار - ١٥٢ ملليمتر القريبة

منا باطلاق النار.

ان افراد المدفعية متعودون على هذا الدوي. اما نحن الذين على بعد خمسة عشر- عشرين مترا من المدافع فنجفل عند انفجار كل اطلاقة، ومن ثم بدأت احس وكأن الاذنين قد حشيتا عندي بالقطن حتى الصمم.

واستطاع زيلما التقاط بعض الصور الفوتوغرافية، وبعد ذلك صعدنا الى فوق نحو نقطة المراقبة. وهي تبدو عند النظر اليها مباشرة ليست شديدة البعد او الارتفاع، غير اننا عبر ذلك الدرب الوحيد، الذي كان من الممكن التحرك فوقه، صار طول هذا الطريق الذي قطعناه حوالي ٥ كيلومترات في الجبل.

وعندما صرت على بعد نصف كيلومتر عن البطارية، تلفت الى الوراء، فرأيت ان المدافع كانت قد موهت بشكل جيد، بحيث انها رغم الضخامة الكبيرة لها، لم يكن من الممكن تمييزها من هنا الا بصعوبة كبيرة، اجل، وحتى بالنسبة لذلك الذي له علم مسبق باماكن وجودها بالذات.

كان المنظر متجهما موحشا في كل مكان، ومليئا باكوام الصخور، مع عدم وجود طرق تماما. وعند التطلع الى هذا المنظر، تذكرت عدة مرات، ذلك الليل الذي نقلوا خلاله هذه المعدات الثقيلة عبر الجبال من مواقع الى اخرى، بكل ما تيسر من انواع المواصلات واغلبها بواسطة الأيدي، واستطاعوا بذلك انقاذ شبهي الجزيرتين كلتيهما.

واستغرق صعودنا لهذه الكيلومترات الخمسة اكثر من ساعتين. وفي بعض الاماكن كان قسم من الدروب قد تلاشى تماما. وكان تسلق الجبل طويلا وصعبا، بحيث اني سرعان ما شعرت بالحر مع السير، وانا ارتدي سترتي الجلدية. بيد انه رب ضارة نافعة: فاننا في منتصف الطريق على الأقل بدأنا ننسى تماما كوننا تصببنا عرقا، بل وصار يبدو لنا، بان كل ما كان يغطينا من ملابس قد بدأت تجف علينا.

وبدا لنا عدة مرات، ان اعلى ذروة هي هذه التي وصلنا اليها فنتسلقها، ولكننا نرى ان من بعدها تظهر لنا قمة اخرة جديدة، الى ان وصلنا اخيرا الى مقر القيادة وكان هذا المقر عبارة عن هضبة غير كبيرة في اعلى مكان في الجبل. وهي مساحة ملساء منحوتة من الصخر على شكل منضدة، ابعادها ١٠٠ متر × ١٠٠ متر تقريبا. وفوق هذه المنضدة الصخرية، ترقد هنا وهناك، اكوام طبيعية من الصخور، كان من الصعوبة تمييزها عن كومين مصنوعين من الصخور، هما المكانان لمقر القيادة ومركز المراقبة المخفيين في الصخور. واستقر مقر القيادة في اسفل الصخرة قليلا، اما نقطة المراقبة فهي على بعد ١٠٠ متر من مقر القيادة في سفح الصخرة نفسها وراء ساتر غير كبير من الصخور.

وفي البداية دخلنا مقر القيادة، حيث قالوا لنا هناك، بان آمر الكتيبة الملازم الاول سكروبوف موجود في

مركز المراقبة. وعلى بعد عدة امتار اعلى من مقر القيادة يصبح كل شيء هنا مرئيا من الجانب الالماني. ولهذا فاننا قبل ان نواصل سيرنا، ارتدينا فوق ملابسنا، اردية بيضاء، وقفازات بيضاء، وقبعات بيضاء، وكذلك فان المدير المحلي لمقر الكتيبة لم ينس تذكيرنا بوجوب اخفاء المناظير واجهزة التصوير الفوتوغرافي، تحت اردیتنا. وكان من الواضح جدا ان نظام التمويه يطبق في كل مكان هنا على ارفع مستوى مطلوب.

وبالمناسبة القول، ان التمويه عندنا ليس مطبقا تطبيقا ناجحا في كل مكان. ولا يعود ذلك الى ان الناس لا يدركون مغزى نظام التمويه، بل انه يعود الى التظاهر الكاذب بالشجاعة الذي يدفع الناس احيانا الى تجاهل التمويه، خشية ان يؤخذ حذرهم من قبل الاخرين مأخذ الجبن. ولكنه يبدو انهم في هذه الكتيبة، هنا لدى سكروبوف، قد ترفعوا عن هذا التصور للشجاعة. وموهوا انفسهم باحسن الاشكال واكثرها دقة، ولا يريدون ان يصبحوا مضطرين باي حال من الاحوال الى تغيير مركز المراقبة الذي هو في احسن مكان موجود على المنطقة.

وعندما وصلنا الى هذا المركز، رأينا انه مثل غيره الكثير هنا، ليس ملجأ محفورا بالارض، بل ملجأ صغير جدا مقام من الصخور فوق الارض، وفيه كوتان، واحدة للمرصد واخرى للناظور. وفي الملجأ، استقبلنا الملازم الاول سكروبوف، وهو شخص طويل القامة ذو وجه ضخم،

وعسكري ذكي، ولديه نظرة ثاقبة. وقدم نفسه الى يريمين، وبدأ يعطيه تقريرا مفصلا عن احداث اليوم، واخبره عن جميع ما لوحظ في ذلك اليوم، وعن اصغر تحركات الالمان. ومن خلال كلامه يمكن الاحساس، بولع الصيد لدى الانسان الذي درس هنا كل مرتفع من الارض، وصار له مدة طويلة وهو يتصيد الالمان يوميا، بحيث ان هذا قد تحول لديه الى ضرورة وليس الى عادة فقط.

وعندما كنا عند المدافع هناك في الاسفل، ظهر ان بطارية المدافع كانت قد قصفت واحدا من المنخفضات على الطريق المتفرع من شارع بيتامسك الى البرزخ. وفي هذا المنخفض كانت قد تجمعت عدة سيارات المانية، وحوالي عشرين او ثلاثين عربة تجرها الخيول. وكانت قد اشتعلت فيها النيران من اول رشقة، وذلك لان المنخفض كان مرصودا بدقة تامة مع التصحيحات على ضوء ظروف مستجدات المناخ، وكثيرا ما يحدث مثل هذا في المواقع الحربية.

وعرض علينا سكروبوف ان ننظر من خلال المرصد النقاط المرصودة لمواقع الالمان. ومن ثم ارانا هذا المنخفض الذي جرى قصفه قبل قليل. ولكننا بقينا مندهشين من شيء واحد فقط، وهو كيف انه يعرف بكل هذه الدقة، كل هذه المناظر المتشابهة المتجهمة. وكيف يميز منخفضا صغيرا عن آخر مثله، في تلك الاماكن التي يبدو انه من غير الممكن ان تميزه عين الانسان. ومع ذلك

فانه كان يرى كل شيء، بل وحتى عرض علينا نقاطا اسودت فوق الثلج للخيول والناس الذين قتلوا، ولم يتوفر للالمان الوقت بعد لاخلائهم من المنخفض. ولكون عيوني غير حادة النظر بشكل خاص، فانني لم الاحظ تلك النقاط، ولكن يريمين وزيلما من بعده، اكدا دقة مراقبة سكروبوف.

اثار سكروبوف اعجابي. فانه قدم تقريرا الى قوميسار الفوج بهدوء تام وصورة عملية، ولم يكن عنده اي ظل من التزلف امام يريمين. ويمكن الادراك بأن هذا الانسان، ينفذ تماما، الواجب الملقى على عاتقه. ولهذا بالذات يبدو هو على مثل هذا الهدوء التام امام الرئاسة.

وبعد ان حدثني سكروبوف عن نشاطات كتيبته، وبشيء ما عن نفسه، وبعد ان سجلت ذلك كله في دفتر الملاحظات، بدأ يتحدث مع يريمين حول مختلف المواضيع الخاصة بالخدمة العسكرية. اما انا فقد جلست قليلا على غلاف جهاز الرصد. ولأول مرة، بدأ وجع الضرس يغادرني منذ وقت هياجه، وبدأ النعاس يسيطر علي، بحيث انني غفوت متكئا على الصخور الجليدية وانا جائع واشعر بالبرد، ولكني سعيد لان اى احد لم يزعجني، واستطيع ان انام بضع دقائق.

وعدنا من مركز المراقبة راجعين الى مقر القيادة. واعدوا لنا هناك غداء من كفتة اللحم الذي جلبوه الى

هنا من الاسفل، من تحت الجبل، بنفس الطريق الذي صعدنا عليه، وهو في قدور معزولة الحرارة - ترموس - محمولة على الظهر. وان هذا لا بأس به في هذا الجو المقبول قليلا او كثيرا في هذا اليوم، بيد ان هذه المهمة، تعتبر في الجو العاصف والزوابع الثلجية مهمة ثقيلة جدا. اما عدد مثل هذه الايام التي تكون فيها العواصف والزوابع الثلجية هائجة، فقد يصل هنا الى مئتين من الايام في السنة تقريبا.

وفي اثناء الغداء، تحدثنا قليلا ايضا مع سكروبوف، الذي اعطى لنا وثائق بطاريته المدفعية، التي وثقها في ظروف هذا الملجأ، على ورق يكاد يكون كورق الرسم الهندسي، بالاقلام الملونة والحبر الصيني، وبدقة لم يسمع بمثلها.

لقد كان هذا الانسان عصاميا حقا، وواحدا من بسطاء خريجي الجيش الاحمر الذي وصل حتى ذلك الحين الى رتبة ملازم اول. وهو كان يحفظ في داخله شعورا كبيرا باحترام الذات الذي هو امر غير مستغرب لدى الانسان الذي صنع كل شيء في حياته، بيديه تماما. فهو كان قد انهى المدرسة الثانوية بامتحان خارجي، ومن ثم دخل الى المدرسة العسكرية. وكان هو كبير الرأس واسع الجبين وذا عينين هادئتين منتبهتين. وجال بخاطري آنذاك، ان امثال هؤلاء الناس، يشقون دائما بايديهم الطريق لانفسهم. وبالذات، فان امثال هؤلاء الناس، وحتى في

الزمن القديم، وحتى في المناطق النائية، قد ارتقوا الى رتبة جنرال.

وبعد ذهاب سكروبوف، بقينا جالسين مدة نصف ساعة اخرى نتدفأ في الملجا قبل مبارحة المكان. وفي هذه الاثناء حملني زيلما على قراءة بعض القصائد الشعرية امام رجال المدفعية المجتمعين في الملجأ ومن بينها قصيدة " انتظريني ".

وفي خلال اقل من نصف ساعة نزلنا الى اسفل الجبل. وعندما خيم الظلام واشتدت رياح البحر شعرنا هناك، تحت فقط، الى اي مدى كنا نرتجف من البرد. فقد كانت اسناني تصطك، بحيث انها لا تقف منطبقة على بعضها البعض. والارجل متجمدة كالحديد ويكويها البرد. اما الملابس الداخلية المتجمدة فقد تخشبت. ولكن دميتري ايفانوفيتش يريمين استدار نحوي وقال فجأة:

- خنوص.

- سألته مرتبكا- اي خنوص؟

- هناك عندنا سيكون خنوص. ومع الخضرة. انك ما ان تتذكر ذلك حتى تجد وكأن البرد ليس على هذه الدرجة من القسوة. أليس كذلك؟

ابتسمت انا بصورة لا ارادية، ووافقت بأن الامر هو كما يراه.

وصلنا الى الشاطىء عندما خيم الظلام الدامس. ومشينا بين الصخور كثيرا، وتعثرنا وسقطنا، ثم اخيرا

نادينا على الزورق الصغير بالصفير والصياح. وفي حوالي اقل من ساعة من بعد ذلك، وصلنا الى ملجأ يريمين في شبه جزيرة سريدني، وبالفعل، فقد كان هناك على المائدة، يربض خنوص مع الخضرة في فمه، بحيث ظننت ان ألم ضرسي توقف مدة دقيقة كما بدا لي.

وفي اليوم التالي، انتقلنا انا وزيلما في الصباح الباكر، من يريمين الى حرس الحدود، حيث يقع مقرهم الى تحت، عند البحر نفسه، وكان الصخر هنا اكثر استجابة للحفر مما في شبه الجزيرة كلها، الامر الذي ساعد حرس الحدود في الحفر بالارض. وكان هؤلاء قد بعثوا في عشية هذا اليوم ايضا بقوة استطلاع كبيرة الى الخطوط الامامية في البرزخ. ومن المقرر ان تمر القوة هذه، من خلال مواقعنا الى مؤخرة الالمان، في هذا الليل.

وتعارفنا في مقر الفصيل مع قوميسار المفرزة فيلاتوف، ومع الآمر الرائد كالينيكوف. وانني لم التق. لا من قبل ولا من بعد، الا نادرا مع واحد من شاكلة هذا الانسان الفريد من نوعه. انه شخص ضخم الجسم جدا، ومتجهم وكان قد تجاوز مرحلة الشباب، وهو يبدو للعين في الخامسة والاربعين من عمره، وشعره اشيب ووجهه واسع كبير ملفوح. وهو قليل الحركة بعادته وجلس في مكان واحد وراء مكتبة في الغرفة.

كان كريما جدا وبسخاء متميز. وعلى مكتبه تسطرت

عدة علب للسيكاير، وفوق الرف، تقف قنينة كحول، ولم يكن بالمستطاع، الامتناع عن التدخين او الشرب امام ذلك الالحاح، المصحوب بذلك اللطف والكرم والود التي يدعو بها. فقد كان يسكب الكحول بيديه في الاقداح، بينما ابقى لنفسه القدح الاكبر الازرق المطعم، الا اننا عندما بدأنا نقرع الانخاب، اتضح ان الرائد يقرع نخبا من الحليب لانه لا يشرب غير الحليب. وكذلك فانه لا يدخن ايضا.

لقد كان انسانا مرحا، ومحدثا بارعا، وجليسا مريحا حول المائدة. وهو متوازن طول الوقت، سواء في اثناء الاحاديث الودية، او في وقت الكلام مع المرؤوسين في شؤون العمل، وكذلك فانه في وقت العمليات الحربية، كان، كما ذكروا لي، محبوبا لدى جميع افراد المفرزة لهدوئه الرزين، وتركيزه، وحسن تدبيره غير المتسرع بصورة خاصة. وان مثل هذه الطبيعة التي لديه، لابد وانها كانت قد تشكلت عنده في المخافر الحدودية التي خدم فيها مدة عشرين عاما متواصلة تقريبا على الحدود البولونية والرومانية، ومن ثم هنا في اقصى الشمال. ان الحياة في دائرة منعزلة، لحامية صغيرة، مع القاء القبض على المتجاوزين باستمرار، والتوتر الدائم، والعمل المضني، ان هذا كله هو الذي جعل منه، كما يبدو، بهذا الهدوء وعدم التسرع بالذات، بحيث يبدو وكأنه اعتاد على كل شيء، وليس لديه ما يثير دهشته.

اما كونه مرح النفس، فيبدو ان هذا هبة له من الطبيعة.

وقبيل السفر تماما، عرفت صدفة من قوميسار المفرزة، ان لدى الرائد كولينيكوف اسرة ماتت باكراينيا في بداية الحرب. غير انه نفسه لم يفتح فمه بأية كلمة ولا بأي حديث عن ذلك ابدا.

وبقيت انا وزيلما عند حرس الحدود يومين او ثلاثة ايام. ولم يقع من حيث المفهوم الحربي، اي حدث متميز بجوارنا خلال هذه الايام، باستثناء غارة جوية قوية، جرت لسوء الحظ، في نفس الوقت الذي كانوا يفرغون فيه على رصيف الميناء، المواد التموينية التي جلبوها ليلا. وفي خلال الغارة سقط حوالي عشرين شخصا بين قتيل وجريح. وسقطت قنابل بالقرب من ملاجيء حرس الحدود. وان اثنين من هذه الملاجيء كانا فارغين، لحسن الحظ، في اثناء الغارة، فقد تهدما تحت انفجارات القنابل التي سقطت عليها مباشرة.

كان الملجأ الذي نقيم به يهتز من انفجارات القنابل، والتراب ينثال علينا من خلال الدعامات الخشبية. واستمر ذلك مدة عشرين دقيقة، ومن ثم اخذت الحياة الاعتيادية مجراها السابق في المفرزة.

وانتظرنا عودة القوة التي ذهبت الى مؤخرة الالمان. غير ان احداثا قد وقعت ليلا في اول تلك الايام، فصرفت انتباهي عن هذا الانتظار.

فقد حمل الزورق الذي كنا قد وصلنا عليه، اثنين من الفدائيين النرويجيين، الى شبه جزيرة ريباتشي. وسلموهم الى حرس الحدود. ورغبت في ان اتحدث معهما. ولأجل ذلك رجوت المساعدة من كالينيكوف.

وجاء الى الملجأ في البداية واحد فقط من هؤلاء الاثنين. وكان هذا، كما يسمونه هنا "روسي نرويجي"، شابا يافعا في السادسة والعشرين من عمره. ولغته الام كانت اللغة النرويجية ولكنه، وهو في ذلك شأنه شأن ابيه وجده، كان قد عاش في روسيا بفايد - غوب، في اقصى الشمال الغربي من طرف ريباتشي. وقد خدم عندنا في الاسطول، وارسل الى النرويج مع مجموعة غير كبيرة، مؤلفة من خمسة او ستة اشخاص. من عناصر استطلاعنا البحري. اما عما جرى خلال الاسبوعين الأخيرين، فقد تحدث لي والى كالينيكوف بلغة روسية اكثر من سليمة ولكنها بلكنة شديدة.

ان واحدة من مجموعاتنا التخريبية عملت ضد الالمان بين نارفيك وكيركينس. وكان لديها محطة ارسال، مرتبطة بالفدائيين النرويجيين، الذين اشتغلوا باعمال الاستطلاع، اكثر من عملهم في العمليات التخريبية. وقبل ثلاثة ايام كانت هذه المجموعة مع بعض النرويجيين - ومن بينهم اثنان من صيادي السمك ومعلم عجوز - قد هوجمت من قبل الالمان في بيت صغير على شاطىء المحيط. وبعد التحام بالسلاح الابيض، استشهد ثلاثة افراد،

وبينهم قائد المجموعة، اما الاخرون فقد انسحبوا الى الخلف نحو الجبال، اي الى المكان الذي توجد به محطة الارسال اللاسلكي.

ومن بعد ذلك وصل محدثنا ومعه المعلم العجوز، الى بلدة لصيد الاسماك، واخذا منها زورقا ووصلا به الى شبه جزيرة ديباتشي وسط عاصفة هوجاء، بعد ان ادمى يديه في التجذيف قاطعا مسافة ستين ميلا.

لقد تحدث عن هذا، وعن كل شيء بتفاصيل تحفر لها مكانا بالذاكرة. ومن بينها على سبيل المثال، ذكر ان قائد المجموعة الذي قتل، وكان اصلع الرأس وبلحية شقراء نمت خلال اسبوع من التجوال، قد تم تشخيصه فيما بعد، بفضل هذه العلامات، من قبل الصيادين الذين وصلوا الى مكان المعركة.

ان هذا الراوية الشاب والمعلم العجوز، قد جاءا كلاهما الى شبه جزيرة ريباتشي، لأجل ان ينقلا الى هنا كل المعلومات المتجمعة خلال الاسبوعيين الاخيرين، عن تحركات المواصلات الالمانية والقطعات العسكرية، وعن الاماكن التي تحط بها الطائرات الالمانية. وبصدد انهما قد ابحرا بزورق صغير في مثل هذا البحر الهائج، وقطعا مسافة ستين ميلا بالمجاذيف دون ان يغرقا، فان ذلك يجب ان يعتبر معجزة. وفي الواقع، فاننا يجب ان نضيف الى ذلك، انهما كلاهما كانا من النرويج، اي انهما ولدا بحارين.

وما يزال يطن في اذني حديثه ذلك حتى الان. بكل ما فيه من تفاصيل واشياء صغيرة، بما في ذلك صوته، والخصوصية التامة لاسلوب كلامه، عندما تكلم، وهو جالس بصدريته القديمة المشبعة بالملح، وهو متربع فوق سرير كالينيكوف، عن كل هذا، بلهجته النرويجية القوية، وكان يكرر بعد كل عبارة تقريبا شتيمة تخرج جميلة من فمه جدا وهي: "اللعنة عليهم".

انني لا اريد الان ان اعيد مرة اخرى كتابة كل ما حدثنا به في ذلك المساء، لان كل ذلك، سبق واوجزته بدقة تامة في قصة بعنوان "فوق صخور النرويج". واتذكر كم حز بقلبي الاسى عندما كتبت هذه القصة، ان وجدت نفسي مضطرا الى ان ارمز عن وعي لبعض الاشياء فيها، والى ان اسميها قصة، لان هذا التاريخ سيبدو اكثر متعة لو ان القارىء استطاع ان يعرف انه حقيقة، وليس فيه اي خيال.

وبعد ما تحدثنا مع هذا الفتى، ذهب ومن ثم عاد هو والعجوز النرويجي معلم المدرسة. وكان هذا العجوز رجلا غير طويل القامة، ويبدو من اول نظرة انه ضعيف البنية. بيد انه في الواقع، انيق في كل شيء، وقوي البنية عريض المنكبين. وكان بنظارة معدنية قديمة، ويتكلم بلا استعجال وبهدوء ورغبة. انه تحدث عن الايام الاخيرة لاستقلال النرويج، وعن كيف كانوا يحرسون في نارفيك، وكيف انهم لو كان الامر بيدهم، لما خرجوا من هناك.

وتكلم كثيرا عن ملك النرويج الذي عرفه معرفة شخصية في احد الايام، وتكلم بصورة اكثر من ذلك ايضا عن الرعاة، الذين هم حسب رأيه، كانوا احدى الدعامات الرئيسية للحركة المعادية لالمانيا في النرويج.

ان في معلم المدرسة العجوز، وفي احترامه للملك، وللرعاة، وللنمط القومي للحياة، يستشف كل النظام الابوي لهذه البلاد الشمالية وكل عاداتها النبيلة، وكل متانة تقاليدها وميولها.

واتذكر انني عندما كنت اصغي اليه، دار في ذهني، ان بالنسبة لمثل هؤلاء الناس بالذات الذين يبدون وكأنهم غير مقاتلين، يكون وجود الالمان امرا لا يطاق، فان امثال هؤلاء، لا يصبرون على هذا الوجود ابدا، وان حياتهم كلها تعيش فقط على الايمان في ان كل ذلك سينتهي، وان الملك موجود في انكلترا، والجيش موجود، وان الضباط النرويجيين صاروا يبحرون من هناك وسيواصلون الابحار، وانه ستحين قريبا ساعة تحرير النرويج. وقد اثار هذا العجوز فينا نحن الروس عواطف روحية عميقة جدا، بسبب انه بالذات، كان يرى بأننا لابد وان نشترك في المستقبل في تحرير بلاده النرويج.

لقد تحدثنا مع هذين النرويجين، المساء بطوله. وعلى الرغم من ان كل شيء كان يبدو بغاية البساطة والاعتياد من حيث المظهر الخارجي، الا ان انفاس الرومانسية قد لفحتني بشكل لا يحدث مثله كثيرا في

الحرب. وكان السبب في ذلك، هؤلاء الناس انفسهم، وقصتهم، وكون هذا الحديث قد دار في اقصى زاوية من العالم. وفي الخارج وراء جدران الملجأ كانت تزأر في وقت واحد العاصفة والزوبعة الثلجية. وان هذا كله بمجموعه يحدث بلا انقطاع، بعيدا عن موسكو...

مر اليوم كله في احاديث عن جولات الاستطلاع السابقة مع الافراد من هذه المفرزة من حرس الحدود. وكنت استفسر عن هذه العمليات القتالية، بينما انا لا املك هيئة بعيدة كل البعد عن الهيئة القتالية. وان وجع الضرس لم يتركني ولو لدقيقة واحدة، بينما زودني كالينيكوف الخدوم جدا بكيس مطاطي للماء الحار، كان بقي معه منذ زمن الحرب الفلندية، ضمن ما لديه من احتياطات. وكنت امسك بهذا الكيس طول النهار مشدودا الى خدي بعد ان اعيد ملأه بالماء الحار لكي لا يبرد.

وقبيل المساء خيم في الملجأ جو اكثر فزعا. فان كلا من كالينيكوف وفيلاتوف كان ينتظر بفارغ صبر انباء عن فصيلهما الذي عبر الى مؤخرة الالمان. وان حرس الحدود، يجب ان يخرجوا اليوم في الساعة الواحدة ليلا عائدين الى مواقعنا، اذا كان قد جرى كل شيء بنجاح هناك في مؤخرة الالمان.

وجلست قبالة كالينيكوف الذي كان يتطلع الى جهاز الهاتف ويرتشف حليبه الذي لا يتبدل عندما رن جرس الهاتف في الساعة الثانية ليلا بالضبط. فمن الحجابات

الامامية، وعبر محطة وسطية، اخبروا ان عناصر الاستطلاع خرجوا عائدين الى خط الجبهة.

وبعد ساعة ونصف وصل على الخيل اثنان من آمرى القوة العائدة، متجمدين ومحتقنين من البرد. وصب كالينيكوف فورا لكل منهما قدحا مملوءا من الفودكا، ومن بعد ذلك فقد بدأ يستمع الى روايتهما. وكانت الفودكا قد جاءت في وقتها، لانهما كانا متجمدين من البرد بل وحتى كادا ان يفقدا الوعي تقريبا. وقد تحدثا بحمية، مقاطعين احدهما الاخر، ولكن بمنطق وتفصيل على العموم، ومن ثم بدون اضاعة لجوهر الموضوع، وهو الامر الرئيسي في وسط التفاصيل.

ويجب القول ان القصص عن هذه العملية الاستطلاعية كانت حجر المحك بالنسبة لي بصفتي صحفيا. فعلى ضوئها كان يمكن متابعة كيف ان الناس يتحدثون عما عانوه فورا، من بعد ساعة، او من بعد عدة ساعات او بعد يوم واحد. وفي خلال هذا الليل والنهار التالي قمت بعمل دؤوب، حيث استجوبت خلال ذلك، حوالي ثلاثين من الذين شاركوا في هذه العملية خلف الخطوط الالمانية، مستفسرا عما جرى وكيف جرى ذلك. وكنت قد كتبت بيدي على لسانهم حوالي ثمانين صفحة، كانت قد افادتني كمادة للتحقيق الصحفي "في الطريق الى بيتسامو".

ولكن القضية ليست في كيفية استطاعتي استخدام هذه القصص في التحقيق الصحفي، بل في كيفية استطاعتي بهذه

المرة ان اتتبع حالات تحوير القصة نفسها، عن نفس الحدث الواحد. وان هذا التحوير لا يجرى عن سوء قصد، بل هو مرهون ببساطة، بالقانون النفسي. وان هذا التحوير يبدأ من روايات الناس الذين وصلوا توا بأول المعلومات، وهم ما يزالون متجمدين من البرد ويرتجفون من الانفعال، وينتهي بروايات الناس بعد يوم من وصولهم، والناس الذين شبعوا من النوم، والذين يستحمون بالحمام، والأهم من ذلك، باحاديث المتكلمين ما بينهم بالتفصيل، اؤلئك الذين كونوا لهم وجهة نظر مشتركة حول ما جرى بصورة لا ارادية.

انني اتذكر ذلك، يوم ان ادركته لاول مرة. غير اني نبهت نفسي الى ان الروايات التي يتسنى لي سماعها مستقبلا بصورة مباشرة من مصدرها الرئيسي، بعد الحدث مباشرة، لا تتميز بالصدق الكبير فحسب، بل وبكمية وافرة من المواقف الحية غير المفتعلة. وانني عندما اعثر على مثل هذه القصة، فانني اسعى فيما بعد، لانقل نقلا حرفيا تقريبا كل ما حدثني به ذلك الانسان.

وفي مثل هذه الحالات تنتفي الحاجة هناك لأي افتعال مهما كان، وانما تبقى الحاجة فقط الى القدرة على ترتيب ذلك الموضوع الذي سمعته.*

---

* انظر الملحق.

اعود الآن الى الرواية.

ان هذين الآمرين ما كادا يلحقان في ان يرويا نتائج الحملة، وانهم عادوا بسلام، وان الجسر قد تم نسفه. والخسارة في ذلك شخصان، حتى تهاويا على الدكة وناما كالاموات. لقد استشهد شخصان فقط، وهو ليس كثيرا بالنسبة لمثل هذه العملية، غير ان كالينيكوف قد انسحق عليهما انسحاقا كبيرا خلال الليل. فانه، كما هو معروف عنه بصفته آمر حرس حدود، يعرفهما شخصيا بالاسم واللقب، ويعرفهما بالشكل، وذكر القوميسار الذي انتقل الى المفرزة قبل مدة قصيرة وهو يتحدث عنهما، ذكره بمظهرهما الذي يبدوان به: "اجل ان هذا هو ذلك الاشقر الذي في وجهه نمش. اما الاخر، فهو ذلك الشاب الاسمر الطويل الذي يتسم بالانضباط وهو يضلع في مشيته. ألا تتذكر."

جرتني كلمات كالينيكوف، ودفعتني للتفكير حول حرس الحدود، ولماذا حاربوا منذ اول بداية الحرب بهذا الشكل الجيد وبهذا الثبات. ان تفسير ذلك كما اظن، يعود، والى حد كبير، الى ان الآمرين في قوات الحدود بالذات يعرفون مقاتليهم معرفة جيدة، فالانسان يعرف انه بالنسبة لآمره، ليس مجرد مقاتل بالسرية كذا، بل هو ايضا ترافيم ايفانوفيتش ايفانوف، وانه لو قتل، فان آمره سيعرف ان في السرية قد قتل ترافيم ايفانوفيتش ايفانوف. وسيتذكره كيف كان، وحول اي شيء تكلم معه.

ان هذه هي اللحظة الجوهرية التي تخلق الشعور الجوابي الذي هو حب الأمر والثقة به.

وبقيت طول اليوم التالي اكتب قصص المشاركين في الحملة، وتعبت عند نهاية النهار تعب الكلب. وتوقفت يدى عن الحركة تماما، لكثرة ما انبغي عليها ان تكتب.

واقترب موعد عودتنا من ريباتشي الى القارة. وبقي لنا ان نسافر ليوم واحد الى موقع اللواء المرابط على سلسلة جبل موستا- تونتوري نفسها. وخرجنا متجهين الى هناك في الصباح الباكر من اليوم التالي، مع ڤيلاتوف الذي كان من المفروض ان يقابل هناك من بقي من حرس الحدود الذين لم يعودوا بعد الى المفرزة. وقد اعدوا لنا زحافة وزوجا من الخيل القوية جدا لسحبنا في طريق الزحافات الى اللواء.

كان الجو رائعا حسب مقاييس ريباتشي باستثناء تساقط ثلج خفيف. واضافة الى ذلك فقد حالفنا الحظ في ان الالمان لم يطلقوا في هذه المرة حتى ولا طلقة واحدة، على هذا الطريق الذي توجد عدة اجزاء منه في مدى المراقبة واطلاق النار.

ووصلنا الى اللواء بعد ساعتين. وكان مقر قيادة اللواء ونقطة المراقبة، على سفح قمة صخرية. وكان اليوم عاديا. وجرى تبادل قليل لاطلاق نيران لمدفعية، ولنيران الرشاشات احيانا. ان اكثر العمليات الفعالة اراقة للدماء الغزيرة هي تلك التي تجري بمخافر

الحراسة ليلا. فهناك يتخندق الالمان وجنودنا واحدا عن الاخر على بعد مرمى قنبلة يدوية، ولهذا فان الصدامات تحدث في كل ليلة.

ويمكن القول على كل حال، ان اكثر جميع العمليات فعالية، ليست تلك التي تقع في البرزخ فقط بل، وتلك التي تقع في قواطع الاطراف الشمالية الاخرى من الجبهة، وهي ذات صلة بنفس الوقت، مع نشاطات فصائل الاستطلاع البعيد، وهي في ايام الهدوء بالذات تنزل بالالمان اكبر الخسائر المؤثرة. ان هذا هو الانطباع الذي تكون عندي على الاقل.

وفي هذا اللواء كتبت عدة قصص شيقة عن العمليات الليلية على سفوح جبال موستا - تونتوري، وقد تقابلت خاصة ، مع انسان رائع هو العريف دانيلوف الذي كتبت تفاصيل قصته مع قصة سمية الآخر دانيلوف بلواء يريمين، ومن ثم خرج ذلك في تحقيق صحفي بعنوان "ذوو لقب واحد"، بل ان هذا التحقيق كله على الاصح، كان قد تألف من هذين النصين المتشابهين المختزلين مع زيادة من قبل الكاتب لبعض الوصف عن الطبيعة.*

وسنحت لي فرصة الحديث مع قوميسار اللواء. وكان ذلك من المفارقات العجيبة كل الغرابة. فان شبه جزيرة ريباتشي

---

* انظر الملحق.

وموستا- تونتوري هما اقصى نقطة شمالية من الجبهة، والقوميسار المعين للواء قبل قليل كوجو خميتوف من قدامى الخيالة، هو انسان يبدو بوضوح انه من الجنوب، وبشرته برونزية من الشمس، ولهجته مثيرة ومضحكة عندما يشرح باللغة الروسية.

كان الظلام قد خيم عندما عدنا من اللواء، ولما رجعنا الى المفرزة عند كالينيكوف، اتضح انه وقعت مأساة خلال النهار، اثناء فترة المد في الخليج. فان قوة من الاستطلاع البحري التي كانت قد امرت ان تنقل الى القارة باقصى سرعة ممكنة، اؤلئك النرويجيين اللذين وصلا الى اوزيرسك على قاربهما، وهما يحملان معلومات هامة، لم تنتظر حلول ظلام الليل الدامس. ولاحظت المدفعية الالمانية في رأس بيكشويف ذلك، ففتحت نيرانها على عناصر القوة. ولم يكن امام العناصر من مهرب سوى التقدم الى امام. وهكذا ساروا الى ان اصابتهم عدة قنابل، فاندفعوا نحو الصخور. وقتل خلال ذلك قائد الزورق وجرح بعض الافراد، وتسللوا بصورة من الصور من خلال الصخور الى الشاطىء.

وفتحت المدفعية الثقيلة نيرانها من ريباتشي نحو رأس بيكشويف واسكتت المدفعية الالمانية، الا ان ذلك تم بعد فوات الاوان.

وفي هذا الليل اقلع زورق بخاري نحو القارة، فتهيأت لنا انا وزيلما فرصة العودة عليه.

كانت بداية امسية الوداع غير موفقة. فقد قرر يريمين ان نغتسل انا وزيلها. واغتسلنا فعلا عنده في طست، ومن ثم ذهبنا اليه لنتدفأ عنده في الملجأ. وقد تركنا في منزع الحمام كيس المتاع، بما فيه الملابس الداخلية التي خلعناها عن اجسامنا، على ان نأخذه فيما بعد. ولكننا لم نشاهد تلك الملابس الداخلية مرة اخرى وحتى الان. فاننا عندما كنا نتدفأ عند يريمين وقعت غارة جوية المانية وقصفت الحمام والمنزع. وطارت البقايا البائسة للفانيلة الصوفية المناسبة لي جدا في مثل هذه الظروف كما هي عليه هنا في الشمال، لتتشابك بصورة مثيرة للضحك مع اسلاك الهاتف.

وقمنا نطيب الخواطر، بأننا سعداء الحظ الان، حيث اننا لم نتأخر في الحمام مدة خمس عشرة دقيقة اخرى.

وقبل السفر اجتمعنا في الملجأ عند كالينيكوف لتناول العشاء قبل الوداع. وما عدا كالينيكوف وفيلاتوف، كان هناك يريمين والرائد ريكليس آمر فوج المدفعية، الذي صادف ان لا اتعارف معه الا في هذا المساء الاخير.

وفي ذلك المساء بالذات كان قد روى لي الحادث الذي وقع له ولواحد من مرؤسيه، هو ابن صديق قديم له. وكان ذلك الحادث قد صار عندي، الاساس الذي ارسيت عليه قصيدتي "ابن المدفعي".

وظهر ان ريكليس محدث بارع. وادلى كالينيكوف

بد لوه في رواية احداث مختلفة من حياة حرس الحدود. ولم نبق انا وزيلها في موقف المتفرجين بهذا الميدان. وعلى العموم فانه لم يبق لنا ما نقوله حتى الساعة الثانية ليلا، حيث حل موعد خروجنا الى متن الزورق البخارى في وسط الزوبعة الثلجية. وقام فيلاتوف بمرافقتنا حتى رصيف الميناء. وفي قمرة الزورق الصغيرة، حشرنا انفسنا، ان هذه القمرة هي العنبر وهي كل شيء في العالم. وهيأ زيلها له مكانا في الاسفل: اما انا فقد ملأت الكيس بالماء الحار مرة اخرى، وتمددت واضعا خدى عليه فوق الرف العلوي الذي هو تحت سقف القمرة .

تقاذفتنا الامواج في هذه المرة بشدة اكبر في البحر. ووصلت شدة الامواج الى ثماني درجات، بحيث كادت تقذف الى الخارج بالناس الذين كانوا في الزورق البخاري. ولكني ما كنت احس بهذا كله بسبب الوجع الشديد الذي كنت احس به في ضرسي . وبقيت انا هكذا دون ان يغمض لي جفن او اتذكر شيئا من امراض البحر، اعد الساعات والدقائق متى اعود الى مورمانسك.

ونزلنا في مورمانسك في مساء اليوم التالي، وتوجهت من رصيف الميناء مباشرة الى المستوصف نحو طبيب الاسنان الذي استطاع اخيرا ان ينتزع جذر الضرس اللعين من فكي.

وهكذا انتهت رحلتنا الى شبهي جزيرتي ريباتشي

وسريدني.

وفي اليوم التالي لوصولنا مررت على الاستطلاع البحري لرؤية الرائد ليودين. ولما وصلت اليه، كان هو كالعادة، مشغولا بعملين في وقت واحد: كان يغني بصوت واطيء لحن آريو لغريمان، ولكن بكامل المقاطع، ويكتب كذلك للمرة الثالثة طلبا يرجو فيه نقله الى المشاة في الجبهة الغربية. وهو في ذلك مثل كثيرين غيره في الشمال، لا يستقر له قرار بكل ما في هذه الكلمة من معنى، من المعاناة العميقة من احداث تشرين الاول - اكتوبر، وتشرين الثاني - نوفمبر في ضواحي موسكو.

وبعد ان نفس ليودين عن روحه قليلا بالحديث عن موضوع موسكو، قال لي، بانه ستخرج غدا قوتان للاستطلاع مرة واحدة في مؤخرة الالمان. وانه سيقود واحدة منها، والثانية يقودها كاربوف. ومهمة استطلاع كاربوف يجب ان تستغرق اسبوعا او اسبوعا ونصف، اما بالنسبة الى ليودين فانها ليوم واحد. وهكذا فان امامنا عملية قصيرة في رأس بيكشويف، حيث يحتفظ الالمان بزوج من المدافع التي يطلقون منها النار على الخليج، فيحولون بذلك، دون مرور زوارقنا البخارية الى اوزيرسك في وضح النهار. وكان ذلك الزورق الذي اطلقت عليه النار قبل مغادرتنا من ريباتشي قد تعرض لقذائف هذين المدفعين.

وحسب قول ليودين، فانه ينبغي ان نعرف هل هناك حامية عسكرية في بيكشويف ام لا، واذا كانت موجودة،

فيجب القضاء عليها. وكذلك ينبغي معرفة ما اذا كانت المدافع الالمانية هناك صالحة ام لا، من بعد يومين من قصف مدفعيتنا لها. واذا كانت ما تزال سالمة فيجب تدميرها.

وكان ليودين يرى بان هذا كله هو عمل ليلة واحدة. وان هذا اغراني فورا بان ارجو من ليودين ان يأخذني معه.

وفكرت وبدون تردد معين، ان ميشكين بيرنشتين، لربما سوف لن يمانع في الذهاب في هذه العملية، ولهذا رجوت ايضا ان نأخذه معنا. وتشاور ليودين مع رئيس الاستطلاع فيزغين الذي وافق بدوره على ذلك. وفي ظرف نصف ساعة من ذلك، رجعت الى الفندق حيث يقوم زيلما وبيرنشتين بتحميض الافلام التي صوراها.

ولما قلت لميشكين انه ينبغي علينا معه ان نذهب في هذه العملية الاستطلاعية، لم يسأل الا عن أمر واحد، هو هل سنضطر الى الابحار مدة طويلة؟ وللحقيقة اقول انني لا أعرف ذلك على وجه الدقة، ولكنني، ولغرض تهدئته، قلت كلا، ليست طويلة.

- قال ميشكين - حسنا، اذا كانت ليست طويلة، فلا بأس.

بعد هذا ذهبنا الى رجال الاستطلاع الذين وعدوا بتزويدنا ببعض التجهيزات اللازمة. وظهر ان لميشكين ساقين سمينتين لم تدخلا في اية جزمة لبادية. وفي نهاية

المطاف تحتم شق عنق الجزمة اللبادية. وقررت انا الذهاب بالبسطال. واعطوا كل واحد منا معطفا ملبدا بالقطن وزوجا من السراويل القطنية. وعلى العموم، فقد تقرر بانه يجب علينا ان نذهب بملابس خفيفة، وذلك لانه ينبغي علينا ان نقطع مسافة اثني عشر او خمسة عشر كيلومترا مشيا بين السفوح، من مكان الانزال حتى بيكشويف.

انني لم اقترح على زيلما ان يشاركنا في هذه العملية، لانني لست على علم اية خطط اخرى لديه. وكذلك في نفس الوقت، ولمعرفتي الشخصية بطبيعته فقد حسبت بانني لو اقترح عليه ذلك، فانه سيذهب معنا بأية حال من الاحوال، حتى ولو كان ذلك ضد رغبته. وفيما بعد فقد ظهر انه قد استاء مني، لكوني لم اقترح عليه الذهاب معنا، والتزم الصمت وغضب لعدة ايام.

وفي الصباح التالي، جئنا الى مقر الاستطلاع ونحن مجهزون بكامل التجهيزات، اي بالقمصان الصوفية والصدريات الصوفية والسراويل القطنية. وجاء ميشكين مع مسدسه الخاص، اما انا فمع بارابيل (مدفع رشاش - المترجم). وباختصار فان منظرنا كان منظر مقاتلين تماما.

قال فيزغين، ليس ينبغي علينا ان نعطي كل ما لدينا من وثائق فحسب، بل وان نسجل عناويننا المنزلية تحسبا لكل الاحتمالات، وكذلك ان نكتب اضافة الى ذلك، ان

كانت لدينا رغبة بتوجيه وصايا الى اقربائنا. لقد رن ذلك كله بحزن عميق. ومع ذلك، وكما في كثير مما هو محزن في الحرب، فان لهذا كله كان جانبا مضحكا. فعندما استعجلت الرفض عن ثقة بانني ليس لا أكتب وصية فحسب. بل ولا أترك العنوان ايضا، قال لي فيزغين بامتعاض:

- ان ما تفعله خطأ على كل حال. فقد حصلت لدينا مشاكل من جراء ذلك. وللعلم فانه قتل هنا ملازم ثان، ولم يكن قد ترك له عنوانا. واننا بحثنا وبقينا نبحث، ورغم ذلك لم نفلح في ان نكتشف الى اين نرسل كل هذا.

ان الحزن الذي كان محسوسا في كلماته، ليس ناجما عن ان ملازما ثانيا قد قتل في الحرب، حيث ان هذا حادث اعتيادي جدا في الحرب، بقدر ما ان الاسى ناجم عن ان اي احد لم يستطع حتى الان ان يعرف الى اين ترسل حاجات الملازم المقتول التي تركها بعده.

- أبتسمت انا بلا قصد مني.

وسلمنا الوثائق، وتسلمنا الصرر التي تضم ملابس التمويه من القمصلات والسراويل واغطية الرأس والقفازات، وبقينا ننتظر بفارغ صبر.

كانت غلالات الثلج تتهافت فوق الخليج، والعاصفة الثلجية ترغي. اما "بركة" البحار الزورق البخاري الى بوليارنايا فانهم ما اعطوها ولم يعطوها. ولكن الامل، على كل حال، قد ظل قائما كالعادة، ان الجو سيعتدل، وانهم سيعطون "البركة"، ولهذا فاننا جلسنا في مقر

الاستطلاع، من الساعة الثامنة حتى الثانية عشرة في البداية، اي حتى موعد وجبة الغداء في الاسطول، ومن ثم بعد الغداء، اي حتى ذلك الوقت الذي اتضح فيه نهائيا بأن "البركة" لن تحصل.

والان بدأ الجانب المضحك من التسلم الاحتفالي للوثائق. فاننا تلزمنا العودة الى الفندق، وتبعا لذلك تلزمنا الوثائق، وما عدا ذلك، فنحن بحاجة الى ان نأكل ونشرب، وقد ينبغي ان نكون بحاجة الى نقود. واضطررنا الى ان نتسلم كلا من هذه وتلك.

وفي الفندق استقبلنا زيلها بابتسامة. واخذ هو وميشكين بتطهير لقطات الافلام. اما انا فعكفت على نظم الشعر. وقد نظمت في ذلك المساء قصيدة "احب ان اسميك زوجتي".

وفي صباح اليوم التالي تكررت تلك العملية نفسها التي جرت في صباح اليوم الفائت. فقد تسلمنا التجهيزات ولبسنا القمصلات والصدريات، وتسلحنا، وحضرنا في مقر الاستطلاع البحري، وسلمنا الوثائق، وتسلمنا صرر ملابس التمويه. ان الجو يبدو وكأنه اخذ يتحسن في الشارع، ولا يلاحظ ما ينبىء بعرقلة جديدة. ولكننا بعد ما انتظرنا اربع ساعات، تبين ان الجو حسن في مورمانسك، ولكننا لا نبحر الى بوليارنايا في هذا اليوم. فانهم هناك في بوليارنايا لا يعطون "البركة" للخروج من بوليارنايا الى عرض البحر.

وتناولنا الغداء وتسلمنا الوثائق والنقود ورجعنا الى غرفتنا في الفندق، حيث استقبلنا زيلما الضاحك كاستقباله لنا في الليلة الماضية.

وفي هذا المساء ناداني ميشكين على جهة وقال بهدوء، انه قد سأم من الجلوس في مورمانسك بدون اداء اي عمل، وان هذا قد يطول الى ما لا نهاية، وانه يقول للأمانة، ان هذه العملية الاستطلاعية حتى لو ذهب بها، فان من المشكوك فيه على الاطلاق، ان يتسنى له التقاط صور. وكان بالامكان موافقته على ذلك، لان الليالي كانت شديدة الظلام بل واني لاستغرب كيف لم يخطر هذا ببالي من قبل.

وكنت معه في مزاج سيء نفسيا، من جراء كوننا صار لنا يومان ونحن بحالة استعداد ونسلم الوثائق ثم نتسلمها. اما الامر الرئيسي، فهو انني كنت استيقظ كل صباح، وانا احس باننا سنذهب في هذا اليوم ليلا الى مؤخرة العدو، وهذا يعني اما سالك او هالك، غير ان هذا سوف لا يتضح على كل حال، الا غدا صباحا. ولم يكن من الصعب ان تقرر فورا وتذهب الى عملية استطلاعية، ولكنه عندما يجري تأجيلها من يوم لآخر، وينبغي عليك صباح كل يوم ان تتهيأ مرة اخرى للذهاب فيها، فان هذا يصبح امرا ثقيلا ولا تبقى طاقة للصبر، وذلك لانه خلاف العادة.

وبصورة عامة فانني وافقت ميشكين على استنتاجاته حول عدم وجود مغزى من ذهابه الى هناك في العملية.

- ولكنه سأل يقول - لربما انت ايضا لا تذهب.
ان هذا صار اقل جاذبية لي ايضا مما في اليوم الاول، غير اني قبل شهر مضى كنت قرعت الانخاب مع رجال الاستطلاع، واعطيتهم وعدا باني سارافقهم في احد الايام. والان عندما حانت مثل هذه الفرصة امامي، فانه لا يجوز تركها، ولو من اجل حفظ ماء الوجه.
وفي اليوم الثالث، سافر زيلما وبيرنشتين الى احدى الجهات لالتقاط صور لحيوانات الأيل التي تستخدمها الدوائر الصحية كدواب للنقل. اما انا فقد تهيأت مرة اخرى، وسلمت الوثائق مرة اخرى، وجلست في الاستطلاع ست ساعات مرة اخرى ، وتناولت غداء الاسطول وشربت فودكا الاسطول، وعلمت بانهم لا يعطون "البركة" للخروج الى عرض البحر. فتسلمت الوثائق مرة اخرى، وعدت الى الفندق حيث وجدت هناك في هذه المرة سحنتين باسمتين بدلا من واحدة.
وتكررت العملية نفسها لليوم الرابع، وهنا اقسمت مع نفسي، بأنني لن اذهب مطلقا لو تكرر كل هذا مرة اخرى، غدا السادس من تشرين الثاني - نوفمبر. فالانتظار قد سحقني: وصرت اشعر اني لا اريد الذهاب الى اي مكان.
وفي السادس من تشرين الثاني - نوفمبر، قالوا لنا نهارا بانه تم اخيرا تسليم "البركة" للخروج الى عرض المحيط.

كـان يـومـا دافئـا من ايام تشريـن الثـاني - نـوفمبر. وبرغم عواصف الثلج الرطب، فالرؤية كانت مقبولة. وعرجت في طريقي الى رصيف الميناء، على الفندق، حيث لم اجد فيه لا زيلما ولا بيرنشتين، فانهما قد ذهبا لالتقاط صور لجنود المدافع المضادة للطائرات، ولهذا فاني تركت لهما ورقة مكتوبة. وفي الاسفل كانت السيارة تطن بلا عجلة. وبعد خمس دقائق صرت على رصيف الميناء. وذهبنا الى بوليارنايا في زورق صغير عائد لمقر الاستطلاع. وكان الثلج يسقط على سطحه مما حملني مع فيزغين وليودين على النزول الى تحت في قمرة مضيئة دافئة وشرعنا نلعب الدومينو.

من الواجب تقدير البحارة حق قدرهم. فعندما تلعب مجموعة بحرية مولعة، فان احجار الدومينو تصف على المنضدة بنوع من الحماسة والضجيج يبدو عن بعد، وكأنه اشبه باصوات الاستعدادات المنبعثة من وسط مسرح للمدفعية.

ذهبنا بعد وصولنا الى بوليارنايا الى ملجأ للغواصات يسكنه بحارة من مجموعة مغاوير تخريبية، تتألف غالبيتها من رجال الغواصات المتطوعين. وهناك، تحت قيادة الربان الملازم الثاني اينزارتسيف، الذي هو واحد من احسن عناصر الاستطلاع واكثرهم خبرة، والانسان الغاضب الحزين والشديد كما يبدو، هيأ البحارة الاسلحة. فالقنابل اليدوية انتفخت في جيوب الصدريات او علقت في

سيور الاحزمة، وفرقعت المغاليق، وفحصت البنادق واخذ احتياطي من طلقات التنوير، وحزم متاع الطريق الذي كان يكفي لمدة ثلاثة ايام، رغم ان العملية كان يجب ان تجري خلال ليلة واحدة. وفحص الجندي المخابر جهاز اللاسلكي لاختبار قوة السمع.

واستمر هذا كله حوالي الساعة. ومن بعد ذلك عندما خيم الظلام تماما، اجتمعنا واصطففنا في فناء ملجأ الغواصات، ونحن نرتدي، اما اردية التمويه او معاطف التمويه القصيرة مع البنطلون.

وعلى عكس توقعاتي، فهنا لم ينطق اي احد بأي كلام مؤثر. ولربما ان ذلك، اما بسبب انه قيل من قبل او انه كان غريبا في هذه الدقيقة بالنسبة للناس الذين اختاروا الاستطلاع مهنة لهم. لقد صفونا وقسمونا الى مجموعتين وانطلقنا الى المرسى.

واننا منذ ان وقفنا في فناء ملجأ الغواصات، واصطففنا بهدوء هناك بارديتنا المموهة، خطر ببالي فجأة، باننا في خلال بضع ساعات سنكون هناك عند الالمان، بينما لا يعلم احد، سواء في كيركينس او بيتسامو، بأن في هذه الدقيقة، اصطف هنا في هذا الفناء، الفريق الذي سيهاجم هناك في المؤخرة.

ان سلما ضيقا امتد من المرسى المرتفع جدا الى الاسفل نحو سفينة صغيرة جدا، بدا وكأنه يمتد الى مكان مجهول في غيهب تحت الماء، ونزلت على هذا السلم نزولا

سيئا، ثم وضعت قدمي على متن زورق حربي بحري. وذهب اينزارتسليف في زورق حربي بحري اخر. وكان فيه ماعدا العشرين من عناصر الاستطلاع، ثلاثة هم ليودين وفيزغين الذي قرر بنفسه ان يأتي في هذه العملية، وانا الثالث الزائد كما يقال. واقلعنا من المرسى واستدرنا وسرنا باتجاه المخرج من خليج كولسك.

كان الجو قد تكشف وامسى على عكس مانريد. وغمغم ليودين وهو ينظر الى ساعته، بأنه كان من الواجب ارجاء هذه العملية الى ان يأخذ القمر بالتناقص. وبالفعل فقد كان الليل يبدو منيرا بشكل عجيب. كما انني لم اشاهد ليلا هنا بمثل هذه الاضاءة. فأن القمر كان يلقي بضوئه، بحيث انه يمكن ان تلمح على ضوئه انسانا على بعد مئتي خطوة فوق الثلج. ولكن ماهو زيادة على ذلك، ان الافق كله كان الى جانب القمر، مصبوغا بالهالة القطبية الشمالية.

وقد عبرت عن الاسف الشديد بصدد غياب ميشكين، الذي كان بالامكان ان يتيسر له التقاط بعض الصور في مثل هذا الليل المضيء بشكل عجيب.

ان الزورق الحربي البحري ، هو سفينة غير كبيرة، وعندما يجلس فيه عشرون شخصا باستثناء البحارة، فكيفما تحشرهم يظل المجال ضيقا بصورة عملية.

وسرنا نحن فوق امواج مناسبة. وكانت هذه الامواج تضرب متن الزورق. وبعد وقت قصير صار منقوعا بالماء.

ونـزلـت غـالبيـة قـوة الاستطلاع الى عنـبر الـزورق واستلقـوا هنـاك، واصـاب دوار البحـر الكثـيريـن منهـم حـتى نهـايـة الطريق. وان هذا كـان يجب ان يحدث، وليـس الموج وحده هـو السبـب في ذلـك فقـط، بـل ونقـص الهـواء النقـي.

قمت في اثر فيزغين وليودين خطوة بخطوة بـالانسلال تـدريجيـا الى كـابينـة القيـادة للربـان. وبقـي فـيزغـين هنـاك حـتى النهـايـة، خشيـة منـه اذا مـانـزل الى تحـت في الهـواء الخانق ان تـزداد حالته سوءا. وكـان هو (يتسمم) عند اقل ارجحـة للمـوج، وكـذلـك فـأن كـل خـروج لـه هنـا الى بحـر بـارينتسفـو الهـائـج يكـون تعـذيبـا بـالنسبـة لـه، بسبـب طبيعتـه البـدنيـة الخـاصـة. زد عـلى ذلـك انـه يتحـامـل عـلى نفسه ويكابر.

وقفنـا نحن الى جانـب ليوديـن. وانـه قـد اشتكـى مـن القمر، وضحك على سنوات عمره التي جاوزت مرحلة الشباب، وذكـر كيـف انه كـان يفـرح بـالقمـر في السنين السـابقـة، امـا الان فـأنه يؤنبه بصوت لعجوز اصيب بـالسعـال. وبـاختصـار فـأنه ثـرثـر حول كـل مـاجال في خـاطـره، بـاستثنـاء القضيـة التي امـامنـا. وانـي كنـت سعيـدا بـذلـك، لانـي لا يعجبني شخصيا ان استبق بالكلام عن ماذا سيحدث وكيف سيحدث.

وسلطوا ضوءا لاكتشاف الموج. فقد اشتد اضطراب البحـر. وعنـدمـا دخلنـا في خليج مـوتـوفسك، وصـل ارتفـاع المـوج الى اربـع او خمـس درجـات وهـذا لا يشكـل خطـرا بـالنسبـة لهذه السفينـة الصغـيرة كـزورق حـربي بحـري، ولكنـه

صار محسوسا جدا. وسرنا حوالي اربع ساعات. وفي الساعة العاشرة تقريبا تقدمنا بالقرب من الشاطيء الالماني. وكانت بتسامو تقع بعيدا عنا الى اليمين، ومن اليسار يقع نهر زابادنايا ليتسو ومواقعنا الامامية، اما على بعد اثني عشر كيلومترا عنا، فكان يلوح على صفحة الماء السوداء شبح لسان بيكشويف، الذي هو المكان المقرر الذي يجب ان نصل اليه. وبقيت من خلفنا ريباتشي التي ومض منها بين الشك واليقين، ضوء، فجأة لمصباح سيارة درجت من مكان بعيد.

ولم نستطع الرسو على الضفة الألمانية تماما، بسبب ضحالة الماء الكبيرة، ولظهور صخور ناتئة في كل مكان. وانزلنا في الماء زورقا على شكل طست، ومددنا لوحا خشبيا من متن الزورق الحربي البحري الى الزورق الطست، ومن هذا الطست مددنا لوحا خشبيا آخر نحو الصخور الساحلية. وفي نفس هذا الطست، الذي صار محطة تحويل قلقة، وقف فيزغين. وان اثنين من بحارة الزورق الحربي البحري عندما شاهدوا احد عناصر الاستطلاع يسقط في الماء، وهو يحاول الانتقال من الطست المتارجح الى لوح العبور الثاني، قررا تقديم المساعدة الى عناصر الاستطلاع الاخرين. فقد نزلا بالماء الجليدي، ووقفا فيه الى حد الحزام من جهتي لوح العبور، وصارا يأخذان بيد كل من ينزل من الاخرين، واحدا بعد آخر. فقد كانا يستقبلان عنصر الاستطلاع النازل ويقودانه حتى نهاية لوح

العبور. وما يتبقى بعد ذلك، فهو يعتمد على الخفة الخاصة. فمن كان باستطاعته القفز بصورة افضل، فأن ذلك يبلل نفسه حتى الركبة، واما من لم يستطع ذلك فأنه يغطس بالماء اعلى من الركبة بل وحتى الحزام. وقد ظهر انني ماكنت املك تلك الخفة مع الاسف. اما افاق المشي في الجبال والثلج والصقيع مسافة اثني عشر او خمسة عشر كيلومترا باحذية وسراويل منقوعة بالماء، فأن هذه كانت افاقا غير مشجعة بشكل خاص، ولكنه لم تبق في اليد حيلة.

وسار اوائل النازلين وتوزعوا في العمق وبمحاذاة الشاطيء الخالي لأقامة الحماية. ونزل الباقون من بعد ذلك كلهم في ظل هذه الحماية. ورغم اردية التمويه، فأن الرجال كانوا مرئيين عن بعد بصورة جيدة، وذلك لأن الليل كان منورا بسطوع كل هذا النور.

وفكرت بفزع، بأننا اذا لم يحالفنا الحظ بالوصول الى رأس بيكشويف سرا، فانهم بمثل هذا الليل، يستطيعون صيدنا صيد الدراج. لقد كنا نحن الذين نزلنا الى الشاطيء حوالي اربعين شخصا. وبحسب معلومات العيون، فأن في رأس بيكشويف، كان يجب ان يكون لا اكثر من سرية ونصف من الالمان، الى حوالي ستين - سبعين شخصا. وعند تطبيق خطة الهجوم المفاجيء، فأن الحظ من النجاح سيكون الى جانبنا. غير انه في حالة غياب المفاجأة، فأن الامور قد تتحول نحو الاسوأ.

ومـاكـدنـا نـنزل على الشـاطيء، حتى اقلع الـزورق الحربي البحري، وذهب يتأرجح في البحر على مقربة من شـواطيء ريبـاتشـي. وكـانـت معنـا طلقات تنـوير، لكـي نستخـدمهـا بصفـة اشـارة لمجـيء الـزورق بعـد انتهـاء العملية. وماعدا ذلك، فقد كان معنا جندي اشارة، هو رديف لطلقات التنوير، وارسال اشارات متفق عليها بطلب المساعدة، فيما اذا حدث امر سيء.

لقد خرجنا وسرنا. ومشى في المقدمة موتوفيلين الذي هو عنصر استطلاع بالغريزة، وسار من خلفه اثنان اخران. ومن بعدهم سار ليودين، وانا من بعد ليودين. ومن ثم طالت السلسلة بالاخرين كلهم. وحسب ظني فأن انزار تسيف سار في آخر السلسلة.

وقطعنا هذه المسافة الاثني عشر كيلومترا، مع بعض التوقفات القصيرة، خلال مدة ثلاث ساعات تقريبا. ولقد تحركنـا بسرعة، وخاصة اذا اخذنـا بنظر الاعتبار، اننـا سرنا فوق الشاطيء نفسه وعلى سفوحه المنحدرة. وفي بعض الاماكن كان ينبغي القفز من صخرة الى صخرة ومن حجر الى آخر. ومع ذلك ، فأن هذا كان امرا لا بأس به، لان ما كان اسوأ من ذلك هو عندما تكون الشقوق واسعة بين الصخور في بعض الامـاكـن. وهذه متميزة بـالثلوج التي نحتتهـا الـريـاح، فتحـولـت الى منحـدرات ثلجيـة نـاعمـة وقوية جدا مثل العظم، مع درجة ميلان حادة. وان اجتياز مثل هذه الامـاكـن كـان صعبا بصورة خاصة. وان بعض

الافراد قد انزلقوا الى تحت، وقدمت لهم المساعدة من اجل الصعود. ومن حسن الحظ ان ذلك حصل بدون اصابات. وفيما بعد، انزلق ليودين الذي كان يسير امامي، ورمى بنفسه لمساعدته، احد عناصر الاستطلاع الذي انزلق بدوره على المنحدر مقدار خمسة عشر مترا اخرى اسفل منه.

وفي الاستراحة الثانية، وبينما نحن في حالة استلقاء على الثلج وندخن السكائر بين اكفنا وراء الصخور، تذكرت فجأة ان هذا اليوم هو ليلة عيد، اي ليلة السادس على السابع من تشرين الثاني - نوفمبر، (عيد ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى في روسيا القيصرية - المترجم).

وكان من بين الناس الذين توقفوا بالقرب مني في هذه الاستراحة، بعض الاكرانيين. ودار الكلام بيننا عن ابناء مدن دنيبرو بتروفسك وخاركوف، وعن عوائلهم، واين هم الان ، والى اين ذهبوا . ومن خلال هذا الحديث لاحت ظلمة وضخامة المسافة التي تفصلنا عن كل ذلك الذي احببناه.

ولقد مشينا بسرعة كبيرة جدا، وتعبنا من استمرار وقوع الانزلاق ومعاودة الصعود، بحيث لم تتجمد الارجل من البرد لدى اي واحد منا رغم انها كانت منقوعة بالماء لدى الجميع تقريبا. وان مازعجنا اكثر من غيره، هو ان اردية التمويه والسراويل والمعاطف القصيرة التي تبللت بالماء ، قد تجمدت وتجعدت ، وصارت تصدر ضجيجا عند

السير يبدو كالرعد في وسط ذلك السكون المطبق من حولنا. وكذلك فأن تيار الريح من البحر كان يضرب في اردية التمويه التي صارت متخشبة، كما يضرب في اشرعة السفن فيعرقل السير.

وفي منتصف الطريق تقريبا لاحظ عناصر مقدمة الاستطلاع، اثارا عند مصب نهر متجمد. واتخذ الجميع اهبة الاستعداد، فقد كانت الاثار تشبه اثار انسان ولا تشبهها. فأن تلك الاثار ماكان ينبغي لها ان تبقى ازاء قوة الريح التي تهب الان، الا عندما يكون ذلك الذي مر من هنا، قد مر قبل وقت قريب. وبعد بضع ثوان تذكر احدهم وقال:

- أن هذا حيوان الدلف.

وضحك الجميع.

ولما صعدنا الى السطح المستوي، عثرنا على سلك ممدود تحت الثلج. ومن الواضح انه خط يربط المواقع الامامية مع مقر قيادة الفرقة الالمانية. وبعدما حسبنا بأنه لم يبق امامنا الا القليل جدا، اي مايقرب من خمس عشرة دقيقة، ولعلمنا الاكيد، بأن الالمان سوف لن يجازفوا بالخروج حتى الصباح فعلا لاصلاح القطع في الخط، فقد قام الاستطلاعيون بقطع خط الاتصال فورا في اجزاء كثيرة منه. واني سحبت الاسلاك من تحت الثلج، ولففتها بشكل وشيعة، ودفنتها في مكان تحت الثلج. وسرعان ما تخرب الخط على مسافة كيلو متر كامل.

واخيرا اشار موتوفيلين الى اثنين او ثلاثة تلال مرتفعة في الامام، وقد اسودت فوقها اكوام الحجر.
- قال - هذه هي بيكشويف. اننا اقتربنا.
والتزم الجميع بالهدوء. وكان الليل مضيئا وكأنه نهار. وظهرت عندي حساسية مزعجة في ظهري. وتصورت بأن احدهم يمكنه، حيث يختفي في احد الاماكن، ان يحصدنا بالرصاص بلا عناء.
وانقسم الفصيل، وسرنا نحن في حركة التفافية حول التلال. وامسكنا الاسلحة في حالة تأهب، اذ اعتبرنا من غير المحتمل ان الالمان لم يرونا حتى الان. وانهم رغم جميع الاجراءات الاحتياطية التي اتخذناها ، فلابد ان لاحظونا في مثل هذا الليل.
بيد اننا لما اقتربنا زاحفين بجانب التل الاقرب الينا تماما والذي اسودت عليه نقاط المخابيء، لم نسمع من هناك اي صوت، ولا اي اطلاق نار. وهجمنا على المخابيء. وعندما اقتحمنا الباب في المخبأ الاول، فأنه انفتح محدثا صريرا. ولم يكن فيه اي احد. ودخلت الى هناك في أثر ليودين واضأت المصباح. وعلى ضوء كل ماهو موجود في المخبأ لايبدو أنه مهجور، بل كان مسكونا، وهناك من يستعد للأقامة فيه. فعلى المنضدة يوجد فانوس بفتيلة صالح للعمل. وانتصبت قدور وخزانات.
وكان المخبأ الثاني، والمخبأ الثالث خاليين ايضا.

ولم تصطدم المجموعة الثانية التي التفت حول التل بالالمان ايضا.

وفي خلال نصف ساعة صار واضحا لنا، بأن رأس بيكشويف، او هذا المكان الذي نحن موجودون فيه، اما انه لا يوجد فيه اي احد على الاطلاق، او انه يوجد حارس الماني، تواری عند حضورنا ويخشى ان نكتشفه.

وفيما بعد، وبموجب معلومات العيون، تبين ان هذه النصف سرية الالمانية التي ترابط في رأس بيكشويف، قد جرى استبدالها في هذا اليوم بالذات. فهذا النصف سرية قد ذهب من هنا. اما النصف سرية الاخر الذي يجب عليه ان يحل محل هذا النصف الراحل، فلم يصل بعد الى هنا حتى الان. ويجب ان نضع بالبال ان الحارس الالماني قد بقي هنا رغم كل شيء ولكنه خاف ان يطلق النار علينا، وكذلك فأننا لم نعثر عليه.

ومن النظرة الاولى لنا ادركنا ادراكا واضحا، ان الالمان ليس لديهم نية بمغادرة رأس بيكشويف. فالمخابيء كانت باعلى درجات النظام، وبقيت فيها مختلف انواع المواد اللازمة للاقامة. واقيمت مخازن للمواد الغذائية في سقيفتين ودار صغيرة. انها مخازن بالاسم فقط، ولكنها مخازن على كل حال، اذ توجد بها براميل مسحوق البيض، واكياس الطحين، والجريش، واكياس البن، واحتياطي المعلبات، واشياء اخرى ساعدت اتذكرها. وفي احدى السقيفتين كانت توجد اسطوانات

منضودة. وخامرنا الظن في البداية انها بالونات المانية، غير اننا رأينا فيها بعد، انها بالونات غاز الأسيتيلين لأنارة الفنارات البحرية، وهي احتياطي بقي هنا منذ أيام السلام.

وعلى بعد قليل من المخابيء، عثرنا على عربتي مدفع محطمتين، وعلى مدفع جبلي محطم الفوهة ايضا. ويبدو ان فوهة المدفع الثاني قد حملها الالمان معهم. وعلى ضوء كل شيء، فأن مدفعيتنا قد أبادت كما يجب، هذه البطارية الجبلية.

لقد جلبوا كل هذه الاحتياطات الى هنا بجهود هائلة، وهي مشدودة على ظهور الحيوانات. وكان من الواضح اننا بتدميرنا لكل هذا الذي بقي هنا، سنضع في وضع صعب، الالمان الذين سيعودون الى بيكشويف، ان ليس اليوم فغدا. وسيضطرون الى نقل كل شيء مرة اخرى. وبالمناسبة القول ان هذا هو الذي حصل من بعد ذلك.

وبعدما قمنا بتحطيم ابواب المستودعات وجمعنا حطام الواح الخشب، شرعنا بتكديس كل ما لدى الالمان من مخزون الالواح الخشبية والفانيرا وكل ما كانت تقع عليه اليد، من اجل اشعال النار فيها.

وتقرر عدم اطلاق اشارات التنوير. وقام جندي المخابرة باستدعاء الزورقيين الحربيين باللاسلكي. وكانت النقاط والفواصل التي ينقرها ، مسموعة بوضوح دقيق وسط ذلك الهدوء القائم من حولنا.

وسرعان مااقترب الزورقان الحربيان كلاهما من الشاطيء، الى الغرب قليلا من بيكشويف نفسها. ونزل فيزغين من احد الزورقين اذ قرر لسبب في نفسه العودة للاشتراك شخصيا في احراق المستودعات الالمانية. وتم انتقال الجميع الى الزورقين الحربيين باستثناء خمسة افراد. والذين بقوا حتى الاخير هم فيزغين وليودين وموتوفيلين وواحد من عناصر الاستطلاع وانا. وكانت القنينة التي اخذناها معنا مادة قابلة للاشتعال، لم تشتعل رغم انها تم سكبها على المواد، الأمر الذي اضطرنا الى الاستعانة بالبنزين الذي فعل فعله. وقد سكبنا البنزين على الواح الفانيرا واشعلنا النار في كلتا السقيفتين وفي الدار. وفي البداية كانت شعلة النار ضعيفة، ومن بعد ذلك اشتد الاوار اكثر فأكثر. وعندما وصلنا الى الزورق الحربي، صار واضحا كيف تندفع السنة النيران من خلال ابواب وشقوق المستودعات.

واقلع الزورقان كلاهما. ونزلت انا الى القمرة الصغيرة واستلقيت على مصطبة. وكان اهتزاز الموج في طريق العودة، اشد مما كان في طريق المجيء الى هنا. فقوة الموج كانت تساوي ٦ درجات تقريبا. وبعد نصف ساعة من ابحارنا من الشاطيء، بعث ليودين لي احد جنود الاسطول يستدعيني للصعود الى السطح، فصعدت.

ومن خلفنا في رأس بيكشويف اندفع الى فوق، عمود جبار من اللهب، كان مرة يخمد واخرى يتعالى في السماء

من جديد. ولم تعد الانفجارات تسمع من هناك، ولكنه خلال الفترات التي يخمد فيها اللهب، ثم يعود ويرتفع من جديد، كان واضحا ان هناك تقع بعض الانفجارات. ومن الممكن ان هذه هي انفجارات بالونات الأسيتيلين، او انها ناجمة عن انفجارات اكداس عتاد لم يقع نظرنا عليها. وبقيت واقفا على سطح الزورق الحربي خمس عشرة دقيقة متطلعا الى المنظر، ومن ثم نزلت ثانية الى القمرة الصغيرة في أسفل الزورق.

وفي الساعة السابعة صباحا، عندما صار الليل الشمالي مضيئا من حولنا كما هو مألوف بالعادة، وصلنا الى بوليارنايا، ونزل فيزغين وليودين، وذهبا فورا لتقديم التقرير الى القيادة. اما انا فبعد ان علمت من احدهم بأن الكسندر جاروف (احد اعمدة الفن السوفيتي المعاصرين - المترجم) موجود هنا في بوليارنايا في الوقت الراهن، ذهبت اليه، وسرعان ماصعدت الى الطابق الرابع في البيت الدائري المشهور الذي هو مفخرة بوليارنايا. فهذا البيت يقف على جبل، وان قنطرته الكبيرة الدقيقة الهندسة، يمكن رؤيتها من البحر.

وانني سوف لن انسى تلك الفرحة التي استقبلني بها جاروف. وكان الشاي القوي جاهزا، وعلى المنضدة اقداح الخمرة مع اللحم المقدد للأكل. وكانت هذه ذروة النعمة، وخاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار، أنني كنت مبللا بالماء حتى الحزام. وما أن ولجت في الغرفة الدافئة حتى بدأت

ملابسي المتجمدة بالذوبان السريع. وبعدما شربت قدح خمر في البداية، ومن ثم كوبا من الشاي، نضيت عني ملابسي واضطجعت على الاريكة في غرفة جاروف.

وغفوت مدة ساعتين فقط. اذ ايقظني صوت الراديو. وكانت موسكو هي المتحدثة. وانني لم اعد اذكر الان، أكان ذلك تسجيلا على اسطوانة لخطاب ستالين في الاستعراض، أو اعادة للخطاب بصوت احد المذيعين. ولكنه على كل حال، كان نفس الخطاب الذي القاه ستالين في ذلك الصباح من يوم ٧ تشرين الثاني - نوفمبر في الساحة الحمراء.

ان من الصعب ان نصف ماجرى لنا. فهذا التقليد، وهذا الاستعراض الذي جرى في الساحة الحمراء، في الوقت الذي يوجد فيه الالمان على بعد ستين - سبعين كيلومترا عن موسكو، ان كل هذا قد هز منا القلوب. وصار يبدو لنا بعد هذا، ان كل شيء سيصير الان بصورة عامة، على مايرام، وكذلك بصورة خاصة بالنسبة لموسكو. وانني كما علمت فيما بعد، فأنه حتى في أشد اللحظات حسما، فان الثقة هناك بموسكو نفسها، كانت اكبر مما لدى اولئك الناس الذي كان باستطاعتهم مراقبة ذلك عن بعد، غير عارفين بالتفاصيل الحية.

وبعد ساعة من ذلك، غادر الزورق بوليارناريا الى مورمانسك. وعلمت ان زيلما وبيرنشتين وانا في بوليارنايا استعدا للسفر من مورمانسك الى هنا، الى

بـولـيـارنـايـا، غـير اني لم يـتـوفـر لـدي الـوقـت الكـافي للاستقصاء بشأنهما هل هما قد وصلا ام لا. فقد الح علي الواجب الصحفي ان اسافر الى مورمانسك لضرورة الاسراع بالكتابة عما رأيته، وان ابعث به، فعسى ولعل الرسالة الصحفية تصل وتأخذ مكانا لها، قدر الامكان، في عـدد ٨ تشرين الثاني - نوفمبر.

وبلغت مورمانسك منهوكا متجمدا من البرد. وكانت غـرفتنـا في الفنـدق فـارغـة، اذ ان الشـابـين قـد غـادراهـا فعلا الى بوليارنايا.

وذهبت الى مقر الاستطلاع البحري، وامليت هناك على كـاتبـة الالـة الطابعة، مقالة خاصة حول الانـزال في رأس بيكشويف تحت عنوان " في ليلة الاحتفال ". وكـان المغزى الاسـاسي لهذه المقالة الصحفية، يكمن طبعا، في انه يجب ان ينشر بـالـذات في ٨ تشـريـن الثـاني - نـوفمـبر، أي في العيـد نفسـه. غـير ان الحـظ لم يحـالفـني في هـذه المـرة الاولى والـوحيـدة في الشـمال. فقـد التبـس الامـر على دائـرة الـبرق، ولم يصـل التحقيـق الـذي كتبتـه، الى مـوسكـو الا بعـد اسبـوعـين. ولكنـه على رغـم فـوات آوان منـاسبـة التحقيـق الصحفـي، فـأن اورتينبـيرغ نشـره في يـوم ٢٥ تشـريـن الثـاني - نـوفمـبر، بعـد ان وضـع لـه مـلاحظـة تـوضيحيـة: "بـريد متـأخـر"، فـأظهـر بهذا ايضـا اخـلاقيـة رئيـس التحـريـر ازاء مـراسلـه الصحفـي. وللحقيقـة أقـول، انـه كـان يمكـن ان اكـون مستـاء لـو ان هـذا التحقيـق

بالذات بقي دون ان ينشر.

وفي الايام الثلاثة التالية التي قضيتها منتظرا عودة الشباب من بوليارنايا، بقيت وحيدا في مورمانسك. وكتبت خلال هذه المدة رسالة صحفية في مواضيع خاصة للقسم الخاص.

وفي هذه الايام حصل لي لقاء مثير مع احد الأسرى. وكان هذا نمساويا مهذارا بشكل غير اعتيادي، واشتراكيا مسيحيا، ويثرثر بلا نهاية او انقطاع. وقد بادر من ذاته بكتابة عشرات الشهادات التي تفوق الواحدة منها الاخرى كلاما ومتاهة. وان هذا كان قد اجتاز ووصل الى جانبنا متطوعا. وكنا قد شككنا به في البداية، بأنه مرسل الينا بصفة جاسوس، وتصورنا نحن زيادة على ذلك، أنه صيد سمين. غير انه اتضح لنا فيما بعد، انه مجرد مهرج عادي وانه استسلم بسبب جبنه لا اكثر ولا اقل. اما بصدد الثرثرة فبأمكانه ان يورد ذكر اربعين من المساجين، في كل دقيقة، وعن كل مناسبة. وكان يشعر بالارتياح الكبير لكثرة الذين يتكلمون معه، ويفرح عندما يسود دفاتر كاملة بالجديد والجديد من الشهادات. وانه كان شخصا قامته غير طويلة. وعيناه بطيئتين في الحركة وكلامه ينطلق صليا مثل الرشاش. واصغيت اليه ساعات عديدة، واستخدمت مختارات من شهاداته للمواضيع الصحفية.

وفي رأيي ان ذلك كان مادة شيقة، ولكني لا اعرف لماذا لم ينسجم ذلك مع مزاج جريدة "كراسنايا

زفيوزدا". وانه ليس لم يوافق مزاجها فحسب، بل وانه ضاع في مكان ما، ولم اوفق فيما بعد بالعثور على أي اثر له في أدارة التحرير.

وفي هذه الايام جرى في مسرح مورمانسك، افتتاح مسرحية (فتى من مدينتنا). وكنت قد حضوت ذلك العرض. وكان الديكور فقيرا ومثيرا للشفقة. ولكن سافينا، المرأة المخرج، التي كانت قد أخرجت المسرحية، عملت ذلك بذكاء وذوق. ولكن الاهم من ذلك كله هو دور الفتى نفسه الذي لعبه بصورة رائعة جدا، الفنانون فيليبوف.

واخيرا في يوم ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر، عاد من بوليارنايا كل من زيلما وبيرنشتين اللذين كانا قد تأخرا هناك بسبب رداءة الطقس ثانية. فلمدة يومين لم يعطوا "البركة" للزورق الذي كان ينبغي ان يعودا عليه الى مورمانسك.

نسيت أن اقول، ان في اليوم الخامس من هذا الشهر، اي في عشية المسيرة الى بيكشويف، تسلمت عبر الخط العسكري، برقية من اورتينبيرغ حول التوجه الى موسكو مع بيرنشتين، ولكنني كنت مستاء انذاك، لكوني لم اتمكن من انجاز العمل الذي بدأت به، وقمت بالتظاهر بأني لم اتسلم البرقية، بذريعة تأخرها بالوصول. والان، عندما ذهب التحقيق الصحفي "ليلة احتفالية" الى ادارة التحرير ارتاح ضميري. وما ان وصل الشابان عائدين، حتى تحركنا في طريق العودة.

سيطر في هذه الاثناء ذلك الجو الذي لا يساعد حتى على التفكير بان من الممكن ان نقلع بالطائرة. ولذلك قررنا بأن من الافضل لنا ان نتحرك ولو ببطء ولكن بثقة، ولهذا فقد ركبنا في القطار الذي من المفروض ان ينقلنا الى مدينة كاندالاكش. وبحسب معلوماتنا فستغادر من هناك واحدة من آخر السفن في هذا الخط البحري الى ميناء آرخانغلسك، ومن ثم من آرخانغلسك سنستطيع بالطائرة او بالقطار ان نصل الى موسكو.

لقد كنت سعيدا باستدعائنا للرجوع. فقد اشتقت الى موسكو. وبالاضافة الى ذلك فأني متعطش لرؤية امي وابي العجوزيين وجميع اقاربي لجهلي التام اين هم الان.

وحسبنا ان الطريق الى كاندالاكش، يستغرق يوما كاملا، ومن هناك بالباخرة لمدة يوم واحد وبعض اليوم، للوصول الى آرخانغلسك، ومن ثم مدة اربعة او خمسة ايام بالقطار للوصول الى موسكو. واننا كنا على استعداد في اسوأ الاحوال لأن نهدر اسبوعا على هذه السفرة. غير ان الامور سارت في الحياة بصورة اخرى: فبدلا من اسبوع واحد استغرق سفرنا ثلاثة اسابيع. فقد كنا قد اخذنا ليلا، القطار الذي غادر الى كاندالاكش. وفي وسط ظلام دامس تماما، صعدنا الى عربة بضاعة مدفأة، وغاصة حتى السقف، والناس فيها جالسون بثلاثة طوابق، وفي وسط هذه العربة موقد للنار ينفث الحرارة. ووصلنا الى كاندالاكش خلال يوم كامل حسبما توقعنا. وفي المحطة همس ميشكين

بيرنشتين حول شيء ما برطانة سواق التاكسي لسائق سيارة صحة. وقام هذا فنقلنا بصندوق سيارته الى رصيف ميناء كاندالاكش.

وفي البداية افرحنا ناظر الميناء البحري بأن الباخرة "سبارتاك" التي نزمع المغادرة عليها تقف الان متأهبة عند رصيف الاقلاع، ومن ثم اضاف: اما متى ستبحر "سبارتاك" فهذا غير معروف لأي احد. وقد ظهر ان على متن هذه الباخرة، كان يجب ان يعود الى آرخانغلسك، الف وخمسمئة شخص هم من سكان آرخانغلسك الذين اشتغلوا في اقامة تحصينات دفاعية في الجبهة الكاريلية. غير انه بسبب نقل مختلف التجهيزات العسكرية، فلم تصل من مختلف قواطع الجبهة الكاريلية حتى الان الا قدمة واحدة، قوامها اربعمئة شخص، من بين بعض القدمات التي كان يجب ان تصل من هؤلاء الناس. اما الباقون منهم، فما يزالون في الطريق بانتظار الوصول من يوم لآخر.

ويبدو ان ناظر المحطة البحرية الذي صقلته التجارب المرة، قد نطق عبارة "من يوم لاخر" بتهكم، واضاف بانه يدعو الله ان تلحق "سبارتاك" بالوصول الى آرخانغلسك قبل نهاية موسم النقل البحري.

- سألته انا - متى ستحين نهاية موسم النقل البحري؟

- قال الناظر البحري - ومن يعرف ذلك.. فمتى

مايسيطر الجليد، فعند ذاك تحل هذه النهاية. فهي من الممكن ان تحل بعد يوم ومن الممكن بعد اسبوع.

أننا رغم هذا البيان البائس، انتقلنا الى الباخرة "سبارتاك" ليلا انتظارا للسفر. ويشد الرحال، اضافة الينا نحن الثلاثة ، على هذه السفينة المتجهة الى آرخانغلسك، قوميسار لواء بحري، مع مرافقه، ومقدم بحري عجوز. ونزل قوميسار اللواء عند المقدم البحري. اما نحن فنزولنا صار بلا ترتيب. فأن زيلما وجد مكانا على مصطبة قصيرة في قمرة ميكانيكي الباخرة. وفي ذلك يوجد جانبان مريحان له. اولا ان المصطبة كانت قصيرة جدا، وثانيا ان رئيس الميكانيكيين وهو بحار قديم مشاكس، في الخامسة والخمسين من عمره، وعسكري متحذلق، لا يطيق التعامل مع قبطان الباخرة الشاب. وكان طول الوقت الخالي من النوم او المناوبة، ينقل بلا كلل الى زيلما، مختلف التفاصيل السلبية عن حياة هذا القبطان. ومع ذلك فأن زيلما البارد الطبع، وجد في ذلك جانبا جيدا، وقال بأنه، سيعرف الان حياة الميكانيكيين في البحر كما لا يعرفها اي واحد اخر، وسيكون باستطاعته ان يكتب سجلا وثائقيا كاملا عن العلاقات الداخلية في البواخر.

ونزل المقدم البحري وانا وميشكين في قمرة جماعية. وحط المقدم البحري وميشكين على اريكة واحدة. وجلست انا في زاوية على الارض فوق الفروة.

ان حياتنا في السفينة كانت تعج بالناس. وفجأة ارتدت هذه الحياة رداء الجليد الشتوي. ولقد كنا قد صعدنا الى الباخرة في ١٥ تشرين الثاني - نوفمبر، وخرجت منها في يوم ٢٨ فقط. وفي الايام الخمسة الاولى، عشنا نترقب متى تأتي جميع القدمات بالناس في نهاية الامر. وكانت حياتنا تتألف من النوم، وهو من حيث المبدأ كلما طال كان افضل، ومن الطعام، وهو معتدل تماما، ومن اللهو في ثلاثة انواع: لعب الدومينو، وقراءة الادبيات الطريفة، وسماع الاسطوانات الغنائية التي تتعالى من غرامافون - حاكي - يعزف تقريبا، طول الوقت، من غرفة الطباخة والطبيبة، المجاورة للغرفة الجماعية. وكان كل ماعندهما ست اسطوانات فقط، لهذا فأنهما كانتا تدورانها بلا توقف. وان الطباخة، نينا، كانت معجبة اعجابا خاصا باسطوانة "ليمون الليمون". اما الطبيبة، كلافا، فكانت تفضل اغنية "وداعا يامخيم الغجر". ومع ذلك، فأنهما كانتا تسمعان الاسطوانات الاربع الاخرى التي تسنى لي ايضا حفظها عن ظهر قلب.

تسلمنا زاد السفر على الارض، ووعدونا بتحويلنا على طعام الباخرة عند الاقلاع.

الا ان زيلما الشاطر، اجبر ميشكين الخامل، لحسن حظنا على الذهاب معه، رغم هذا، الى قسم ادارة التموين للحصول على زاد سفر. وقد جلب عدة ارغفة سميكة من الخبز وشايا وسكر. وليس بيننا من احد كان قد توقع

بـأن هـذا الـزاد سيسـاعـدنـا كـل تلـك المسـاعـدة.

وبـدأوا في اليـوم الـرابـع، السـماح بـركـوب البـاخـرة، للناس العائدين من عمل التحصينات الدفاعية. واستمروا يصعدون طيلة اليومين الرابع والخامس. وبرغم احتجاج النقيـب البحـري المسؤول عـن التحميـل، املا منـه في ان سفينتنا سوف لن يتعرقل سيرها في الطريق، وسوف تقطعه الى آرخانغلسك خلال ثلاثين ساعة فقط، فأنهم اصعدوا عنـده في البـاخـرة، بـدلا مـن الالـف والخمسمئة، الفـين وخمسمئة شخص.

ان الباخرة "سبارتاك" كانت مخصصة لنقل الخشب. وان الفي شخص استمكنوا في عنابرها. اما الخمسمئة الاخرون فقد ظلوا فوق سطحها مباشرة، على امل ان الرحلة سوف لن تطول اكثر من يوم الا قليلا، وان من الممكن ان يتحمل الانسان هذا الوقت، بصورة من الصور. وكذلك فأن الناس ماكانوا يريدون ابدا انتظار وسيلة اخرى للسفر. وانهم كلهم من سكان آرخانغلسك الذين امضوا مدة شهرين الى شهرين ونصف، في اعمال شاقة لبناء الملاجيء، وهم مقطوعون عن عوائلهم، ولم يصيبوا كفايتهم من الشبع من الطعام خلال كل هذه المدة، وكذلك فأنهم مشتاقون، وهذا امر طبيعي، كل الشوق الى بيوتهم. انهم كلهم ارادوا ان يعودوا الى آرخانغلسك، بأي ثمن، حتى ولو بيوم واحد أبكر من ذلك. لقد وزعوا عليهم جميعا زاد سفر يكفي لثلاثة ايام احتياطا

للطواريء - والزاد مكون من خبز وسكر وشاي وسمكتين مملحتين صغيرتين - ورغم هذا فقد أستمر التحميل مدة يومين. وبذلك فأن من تسلم زاد السفر في البداية، كان قد استهلكه تقريبا لحين ماحل عليه وقت الابحار.

لم يكن الجو صقيعا شديد البرد، اذ ان الحرارة كانت ٤-٥ درجات. ولكنه حتى في مثل هذه الظروف، فأن المكوث اكثر من يوم على ظهر السفينة المكشوف لم يكن امرا يبعث على السرور ابدا.

كان خليج كاندالاكش قد امتلأ بالجليد حتى ذلك الحين، وهبت رياح ثلجية، وبدا لبضع دقائق اننا نقف متجمدين في الجليد بمكان ما من القطب الشمالي.

وفي نهاية المطاف جاءت اثنتان من سفن السحب الصغيرة، الشبيهة بمحطمات الجليد، وقامتا بالدوران حولنا لتمهيد الطريق الينا من الجليد. ولكن ذلك لم يكن سهلا كما تصورنا. فأن الكيلومترات الخمسين او الستين التي انبغى علينا قطعها في خليج كاندالاكش حتى الخروج الى البحر الابيض، قد كلفتنا مدة يومين او اكثر قليلا. والرياح كانت تهب، والنظر الى الناس اللائذين على ظهر السفينة يثير الجزع. وقد غطوهم بالخيام وسقوهم الماء الحار مرات عديدة. ومع ذلك فقد شعرت لأول مرة في زمن الحرب انني بشع جدا، اي انني اجلس في هذه القمرة الجماعية التي تشبه العلبة الزجاجية التي يبين من خلالها كل شيء، ولا استطيع،

بصفتي انسانا، ان اقدم اية مساعدة. اننا عشنا في هذه القمرة الجماعية التي تطل على متن الباخرة وتناولنا غداء ولو انه كان بائسا، ولكنه رغم ذلك، غداء فعلا. وانا نمت على الارض، ولكن في مكان دافىء. اما خلف جدار القمرة الجماعية، فأن الناس وقفوا بالدور على الماء المغلي، وناموا على ظهر السفينة العاري، ولكنهم يستفيقون من البرد. لقد كنا بلا حول، بصدد تقديم عون لهم مهما كان، وذلك لأن القمرة الجماعية كانت مكتظة في ذلك الوقت حتى الاختناق، ومع ذلك فأن الاحساس كان فظيعا على كل حال.

وفي اليوم الثاني من بعد مغادرتنا من كاندالاكش، نفد عند الكثيرين، مالديهم من احتياطي الطعام. ولكنهم صبروا، املا في انهم سيصلون بعد يوم الى آرخانغلسك. وخرجنا اخيرا الى عرض البحر، ولاح لنا الان فعلا انه بعد يوم واحد سينتهي كل شيء. ولو صادف ان الظروف سوف لا تسمح لنا بالمرور عند راس دفينا الشمالي، فلابد وان نلتقي بمحطة جليد. ان الجميع قد التقطوا انفاسهم ونحن ندخل في عرض البحر.

ولأجل التقليل من التفكير الذي يلازمني طول هذه الايام بشأن ما يجري من حولي، انتقلت الى قمرة المساعد الثالث، في اثناء قيامه بالخفارة وكتبت هناك قصيدة شعر. وانني في اثناء هذه الايام كتبت سبعا او ثماني قصائد من الشعر. ومن بينها قصيدة "أتذْكُرُ ، اليوشا ،

دروب سمولينشينا" وقصيدة "مثلما تنظر في منظار مقلوب". وماذا بقي لدي ان اعمل سوى قرض الشعر؟ ان في النفس احساسا بالرداءة، وفي البطن خواء. وان هذا قد حولني بمجمله الى انسان غاضب كدود.

أتذكُرُ، اليوشا، دروب سموليونشينا
وكيف بها قد صبَّ دون توقفٍ مطرٌ غضوبْ
واتتْ الينا نسوةٌ يندبْنَ من تعبٍ رهيبْ
وضممننا كي لا يبللنا المطرْ
ضم الصغار الى القلوبْ

وكيف من حين لحين، قد رَحْن يمسحْن الدموعْ
وكيف في همسٍ على اعقابنا
انشدننا - الله يحميكم - الى يوم الرجوع
وكيف قد صرنا بأنفسنا جنودا من جديد
وكما مضى في دولة الروس العظيمة،
دولة الماضي البعيد

ماقد يُقدَّر بالدموع، يزيد عما قد يُقدَّر بالفراسخ
والدرب اذ يمتد يخفي نفسه بين السفوح عن النظر
ومع القرى تأتي القرى بين المقابر والقرى
فكأن روسيا كلها قد اظعنتْ يوم السفر

وكأنما من خلف اسيجة البيوت ، خرج الجدود
شبكوا السواعد مثل صلبانٍ، دعاءً للوجود
ومضوا يؤدون الصلاةْ
من اجل احفادٍ تناسوا ما آلاله

لابد تدري انما ارض الوطنْ
ليست هي البيت المدينيّ الذي آواكَ في عيشٍ قرير
بل انه هذي القرى، اجدادنا مروا بها،ذاقوا المحن
حملوا بايديهم من الصلبان أبسطها وساروا للقبور

من اين لي ادري بحالك ماجرى
لكنني للمرة الاولى رمتْني الحرب في جوف المدن
ومعي حنين الريف من كل القرى
ودموعُ ارملة واغنيةٌ لاخرى في شجن

الكوخ، اليوشا، أتَذْكُرُ انت في باريسوفا
وعويل بنتٍ فوق ميتٍ وهي تبكي تتشكّى
وعلى عجوزٍ، شعرها الابيض والمعطف قطنيٌّ مصفّى
والشيخ اشيب في ثياب كلها بيضاء كالميت المسجّى

اي شيء لهما لحكيه مما فيه جبرٌ للخواطر
فهنا كل عجوز تدرك البلوى وتشتمُّ المخاطر
انت قد تذكر ما قالت لنا يوما عجوز
ياصغاري، اينما تمضوا فأن الجفن ناظر

"اننا نحن هنا بالانتظار" رددتْ ذلك اصوات القفار
"اننا نحن هنا بالانتظار" قالت الغابات في كل مدار
أنت، اليوشا، اتدري كم بدا لي في الليالي
اسمع الاصوات تمشي من ورائي كخيالي

عادة الروس بأن يلقوا باثار الحرائقْ
خلفهم فوق الثرى الروسي في كل المناطق
عادة الروس اذا كنا نرى موت الرفاق
ان نشق الثوب حزناً للنطاق

اننا نحن واياك، رصاص الموت مازال يداري
غير اني، ولئن مت ثلاثا فافتخاري
أنه الموت الذي من اجل ارضٍ قد تغذّتْ بالمرارِ
فوقها جئتُ، وكانت دارها خير الديارِ

ولهذا قدري موتي على تربتها من حين ماقد انبُتنا
ولهذا أمنا الروسية العصماء كانت انجبَتنا
ولهــذا المــرأة الــروسيــة الغــراء في ســوح الــوغــى قــد رافَقتنــا
وعلى ماعتاده الروس، ثلاثا قبّلتنا

* * *

من الافضل لا تحزنْ
وان تبقى من الآلام في مأمنْ
فمن حين الى آخَرْ
طعاما سوف يعطونك بالآخِرْ

رسائلُ مختلفاتٌ يكتبون
باكيةً او موجعةْ
وقد تكون رائعةً
لكنما اغلبها تكون غير نافعةْ

ما كل شيء بالرسائل يودَعُ
وليس فيها كل شيء يُسمَعُ
ان الرسائل كلها تبدو لنا
بموجب المطلوب ليست تطبعُ

انْ عدْتَ فالأزواجُ
لا وقتاً لديهمْ للعتابْ
واذا قُتِلْتَ فذاك اسوأُ مايكونْ
والى الرسائلِ يرجعون

لا تنقلوها بعربةٍ يدويةْ
لكي لا تكون عليكم كارثةْ
بل انها ترحل معكم
كحزمةٍ رقيقةْ

انتنَّ ايتها المتزوجات
ستبكين عليّ
فالرسائل ما اسهل اخراجها
وما اسهل اخفائها

انتم اعتزلتمْ في الغرفةْ
هذه الرسالةْ الغيورْ
اذكروني انا الكسول
بكلمةٍ طيبةْ

قولوا، ان من الافضل
الا ّ يعذّبكم بالذكرى
ويكتب هو
من حادثةٍ لاخرى

* * *

في مخزنٍ ببلدةٍ ريفيةٍ لبيع النسيج
حيثُ انغام الهارمونيا على ارصفة الشوارع
وحيث التقينا جلوساً مع الطيار برهة
وحسونا الخمرة من رداءة الطقس والكآبة

وحيث الدخانُ مثل ذيل قطةٍ سوداء مشؤومة
تصاعد فوق المدخنة الى السماء مباشرةً من الموقد
وحيث تدور طول الليل مروحة مع الريح بصرير
يدور العسس مع صياح الديك

وحيث الرياح من الصباح والمطر في الليل
وحيث حتى الشمس صارت لا ترى من الغيوم
واينما وحيثما تمشي ينادوكَ انتظرْ
فنلتقي في مفترق الدروب بصخرة الدموع

اكتأبتُ خمسة ايام في هذه المدينة
وكم كنتُ اريد ان اذهب معك لكن لم اقدر على فراقها
وفي هذه المدينة ماتذكرتك الاّ قليلا
بكلمةٍ طيبةْ وكثيراً بحاقدة.

هذه المدينة كلها مثل صورتك الكبيرة
مع الوساوس ومع ساحرة بائسة
مع الطقس المتقلب بقليل من الضوء
ولكنها مثلك في الليالي، بتاجٍ ذهبي

هي مثلك لايمكن رؤيتها تمام الرؤيا
وما إنْ تراها حتى تَنْفَر لمغادرتها فوراً
وهي مثلك، يوم امس، لا شيء فيها ثمين
وهي مثلك اليومَ، بلا عواطف

هذه المدينة عاوَنَتْني في ان افهمك
بانك ذو وسواس نفسي متقلّب
ونزوة نادرة تتألق شاحبةً
فوق رأسي بشمسٍ شتوية

تتلاشى البيوت الخشبية
والجنود نائمون والثلج يسقط عبر العتبة
ياشتائي اين تبكي واين تغنّي
ومن يساعدني على نسيانك

* * *

لساعةٍ تظل الاسماء في الذاكرة
لهنا الذكرى لا تظل طويلاً
والرجال يقولون: "الحرب"
ويأخذون النساء على عَجَلٍ بالاحضان

شكرا لتلك التي بمنتهى البساطة
وبلا طلب ان يدعوها بالحبيبة
حلت عندهم مستعجلة
محل تلك الأخرى

أنها اشفقتْ على العشاق الغرباء
قدر ما استطاعتْ هنا
ومنحتْهم الدفء في ساعة الشِّدة
من حرارة جسمٍ غير رقيق

وبالنسبة لأولئك الذين حان دورهم لخوض المعركة
فأنهم لا وقت لديهم لعيش الهوى
ومن الاسهل ان يتذكروا ولو أية يدٍ
كانت قد ارتفقتهم يوم امس

كن على علم بأني لا أُدينهم
فالجنةُ البسيطة في الساعة القصيرة المتوفرة في الحرب
ضرورية لكل اولئك الاخرين
الذين هم اضعف روحاً

ليكنْ كل شيءٍ لا بهذه الصورة ولا بتلك
ولكنكَ ان تتذكرْ في ساعة العذاب الاخير
عيوناً وأيدي من يوم أمس، فتذكرْها
ودعْ عنك انها غريبةٌ لأنها أيدٍ وعيون

ويجوز حتى انا في اوقاتٍ اخرى
ان اتمنى لو اعيش مع امرأةٍ اخرى
ولكنني في هذه الايام
لا اخونكِ لا جسماً ولا روحاً

ومن العذاب بالذات
وبسببٍ انني لا اصدّق ان اراك ثانية
فلن اُهينكِ بضعف النفس
في ساعة عذاب القلب من الفراق

لا يوجدُ دفءٌ في الحنان العابر
ولن اتوادع معكِ حتى الموت
انني اترك الأثر الحزين على الشفاه الحبيبة
عندكِ الى الابد

***

شربتُ لحبكَ في الملجأ بضواحي أوديسا
وفي كونستانتسا عند المياه الرومانية السوداء
وفي فيازما، في المحطة الصغيرة الليلية الزرقاء
وفي مورمانسك تحت النجم القطبي الابيض

انت لا تكادين تعرفين ياحمقائي
اسماء الاحياء منهم والاموات
اسماء اولئك الفتيان الطيبين
الذين قادتني الحرب الى عقد صداقات قصيرة معهم في الدروب

ان الغواص الذي طفوتُ معه على القارب
والمستطلع الذي سرتُ معه الى الفلنديين
تذكّرا معي بعد نخبٍ من الفودكا
رفيقهم ذاك الذي احبَّ بحنان

الحربَ حالت دون ان نتكهن بشيء لسنة واحدة
بل وحتى بشأن الذي اغرتني به الحياة
لقد شربتُ اليومَ كي يحزن اليومُ هذا
وسنشرب غداً كي ينتظرَنا هذا الغد

قد يتذكر احدهم واحدةً اخرى
وهو ينظر لقَدَحي في الضياء
فيملأ قَدَحي مرة اخرى ويقول :-
أتعاني الهوى ؟ ـ نعم اعاني
- أهي جميلةٌ حقا ؟
ـ يا للأسف، لا توجد صورة.

لابد انني رأيتهم لا اقل من مئة مرة
فمن عادة الرجال في أيام معاناة الحب
يعرضون صورا متكسرةً للنساء
وكأنهن يذكّرننا بهن في الواقع

قد لا يستحقّن ان تحبّهُنَّ كلّهنّ
ولكنْ ما العمل معهنّ إذا كان صعباً نسيانُهنّ
الناسُ الطيبون يتذكرونُهنّ
وهذا يعني ان ندعو الله للعيش حتى لقائِهنّ

سأسعى لأحيا الفراقَ بدون احتراس
مثلما يحصل غالباً في عدم الثقة بالاشياء البعيدة
فاقول للأخرين: "كل شيء سيكون على مايرام
وانها ستنتظركَ فلا تحزنْ عليها "

من الاسهل علينا التصديق دائماً نقلاً عن الاخرين
وكثيرا مايحدث ان تنجح في معرفة قلوبهم
وقد أيقنتُ انا: انها لاتقبل ان تحب واحداً من هؤلاء
او تبيع نفسها له

كيف يمكن معرفة المدركين لهذه المشاعر
عند كل اولئك الذين جاءوا الى جانبك للحرب
اننا حكمنا عليك بالاخلاص، بلا طلب منك
مقررين انكِ لن تخوني مثل هذا

* * *

اني حاولتُ على مدى سنة
ان لا انظرَ الى ذلك التاريخ السعيد
عندما كنت الاخلص والاقرب
بالارتباط معي

اني اتذكر القاعة في آخر عرض تجريبي
والضوءَ المشتعلَ لسوء الصدف
وهمسَكِ بأنه لا يليق بي
ان افعل ذلك على مرأىً من الجميع

ومعطَفكِ اللامعَ من الدراما السابقة
وسوطَ الفارسة في اليد
وركضكِ على خشبة المسرح
نحوي مباشرةً بحذائكِ العالي

كلا، ليس في يوم ما، بل صيفاً
عندما اخذتُ اجازةً ليوم واحد
وكنتُ من الفجر عند قدميك
بعد ان اجهزت على السيارة طول الليل

مااحلاكِ وكنتِ ناعسة نعسانةْ
وبعدما قفزتِ حافيةً من السريرْ
وضغطتِ بوجهكِ

على معطفي المغبرّ

الاوردة تحت يدي في الجيد
تنبض مثل اوردة طير الحمام
ومن الممكن ولأول مرة في ذلك الصباح
قد بدا لي انكِ زوجتي

ورغم ذلك ماكنتُ اعرف انذاك
انك ماكنتِ الاقربَ لي
لقد تذكرت الان: فالليل كان بهيماً
والمنحدر تجمد....

وبعدما فتش النقيب في الجيوب
اَمَرَ ان لا نأخذ ورقة في مؤخرة العدو
اذ ينبغي في حين ما على رجل الاستطلاع
ان يموت مجهولاً

عند منتصف الليل وصلنا وانتظرنا
ونحن مدفونون حتى الصدر بالثلوج
الانوار كانت تتراكض من بعيدٍ
هناك على الشاطيء الروسي

والآن اعترفُ بالتحايل :

فعندما كنتُ مستعدا للموت في المعركة
اخذتُ رغم ذلك في جيبي
صورتكِ الفوتوغرافية

انها كانت تبدو زرقاء في ذلك الليل
تحت الهالة القطبية
وبدا باننا سنقفُ كلانا فورا
ونشبكُ ايدينا ونذهب معا

لقد كنت في نفس ذلك الفستان الابيض
وكأنكِ تلك العاريةُ في نهار الصيف
لقد جئتِ اليّ بصورة خفية
عبر الصخور الجليدية

الشجاعةُ لا تطلب الاستئذان
فاقسمُ انْ بقيتُ حياً
سأسمي تلك الليلة معكِ
بليلة الزفاف

* * *

ان كل مايبقى في الخلف يتضاءل
مثلما تنظر في منظار مقلوب
لقد ظلت تنتحبُ امرأةٌ غريبةٌ
في المحطة التي يجتاحها الاعصار

كتلة الثلج المتحولة الى حبة حمّص
لا ترى مصيبتها من هنا
وهي مثلنا نحن جميع الذين وَهَبَتْنا الحرب
النظرة القاسية بلا طلب

هناك شيءٌ كبيرٌ ونحيفٌ جدا
على الحراب المشرعة من قبل الزمن
لا يدعنا ننظر الى الماضي
بعيون حاضرنا الغاضب

اننا الخائضين في الدم والعذاب
تقتربُ وجهاتُ نظرنا ثانية من الماضي
ولكننا في هذا اللقاء البعيد
لا نقبل بذُلّ عمى الالوان

الاصدقاء لكثرتهم يصعب تعداد اسمائهم
والاجيال التي رأت الحرب
لا تستطيع ان تضاعفهم كلهم من جديد
حسب وجهة نظرنا المجربة بالعذاب

في نهاية اليوم الرابع وصلنا الى حافات الجليد عند رأس دفينا الشمالي. وفي البداية كان الجليد هشا، ولكنه من بعد ذلك صار مثل "شحمة" كثيفة سميكة شاملة. وبعد ثلاث ساعات من السير اتضح لنا اننا نتحرك بابطأ سرعة وهي مئتان او ثلاثمئة متر بالساعة. ومع ذلك فأنه لأجل قطع مسافة هذه المئتين او الثلاثمئة متر ينبغي باستمرار تعجيل سرعة المحرك، والتحرك الى الامام والخلف، ومن تكرار الحركة الى الامام والخلف، ولكن بدون حصول اية جدوى من ذلك بتاتا.

وصارت الضفاف مرئية امامنا من كلا الجانبين. ووجدنا انفسنا اننا لسنا الوحيدين المحاصرين هكذا بالثلج، اذ هناك عدة سفن مثلنا، كانت قد وصلت قبلنا، ومرت عليها مدة طويلة انتظارا لمحطمة جليد. واننا فكرنا (وقد تأكد هذا فيما بعد) بأنه في هذا الوقت بالذات، قد وصلت قافلة من البواخر الانكليزية تحمل شحنات حربية، وانهم يشقون طريقا لها بواسطة جميع

محطمات الجليد المتوفرة.

وارسل قبطان باخرتنا برقية باللاسلكي الى مديريته، بأنه ينتظر محطمة جليد في هذا الليل. وبعدما اخذ بنظر الاعتبار ان لديه الفين وخمسمئة شخص على متن الباخرة، فقد صار مقتنعا بأنهم سيرسلون محطمة جليد. وارتفعت المعنويات لدى الجميع في هذا المساء. ولم يرغب اي واحد من المسافرين على ظهر الباخرة بأن يعتقد بأننا من الممكن ان ننحصر الان هنا امام مشهد آرخانغلسك. بيد ان محطمة الجليد لم تحضر خلال اليوم الخامس التالي. وواصلنا نحن التحرك ببطء في الجليد. وصار واضحا ان كثيرا من الناس بدأوا يعانون من الجوع. وظهر بينهم مرضى. وجاءت الطبيبة كلافا الى القمرة الجماعية، وانفجرت باكية وهي تقول بأنها لاتستطيع ان تتحمل اكثر من ذلك، المرور في العنابر، ورؤية مايجري هناك.

وارسل قبطان الباخرة برقية اخرى باللاسلكي.

وواصلنا لليوم السادس الطرق على الجليد كالعادة. اما جميع ماقطعناه خلال اليومين الاخيرين فهو عشرون كيلو مترا فقط. وبقي امامنا خمسة وثلاثون كيلومترا اخرى. وكانت الضفاف مرئية للعين الان بصورة اكثر وضوحا: ففي الضفة اليسرى، كانت تلوح احدى القصبات. ولو كان الجليد صلبا، لصار من الممكن انزال الناس الى الشاطىء عبر الجليد. ولكن الباخرة كان "الشحم" يحاصرها حصارا كاملا. ولا توجد امكانية للسير على

الاقدام ولا للمرور بواسطة زورق..

وفي اليوم السادس ليلا، ظهر المتوفى الاول. وقد حملوه من العنبر على نقالة وسجوه مباشرة على ظهر السفينة وهو مغطى بمشمع.

وشاهد زيلما في ساعة متأخرة من الليل، عندما نام الجميع، كيف ان احد الاشخاص قد اقترب بحذر، ودس بسرعة يده تحت المشمع، واخرج من هناك كسرة خبز واخفاها تحت قميصه. ويبدو ان هذا كان خائفا ان يقاسمه الاخرون الذين بدأوا يجوعون هذه الكسرة من الخبز، فاخفاها نهارا تحت المشمع قرب جثة الميت، حيث ليس هناك من يدور برأسه ان يبحث عن خبز عند جثة ميت.

وفي هذا الليل حطم بعض المسافرين مطبخ الباخرة متصورين ان طاقم الباخرة، يخفي في المطبخ احتياطيا من المواد الغذائية. غير انه لم يكن اي شيء في المطبخ، في الواقع، وان طاقم السفينة كان مقيما ايضا على طعام الجوع. فأننا لليوم الثاني لا نأكل الا الخبز ونشرب الماء المغلي. غير ان حقيقة تحطيم مطبخ السفينة بالذات كان يعني ان الوضع منذر بالخطر.

وصارت السفينة في اليوم السابع كله منظرا غريبا. فأن كل من كان باستطاعته من الجميع، أن يحتشد فقد احتشد فوق ذلك السطح الذي كان يرى من فوقه، شاطيء آرخانغلسك. انهم احتشدوا ونظروا بخط مستقيم الى ذلك الجانب، وكأنهم بوقوفهم على هذا السطح، يصيرون اقرب

الى الهدف. ان هذا كان تصرفا لا اراديا منهم، بل وشعورا عاما قويا كأنه الجنون النفسي الذي من الصعب جدا تجاوزه.

ان الباخرة، حسبما افاد لي به هامسا، قبطان الباخرة، لم تتحرك في هذا اليوم، لا الى الخلف ولا الى الامام. غير انه لغرض الابقاء على المعنويات عالية لهؤلاء الناس المعذبين، فأن الربان ظل طول الوقت يسوق سفينته تارة الى الامام واخرى الى الخلف. فالسفينة تتراجع الى الخلف، ومن بعد ذلك تصبح مرة اخرى متحركة الى الامام، ومن ثم الى الخلف واخرى الى الامام.

وعند المساء استدعى قبطان الباخرة اليه، قوميسار اللواء واستدعاني ايضا، وقال ان الناس قد تعذبوا وفقدوا صبرهم ثم طرح علينا هذا السؤال ـ .مالعمل ؟. وفي اثناء فحصنا لجميع الامكانيات المتوفرة، تذكرنا ان في الباخرة اوساقا ومن بينها عدة براميل من رؤوس سمك تريسكا المجففة. وقد نقلوها من كاندالاكش الى آرخانغلسك لمعمل يصنع منها الغراء. أن رؤوس السمك كانت جافة وغير صالحة للأكل تقريبا، ولكني نصحت قبطان الباخرة القيام طول الليل بتسخينها بالقدور والغلايات بمطبخ الباخرة، وتوزيعها على جميع الموجودين في السفينة.

وبما أنه قد ظهر على الباخرة حتى هذا الوقت حوالي

ثلاثمئة وخمسين مريضا، فأننا قررنا بالاجماع ارسال برقية سرية الى المجلس العسكري للاسطول الصغير في البحر الابيض. وكان نص تلك البرقية كمايلي تقريبا: "نصابر على الوضع المأساوي الذي يهدد على ظهر الباخرة الفين وخمسمئة شخص، لبضعة ايام بدون طعام. توجد حادثة وفاة وثلاثمئة مريض. لتلافي هذه الكارثة، من الضروري وصول محطمة جليد فورا". وارسلت هذه البرقية وسط الليل باللاسلكي.

واستمروا طوال هذا الليل في مطبخ الباخرة بسلق رؤوس سمك تريسكا، وفي الصباح وزعوها على الجميع، لكل واحد قطعة.

وانتظرنا الجواب. ولكن الجواب لم يصل ولم يصل. وعند نهاية النهار دفعنا التيار بالقرب من سفينة صيد صغيرة، حوصرت مثلنا في الجليد. ومن هذه السفينة بعثوا الينا، بعد بثنا الاشارات عن المأساة، بكيسين من قطع الخبز المجفف. ولم يكن باستطاعتهم ان يعطونا اكثر من ذلك، لأنهم يقفون مثلنا، منذ مدة طويلة هنا ايضا وكانوا يعانون من الجوع كذلك. وحال تسلمنا لهذين الكيسين وزعنا الخبز المجفف، قطعة واحدة لكل شخص.

وكانت باخرتنا ناقلة الخشب، تواصل كالعادة حركتها الى الامام والخلف، في محاولة مستمرة لخلق انطباع باننا ما نزال نتحرك.

وبعد توزيع رؤوس سمك تريسكا وقطع الخبز المجفف

انصرم ذلك اليوم بهدوء نسبي. وحل المساء. وانني سوف لن انسى ابدا هذه الصورة. فالسماء سوداء تقريبا، والقمر لا يكاد يظهر الا قليلا من خلال السحب، بينما تقف من كل جانب وعلى مسافات مناسبة عن بعضها البعض، دزينة من السفن الكبيرة والصغيرة محصورة بالجليد. وفجأة، وفي منتصف الليل لاحت في الامام انوار محطمة الجليد "ستالين". واقتربت الاضوية ببطء نحونا ولكن بثقة. واستيقظت السفينة كلها واحتشد الناس على ظهرها. واقتربت محطمة الجليد اكثر فاكثر. واخيرا بدا ان من الممكن ان يتبادلوا الحديث معنا بواسطة مكبر الصوت. واخذت محطمة الجليد تقوم بالاستدارة لاجل تحطيم الجليد وتهيئة الامكانية لنا للمرور في خط سيرها.

واضيئت الانوار وسط الليل على جميع متون السفن، واخذت كلها بالتحرك. وسعت كل سفينة منها ان تسرع للاقتراب من هذا الدرب الذي شقته محطمة الجليد، ولاجل ان تدخل بالقرب من محطمة الجليد، في تشكيل القافلة داخل مجرى السفن. وقد نجحنا نحن في ان ننتظم وراء محطمة الجليد مباشرة.

وتكدس المسافرون على ظهر الباخرة بشكل كثيف شل البحارة عن العمل. فعلى الرغم من جميع تلك المعاناة التي ما يزال الناس يعيشونها حتى الان، فانهم بعد وصول محطمة الجليد، تملكتهم روح الفرح. لقد كنت واقفا في الاعلى في غرفة دفة السفينة واحتويت بنظري

تلك الصورة كاملة: وهي الحركة في الجليد، واشارات الاضوية الحمراء والخضراء. وسمعت تهشم الجليد، وصراخ قباطنة السفن المنادين بمكبرات الصوت. وبعد ساعات من المناورات انتظمنا كلنا وراء محطمة الجليد وتحركنا بهدوء.

وفي اليوم التالي، في الساعة الثالثة نهارا، غادرنا "سبارتاك، ونزلنا في ميناء سولومبال باطراف آرخانغلسك.

وعند المساء، بعد ما حصلنا على مكان في احدى الغرف العارية بفندق ما يزال قيد التأثيث، تذكرت ان هذا اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني - نوفمبر هو يوم عيد ميلادي. ولم يكن في الفندق موجودا لا مطعم ولا غرفة طعام ما عدا غرفة واحدة خصصت كمقصف، ولهذا فاننا بعد المجاعة، حصلنا من هناك على قنينة خمر وشيء من الطعام، وشربنا في غرفتنا نخب صحتي.

وفي المساء استطعت وانا مندهش، ان اتصل بموسكو هاتفيا من غرفة مدير الفندق، ورن فجأة جرس جهاز الهاتف في الشقة المشتركة التي يعيش فيها ابي وامي العجوزان. وتناولت السماعة شقيقة والدي، العمة فاريا، وعلمت منها ان الوالد والوالدة وجميع الناس الاخرين من اقربائي قد غادروا موسكو الى المهجر، منذ نهاية تشرين الاول - اكتوبر.

لقد تأخرنا في آرخانغلسك، في محاولة لان نستقل

طائرة الى موسكو. واننا فضلنا الطائرة باعتبارها، حسب تصورنا آنذاك، الوسيلة الاكثر ضمانا. فالطائرة باستطاعتها ان تهبط في موسكو باية صورة من الصور. اما الطريق الشمالية التي سنسلكها، فمن الممكن ان تكون مقطوعة في هذه الايام.

ونسيت ان اقول ان اورتينبيرغ قد ارسل الى مورمانسك في اثر البرقية الاولى التي استدعاني بها الى موسكو، برقية ثانية طلب فيها بان اقوم قبيل المغادرة، بكتابة تحقيق صحفي للجريدة عن البواخر الانكليزية والامريكية التي وصلت محملة بالبضائع الى موانئنا. ان هذا لم يكن من الممكن تنفيذه في مورمانسك، لان في تلك الايام لم تصل الى هناك الا البواخر الحربية الانكليزية، اما في آرخانغلسك فقد جربت ان اقوم بذلك في نفس الوقت الذي انتظر فيه الطائرة.

وذهب المصوران يلتقطان صورا للطيارين، بينما رجوت مترجمة لدى البحارة، ما تزال فتاة صغيرة جدا، كانت تسعى جاهدة لهذا السبب بالذات، ان تكون وقورة بصورة خاصة، والتي وصفتها بسبب وقارها بهذه التسمية، وليس بغيرها "الرفيق الضابط البحري للتموين الفني تمارا بلاتونا"، رجوتها ان تذهب الى فتارايا باكريتسا، للمكان المفترض موقفا للقافلة البحرية. غير انه عندما وصلنا الى هناك، اخبرونا ان البواخر الانكليزية

التي من المفروض ان تصل الى هنا، لم تصل بعد. ويبدو ان الناس الذين استمعوا الينا هنا كانوا متفائلين، ولا يكترثون باحوال الجليد في دفينا الشمالية.

ومن جراء انتظارنا للطائرة، فاتنا احد القطارات، غير اني خلال هذا الوقت انجزت ثلاثة اعمال، فبعد ان علمت بتكريم الطيارين الانكليز الذين ورد ذكر اربعة منهم في تحقيقي الصحفي "اللغة المشتركة"، قمت بارسال هذا التحقيق عبر خط الهاتف العسكري الى موسكو بعد ان ظل عندي دون ان ارسله من مورمانسك في حينه. وكتبت في خلال يوم واحد قصيدة "ابن المدفعي"، ثم في اليوم التالي انتهيت من انجاز ديوان شعر صغير "معك وبدونك"، بعد ان كتبت الاشطر الاخيرة من قصيدة "تهيأت ان لا اراك سنة كاملة..."

وكنت آنذاك في حالة نفسية متكدرة، ولم يكن واضحا كيف تتقلب الامور كلها في حياتي الشخصية، بحيث انني كنت مسافرا الى موسكو وانا اتصور ان الحالة القائمة هناك هي اكثر صعوبة مما كانت عليه في حقيقة الأمر، ولكوني اجهل عموما ماذا سيجري لي هناك في المستقبل، ورغبة مني في ان لا يضيع مني هذا الديوان من الشعر الذي انجزته الان، قمت بمساعدة الكاتب الاكرايني خولش، الذي هو المحرر الجذاب للجريدة العسكرية المحلية، باستنساخ الديوان على الالة الكاتبة خلال يوم واحد، بل وحتى بتجليده، وبترك نسخة منة للطوارىء

في آرخانغلسك، لدى اندرييف مدير مسرح آرخانغلسك.
وبشأن الطائرات فانها ما طارت ولا طارت ابدا. واننا بعدما فوتنا قطارا آخر، قررنا مع ذلك، السفر بالقطار التالي، بغض النظر عن الطقس. وفي صبيحة اليوم الثاني من كانون الاول - ديسمبر استقلينا القطار المتوجه من آرخانغلسك الى موسكو.

وتسلم زيلما في عشية السفر برقية من رئاسة تحرير جريدة "ازفيستيا"، طلبوا منه فيها ان لا يتوجه من آرخانغلسك الى موسكو، بل الى تيخفين مباشرة، حيث من الواضح ان الأحداث تغلي هناك. وفي هذه الايام اعتدلت المعنوية بعض الشيء، حيث كانت قد وصلت اول الاخبار الحسنة من قرب رستوف. ولكنه بصدد موسكو نفسها فلم يصل الى السمع بعد كالعادة، اي شيء من ذلك الذي يشيع الاطمئنان.

حزن زيلما في الطريق، اذ كان راغبا بالسفر الى موسكو معنا. وفي اثناء التوقف في مدينة فولوغدا، حيث كان يجب عليه ان يغادرنا، تقاسمنا معه زاد السفر. وعلق على كتفه كيس متاعه، ثم رافقناه الى نهاية رصيف المحطة. لقد كان محزنا حقا ومثيرا للهلع فراقنا معه. وان هذا التوقع قد صار حقيقة فيما بعد، اذ ان زيلما قد وقع تحت قصف غارة جوية في ضواحي تيخفين واصيب اصابة شديدة، رقد من جرائها عدة اسابيع في المستشفى. ولم التق به مرة اخرى الا بعد مرور نصف عام.

وتحركنا بسرعة تفوق ما كنا نتصوره، وبعكس جميع توقعاتنا، ووصلنا في يوم ٤ كانون الاول، ديسمبر نهارا الى فوسبول. وان اسم هذه المحطة قد اثار عندي قلقا حتى من قبل مدة طويلة على وصولنا اليها. ففي هذه المنطقة بالذات، يجب ان اسأل، هل ان القطار سيذهب من هنا عبر يارسلافل الى موسكو مباشرة، او انه اذا كان ذلك غير ممكن، فسيغيرون خط سيره من فوسبول نحو الشرق، الى فياتكا، ومن ثم يرسلونه بخط التفافي.

وبعد توقف لعدة ساعات في فوسبول، تحرك القطار بنا نحو موسكو مباشرة، الامر الذي خفف من غيوم الكدر على نفوسنا. وفي صباح اليوم الخامس، وصلنا الى الكساندروفسك، حيث لم يبق امامنا من الطريق الى موسكو سوى مئة كيلومتر. ولكننا عندما توقفنا في الكساندروفسك مدة خمس ساعات كاملة خيم على نفوسنا الفزع مرة اخرى: فلماذا هذا التوقف الطويل، وهل اننا نتوجه فعلا الى موسكو؟

وفي الاخير، ورغم كل شيء، تحركنا من الكساندروفسك وصرنا نقترب من موسكو بخطى السلحفاة. ومن خلال النوافذ مرت محطات القطار المعروفة بضواحي موسكو، والبيوت الصيفية ومفترقات الطرق، وارصفة المحطات. وعلى الخطوط الاحتياطية للسكك الحديد، توقفت عربات كثيرة محطمة او محروقة. وكانت واضحة، اثار انفجارات القنابل. وكان يبدو لي غريبا، كما هو شأني من قبل، ان تقترب الحرب

فجأة الى هذه المناطق التي اعرفها، او الى مناطق كثيرة عرفتها من قبل الحرب، ولكن من الارجح ان هذا لا يكون في اي مكان آخر، بمثل هذه الغرابة كما هو عليه الان هنا في مناطق البيوت الصيفية بضواحي موسكو.

وفي الساعة العاشرة والنصف مساء، توقف القطار عند رصيف محطة ياروسلافل. ولم يبق من المسافرين بالقطار حتى موسكو الا القليل من الناس. ففي عربتنا بلغ عدد الذين واصلوا السفر ثلاثة اشخاص ما عدانا.

كان الجو في موسكو باردا. وعبر الرصيف المتجمد، ورجع الصدى فيه، مشينا الى داخل المحطة. وكانت المحطة باردة ونظيفة وخالية. فلا توجد اكياس كبيرة ولا صغيرة، ولا نساء مولولات ولا اطفال، ولا اي احد. وفي بهو المحطة كان افراد الميليشيا يحرسون لوحدهم.

وفاتني القول، انني لم استطع ان اتصل هاتفيا من آرخانغلسك برئاسة التحرير في الجريدة لان جميع اجهزتنا الهاتفية كانت لا تجاوب، سواء التي في مالودسيتروفكا بالمبنى القديم، او مكانها الاخير الذي سافرت منه، او في اقبية مسرح الجيش الاحمر. وهنا في موسكو فقط، علمنا، بعد ان اتصلت هاتفيا من المحطة بجريدة "برافدا" ان هيئة تحرير "كراسنايا زفيوزدا" "موجودة الان في نفس المبنى الذي فيه جريدة "برافدا". واتصل ميشكين هاتفيا بالسكرتير الفني لهيئة التحرير، وان ذلك قال بدوره انه سيبعث الينا بسيارة بعد عشرين

دقيقة.

لم تكن الساعة بموسكو في العاشرة والنصف بل في التاسعة والنصف على الارجح، لان عربات الترام ما زالت تعمل. ومما اثار عندنا الدهشة، ان في موسكو المظلمة، الخالية تماما، تسير كالعادة، عربات الترام. وانها ولو كانت مظلمة بدون نور، الا انها عربات ترام على كل حال.

وطار من بالي الحديث عن موضوع مضحك، ولكنه ما كان يبدو لنا مضحكا في وقته آنذاك. فعندما بقي لنا عشر كيلومترات حتى نصل الى موسكو، وعندما كنا نتطلع بفارغ صبر من خلال نوافذ العربة، رأينا فجأة، خلال الظلام المطبق، وميض اضواء في الاتجاه الذي تقع به موسكو. ولم نجد لذلك من تفسير غير ذلك الذي يفيد ان مدفعيتنا تقصف الالمان في ضواحي موسكو.

ان مدفعيتنا كانت بالفعل، تضرب الالمان في تلك الايام، من الضواحي البعيدة لموسكو، غير ان ما رأيناه لم يكن وميض اطلاق القذائف. فاننا عندما خرجنا الى ساحة كومسومولسك المظلمة، ادركنا بان الوميض الذي شاهدناه عن بعد في الظلام الدامس وميض الشرر بأقواس الكهرباء لعربات الترام.

وصلت الينا السيارة بعد عشرين دقيقة فعلا. وانا الان لم اعد اتذكر من هو السائق من الجريدة الذي نقلنا في ذلك المساء، ولكنني اتذكر كيف سألناه عن موسكو،

ومـاذا يجـري والى كـم اقـترب الالمـان، وهـل ان مـوسـكـو هـادئة؟ وهـل يقصفونها بـاستمـرار؟ وهـل جميع العـاملـين في التحـريـر احيـاء؟ وقـد اعطـانـا الـسـائق عـن جميع الاسئلـة اجـوبـة اكـثر استقـرارا ممـا كـان بـاستطـاعتنـا ان نتـوقعـه.

وفي الطـريـق الى الجـريـدة عـرجت لـدقيقة واحـدة، على بـتروفكـا لـرؤيـة العمـة فـاريـا. وقـد قبلتـني ودسـت في كـفـي رسـالـة مـن امـي، ثـم ذهبـت الى الجـريـدة، بـعـدمـا تـركـت في البيـت هنـاك كيـس المتـاع، ووعـدت العمـة بـأني سـأعـود للمبيت.

وفي بـدايـة الـسـاعـة الحـاديـة عشـرة، صعـدنـا الى الطـابـق الـرابـع في جـريـدة "بـرافـدا"، حيـث التجـأت هنـاك جـريـدة "كـراسنـايـا زفيـوزدا"، وشغلـت فيهـا عـدة غـرف. وكـانـت هيئـة تحـريـرهـا بمـوسـكـو تتـألـف مـن اثـني عشـر شخصـا وهـم: اورتينبـيرغ، وكـاربـوف، وكـابيلـوف، وفيستينيتسكي ومـديـر قسـم المـراسلـين الصحفيـين بيلينسـون، ومـديـر القسـم المـالي اوديتستـوف الـذي يطعـم ويسقـي هيئـة التحـريـر، واثنـان بكتـابـة الاخـتزال واثنتـان للضـرب عـلى الالـة الكـاتبـة. وبـالاضـافـة الى ذلـك يـوجـد عـدد مـن المـراسلـين الصحفيـين الـذيـن كـانـوا يتحـركـون يـوميـا بـين ادارة التحـريـر والجبهـة لكتـابـة التحقيقـات. ومـن بـين هـؤلاء، خبريـن وميليتسكي. وشغلـت اسـرة تحـريـر الجـريـدة كلهـا سـت غـرف فقـط في جنـاح من الطـابـق الـرابـع.

ولاول مـرة خـلال جميع الاوقـات السـابقـة، شعـرت هنـا

بالذات، بذلك الحجم الكبير من الانقطاع عن موسكو، وبالحالة التي كنت فيها خلال الفترة الاخيرة في الشمال. وقام الزملاء باطعامنا واسقائنا انا وميشكين، وسألونا عن بعض القضايا، وامتدحونا على بعض التحقيقات الصحفية، واطرونا ببعض الكلمات الحسنة الدافئة، ولكني كنت طول هذا الوقت احس بشيء واحد وهو : انني اخيرا بموسكو. وبالرغم من هذا الوجود فلم استطع الأئتلاف مع هذه الفكرة. وفي هذا اليوم ادركت، ولاول مرة كما يبدو، الى اي مدى احب انا هذه المدينة اكثر من كل شيء في العالم.

وفي منتصف الليل حضر اورتينبيرغ. ودخلت عليه. وبدأ يسألني بدوره عن الرحلة. وانطلقت فورا من مكان العمل، بقراءة قصيدة "ابن المدفعي" بصوت مسموع. وسرعان ما دخلت هذه القصيدة للنشر في العدد.

وبعد ان تحدثنا حتى شبعنا من الكلام رجعت الى بيتي في بتروفكا، وذلك في الساعة الثانية ليلا، وتوقفت في طريقي عند كل تقاطع من قبل رجال الحراسة. وسقتني عمتي القهوة، وحدثتني عن مختلف الاوضاع في الحياة بموسكو في اثناء غيابي. وانني هنا بالذات فقط، استطعت ان أقرأ رسالة امي بهدوء.

ان والدتي - وهي كبيرة الشبه بعمتي - كانت تعبر في رسالتها عن القلق اكثر من اي شيء آخر، من انني يمكن ان اظن بأنها غادرت موسكو خوفا. وكتبت تقول، ان

السبب الوحيد لمغادرتها هو الخوف من ان تجد نفسها مقطوعة عني. وانني لمعرفتي بأخلاقها فلم يكن من الصعب علي ان اصدقها في كلامها.

وفي يوم وصولي من السفر، افرحني اشد الفرح ذلك الشعور العام، سواء في هيئة التحرير او في موسكو عموما، بأنهم لن يسلموا موسكو ابدا. لقد كان الاحساس هناك، يشبه النابض الفولاذي المضغوط حتى النهاية، بحيث لم يبق متسع لان يضغط اكثر من ذلك، بل لان يطلق فقط للضرب. والناس في هذه الايام، كلما كانوا ابعد عن موسكو، كان فزعهم عليها وعلى مصيرها اكبر، اما في موسكو نفسها فقد كانت تسود الثقة ويعم الهدوء. وما ان بقيت بها ساعة لا أكثر، حتى شعرت فعلا بأنهم لا يسلمونها ابدا.

وفي اليوم السادس صباحا، سلمت الى رئاسة تحرير الجريدة تحقيقا صحفيا شماليا آخر. ومنذ الصباح كانت المعنويات عالية لدى الجميع: فقد اخذت تتوارد اولى الاخبار حول قواتنا التي شرعت بشن الهجوم.

وعندما تم تنضيد مقالتي الخاصة مساء، حول عمليات زوارق الطوربيد في بحر بارينتس، وجرى تصحيحها وتم صفها بين الاعمدة،علمت انه عاد الى موسكو من الجبهة كل من تروشكين وكريغير، وبعدما اتصلنا هاتفيا معهما، ذهبت لرؤيتهما في شقة كريغير. وهذه الشقة كانت باردة ورديئة الاضاءة، ورغم ذلك فان الجلسة المنزلية امر

جيد، بعد كل تلك الجولات والتنقلات في الفترة الاخيرة.

لا اعلم ان كان من الممكن ان يتكرر هذا معي في وقت ما. غير ان تلك الايام من كانون الاول - ديسمبر، بموسكو، ما تزال حتى الان عزيزة على قلبي بخصائص معينة. فان الجبهة كانت على درجة من الاقتراب، بحيث ان جميع المراسلين الصحفيين كانوا مربوطين بالهاتف كما يقال. وفي خلال اية خمس عشرة دقيقة، كان بالامكان ارسال سيارة الى اي واحد منا ليرتدي معطف الفرو القصير، ويكون في الجبهة في ظرف ساعتين. وبالمناسبة القول، ان معطف الفرو القصير والجزمة اللبادية والسلاح، وكل ما ينبغي حمله في السفر على العموم، موجودة كلها تحت اليد دائما، او في سيارة "ايمكا" حسب الامكانية.

ان حياة الاقامة في الحامية العسكرية ليست لم تعد لازمة وضرورية فحسب، بل وامرا مألوفا. فان العمل والنوم والشرب والطعام موجود هناك ايضا حيث انت تعمل. والجميع يبذلون جهدهم للبقاء واحدا قرب الاخر بشكل اكثر، حيث ان الانعزال وحيدا صار ممجوجا من قبل الجميع.

وبسبب قرب الجبهة، ولأن من الممكن الذهاب صباحا الى الجبهة والعودة منها في آخر النهار، ومن ثم تذهب مرة اخرى اليها في اليوم التالي وتعود، نشا احساس غير محدد بسرعة الحياة، يحث على المجازفة وعدم الرغبة

في ارجاء اي عمل الى اليوم التالي. وكانت هناك جلبة غير مفهومة ولكنها مستحبة. وان كل ما كان لدينا ننجزه بوفاق اخوي، ولم يخطر على بال اي واحد منا ان يضع ابعد من الخطط الجارية، وان يبني حياته وعلاقاته مع الناس ولو لمدة اسبوع قادم. فكل شيء كان يبدأ اليوم وينتهي غدا.

وفي ذلك المساء، بعد الجلوس والحديث عدة ساعات حول المائدة، فاننا كلنا قد تمددنا ونمنا في نفس هذا المكان عند كريغير. اما في الصباح فان سائق كريغير، الذي جاء من اجل تروشكين، قد دخل وهو يردد بأن اليابان قد اعلنت الحرب على امريكا وانكلترا.

ولم يكن عندي اي توقع آنذاك ابدا ان تتجه الاحداث الى تلك الجهة التي سارت بها. فقد كنت اتصور بأن من الواضح، ان لم يكن اليوم فغدا، ستبدأ عندنا حرب ضد اليابان. وصرنا من جراء ذلك النبأ في اضطراب عام، فذهب كريغير وتروشكين فورا الى عملهما في جريدة "ازفيستيا"، بينما اوصلني السائق الى جريدة "برافدا". وفي الطريق عادت الى مخيلتي صور سهوب خالخين - غول، وتصورت بأني سأقع في الشرق الاقصى مرة اخرى.

وكتبت في ذلك اليوم تحقيقا صحفيا آخر عن الشمال وسلمته. وفي المساء ذهبت مع تروشكين وكريغير وزوجة بتروف الى نادى الكتاب الذي كان خاليا آنذاك تماما.

ويجب القول انه لم يبق من الكتاب بموسكو في هذه الايام من كانون الاول - ديسمبر الا القليل منهم. وكان بتروف و ليدوف يعملان في جريدة "ازفيستيا"، وستافسكي في جريدة "برافدا". وكان يكتب في الجرائد دون ان يتحرك من موسكو، الشيخ نوفيكوف - بريبوي، اما البقية الباقية من الكتاب كلها تقريبا فقد كانوا اما في الجبهات او في اماكن الهجرة.

كان النادي فارغا تماما في هذا الليل الشتوي، ولم يكن به احد غيرنا. وجلبوا الينا طعاما لذيذا، حسب مقاييس تلك الايام، وشرابا، وبقينا جالسين حول المائدة حتى الصباح.

ان جينيا بتروف، عندما يصغى الى الشعر، فان بامكانه ان يجلس عدة ساعات، دون ان يغادر مكانه وراء البيانو. فقد كان يملك اذنا مرهفة السمع، وذاكرة موسيقية رائعة. وكان يعزف على البيانو مقاطع من بعض الالحان مرة، ومقاطع راقصة مرة ثانية، وطرفا موسيقية مرة ثالثة.

لقد كان ذلك ليلا صاخبا وجميلا، سوى ما القته عليه من ظل طفيف من الحزن، الدار الضخمة الخالية تماما. وافترقنا عندما طلع النور. وكان الجو صقيعا باردا، والاشجار مغطاة بالندى، وشارع فاروفسكي يبدو شارعا مشجرا قادما من الحكايات التي قراناها في عهد الطفولة. كما اني لم اشاهد ابدا مثل ذلك الندى

الجميل الراقد على كل شيء، على البيوت والاشجار والاسلاك.

وفي عشية هذا اليوم حجزت سكرتارية تحرير الجريدة مكانا لي في فندق "موسكو". وجئت الى الغرفة الكبيرة الخالية في الصباح الباكر. وانني لا استطيع ان اتذكر صباحا آخر بمثل ما كان عليه ذلك الصباح من حزن. وفي الجريدة كان الجميع ما يزالون نياما بعد انجاز العدد. واتصلت بهم في الجريدة، وفكرت بأن اقوم بعمل، ولكن كاتبات الطابعة لسن موجودات في اماكنهن. وما عدا رفاقي أولئك الذين امضيت معهم هذه الليلة، لم يكن عندي في موسكو ولا شخص واحد من الذين اعرفهم واستطيع ان اكلمه بالهاتف. فان سوركوف وسلابودسكوى موجودان مع قطار جريدتهم الجبهوية حاليا في اوبيرالوفك، على بعد بضع عشرات الكيلومترات الى الشرق من موسكو. وبسبب ان هذه الجريدة قد استقرت في قطار، وان هذا القطار قد وضعوه في اوبيرالوفك، فان الظروف قد شاءت ان تكون اربع جرائد مركزية، موجودة في هذه الايام بالذات، اقرب الى الجبهة الامامية من جريدة الجبهة الغربية.

ويقال بالمناسبة بأن رئاسة تحريرها يجب ان تنتقل الى موسكو بين يوم وآخر.

ومنحوني يومين اضافيين لأجل ان انتهي تماما من الكتابة عن الرحلة الى الشمال. وبدأت بكتابة تحقيق

صحفي " من عائلة واحدة". وفي اليوم التالي مللت من حياة الفندق ورجعت الى مقر تحرير الجريدة، حيث افردوا لي فيها الغرفة التي تحتوي على جرارات بطاقات الارشيف. ووضعوا لي فيها اريكة ومنضدة.

واخذ الوضع ينجلى على الجبهة، والهجوم يتطور، وصاروا يستدعون الى موسكو واحدا بعد آخر، الناس الذين ذهبوا الى قازان، قبل هذا الحين بأمر من رئيس التحرير، حيث كانت جاهزة للعمل هناك رئاسة التحرير، الرديف لجريدة "كراسنايا زفيوزدا" بموسكو. فقد وصل غابريلوفيتش، ومن بعده بافلينكو. وفي التاسع من كانون الاول - ديسمبر، كما أظن، علمت ان سوركوف وسلابودسكوى قد عادا مع ادارة تحرير جريدتهما "كراسنوآرمييسكايا برافدا"، من اوبيرالوفك الى مبنى "غودكا".

وفي هذه الايام بالذات تقرر ان القي كلمة بالاذاعة. وكان من المقرر ان اتلو بعض القصائد الحماسية، ومن بينها قصيدة "انتظريني" وهي لما تنشر بعد .وقبل ان اذهب الى الاذاعة هرعت الى جريدة "كراسنو أرمييسكايا برافدا" بالسيارة، ووجدت هناك في غرفة صغيرة فيرييسكي وسلابودسكوى وسوركوف، الذي لم اعرفه من الوهلة الأولى، اذ كان بشاربين حنطيين رجوليين اشقرين مثل تشابايف (تشابايف واحد من القادة العسكريين الثوريين في ثورة اكتوبر الاشتراكية

والحرب الاهلية ـ المترجم).

وبعدما تبادلنا القبلات، جلسنا مدة عشر دقائق نتساءل من بعضنا البعض عن الاحداث التي مرت بنا خلال تلك الشهور التي افترقنا بها، بعد الجبهة الغربية. ومن ثم قرأت على اليوشا (اسم سوركوف ـ المترجم) القصيدة المكرسة له "أتذكر اليوشا دروب كولينشينا"، فاهتزت مشاعر العجوز ومشاعري انا ايضا. ومن تحت السرير جرى سحب قنينة الخمر التي احتسيناها بلا طعام، لان الطعام كان غير موجود.

وفي الساعة الثامنة تماما، وبعد ان نظرت في الساعة لاول مرة، رأيت بفزع، انه كان يجب ان اكون في هذه الدقيقة بالضبط قد بدأت بالقائي الكلمة في الاذاعة.

وقفزت الى الاستوديو امام الحارس المندهش، ولحقت بالمذيع الذي كان يقرأ بالقصيدة الثالثة من قصائدى الاربع المختارة لهذا البرنامج. ولم يبق لديه سوى ان يقرأ القصيدة الرابعة منها فقط وهي " انتظريني". وقد اردت على كل حال، ان اقرأ ولو قصيدة واحدة بصوتي، وبالاخص هذه القصيدة. ان الكلام بالاذاعة، يعني ان الانسان في هذا اليوم وهذه الدقيقة بالذات حي ومعافى. وسيعرف عن ذلك، اؤلئك الذين هم بعيدون جدا عنه الان. واعطيت للمذيع اشارات بأنني احب ان اقرأ البقية بنفسي، ووقفت الى جانبه، وسحبت من يده ورقة القصيدة

"انتظريني"، ولم يكن بوسعه اكثر من ان يعلن بان القصيدة "انتظريني" يقرأها الشاعر نفسه.

لا أتذكر انا شخصيا كيف قرأت القصيدة آنذاك.

وفي اليوم التالي جاءني الى "غرفة الارشيف"، سوركوف وسلابورسكوى وبوريس رونين وقرأت على مسامعهم كل قصائد الديوان الصغير "معك وبدونك" من البداية حتى النهاية. وقد كانوا مقتنعين، مثلما كنت مقتنعا، بانه لا يجوز ان يطبع حتى تنتهي الحرب، وامتدحوني في نفس الوقت، وابدوا اعجابهم لكوني نظمت ديوان شعر عن الحب.

ان هذا كان بالنسبة لي، مساء مهما كل الاهمية. فقد انفعلت انفعالا شديدا قبل ان اقرأ للشباب جميع قصائد هذا الديوان الذي لم يصدف حتى الان ان قرأته كله على احد في الواقع، قصيدة بعد اخرى.

وفي هذا المساء جاء خبر عن احتلال يليتس من قبل قوات الجبهة الجنوبية الغربية. وتطوعت للذهاب الى هناك بالطائرة. واعطونا وعدا بان يضعوا تحت تصرفنا طائرتين من طراز أو-٢، ومن ثم في صباح اليوم التالي، يجب ان نطير الى مكان قريب من يليتس اربعة افراد هم فيسكواوستروفسكي وانا ومصوران صحفيان هما بيرنشتين وتيمين.

غير ان المطار في الصباح لم تكن به جاهزة الطائرة أو-٢، كما هو مألوف. وبعد ذلك تأخر احد الطيارين في مكان ما، ومن ثم لم يكن الجو ملائما، وفيما بعد لم

نقدر ان نحرك ابدا الواح التزحلق التي تقف عليها الطائرة من مكانها. ولكننا رغم كل هذا تمكنا اخيرا من الطيران، وفي جو من الرياح الشديدة جدا، وانطلقنا نتأرجح محلقين فوق سقوف مساكن موسكو نفسها.

حلقنا عبر ريازان ووصلنا الى هناك في الساعة الثالثة نهارا بالضبط. والى ان ملأوا خزان الطائرة بالوقود، وتناول الطيارون غذاءهم، تبين انه قد تأخر الوقت للطيران بنا الى يليتس. وبعد الغداء استلقينا للراحة اثر حديث مع آمر المطار قوميسار كتيبة الخدمات في المطار. وتقرر ان يكون الاقلاع بنا مبكرا.

واضطجع الطيارون للنوم ايضا، غير عابئين ان يفحصوا قبل ذلك حالة وضع وتثبيت طائراتنا في المطار. وفي خلال الليل اشتدت زوبعة ثلجية مخيفة. وعندما ذهب الطيارون في الصباح الى مدرج الاقلاع، لم يجدوا هناك للطائرات من اثر. وهرعوا راكضين يبحثون عن الطائرات، وعادوا في نهاية المطاف ليعلنوا وهم في فوضى تامة، بان طائراتهم قد اختطفت من قبل اناس مجهولين. وكما يحصل في مثل هذه الحوادث، فقد ظهرت اشاعات مختلفة حول ان احدهم قد رأى نوعا من الطائرات المجهولة ترتفع في الهواء، وهكذا الى آخر امثال هذا الكلام.

ولكوني بطبيعتي نزقا في التصديق، فقد اخذت سيارة التجهيز بالبنزين، وسرت ابحث في المطار. وبعد تفتيش غير طويل على بعد كيلومترين من تلك المنطقة التي حطت

بها الطائرتان يوم امس وجثمتا في الطرف الاقصى من المطار، عثرت على الطائرتين المفقودتين اللتين مالتا بشكل يخفى عن العين. فقد كانتا متوقفتين غير بعيد الواحدة عن الاخرى. وقد تحطم الجسر في واحدة منهما وعكازة الوقوف لدى الاخرى.

وعندما اقتيد الطياران الى الطائرتين اللتين عثر عليهما ظهر ان اصلاحهما يحتاج الى يوم او يومين.

من الواضح للعيان، ان تفسير ذلك يمكن ان يكون عائدا لسبب واحد فقط، وهو ان الزوبعة الثلجية القوية جدا، كانت ريحها تهب باتجاه انحدار مدرج المطار نحو تلك الوهدة التي في اخره، حيث انجرفت فيها الطائرتان في نهاية الامر. وكانت الطائرتان تقفان على الواح التزحلق بدون تثبيت. ومن المرجح انهما اندفعتا لهذا السبب، من مكان وقوفهما وتحركتا الى هناك.

ومهما كان التفسير، فان الطائرتين، اذا لم يجر اصلاحهما خلال اليومين القادمين، فليس من الممكن مواصلة الطيران عليهما. وبسبب هذا الحادث الارعن فاننا سوف لا نستطيع الوصول في الوقت الراهن الى يليتس قبل ان نمكث مضطرين، مدة يومين في ريازان. وماذا في وسعنا ان نفعل؟

وجاء في نبأ صباحي عاجل، ان قواتنا حررت مساء امس مدينة ميخائيلوف. وهي تقع على مسافة مئة كيلومتر عن ريازان تقريبا. وتشاورت مع الزملاء، وقررت ان من

الافضل ان نتوجه الى ميخائيلوف بدلا من الجلوس هنا، وذلك لكتابة اي موضوع مهما كان. اما هناك فسيكون لكل حادث حديث. واتفقنا على هذا القرار.

اعارنا آمر كتيبة خدمات المطار، سيارة شحن صغيرة وبطانيتين. وكانت درجة الحرارة قد انخفضت الى خمس وثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. وركبنا في سيارة الشحن، واحد الى جانب السائق، والاخرون في الحوض الخلفي. ومع اننا كنا نتبادل الامكنة من وقت لاخر في السيارة، الا اننا رغم ذلك، فقد تجمدنا من البرد. وفي عرض الطريق تعطلت سيارتنا على بعد سبعين كيلومترا من ريازان، اذ توقف عن العمل بها، جهاز الربط (كليج) ولم يعد بأمكانها مواصلة الحركة. ابعد من ذلك. وهي كانت من البداية رديئة الحركة، وتوقفت في الطريق عدة مرات، اما هذا التوقف الاخير فقد حدث عند اقتراب حلول الليل. ومن حسن حظنا ان عطل جهاز ربط الحركة بالسيارة، قد وقع بالذات عند درب يؤدي الى قرية. وقمنا بدفع السيارة بايدينا الى حافة الطريق، وذهبنا الى اقرب كوخ في القرية. وظهر ان صاحب هذا الكوخ عجوز هو مدير فرقة الاطفاء المحلية. وعلى ضوء حديثه يبدو انه شخصية اجتماعية فعالة، الا انه بحسب مظهره يبدو مراوغا محترما. انه اقترح علينا ان نقضي الليلة عنده. وكان الكوخ صغيرا جدا يصلح قنا للدجاج. وكان يلوح من وراء السياج بين فترة واخرى رأس امرأة

عجوز تتكلم صارخة بامتعاض.

- قال الرجل العجوز- انها جافة معي. نعم انها جافة ومع ذلك، فهي هنا معي. انني رجل كريم. ومهما يكن الذي يأتي الى هنا عندي، فانني أكون سعيدا. ولكن بصدد الفودكا، هل عندكم شيء منها؟

اجبناه بأننا ليس عندنا فودكا بل اسبيرت.

- وافق العجوز بهمة قائلا- وليكن اسبيرت. وانا عندي شحم. ومن الممكن ان نجد بطاطا. ان امرأتي العجوز مستاءة بسبب ان بعض الناس كانوا هنا، وهي قدمت لهم الشحم والبطاطا، اما هؤلاء فانهم ذهبوا بدون تقديم الحساب. ولهذا فهي عندي الان تشاكس وتعاند. وماذا باستطاعتي ان افعل، فانهم اناس مجندون، انهم جنودنا، ولم يدفعوا، نعم لم يدفعوا بالتأكيد. وهذا امر مؤلم للعجوز.

لقد صار واضحا لنا من كلمات الرجل العجوز هذه، انه يعرف معرفة رائعة، كل شيء وثمنه، فاذا ما الحنا له باننا لن نتصرف باي حال من الاحوال مثل اولئك الجنودالخرافيين الذين اثاروا غضب المرأة العجوز. ثم اذا استضفناه فوق ذلك بالاسبيرت، فاننا سنحصل على كل ما نحتاج اليه من الشحم والبطاطا.

وهكذا سارت الامور. فالمرأة العجوز سلقت لنا قدرا من البطاطا مع الشحم، ونحن اخرجنا الاسبيرت. ولكوننا بردنا بردا شديدا خلال النهار فقد اكلنا الغداء بشهية

فـائقـة. وشـرب الـرجـل العجـوز في البـدايـة الكـأس الاولى بتعطش، ومن بعد ذلك أخذ يشرب الكأس الثانية بنوع من التخفي، ويتلفت متطلعا عبر الحاجز بالقول "ليت ان العجوز لا تراني".

- سألناه - واذا رأتك؟

- انها تتشاجر ولا تسمح لي بالشرب.

وعندما شرب الكأس الثالثة ضبطته المرأة العجوز بالجرم المشهود، رغم حذره منها، واقتربت من المائدة، والقت علينا نظرة طويلة متسائلة وقالت:

- ما بالكم تعرضون عليه، ولا تعرضون علي انا ربة البيت؟

وادركنا لتونا، ان الرجل العجوز كان يريد ببساطة ان يحرم زوجته العجوز من الشرب، عندما كان يخفي عنها اننا نقدم اليه الاسبيرت. وشربت الجدة معنا وتوقفت عن دمدمتها فورا.

ولكنه مهما كانت لذة البطاطا والشحم، فان من الضروري القيام بمحاولة الاتصال هاتفيا بكتيبة خدمات المطار، لغرض ارسال سيارة اخرى لمساعدتنا. وقررنا ان نسير منذ الصباح الى ميخائيلوف بانفسنا باية وسيلة نقل مهما كانت، غير انه يجب ان نعالج مشكلة هذه السيارة بصورة من الصور.

وذهبنا اولا الى مجلس القرية المحلي. فلم نجد احدا هناك. والزجاج محطم، وبخار الثلج مخيم في

داخله، وكانت هذه آخر قرية دخلتها قوات الاستطلاع الالمانية قبل بضعة ايام مضت وذلك في اثناء هجومهم الذي شنوه جنوب موسكو. فقد اندفعت قوة الاستطلاع الى هذه القرية، وقتلت اثنين من رجال الميليشيا ثم ذهبت. وكان جهاز الهاتف موجودا في القرية الا ان السلك مقطوع.

ومن المجلس المحلي للقرية ذهبنا الى مستشفى القرية. وكانت فيه نقطة اسعاف اولية للجرحى. وتمارس فيها الخفارة ممرضتان اثنتان ما تزالان صبيتين صغيرتين. وانهما عرضتا علينا ان نبيت كلنا الليلة في دار صغيرة عائدة الى المستشفى. وسقيتانا الشاي وادارتا جهاز غراموفون ـ حاكي قديم ذا بوق. وقد جلسنا هناك ساعتين سعداء بمثل هذه الاشياء البسيطة كالشاي الساخن وموسيقى الحاكي والغرفة الدافئة. ومن بعد ذلك استلقينا للنوم جنبا الى جنب على الارض فوق بعض الحشايا التي اخذناها من المستشفى.

وفي الصباح ذهب السائق الى قرية مجاورة كي يتصل هاتفيا بدائرته في كتيبة خدمات المطار، اما نحن فقد صعدنا في سيارة شحن عابرة، ووصلنا بها بعد ساعتين الى ميخائيلوف.

وكانت مدينة ميخائيلوف، اول مدينة، انتزعت بهذه الجهة من قبل الجيش العاشر بقيادة الجنوال غوليكوف. وتحركت قيادة الجيش عند الفجر الى الامام نحو

يبيفانا، التي تم احتلالها حسبما يقال، يوم امس مساء. اما هنا فقد بقي فقط قسم التوجيه السياسي وجزء من المقر.

ولن انسى ابدا ذلك الشعور من الفرح الذي دخلت به الى ميخائيلوف. فان هذه المدينة صارت بالنسبة لي، وهي بتلك الصورة التي كانت عليها في ذلك الصباح، اول دليل واضح على هزيمة الالمان. فهذه المدينة الصغيرة كانت مكتظة بالسيارات والدبابات والمدرعات الالمانية الصالحة منها والمدمرة. ووقفت سيارات الشحن، وسيارات المقرات والحافلات في كل افنية المساكن. وتبعثرت بالمئات الدراجات النارية والهوائية، وحول الطرق وفي الحقول المغطاة بالثلوج حول المدينة، تبعثرت عشرات المدافع المتروكة. اما السيارات فلربما كان عددها لا يقل عن الف سيارة.

لقد كانت المدينة قد تعرضت لقصف مدفعي شديد، ولهذا فان كثيرا من البيوت فيها محروقة او دمرتها القنابل. وكانت مدينة ميخائيلوف، كما قيل لنا، قد جرى حولها التفاف من جهتين، وتم انتزاعها في معركة قاسية. وان هذا بالذات، هو ما يفسر وجود مثل هذه الكمية الكبيرة من المعدات الالمانية المتروكة.

وذهبت مع فيسوكواستروفسكي للبحث عن قسم التوجيه السياسي، بينما اتفقنا ان نلتقي بعد ساعة مع المصورين الصحفيين اللذين ذهبا لالتقاط صور للمدينة.

وقيل لنا في قسم التوجيه السياسي، بأن عدة سيارات ستتحرك الان للحاق بالقائد . واتفقت مع فيسوكواستروفسكي على ان يأخذونا معهم. واجلسوا فيسوكواستروفسكي في سيارة "زيس" مع آمر المقر، بينما اركبوني مع المرافق في سيارة "بانتامكا" المكشوفة.

لقد مرت حتى هذا الوقت اكثر من ساعة، ومع ذلك فان صاحبينا المصورين الصحفيين ما يزالان ليس لهما اثر بعد. وتركت لهما رسالة في قسم التوجيه السياسي، من اجل ان يتوجها باثرنا، في السيارة التي ستجلب الجرائد. ومن بعد ذلك تحركنا في الطريق. وفي اثناء السير شاهدنا في تقاطع للطرق جمهرة من السكان، كان بيرنشتين وتيومين يلتقطان لهما الصور. ولكننا لم نستطع ان نوقف من اجلهما السيارات لانها لم تكن عائدة لنا. ومع ذلك فقد تمكنت من المناداة عليهما ان يلحقا بنا باية سيارة.

كان سيرنا من ميخائيلوف، بطريق شتوي في اثر الجيش المهاجم. وقد قطع جيش غوليكوف في هذه الايام خمسة عشر كيلومترا في كل يوم، وكان الطريق يبدو منظره صورة لاتنسى: فانه قد كان مزروعا حرفيا بالسيارات الالمانية المتروكة، والمدافع والدبابات والمدرعات، وكانت كثيرة بشكل خاص، سيارات الحمل لنقل قوات المشاة الالية الالمانية. وسيطر على الجو طقس بارد

جدا، وتجمد الماء عند الالمان، الامر الذي اجبرهم على ترك سياراتهم في عرض الطريق.

وحدثني السكان الذين كانوا شهودا على ذلك، عن تلك المهاترات التي احتدمت في الطريق بين الجنود الالمان، من اجل الحصول على مكان في سيارة. وقد اجبر جنود المشاة الالمان،أجبروا جنود الدبابات على سحب البنزين من دباباتهم وتعبئته في سيارات النقل، لغرض نقل اكبر عدد من الافراد. وما كان مقاتلونا يرغبون في أخذ اسرى. وانه لمن الصعب ان يلاموا على ذلك: فالقوات العسكرية، سارت عبر القرى التي احرقها الالمان كلها من الاساس. وعلى جوانب الطرق كانت القفار المحروقة السوداء، اللهم باستثناء المداخن والافران والبيوت القليلة جدا المخربة نصف تخريب. وفي القرى كانت تنتصب المشانق التي انزلوا منها قبل بضع ساعات فقط الناس الذين شنقهم الالمان.

ورغم ان اولئك الالمان الذين سلموا بانفسهم اسرى، كانوا في ذلك اليوم بمنظر بائس، ولم يثيروا عندي شخصيا شعور الكراهية ضدهم الا ان من غير الممكن اعتبارهم مجرد اناس بائسين مقرورين ليس لهم علاقة بكل ما جرى. فانهم حسب علمنا، لهم صلة بكل هذا الذي يحيط بنا، ومتورطون بهذه المحارق التي ابقوها في طريقنا. وان كل هذا بمجمله، اثار حقدا لاسما لدينا جميعا من اولنا حتى اخرنا.

وقبل ان نصل الى يبيفايا، لحقنا بالعقيد نيمودروف، وهو من ضباط المهمات الخاصة في قيادة الجيش، وقد تعطلت سيارته، ولهذا فقد اركبوه في سيارة آمر المقر، اما فيسوكواستروفسكي فقد انزلوه وتركوه ينتظر في الطريق سيارة اخرى.

وقبل المساء مررنا من خلال مدينة يبيفانا، وكانت هذه المدينة محروقة كلها تقريبا، وهي ما تزال تحترق والدخان يتصاعد منها. وكانت هذه المدينة، مثل مدينة ميخائيلوف، غاصة بالسيارات الالمانية المهجورة وبالدرجة الاولى، بسيارات النقل.

واتضح ان قائد الجيش لم يكن موجودا في يبيفانا. فقد كان قد تقدم الى مكان ما بالقرب من بوغورودسكي حيث كانت تدور رحى معركة.

وسرنا متقدمين الى امام ابعد فابعد، مخترقين اكداس الحطام وهياكل السيارات المحترقة المتروكة. واخيرا توقفنا في احد القرى التي كان الالمان قد انسحبوا منها قبل اربع ساعات، وهي ما زالت تحترق، والسنة النار مندلعة فوق الثلج في جميع الجهات. ودخلنا في كوخ، هو الوحيد الذي يكاد يكون قد بقي سالما. وكان في الكوخ يتدفأ بضعة اشخاص.

واخذت صاحبة الكوخ، وهي تنشج بالبكاء، تروي لنا كيف أن الالمان ساقوا الجميع تحت الصقيع، وكيف احرقوا القرية، وكيف قتلوا جارها الذي اراد اخماد الحريق

بداره. وكانت تنظف بالسكين منضدة، وهي تروي لنا كل هذا، وذلك لنجلس حول هذه المنضدة لنتناول الطعام.

- قالت المرأة - لاتجلسوا، تريثوا، فأنهم كانوا هنا ينامون. انها نجاسة هنا، نجاسة.

واستمرت تتكلم وتذرف الدموع وهي تدور بين المنضدة والفرن حيث كانت البطاطا تغلي على النار.

- قالت وهي مستمرة بالبكاء - اني طول الوقت اطبخ واظل اطبخ، وطول الوقت يأتي جنودنا ويأتون. وسأظل اطبخ البطاطا الى ان يمروا كلهم.

وبعد أن بقيت في هذه القرية مدة نصف ساعة، وعلمت من الآمر ان القائد قد تقدم ابعد الى الامام، فأننا تحركنا وراءه في الأثر.

كانت الريح تهب بقوة فتغطي من حولنا كل شيء بالثلج. ومن خلال الثلج صار يلوح لسان من النار عن قرب. انها بوغوروديتسكي تحترق. كما كان يشاهد عن يمين الافق ويساره، عدد من نيران الحرائق الاخرى ولكنها اصغر من حيث الحجم. فأن الالمان وهم يتقهقرون، كانوا يحرقون من حولهم كل ماكانوا يستطيعون احراقه.

وبعد ساعة اخرى، كنا في خلالها نركب سيارة مرة وننزل منها مرة اخرى، وصلنا الى احدى القرى التي كانت محروقة ومخربة عن بكرة ابيها. وكان في وسطها يقف بيت واحد سالما، وتبين من بعد ذلك انه مبنى مجلس القرية المحلي. والى جانب هذا البيت وقف الجنرال غوليكوف،

قائد الجيش العاشر محتقنا من الصقيع، وبقبعة مائلة الى جنب، ومعطف فرو قصير، وكان يوبخ احد الآمرين، الذي سأل الى اين يقود سريته واين يوجد لواؤه.

- صرخ الجنرال - لواؤك في بوغورو ديتسكي، في بوغورو ديتسكي !

- سأل الآمر - والى اين سأذهب الان ؟

- انظر هذا اللهب. المعركة تدور هناك. فالى هناك اذهب.

- ولكن عن أي طريق؟

- ولا بأي طريق - صرخ غوليكوف وقال - اذهب بلا تعقيد الى الحريق، وهناك ستصل. المعركة تدور هناك الا تفهمون؟

وسار الناس من جانبه، وذهبوا في الزوبعة الثلجية الى جهة ما نحو الحريق.

- وحضر آمر مقر قيادة الجيش، الجنرال درونوف امام غوليكوف وسأله عن أية قطعات هناك في المقدمة.

- قال غوليكوف - كل القطعات التي في المقدمة هي في بوغوروديتسكي.

- ولكن اللواء - وذكر درونوف رقم اللواء - لم يصل بعد الى هنا. ان هنا لا يوجد الان امامك اي واحد ايها الرفيق القائد!

- يوجد الاستطلاع - قال غوليكوف واضاف - وهذا كاف حسب ظني. الاستطلاع في المقدمة، هل فهمتم؟

وعندما رأى القائد، العقيد نيمودروف الذي وصل معنا قال له:

- يانيمودروف. انهم يخبروني مرة ان بوغورودتيسكي قد استولوا عليها، ومرة اخرى لم يستولوا عليها بعد. وانا لا أفهم شيئا. انهم على الارجح لم يستولوا عليها بعد. ولهذا فأذهبوا انتم وخذوها. من هنا حتى القرية ثمانية كيلومترات. تحركوا.

وادى نيمودروف التحية وذهب، غير انه رجع من الطريق.

- ايها الرفيق القائد، ماهي كلمة السر؟

- تساءل غوليكوف مكررا-كلمة السر؟ بوغوروديتسكي! ان كلمة السر اليوم هي بوغوروديتسكي. اذهبوا؟

على الرغم من جميع الاحزان التي رأيناها خلال هذا اليوم، بدءا من المدن المحترقة ونصف المحترقة، والسنة نيران الحرائق التي تلتهم القرى المحيطة، وعلى الرغم من صقيع البرد القارس والعاصف، فأن في ذلك كله، كان يوجد نوع من الغيظ والفرح. فأننا قد هجمنا، نعم واخيرا هجمنا!. ويتحدث عن هذا الهجوم، ما تركه الالمان وراءهم من سياراتهم المحروقة والمبعثرة بكل مكان. وان هذا يبدو محسوسا في صوت الجنرال، بل وحتى في تلك الفوضى الحاصلة من حولنا.

وبعدما اخترت اللحظة المناسبة، تقدمت نحو غوليكوف، وعرفته بنفسي بصفتي مراسلا صحفيا لجريدة

(كراسنايا زفيوزدا).

- قال غوليكوف - حسن جدا. انظر كيف نقاتل نحن هنا.

أن حديثنا الذي بدأ، قطعه أحد الأمرين الذي اقتاد اسيرين المانيين، كان قد ألقى عليهما القبض توا في طرف هذه القرية. ويبدو انهما قد تخلفا عن جماعتهما وتجمدا من البرد، فدفعهما الحقد الى احراق بعض الاكواخ التي بقيت سليمة حتى الان، تحت جنح الظلام.

واقترب الجنرال من الاسيرين. وكانا بالجزمة والمعطف وبيريه مسحوبة على الاذان.

- سأل الجنرال - من أية فرقة.

اجاباه عن سؤاله.

- سأل الجنرال غوليكوف - هل أشعلتم حرائق؟

اكدا انهما اشعلا حرائق.

وصدرت الاوامر باطلاق النار على مشعلي الحرائق.

واقتادوهما الى جهة ما. اما الجنرال فقد ذهب الى البيت. وهذا البيت يتألف من قسمين: الأول، ويبدو انه كان مخصصا للسكن، والثاني عبارة عن سقيفة ذات فرن في داخلها. وهناك على الارض الترابية، كان يستلقي بعض الآمرين جنبا الى جنب. ومن الفرن كان يلوح جذعان من الحطب ممددين: وكانوا يدفعونهما اعمق فأعمق داخل الفرن حسب نسبة احتراقهما. ان الحرارة في فناء البيت كانت لا تقل عن ثلاثين درجة تحت الصفر، وابواب السقيفة

مخلوعة من مصاريعها والنوافذ محطمة، ولكنه مع ذلك فأن الثلج لا ينهال من فوق في اسوأ الاحوال وان الريح اخف وطأة.

أنني ماكنت املك معي، لا قطعة من السكر، ولا كسرة من الخبز ولا اي شيء على العموم. واستلقيت قريبا جدا من الفرن، في مكان يساعد في أن اتقلب لأدفىء مرة ظهري واخرى صدري. وشاركني احد الذين بجواري بكسرة خبز متجمدة عنده. وبعد ان حشرنا في الفرن سطلا من الثلج ليسخن الماء فيه، شربنا من هذا السطل ماء متسخا ودافئا بعض الشيء، وعليه يطفو القش. لقد كنت منهوكا كل الانهاك وبردت خلال النهار، ومع ذلك فقد غفوت، وتقلبت احيانا خلال الاحلام.

وعندما استيقظت بعد ثلاث ساعات، كان الفجر قد بزغ. ونهضت وذهبت مشيا الى القرية. انها لم يبق منها شيء تقريبا. ولم يترك الحريق فيها الا على ثلاثة اكواخ فقط. وخلال الليل اسرع الناس في حمل جذوع الخشب التي نالها الحريق من فوق، والقش، من الاقبية لاجل تهيئة امكانية للمأوى والنوم هناك. وجاء الى هنا، في هذه القرية، اناس من بعض قرى المنطقة المحروقة عن اخرها. الا ان هذه الاكواخ الثلاثة الباقية ماكان فيها الا القليل من المكان، بحيث انهم سمحوا للنساء والاطفال فقط بأن يتدفأوا بها. اما الباقون كلهم فكانوا يدخلون بالتناوب، للتدفئة من طرف بعيد، ومن ثم يخرجون مرة

اخرى تحت الصقيع.

وتجولت في القرية مدة خمس عشرة دقيقة، دون ان اقرر بعد، ماذا يجب ان اعمل، وكيف سأصل الى بوغوروديتسكي. وفي هذه الاثناء خرج غوليكوف من الكوخ، وكان منذ الصباح نظيفا وحليقا الى حد الازرقاق. وخرج معه آمر المقر الذي ركبت معه السيارة يوم امس. ولم تصل بعد اية اخبار نهائية عن بوغوروديتسكي. فأن بعض الاقوال تفيد بأنها قد سقطت، وتفيد أقوال اخرى بأنها لم تسقط بعد.

- قال غوليكوف للجنرال درونوف - اذهبوا، واخبروني ما اذا كانت بوغوروديتسكي قد تم اخذها. واذا كانت لم تؤخذ بعد، فخذوها.

رجوت منه الموافقة على الذهاب مع آمر المقر.

- قال مستعجلا - اذهبوا، اذهبوا.

لقد غطت العاصفة الثلجية جميع الطرق بالثلج تماما، ثم استمرت تكتسح بتلك القوة التي لم يكن من الممكن التحرك خلالها بالسيارة الى امام. وجاءت زحافة واحدة فصعدنا بها نحن الثلاثة - درونوف ومرافقه وانا - وذهبنا متجهين الى بوغوروديتسكي. واخذ المرافق يقود الحصان، بينما جلسنا نحن الاثنين وراء ظهره في الزحافة. وكان كل ماحولنا مغطى ببساط ابيض شامل. وكانت الزحافة تتأرجح من جهة الى اخرى، وتسقط مرة في هذه الحفرة ومن ثم في حفرة اخرى. وفي الطريق كانت

متوقفة، مدرعات المانية محطمة. ومن خلال العاصفة الثلجية شاهدنا مجموعة غير كبيرة من الجنود، وهم اما ان يكونوا من التعويض، او انهم متأخرون. واستمرت العاصفة الثلجية بالزئير. وكان الطريق الزراعي يتلوى في جميع الاتجاهات. وبعدما سرنا ساعة ونصف، وصرنا نقترب من بوغورودیتسكي، التقينا بزحافة تجري لمقابلتنا، وجلس فيها متفحما من البرد، العقيد نيمودروف وهو نفس ذلك الذي ارسله القائد في المساء للاستيلاء على بوغوروديتسكي.

- سأله الجنرال - قل، ماذا وراءك ؟

- قال نيمودروف - اخذناها. في الليل. وطردناهم مسافة ثمانية كيلومترات خلفها. وقد ارسلت حول ذلك اربعة تبليغات مع جنود راجلين.

- قال العقيد - لم يصل اي واحد منهم.

- من المحتمل ان جنود الاتصالات قد تاهوا، ويمكن انهم تجمدوا من البرد. والى اين انتم الان؟

- قال درونوف - اردنا الذهاب الى هناك. اما الان فلنرجع الى الوراء.

وادرنا نحن الزحافة، وسرنا راجعين في اثر العقيد. وبعد ساعة ونصف عدنا الى المقر. واخيرا دخلت هناك في النصف الثاني الدافيء من مبنى المجلس المحلي للقرية لادفيء يدي المتجمدتين من البرد، وكذلك فقد قطعت انا ونيمودروف بقايا دجاجة مطبوخة الى نصفين حيث اننا لم

نأكل شيئا منذ يومين.

وترددت حول ماذا يجب علي ان افعل: فأما ان ابقى هنا، او ان اصل على جناح السرعة الى موسكو، مع انطباعاتي الاولى التي ماتزال مهمة بالنسبة للجريدة. وفي هذه اللحظة وقعت حادثتان مرة واحدة. فقد عاد اخيرا على سيارة شحن عابرة فيسوكواوسترفسكي وكذلك فقد هبط في طرف القرية طيار يحمل مظروفا من مقر قيادة القوات الجوية. وجلس غوليكوف وراء المنضدة وكتب تقريرا من اجل ارساله مع الطيار. وتجرأت على الاقتراب من عضو المجلس الحربي غوليكوف ورجوت منه انزال الميكانيكي مساعد الطيار، لأصعد أنا بمكانه في الطائرة لغرض أن اصل اليوم الى موسكو واكتب تحقيقا صحفيا للجريدة. وقد تردد لدقيقة واحدة، غير انه قال بحزم بعد ذلك، وهو يقدر، كما يبدو، اهمية العجلة الصحفية:

- حسنا، فلينزل ميكانيكي الطائرة.

وعبس وجه الطيار، عندما سمع هذا الأمر، وخزرني بنظرة وقال:

- حسنا، ولكن عليك ان تأخذ بنظر الاعتبار، انهم احرقوا لي امس طائرة، ولا اريد ان يتكرر ذلك! ولهذا فأن عليك، اثناء الطيران، ان تقوم بالتطلع فورا الى جميع الجهات، حتى ولو ادى ذلك ان تفك رأسك عن عنقك.

لم يستعجل غوليكوف بالتقدم الى امام، ولهذا فقد

أمر ان يكون مقر القيادة في بوغورو ديتسكي. وبدأ في شارع القرية ينتظم رتل السيارات الذاهبة الى هناك. وبقي فيسوكواوستروفسكي مع غوليكوف: انه اراد ان يكتب للجريدة مقالة عن العملية كلها. وكنت قد اخذت بالسير في اثر الطيار، عندما دخل فجأة من باب البيت الريفي ومعه البخار المتدفق، شخص بسترة جلدية ذو وجه معروف جدا.

- قدم نفسه بصوت عال - قوميسار الفرقة كذا.

ويبدو انهم كانوا بانتظاره. ولهذا فهو قد تقدم مباشرة نحو غوليكوف.

واجهدت فكري لأتذكر من يكون هذا. ولكني لم اتذكره الا بعد دقيقة عندما مر ثانية راجعا من امامي. اجل، انه بالاشوف مسؤول التوجيه السياسي الأقدم، والقوميسار، في ذلك اللواء الذي كنت فيه باوديسا مع خاليب ! انني عرفت بالاشوف، اما هو فلم يعرفني.

- سألته - كيف وصلت انت الى هنا ؟

اجابني، انه كان قد أصيب اربع مرات بجروح، واجلي من اوديسا، ومن ثم جاء الى هنا من بعد المستشفى.

- وقال مستعجلا وهو سائر لأن سيارة بانتظاره - تعال الينا في الفرقة.

ولقد تذكرت بأي جحيم كان هو قرب اوديسا، وفرحت بسلامته، وبشفائه، وانه هاهو الان يقاتل قرب موسكو.

وبدأت السيارات تتحرك من القرية بالمقر. وسرت مع

الطيار في حقل للبطاطا مغمور بالثلج نحو الطائرة.
ورأيت عند سياج خشبي ذلكما الاثنين اللذين كانا يشعلان الحرائق مطروحين على قفاهما. ولقد انطرحا بشكل اخرق، عاكفين ارجلهما من تحتهما. وكانت النساء تمر بدون اكتراث من جانبهما.

وجلسنا نحن بالطائرة وحلقنا في الجو. ومن الظاهر ان سكان هذه الاماكن قد تضرروا كثيرا من الطيران الالماني، لأن طائرتنا وهي طراز أو -٢ ، عندما حلقت بضجيج مرعب مثل ضجيج الموقد النفطي الذي يعمل بالهواء المضغوط - بريمس - ، على ارتفاع عدة عشرات الامتار، فأنها قد جعلت النسوة السائرات على الطريق مع الصرر والاكياس المحمولة على الظهر، ومع الزحافات، يتفرقن ويلقين بانفسهن فوق الثلج. ولكنهن عندما يدركن بانها من طائراتهن، بعدما نكون قد صرنا نحلق فوق رؤوسهن تماما، فأنهن يتقفزن ويأخذن بالتلويح لنا بايديهن وهن في اشد الفرح.

وهبطنا اولا في يبيفانا، حيث كان على الطيار، ان يأخذ من هناك مظروفا اخر. وقد أنتظرته مدة نصف ساعة اهرول قرب الطائرة. اما هو. فعندما عاد، تذكر مرة اخرى كيف انهم احرقوا طائرته يوم امس، وقال لي مرة ثانية انه يجب ان انتبه جيدا الى جميع الجهات. وانني قد نفذت ذلك بالتأكيد.

وبعد ساعة تقريبا هبطنا في مدينة ميخائيلوف، وكما

اتضح فأن الطيار الذي طرت معه لا ينوي ان يواصل طيرانه الى الامام وليس لديه امر بذلك. وفي نفس الوقت فأنه كان قد طار معنا، وهبط بالقرب منا على متن طائرة أو -٢ اخرى ، طيار طويل القامة تجاوز الشباب وذو ملامح رئاسية. واقتربت من طائرته أو -٢ ، سيارة "ايمكا".
ولما رأيت ذلك، رجوت منه ان ينقلني الى القوات الجوية الحربية. أليس هو ذاهب الى هناك؟ وافق الطيار على نقلي معه وقال، انه ذاهب الى هناك بالذات، ولا غرابة في ذلك، مادام قد أتضح انه هو قائد القوات الجوية للجيش العاشر الجنرال ميجر بوغوروديتسكي.

وكان مقر القوات الجوية الحربية في ميخائيلوف قد اقيم بغرفة كبيرة بأحد البيوت التي لم تتعرض لا للقصف المدفعي ولا الجوي. وفي الغرفة توجد مائدة طعام ومقصف وبعض نباتات الجميز. ورجوت من بوغوروديتسكي ان يعطيني طائرة الى ريازان، حيث قد استطيع ان اجد من هناك مكانا مرة اخرى على واحدة من الطائرتين اللتين بقيتا لنا فيها. ولكنه قال، ان من الارجح ان لا يسعفنا الوقت بتهيئة الطائرة والتحليق بها، على قدر مابقي من ضوء النهار. ولكنه في يوم غد سيعطيني منذ الفجر طائرة أو -٢ تنقلني في خلال ساعة وربع الى ريازان مباشرة. وقد حسبت بأنني حتى لو وصلت بعد المساء او في الليل، على اية سيارة عابرة فلن استفيد اي شيء ابدا. وبناء على ذلك قررت ان اقضي الليلة في ميخائيلوف.

وفي هذا المساء جلست مدة طويلة مع بوغوروديتسكي، ورغم انني لا اعرف تاريخ حياته، الا انه ظهر لي من بعد هذا الحديث، ليس طيارا قديما محنكا فحسب، بل قائدا ومربيا مجربا. فقد كان انسانا مثقفا ومحترما ورزينا، وعلى درجة واسعة جدا من الاهتمامات. وكان ماشاع في نفسي السرور، ان ارى في منصب قائد للقوة الجوية الحربية، طيارا قائدا مجربا، وليس مجرد طيار مقاتل شجاع، لا يعرف كفتى بسيط، ان يربط حتى ولو كلمتين خارج مجال القتال الجوي، ومع ذلك يحمل رتبة جنرال لسبب من الاسباب.

ومع بوغوروديتسكي وقوميساره الذي هو ايضا انسان فطن ومحبوب، واصلنا الحديث حتى الليل، وعند الفجر صباحا كنت في المطار قرب ميخائيلوف. وبعد عدة تأخيرات متعلقة باستيضاحات حول خطة الحركة: الى اين يقضي الأمر بالتوجه اولا، ومن ثم الى اين، فأننا قد صعدنا الى الطائرة مع الطيار وحلقنا.

كان الجو مزعجا اشد الازعاج، وهو يطوح بالطائرة انحرافا وميلانا. ولم يكن هناك اي شيء يمكن رؤيته من خلال العاصفة الثلجية. غير انه بعد ساعة او اكثر بقليل هبطنا بسلام في مطار ريازان.

وساورني القلق، خوفا من ان تكون طائرتانا قد اقلعتا من هنا بسبب اننا تغيبنا مدة اربعة ايام. ولكنه اتضح ان احدى الطائرتين لم يستكمل اصلاحها لحد

الان، وان الطيار قد ذهب الى ريازان لغرض جلب بعض الادوات الاحتياطية. اما الطائرة الثانية فكان قد تم اصلاحها، وجلس الطيار ينتظر عودتنا. وتناولت طعام الفطور معه ثم ذهب هو لاعداد الطائرة للتحليق. وفي الساعة الثانية ظهرا اصبح عنده كل شيء جاهزا للاقلاع، ولكنهم شرعوا يحاولون اقناعي بارجاء الطيران، لأن الزوبعة الثلجية قد تحولت الى اعصار، وان الريح اخذت تؤرجح الطائرة وهي على الارض. غير انه صار من الضروري بالنسبة لي ان اصل الان الى موسكو بدون مماطلات جديدة، والا فأني ساتأخر مع تقاريري الصحفية، وستفقد هذه الرحلة كلها كل اهمية لها بالنسبة للجريدة. وبدا ايضا ان للطيار مبررات لرغبته في أن يصل الى موسكو قبل مساء هذا اليوم بالذات، وانه كان راغبا بالطيران مهما كلف الامر. وباختصار، فأننا قد صعدنا الى الطائرة واقلعنا بها.

ومع انك تحس بالهدوء في الطائرة أو -٢، الا انني لا استطيع أن اؤكد ذلك في هذا التحليق. فأن الرؤية كانت سيئة جدا. ولهذا فقد حلقنا على اقصى ماهو مألوف من الارتفاع خشية من الاصطدام بأي شيء. وفي الهواء كنا نتأرجح كالقشة. اما عندما حلقنا فوق الغابات، فأن هذا التأرجح صار مثل امواج المحيط تماما. ولما طرنا فوق كولومنا، وفوق مداخن مصانعها، صفعتنا رياح عاصفة وحشية، بحيث تصورت باننا سنهوي الان فوق سطح من

سطوحها. وكان الجو باردا جدا. وان الأنكى من ذلك كله، ان قبعتي قد طارت من فوق رأسي. وقدر لي ان اطير بقية الطريق حاسر الرأس وان افرك بيدي وجهي ورأسي واضربهما، لغرض ان لا اتجمد تماما.

وفي الساعة الخامسة مساء هبطنا في ضواحي موسكو، بمطار مغطى بالثلوج، بالقرب من مصنع للطائرات، سبق وان كنت قد اشتغلت به في وقت من الاوقات. وتوادعت مع الطيار، وذهبت الى مقر جناح الطيران كي اتصل هاتفيا بأدارة التحرير. وكان منظري فيه الكثير من عدم اللياقة: فأنا بالزي الكامل ولكن بدون قبعة. وارسلوا لي سيارة بلا ابطاء، وبعد ساعة وصلت الى الجريدة. وكان الموضوع الرئيس، كما هو معروف بالعادة دائما، مستعجلا جدا وضروريا، ولهذا فقد جلست امليه حتى وقت متأخر من الليل. ورغم ان التحقيق الصحفي الذي كتبته بعنوان "الطريق نحو الغرب" كان دون المستوى المطلوب، من حيث الاسلوب، الا انه كان احد أهم المواضيع الصحفية التي تحدثت عن اندحار الالمان في ضواحي موسكو.

وسلمت التحقيق الصحفي كي ينزل في العدد، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وماكدت انجز هذا التحقيق، حتى ناداني رئيس التحرير وقال، ان قواتنا، حسب اخر الانباء الواصلة الان، قد اندفعت الى مدينة كالينين. وان هذه المدينة قد تم الاستيلاء عليها الان كما يبدو، ولابد من كتابة موضوع للجريدة بهذا الصدد.

وفي نفس هذا الوقت بدأ الاتصال هاتفيا، وردوا عليه واعدين انهم سيعطونه طائرة من طراز ب - ٥ للطيران بها الى كالينين. وطلب مني ان اطير في الصباح، واعود غدا قبل المساء، باية صورة من الصور، ومعي تحقيق للجريدة. وكان من المفروض ان يطير معي المصور الصحفي كابوستيانسكي.

نمت اربع ساعات. وفي الساعة السابعة صباحا ذهبنا الى المطار.

وبدأت عراقيل التأخير في الطريق. ففي البداية تعطلت عن الحركة سيارتنا "ايمكا". ومن جراء ذلك اضطررنا ان نقطع مسافة كيلومترين مشيا على القدم ونحن نتعثر في الحفر. ومن ثم عندما صعدنا الى الطائرة ظهر ان المحرك فيها غير صالح للعمل. وبدأوا بالبحث عن طيار اخر لطائرة اخرى. وعندما انوجد ذلك الطيار، أتضح ان طائرته غير معبأة بالبنزين. وعندما امروا سيارة التعبئة بملء خزان الطائرة بالوقود، غاصت هذه السيارة بالثلج وتوقفت في الطريق. واخيرا سحبوا سيارة الوقود وملأوا خزان الطائرة بالبنزين، ولم يبق لنا الا ركوبها. ولكن الطيار سألني قبل الصعود هل استطيع اطلاق النار من الرشاشة. واعترفت له بأنني لا اعرف ذلك. وضيع الطيار خمس دقائق على تعليمي كيف اصوب الرشاش، وكيف اديره وكيف اضغط على الزناد. واعجبني من بين هذا كله، كيفية استدارة جهاز

التدوير، حيث يدور بليونة تامة وضجيج مريح. ومن بعد ذلك زودونا بطلقات تنوير، ثم اننا قبل ان نصعد الى الطائرة، تناقشنا حول موضوع اين يجب علينا ان نهبط. ان المراكز التي كان يوجد بها المقران للجيشين اللذين شنا الهجوم على كالينين كانت معروفة بالنسبة لنا، غير اننا لو طرنا الى هناك، وخرجنا من الطائرة، وذهبنا الى المقر، وعلمنا مايجب علينا ان نفعله من بعد ذلك، ثم عدنا الى الطائرة وطرنا الى كالينين، فأننا لو قمنا بكل هذا، فسوف لن نستطيع بالطبع ان نلحق بالوصول الى كالينين وان نعود منها قبل المساء الى موسكو. وبذلك ستبقى الجريدة بدون مادة صحفية.

وبالرغم من عدم وجود اخبار اكيدة عن كالينين لحد الان، ولانه من غير المعلوم ايضا الى اية مسافة قد طردوا الالمان عن كالينين، واين يمكن او لايمكن الهبوط بالطائرة، فأننا قررنا الهبوط في كالينين نفسها. وعند الاقتراب من المدينة نطلق طلقات اشارات التنوير، درءا لاحتمال اطلاق النار علينا من قبل جنودنا، ثم نهبط. واتفقت مع الطيار ان يطير على اوطأ ارتفاع قبيل كالينين، وان يحاول تمييز الموقف على ضوء اتجاهات حركة السيارات. وفيما عدا ذلك، فأننا قررنا بعد نقاش منطقي، ان نقترب الى كالينين من جهة الشرق، اي من ذلك الجانب الذي من الارجح ان قواتنا قد شنت هجومها منه.

كانت الطائرة ب -٥ تتسع لشخصين، واننا كنا ثلاثة

افـراد. ولهـذا فقـد رقـد كـابـوستيـانسكي بـأسفـل هيكـل الطـائـرة ووجهـه نحـوي، بينـما وقفـت انـا عنـد حلقـة تـدويـر الـرشـاشـة اتـطلـع في كـل الاتجـاهـات، واتمنى مـن كـل قلبـي، لنفسـي ولـلـذيـن يـرافقـاني ان لا نـواجـه ايـة حـادثـة جـويـة.

وكـان مـن الممتـع التطلـع مـن فـوق كيـف كـان يجـري التقهقـر الالمـاني. ففـي الاسفـل كـانـت القـرى المحـروقـة عـن بكـرة ابيهـا ، والقـرى السـالمـة يتخلـل بعضهـا بعضـا. فهنـاك قـرى احـرقـت تمـامـا، وهنـاك قـرى بقيـت سـالمـة بكـل بيـوتهـا تقريبـا. وعنـدمـا حلقنـا فـوق كـلين اطلقنـا زوجـا مـن صـواريخ الاشـارة دفعـا لأي اشتبـاه بطـائـرتنـا. وكنـا نتـذكـر بـذلـك جيـدا النكتـة الجـويـة القـديمـة القـائلـة بـانـه ليـس هنـاك مـن يسقـط الطـائـرة بـدقـة، افضـل مـن الـدفـاعـات الجـويـة للطائرة ذاتها.

وبعد ساعة ونصف من ذلك، صرنا نقترب من كالينين. وكتـب لي كـابـوستيـانسكي ورقـة كيفـما اتفـق، راجيـا منـي ان اصـور مـن عـلى متـن الطـائـرة منظـرا شـامـلا للمدينـة. وزاد الـبرد شـدة، بحيـث ان الحـرارة كـانـت حـوالي ثـلاثـين درجـة مئوية تحت الصفر. وما ان نزعت القفاز ورفعت يدي بجهاز التصويـر - الكـاميرا - مـن فـوق سطـح الطـائـرة، حتى شعـرت وكـأنهـا احتـرقـت، وفقـدت كـل شـكـل مـن اشـكـال الاحسـاس. وهـزني كـابـوستيـانسكـي مـن رجـلي يحثـني عـلى التقـاط الصـورة. امـا الطيـار فقـد التفـت نحـوي، وغمـز لي بـأن اطلـق طلقـة اشـارة تنـويـر. وضغطـت عـلى نـابـض جهـاز

التصوير عدة مرات، ومن ثم ضغطت باصابع متخدرة على الزناد فاطلقت صاروخا احمر اللون. ومن بعده يجب ان اطلق صاروخا آخر اخضر. غير ان هذا الصاروخ الملعون عصى على النزول في مسدس الاطلاق رغم محاولتي بدفعه هناك. وعلى كل حال فأنني لم أنجح في اطلاق طلقة التنوير الثانية. اما بالنسبة الى لقطات الصور الفوتوغرافية، فقد تبين فيما بعد، انني لم اصور مدينة كالينين بل صورت غابة قريبة، وذلك لأنني عندما التقطت صورة لمدينة كالينين لم اضع بنظر الاعتبار ميلان الطائرة عند الدوران.

وبعد نصف دورة بدأنا بالهبوط على نهر الفولغا. وكنا في الوقت الحالي نحلق على ارتفاع واطيء جدا. وقد استغربت شخصيا من كوني لم اعد ارى اية سيارة. وفي شوارع الاطراف كان يشاهد اناس كثيرون بما فيه الكفاية، ولهذا فقد حسبت بأنه مادامت المدينة فيها مثل هذه الحيوية، فانهم قد طردوا الالمان بالتأكيد. واشرت للطيار ان يهبط. وهبطنا على نهر الفولغا قرب الضفة اليمنى. وحالما هبطنا توقف محرك الطائرة. والتفت الى الجهة اليمنى، فرأيت من خلال الضباب الثلجي الذي اثارته الطائرة بعض الناس يسحبون بايديهم مدفعا على منحدر، وسمعت بوضوح من خلال الهدوء الذي ساد فجأة، شتيمة روسية مقذعة عزيزة على قلبي الان، لها صلة بالمدفع وبالاهل. وبهذا لم يعد عندي اي

شك في ان كل شيء لدينا على مايرام وهو اننا قد وصلنا بالطائرة الى اهلنا.

وبينما تركنا الطيار عند الطائرة، ركبت انا مع كابوستيانسكي في سيارة باص للصحة، ووصلنا بها حتى مقر الفرقة التي استولت اليوم ليلا على كالينين من جهة الشرق.

ودخلنا على قائد الفرقة وقوميسار الفرقة ايضا. وقد تحدثا هما لنا عن سير العمليات التي اشتركت بها فرقتهما. وبعد ذلك رجونا منهما استخدام سيارة نقل مكشوفة وتجولنا بها في شوارع كالينين. نلتقط الصور الفوتوغرافية ونتحدث مع السكان. والتقط كابوستيانسكي صورا للقطعات العسكرية المارة. والتقط صورا شاملة للتخريب وصورا للجسر المدمر على نهر الفولغا، وللمقبرة الالمانية في قلب المدينة. وقامت النساء بانتزاع الصلبان من خشب اشجار الصنوبر، من هذه المقبرة لاستعمالها كحطب.

وعلى ما اذكر ، وانا اشاهد فيلم "تحطيم الالمان في ضواحي موسكو" الذي يضم، اذا لم اخطيء، مثل هذه اللقطة: وهي امرأة تسحب من التربة صليبا المانيا، وهو مااعتبره البعض تمثيلية. ولكنني في الواقع كنت شاهدا على ذلك. فقد حدث هذا في الحقيقة. وحدث ذلك لا بسبب الحقد على الالمان، بل بدافع الحاجة الاقتصادية. فالنساء كن يعتبرن انه لا يوجد سبب يبرر بقاء هذه

المقابر بأية حال من الاحوال على ارضنا.

وعلى مدى مابقي كابوستيانسكي يواصل التقاط الصور الفوتوغرافية فأنني مضيت في الشوارع استوقف الناس واجري معهم الاحاديث. وان كثيرا من النساء كن يبكين، اذ سيطر على القلوب ذلك النوع من الذهول الذي يهز العواطف. فأنهم حتى مساء يوم امس، ماكانوا يصدقون بتاتا. بأن من الممكن تحطيم الالمان وطردهم من هنا. وبالمناسبة، فعندما يجري الكلام عن المعنويات لدى الناس ومشاعرهم وافكارهم في تلك المدن المحتلة من قبل الالمان، فكثيرا مايفوت على البال، موضوع بسيط، وهو انه منذ اول يوم وحتى اخر يوم لوجود الالمان، فأن الغالبية الكبرى من الناس، كانوا مكرهين على سماع الدعاية الالمانية المعادية فقط. انهم في بعض الاحيان كانت تقع بايديهم مناشيرنا. ولم تصل اليهم جرائدنا ابدا، غير انه كانت توجد بدل هذه كلها، النشرة الالمانية والاذاعة الالمانية والجرائد الالمانية. واذا كان الالمان بالنسبة للقارىء الالماني الخاص، يدوفون الفكرة الصحيحة في بحر من الكذب، فأن في جرائدهم لسكان الارض المحتلة لايخجلون ابدا من كتابة اشياء لا وجود لها ابدا. ومهما كانت هذه الاكاذيب بعيدة عن التصديق، الا انها عندما تتكرر ليلا ونهارا فستشوه بلاشك افكار الناس وستحملهم على التفكير: لربما ان هذا صحيح ؟

وهذا واحد من بين ابرز امثلة سمات هذه الدعاية في شهري ايلول - سبتمبر وتشرين الاول - اكتوبر عندما كتب الالمان في جميع جرائدهم الصادرة باللغة الروسية، بأن الالمان قد خرجوا الى نهر الفولغا. ان هذا صحيح من حيث الشكل، لانهم كانوا فعلا قد وصلوا في بعض المناطق الى الفولغا في اعالي هذا النهر، وفي الجبهة الشمالية الغربية وجبهة كالينين. ولكنهم كانوا قد كتبوا عن ذلك، بشكل يجعل الناس الذين تعودوا طول حياتهم ان يتصوروا الفولغا بصورة اخرى، بأن يعتقدوا وكأن الالمان قد احتلوا في نهاية المطاف ساراتوف وكويبيشيف. وبالفعل فأن هذه هي النية التي كانت مقصودة في الجرائد حول وصول القوات الالمانية الى نهر الفولغا.

كانت وجوه الناس تبدو عليها فرحة الارتباك. فأنهم تدفقوا الى الشوارع يحادث بعضهم بعضا. والنساء ينشجن بدموعهن، بينما تشبث الصبيان متعلقين بالسيارات العسكرية.

لا ينبغي القول بأن المدينة كانت مخربة بشدة. فرغم ان بها عددا غير قليل من البيوت المحروقة، وكثيرا من الدور المتضررة والمحترقة من جراء انفجارات القنابل، ولكنها تعطي انطباعا مقنعا: ان المدينة ستعود الى حالتها الطبيعية، خلال شهر واحد او شهرين، بعد كل هذه المعاناة التي تعرضت لها.

كانت المعدات العسكرية الالمانية المتروكة في

الطرقات ومخارج المدينة قليلة نسبيا. وان هذا اوحى لي بانطباع، ان الالمان الذين اكرهوا على التراجع من المدينة نفسها، تحت تأثير حركتنا من الجنوب والشمال، انما انسحبوا كما يبدو، بموجب اوامر انسحاب، دون الدخول بمعارك حامية في قلب المدينة خاصة، بل بمعارك تغطي انسحابهم فقط. وبعبارة اخرى، فأن كالينين كانت من حيث هذا المفهوم، تمثل صورة اخرى، غير صورة ميخائيلوف. فهناك احساس بالدمار، وهنا احساس بالتراجع.

ومن بعد ساعتين رجعنا الى مقر قيادة الفرقة، لغرض ان نسأل هناك، عن بعض المعلومات الاضافية الاخرى. وكان قائد الفرقة قد ترك عندي منذ اول نظرة، انطباعا بأنه انسان متجهم، ولكنه حالما بدأ يعطينا معلومات اضافية عن العمليات التي نفذتها فرقته، حتى اخذته الحماسة واورد عددا من التفصيلات، ومن ثم تذكر بأن الفرقة مرشحة للتكريم بلقب الحرس، واخيرا شرع يتكلم عن فرقتهم بانها هي بالذات التي لعبت الدور الاكبر بالاستيلاء على المدينة، اكثر من اية فرقة من الفرق الاخرى التي شنت الهجوم من الجانب الاخر. واكد بحزم اكبر، ان الفرق الاخرى، زيادة على كل ماتقدم، كانت موزعة ضمن تشكيلات جيوش مختلفة.

وعندما اجتمعنا من اجل العودة للطائرة، اعطى الجنرال فجأة اشارة بيده الى المرافق، فظهرت على

الطاولة قنينة سائل لا لون له. وظهر انه اسبيرت. وقد شربنا قبل السفر مع قائد الفرقة وقوميسارها كويا من الاسبيرت لكل واحد منا. ان المعنويات كانت عالية لدى الجميع. فأن كالينين كانت قد انتزعت بالجهود المشتركة سواء بهذه الصورة او تلك، او ان لهذه الفرقة دورا اكبر او لاخرى غيرها غير معروفة. وقد شربنا نخبا على شرف استرجاعها، وكذلك نخب ماهو مهم بالدرجة الاولى وهو ان هذه الفرقة بالذات هي التي استولت على المدينة، وكذلك نخبها في ان تكون حاملة للقب الحرس.

وبعدما جلسنا في سيارة الشحن الصغيرة المكشوفة اسرعنا نحو الطائرة. وبعد خمس دقائق من وصولنا اليها صرنا نحلق في الجو. وقام الطيار بدورتين فوق كالينين، ومن ثم انطلقنا على الطريق الى موسكو.

وصلنا الى هناك عندما خيم الظلام الدامس، وهبطنا هبوطا غير موفق تماما، اذ انكسرت احدى عكازات الطائرة. ولكنه على كل حال فقد مر كل شيء رغم ذلك، بسلام. ووصلت الى رئاسة تحرير الجريدة في الساعة الثامنة مساء. وعكفت على كتابة التحقيق الصحفي "امس في كالينين" الذي اقول عنه بوجدان انه خرج رديئا، بل انه اردأ من ذلك التحقيق الذي سبق وكتبته عن ميخائيلوف يوم امس مساء. ومن المحتمل ان يعزى ذلك، الى صعوبة كتابة تحقيقين صحفيين خلال يومين متعاقبين، عن موضوع بذاته من حيث الجوهر.

وبعد كالينين استبقاني رئيس التحرير في موسكو مدة يومين او ثلاثة. وبرغم عدد المدن الكبيرة التي حرروها في هذه الايام، الا انه كان ينتظر دخول قواتنا الى مدينة كالوغا واتخذ الاستعداد لارسالي اليها.

وقبل السفر الى مدينة تولا التي انطلق منها الى ضواحي مدينة كالوغا فيما بعد، شاهدت فجأة بعين العجب، وانا اجتاز احد شوارع موسكو، اعلانا على الحائط يحمل كتابة تقول بأنه مسرح الدراما بموسكو الذي يحمل اسم لينسوفييت يفتتح موسمه بمسرحية "فتى من مدينتنا".

وبعد ان رجوت من رئيس التحرير ان اتأخر يوما واحد ذهبت بعد ذاك لمشاهدة هذه المسرحية.

وبدأ عرض المسرحية في الساعة الثانية من بعد الظهر. وجرى العرض المسرحي في قاعة باردة بشارع اوردينكا. وجلس المشاهدون بمعاطف الفرو والقبعات، وقام الممثل بليات الذي انتقل الى هنا من مسرح لينينسكي كومسومول، بتمثيل دور بورمين. اما فريليخ فقد قام بتمثيل دور فاسينتسوف. وكان جميع الممثلين الاخرين وجوها جديدة.

وكان يبدو شيء من الغرابة، ان تجلس هنا في مسرح بموسكو بمسرحية لها مما قبل الحرب. وكذلك فقد صار في موسكو نوع من الاستغراب ، خلال الاوقات الاخيرة عموما ، في أن تتصور، أنه ماتزال توجد مسارح كالعادة وتجري عليها المسرحيات كما في السابق.

وفي اليوم التالي عند الفجر، بل وتحت جنح الظلام بالتأكيد، سافرت بالسيارة الى مدينة تولا. وكان يقيم هناك مقر الجيش الستين بقيادة الجنرال بولدين الذي اقتربت طلائعه الامامية في هذا الوقت من مدينة كالوغا. وكما كان المراسلون الصحفيون ينهمكون انذاك فيما بينهم، فقد كانت لدي مهمة تحريرية: هي الاستيلاء على كالوغا ثم العودة.

لقد سافرت انا الى مدينة تولا بهذا الطريق الذي اعرفه بنوع من الاستغراب في نفسي. فأن كل ما مر هي اربعة اشهر ونصف فقط، منذ ذلك الوقت الذي توجهنا به ثلاثتنا، انا مع خاليب وديميانوف، بهذا الطريق نفسه، وعبر مدينة تولا الى الجبهة الجنوبية في اوديسا. وان تولا الان هي المدينة التي نجت لتوها من خطر الاحتلال الالماني لها. اما جميع الطرق الممتدة من بعدها الى مدن اوريول وكورسك وخاركوف، فقد كانت بالنسبة لنا طرقا ماتزال غير سالكة، حيث ان الالمان موجودون هناك في كل مكان.

وبعد خمس ساعات وصلنا الى تولا. وكان من الصعب التعرف على المدينة، اذ كانت كلها مقطوعة بالمتاريس وحواجز المرور. وكثير من المتاريس كانت منصوبة من قطع المعادن ومن جلاخة الحديد المكبوسة، ومن كل مايمكن ان تقع اليد عليه عموما في المصانع القديمة وافنية البيوت. وكذلك فأن تولا لم تكن تعطي انطباعا انها

مدينة ضربتها الحرب بشدة. لقد كانت توجد بيوت، متضررة ومضروبة، وبيوت زجاج نوافذها محطم، ولكنها بقيت مدينة سالمة بصورة عامة.

وفي الطريق الى تولا، وعلى بعد ثلاثين او اربعين كيلومترا عنها، كان يشاهد عدد من الدبابات الالمانية المدمرة وبقايا سيارات نقل وعربات. وان هذه المنطقة هي بالذات تلك التي وصلت اليها بضع دبابات المانية من احدى وحدات غودريان الامامية، بعدما تجاوزت تولا من الجنوب الشرقي، وقامت بحركة التفاف نحو الشمال، ووصلت الى الطريق بين تولا وسيربوخوف، في محاولة عن طريق هذه الحركة، احكام طوق الحصار على تولا. وفي ذلك اليوم بالذات انقذ الجنرال بولدين، الذي تسلم قيادة الجيش الخمسين، مدينة تولا، وذلك باستباقه هذه الدبابات الالمانية التي اندفعت حتى هذا الطريق، بعدة ساعات، وذهابه مع مقر قيادته الى داخل التطويق الالماني المذكور، وقراره بكسر هذا الحصار من الداخل.

وقضيت حوالي ساعة كاملة في التفتيش عن المقر، الذي هو شأنه شأن الكثير من مقراتنا تتخذ لها مواقع مناسبة جدا، في دور خشبية صغيرة ذات طابق واحد، غير ملفتة للنظر في اطراف المدن. كما انبغى ان ابحث قبل كل شيء عن باشا ترويانوفسكي مراسلنا الدائم لجريدة "كراسنايا زفيوزدا" لدى الجيش الخمسين. وقد عثرت

عليه في مقر قوميسار الجيش. وبعد أن تسلمت اخر انباء القتال اتفقت مع ترويانوفسكي على الذهاب غدا الى ضواحي كالوغا، عندما كنت قد ذهبت معه للمبيت عنده في الغرفة التي يقيم بها مع بولغاكوف مراسل جريدة "برافدا".

وفي مساء ذلك اليوم، ذهبت مع توريانوفسكي الى قائد الجيش، الجنرال بولدين، اذ كنت بحاجة الى ان اتحدث معه، لان من بين احدى المهام المكلف بتنفيذها من قبل الجريدة، كتابة قصة او تحقيق صحفي عن الجنرال نفسه. وكان بولدين يعتبر واحدا من اكثر الشخصيات مناسبة لذلك. وقام ترويانوفسكي الذي عرف الجميع في الجيش ويعرفه الجميع ايضا، بسبب وجوده هنا منذ اول ايام المعارك دفاعا عن تولا، بالذهاب الى الجنرال ورجا منه اجراء هذه المقابلة. وعين بولدين الوقت الذي سيستقبلني فيه.

وفي اثناء الانتظار، ولغرض ان لايهدر الوقت سدى جلست عند مرافق الجنرال الذي وقع معه في الحصار مرتين، وكان قد جرح مثل بولدين مرتين، وبدأت بسؤاله عن القائد بولدين. وتحدث المرافق عن بولدين بحماسة. وشعرت بانهما يسيطر عليهما الاخلاص والمشاعر العميقة. ولا غرابة في ذلك، ففي التطويق الاول في سمولينشينا، القى بولدين مرافقه على كتفه، بعدما اصيب بجروح،

واخرجه من قلب المعركة*.

وفي الساعة المحددة بالضبط للقاء، استدعى الجنرال مرافقه في مكتبه. ومن بعد ان عاد قال لي، ان الجنرال يرجو المعذرة، حيث ان لديه الان مايؤخره، وانه سيستقبلني بعد عشر دقائق. وانني واصلت الحديث مع المرافق. وبعد عشر دقائق تماما ناداه مرة اخرى وعاد يقول لي:

- ان الجنرال مايزال مشغولا على خط الهاتف مع موسكو. ورغم ذلك سيستقبلك بعد خمس دقائق.

وفي تمام انتهاء الدقيقة الخامسة، استدعوني للدخول على بولدين في مكتبه. انني ماكنت اعرف لماذا تصورت ان بولدين اكبر عمرا. فهو في الواقع كان في الخمسين، ولكنه يبدو في الخامسة والاربعين. وهو انسان ضخم ذو ذراعين طويلتين، واكتاف عريضة محدودبة قليلا، وصدر عملاق، ورأس كبير بدأ الصلع يزحف عليه. ويحمل شاربين عسكريين جميلين.

في وقت سابق، ولربما الان ايضا، كانت القيادة في الجبهة تتبختر بازياء يعوزها التشابه. فأن الجنرالات

---

* انظر الملحق

كانوا يمشون في معاطف الفرو والمعاطف الجلدية والمعاطف المشدودة الخصر او قمصلات قوات المظلات، اي كل حسب ذوقه. اما بولدين فانه كان في ملبسه متفقا بصرامة مع الشكل الرسمي المطلوب . كما اتضح فيما بعد، فأنه كان يمشي بالمعطف فقط، وبكامل ملحقات هذا المعطف من الاحزمة وحقيبة الميدان. وبعبارة اخرى فأنه مثال لتطبيق النظام.

انه حدثني في البداية عما جرى في الجبهة التي يشغلها جيشه، ومن ثم، وعندما بدأت اسأله عن نفسه شخصيا ، حدثني باختصار عن حياته . فهي كانت حياة عسكرية لشخص ربط منذ سنوات الشباب الاولى والى الابد، مصيره بمصير الجيش. وكان الجنرال قد امضى سنوات الحرب العالمية الاولى كلها في الجبهة القفقاسية، ابتداء من رتبة جندي حتى انتهى الى ضابط صف. وبالاضافة الى ذلك فقد كان في سريته عدد كثير من ابناء قريته التي ولد هو فيها ومن القرى المجاورة.

ان لدى بولدين عيونا ذكية جميلة، وابتسامة هادئة، ونظرة متيقظة، والطرائف والحديث الخالي من العبارات المتشددة. وعندما كتبت كل الذي حدثني به عن حياته، حصل عندي موضوع ممتع كل المتعة حسب رأيي، شغل خمس عشرة صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة، حتى من قبل ان اكتب التحقيق الصحفي عن بولدين لجريدة "كراسنايا زفيوزدا" .

وكما فهمت من كلام الجنرال، ومن الاحاديث الاضافية والتوضيحية مع توريانوفسكي فأن ظروفا كثيرة التعقيد قد تشابكت اثناء تلك الايام في ضواحي كالوغا. ان الالمان صاروا من جهتين على مسافة قريبة جدا من تولا. بيد ان مجموعاتنا الضاربة، اخترقت في العمق على طريق كالوجسكايا داروغا، الى ان وصلت الى المدينة. ودارت المعركة خلف ضواحي كالوغا. وكان الاختراق قد تحقق على عمق كبير الا ان الالمان كانوا، كما في السابق، على جانبي خرطوم الاختراق. وانهم كانوا من وقت لاخر يقطعون هذا الدهليز في بضعة اماكن، بحيث انه كان من غير الممكن تقريبا الوصول من مقر قيادة الجيش الى مقر قيادة مجموعة القوات التي شنت الهجوم على كالوغا. اما قائد هذه المجموعة من القوات المهاجمة، فأنه لم يستطع بدوره، من الوصول الى قطعاته الامامية التي اخذ زمام قيادتها موقتا، واحد من قادة الفرق.

وبعبارة موجزة ، فأن الحالة كانت حرجة جدا. غير ان بولدين تصرف في هذه الظروف بشجاعة وحزم. فبعد ان اخذ بنظر الاعتبار، الحالة النفسية للالمان في تلك الايام، فأنه قام، كما يبدو، بما يجب القيام به، وهو ان يواجه الالمان بمثل ماواجهونا به قبل مايزيد عن شهرين مضيا.

ان الوصول الى كالوغا في مثل هذه الظروف كان صعبا، غير انه كان لابد من اجراء المحاولة. وحالما

رجعنا من بولدين قررنا التوجه الى كالوغا بسيارتين، لأن ذلك يكون اكثر ضماناً عند حدوث اي طارىء.

لقد ظلت الزوبعة الثلجية تعصف طول الليل. ويبدو انها اخذت تميل الى الهدوء عند الصباح. ولكنها استأنفت عصفها بقوة جديدة في اثناء خروجنا الى الطريق. فأنها قد غطت الطريق بقوة متزايدة الشدة، وقامت حواجز الثلوج من كل جانب وتوقفت سيارات كثيرة في دروب السير. وشققنا طريقنا عبر عدد من اختناقات الطريق بالسيارات، ولكننا في النهاية، وبعد خمس ساعات من السير قطعنا خلالها ثلاثين كيلومترا، توقفنا نهائيا في واحد من هذه الاختناقات، وادركنا بأن من غير الممكن ان نواصل بسيارتنا "ايمكا" الحركة الى امام، على هذا الطريق خلال هذا اليوم او اليومين القادمين.

لقد انحشرنا بشدة في وسط "سدادة". فمن امامنا ومن خلفنا كانت السيارات متوقفة. اما الثلوج فهي سدود من جهتي الطريق. واخيرا سحبنا السيارتين "ايمكا" واحدة بعد اخرى الى الحقل عبر خندق بجانب الطريق، حيث كانت هناك قشرة صلدة من الثلج. وتحركنا على هذه القشرة الثلجية الى ان تجاوزنا سدود الثلج وسحبنا السيارتين مرة اخرى عبر الخندق الموازي للطريق، وخرجنا الى الطريق من خلف "السدادة". ومن بعد تسع ساعات رجعنا الى تولا جياعا تصطك ركبنا بردا وخائري القوى.

اتصلت انا هاتفيا بجريدة "كراسنايا زفيوزدا"،

واطلعت اورتينبيرغ على الاحباط الذي واجهناه، وقلت له ان رئاسة التحرير، اذا كانت تريد ان تكتب مادة عن كالوغا، وان لا نصل الى هناك فحسب، بل وان نعود منها في الوقت المناسب مع التحقيقات، فأننا بحاجة الى طائرة أو -٢. وقد وعدني اورتينبيرغ، بعدما سمع بذلك، بارسال طائرة أو -٢.

ولم تصل الطائرة أو-٢ في اليوم التالي، حيث كان الجو رديئا. ولكنهم قالوا لنا في الجريدة ان علينا ان ننتظر، لأن الطائرة أو-٢ ستصل حتما في اليوم التالي.

ان الجنرال بولدين الذي خرج في الليلة الماضية الى الخطوط الامامية، نحو بابوف، قائد المجموعة، بسيارة - لاندروفر - (سيارة كل الطرق - المترجم)، قد مرت ليلتان على وصوله الى هناك، ولا احد يعرف في المقر اين هو الان. وفي نفس الوقت، فأني لم اتخل عن فكرة كتابة تحقيق صحفي عن بولدين. ولذلك، ومن اجل ان لا اضيع الوقت، تحدثت في هذا اليوم، مدة ساعتين مع آمر المقر، العقيد ارغونوف. واتضح من هذا الحديث حالة مثيرة وايجابية من حيث وجهة نظري، بالنسبة نبولدين، وهي انه كان بالذات ذلك الجنرال الذي يقدر المقر، ويعتبره الاداة الضرورية له، فهو الذي اختار بنفسه ضباط المقر، وكد معهم ، واطلعهم على قراراته، وجعلهم، حسب رأي ارغونوف، يشعرون على العموم، بانهم شركاء في سير المعركة، ويحسون بأنهم ضباط وليسوا بيادق.

وكان خط الاتصال الوحيد في هذه الايام مع القوات المهاجمة على كالوغا يتم بواسطة الطائرات فقط.

وفي كل يوم يطير في الصباح الى ضواحي كالوغا ويعود منها في المساء، ضابط الاتصال - النقيب ارابوف - وهو انسان نحيف ذو انف احمر وغارق في فروة واسعة. وكان هذا ينجح كل مرة في الطيران، ويجد في كل مرة كل ماهو مطلوب، وفي كل مرة يعود من هناك. وان طائرته أو-٢ تكاد تصبح في هذه الايام الطائرة الوحيدة التي بقيت بأمرة مقر الجيش، لأن جميع الطائرات الاخرى كانت قد دمرت من قبل الالمان، او اصيبت من جراء الهبوط الاضطراري في اثناء العواصف الثلجية الاخيرة. اما ارابوف فكان يروح ويجيء بسلام في كل مرة.

واني أتذكر كيف رأيت هذا النقيب في اول مرة. كان ذلك بعد ان مر يوم كامل دون ان نتسلم اية معلومات من ضواحي كالوغا. فقد دخل راكضا من الباب، انسان لاهث نحيف يرتدي فروة، واصطدم مع قوميسار المقر، في الغرفة التي كنت جالسا فيها.

- سأله قوميسار المقر- هل وصلت؟

- أجابه النقيب بفرح - وصلت.

- اذن، فاني اهنئك بوسام الراية الحمراء. فكلام القائد واحد، وما دمت قد وصلت، فهذا يعني ان كل شيء على ما يرام.

- سأل النقيب - هل القائد في مكانه؟ ومن دون ان يظهر عليه اي تأثير للكلام عن الوسام، ويبدو ان ذلك بسبب التعب. وقال القوميسار ان القائد في مكانه. وقام بنفسه بمرافقة النقيب الى بولدين. وبعد ثلاث دقائق خرج النقيب من المكتب الذي تعالى منه صوت القائد بولدين:

- انتم الذين هناك اهتموا بان يطعموه ويسقوه ويدفئوه كما ينبغي.

ولكن النقيب سار من خلال الغرفة بخطوات ثقيلة متعثرة الى حد انه كان واضحا تمام الوضوح ، ان امرا واحدا فقط كان يجب فعله معه: وهو ان يتمدد فورا للنوم هذا الانسان المتعب تعبا قاتلا *

وفي نفس الوقت فأن الطائرة التي كنا ننتظر وصولها من موسكو ، لم تصل لليوم الثاني. وبقينا ننتظر وصولها ليوم ثالث . وقبل حلول المساء ، عندما كان اشتداد قوة رياح الزوبعة الثلجية لم يترك الا املا ضعيفا بأن الطائرة ستصل في هذا اليوم، اتصل تيمين من المطار بالمقر هاتفيا، يخبرنا ان رئيس التحرير قد ارسله مع طائرة.

---

*انظر الملحق

وسرعان ما القى بنفسه في غرفتنا الضيقة التي كنا نتزل بها انا وترويانوفسكي، كل من تيمين، ومراسلين من جريدة "ازفيستيا" هما غوراري وبيليكوف. ويظهر انهما قد جاءا على متن طائرتين. وقررنا ان نطير في الصباح سويا.

واخذ واحد من هؤلاء الاخوة الصحفيين يوجه من وراء مائدة العشاء، اللوم بتحامل شديد الى جميع الناس الذين نزحوا عن موسكو.

ويجب القول ان كثيرا من الناس الذين بقوا في موسكو، في تلك الايام، صاروا ينظرون نظرة ازدراء الى كل من غادر موسكو في شهر تشرين الاول - اكتوبر. وفي الواقع فان اعدادا كثيرة جدا من الناس قد غادروا موسكو آنذاك، بدون اوامر في الواقع، وبدون تكليف بأداء مهمات، ولكنهم انتحلوا هذا العذر او ذاك لتبرير النزوح. ولكنني شخصيا، قسمت اولا، جميع النازحين بوضوح الى نازحين بموجب اوآمر، والى نازحين "طوعا" اذا كان هذا التعبير مناسبا. وثانيا، فاني ادركت، وانا افكر بهؤلاء الاخيرين، بان اي واحد منا، مهما ارعد وازبد فوق رؤوسهم اليوم، فان هذا سيطويه النسيان، بفعل طبيعتنا الروسية الموروثة، خلال خمسة ايام من بعد ان يعودوا.

ولكن رفيقنا المتحمس تمسك براى آخر، وهو يتحدث عن الذين جلوا عن موسكو، وعن الذين بقوا فيها بقوله

ان يوم السادس عشر من تشرين الاول - اكتوبر، هو نوع من خط فاصل ما بينهم يحمل مغزى تاريخيا شاملا: اي ان هوة لا قعر لها بين الموسكوفيين، وبين من يسمون "الكويبيشيفيين"-(نسبة الى مدينة كويبيشيف شرق موسكو التي اقام بها النازحون - المترجم). وظل يتحدث عن هذا الموضوع، مرة بغضب، واخرى بسخرية، ويقول باننا لن نصفح عنهم من جراء ذلك، وان التاريخ نفسه سوف لا يسامحهم على ذلك، وانهم سيحاولون الرجوع فيما بعد، وكأنه لم يحدث اي شيء، في الوقت الذي نحن نعاني به هنا اصعب الايام.. والى آخر ما يشبه هذا الكلام.

لم يكن بودي ان اورد هذا الحديث، لو لم يبق في ذاكرتي على مثل هذا المستوى من الوضوح. وكذلك فاني قد تذكرته، لانه ماكان الا واحدا فقط من اكثر الاحاديث صراحة وجاذبية، من بين مجموعة كاملة من الاحاديث المشابهة، الذي كان قد اثير في ذلك الشتاء بموسكو. والجانب الساخر في مثل هذه الاحاديث، يكمن في ان الناس الذين كانوا يحبون الكلام عن هذا الموضوع، كانوا يظنون ان وجودهم بموسكو يكاد يرتفع الى مستوى المأثرة، ولهذا فانهم كانوا يصمون بالعار اؤلئك النازحين، انطلاقا من هذه المواقع الصلبة.

وقد يقع في بعض الاحيان، انه حتى اؤلئك الذين بقوا صدفة لا اكثر بموسكو، اما بسبب عدم حصولهم على مكان بالقطار، او لانه نسوهم مجرد نسيان في لحظة

الجلاء، ان هؤلاء قد تعودوا، بعد ان نسوا ذلك تماما، على اعتبار انفسهم بكل صدق وجدية، اناسا بقوا بموسكو بوازع من الايمان العميق والمبدئي.

انني اتحدث طبعا بشكل عام، عن اتجاهات مماثلة بالافكار، وليس عند صاحبنا هذا الذي يحدثنا، وكان في الواقع شابا رقيقا وجيدا، باستثناء بعض التضخيم كما يبدو في ذلك المساء، لمأثرته التاريخية.

وفي الصباح الباكر ذهبت مع ترويانوفسكي الى المقر، لمعرفة الحالة في ضواحي كالوغا، مع الاخذ بنظر الاعتبار، وجوب وصول طائرتنا في الصباح الى هناك، وان نجمع مواد عن الاستيلاء عليها، ثم الرجوع بالطائرة الى تولا مساء. اما الوصول بالطائرات الى كالوغا، وارجاعها لوحدها بدوننا، فان ذلك يعني مخاطرة بعزل انفسنا عن كل امكانية لايصال المواد الصحفية، عن الاستيلاء على كالوغا في الوقت المناسب.

وقيل لنا في المقر، بأن الجزء الاكبر من مدينة كالوغا ما يزال بيد الالمان كما هو عليه في السابق. وعلمنا في نفس الوقت على ضوء اخبار وصلت اليهم توا بان فيلق الخيالة الجنوبي، بقيادة بيلوف، قد اقتحم اودويفا في هذا اليوم ليلا. ولاحت عندي فكرة ان نطير الى اودويفا، وان نعود من هناك لنقدم تحقيقات صحفية، ثم نطير بعد غد الى كالوغا بعد ما ينجلي الموقف فيها.

وبالمناسبة القول انه صار عندنا فجأة في تولا، مصوران صحفيان لجريدة "كراسنايا زفيوزدا"، هما تيمين الذي ارسله رئيس التحرير، وكنورينغ المقيم في تولا. وانهما كلاهما ارادا الطيران معي، فاضطررت ان اتخذ حلا بسيطا لمهمة صعبة: وهي ان اطير الى اودويفا مع كنورينغ، وان اصطحب معي تيمين فيما بعد الى كالوغا.

وبعد ساعة من الزمن تحركنا اربعتنا- انا وكنورينغ وجماعة "ازفيستيا"- نحو المطار. وكانت الرياح تعصف قليلا، ولكن الجو كان معتدلا، والطيران ممكنا. واختبر الطياران محركي طائرتيهما، ثم اقلعنا. ان الطيارين هذين، كانا يعرفان معرفة جيدة هذه المنطقة. وبدل ان نهبط في البداية معا في اودويفا، هبطنا في مدينة كرابيفنا الصغيرة، التي تم الاستيلاء عليها قبل يومين. وبعدما علمنا بخطأنا من قبل سرب من الاطفال حفوا بالطائرتين، اقلعنا لنواصل الطيران الى امام. ومن بعد خمسين دقيقة اخرى، هبطنا في حرش بحقل، في طرف اودويفا. وكنا قد علمنا اولا من اطفالنا المستطلعين، ان هذه المدينة هي اودويفا فعلا، وان الالمان قد هربوا ليلا من هنا، وان قطعات الفرسان تمر خلال المدينة طول الصباح. وسحبنا الطائرتين قريبا من طرف الغابة لغرض ان يكون تحت اغصان شجر الصنوبر ولو الهيكلان منهما فقط، ومن ثم تحركنا نحو المدينة، بعد ان تركناهما هناك.

كانت المدينة بمنظر لا يثير الفرح. فقد عانت من دمار شديد، ليس من الالمان، كما يبدو ذلك واضحا فحسب، بل ومن قصفنا المدفعي ايضا. وما عدا ذلك فان الالمان استطاعوا في اثناء التقهقر ان يحرقوا قسما منها. كانت نوافذ الدور كلها محطمة في المدينة. وان ثلاثة ارباع سكان المدينة قد هربوا منها الى الضواحي، ولم يبدأوا بالتجمع الا في هذا الوقت، حيث كان يمشي في الشوارع اناس مذهولون، يلقون بابصارهم على الدور الخالية ونوافذها، ويزمون اكتافهم بحزن. ونقشت في الذاكرة بعض التفاصيل نقشا: ومنها لوحة اسماء الحلاقين من القطاع الخاص، مكتوبة باللغتين الروسية والالمانية "خاص بالسادة الضباط الالمان"، ولوحات باسماء مختلف الادارات المحلية للبلدية، وهي مكتوبة ايضا باللغتين الروسية والالمانية.

وقام غوراري وكنورينغ بالتقاط الصور لمناظر الدمار، وللاسلحة التي تركها الالمان. اما انا وبيلكوف، فقد عثرنا في اثناء جولتنا في المدينة على رئيس اللجنة التنفيذية المحلية للمدينة، الذي بدأ يمارس صلاحياته في المدينة من قبل ثلاث ساعات فقط. وهو انسان تجاوز مرحلة الشباب، وملابسه رثة وغير شتوية، ويفرك بيديه من البرد، وكذلك فهو يبدو مصدوعا بصورة لا ارادية مما يراه من الخراب الشامل والكارثة التي تعرضت لها مدينته. ودخلنا معه في غرفة كبيرة لأحد

البيوت. وقد رقعوا هنا بعض الزجاج المكسور بالواح الفانيرا. وكانت في البيت امرأة تكنس الارض، واخرى تشعل النار في الموقد. وفي هذه الغرفة لا يوجد اي شيء، ولا اي كرسي ما عدا منضدة معوجة القوائم، ورغم ذلك فقد اخذ يتجمع اول المراجعين، في الغرفة المجاورة لتلك. ومن بين هؤلاء، مدير الخدمات المحلية، المهندس الذي كان في وقت سابق قد اعاد اصلاح شبكة اسالة المياه المعطلة. وقد تحدث لنا عن ذلك، رئيس اللجنة التنفيذية المحلية.

- قال - سنتحدث معه الان.

انني اتذكر، ودون علاقة بهذا الحادث، كيف لاحت في ذهني انذاك فكرة ان المدن المحتلة من قبل الالمان التي لا يغادرها سكانها، تنشأ بها كثير من المشاكل الانسانية المعقدة. ولنأخذ على سبيل المثال هذه المسألة. فان هذا هو مهندس الخدمات المحلية - البلدية - وانه قد انحصر في المدينة، ولم يستطع لأي سبب من الاسباب، الذهاب مع قواتنا. ولنفرض انه انسان سوفييتي شريف. ولكن الالمان يأتون ويستدعونه، ويقولون له، هؤلاء هم سكانكم الروس يعيشون في هذه المدينة. وان انبوب اسالة الماء عاطل مفجور، فهيا واصلحه، دعونا نتساءل، ماذا يجب عليه ان يفعل؟ فمن جهة ان من الخطأ الذهاب للخدمة لدى الالمان، ومن جهة اخرى، من الخطأ ايضا ترك المدينة بدون شبكة اسالة الماء.

ان هذه حالة شديدة التعقيد. اما هذه الحالة الاخرى فهي فائقة البساطة، وقد انبغى علي ان اتكلم عنها، هنا في اودويفا. فان الالمان قد مكثوا في هذه المدينة مدة شهرين. وهذه مدينة وليست قرية، حيث يوجد لدى الناس هناك خزين من الطعام، وحيث باستطاعتهم الاختباء فيها، بحيث انهم حتى لا يحتاجون للذهاب بعيدا عن اكواخهم في بعض الاحيان، ليحفروا في الارض فقط ويعثروا على شيء يؤكل. اما هذه، فهي مدينة بافرانها ودكاكين بيع الخبز فيها، ومخازنها التي كان الناس يشترون حاجاتهم منها. ويأتي الالمان فيعينون رئيسا لبلدية المدينة، ويأمرون بتنظيم جديد للتموين، ولو حتى بادنى مستويات الفقر مثلا، وبفتح افران الخبز والمخازن . وفي المدينة تعيش النساء مع اطفالهن. وان الاطفال بحاجة الى طعام. ولكن التجهيز بالطعام لا يمكن ان يحصل عليه الا اؤلئك الذين يعملون ويخدمون فقط. وهذه مثلا والدة لثلاثة اطفال - مثل هذا الحادث كان بالذات في اودويفا- تذهب للعمل عند الالمان عاملة على الالة الكاتبة ببلدية المدينة. وليس ذلك بدافع حبها للالمان، وليس لانها تنوي خيانة وطنها، بل لانه ليس لدى اطفالها ما يأكلونه. واذا ما اشتغلت لدى الالمان على الالة الكاتبة، فانها ستحصل على ثلاثمئة او مئتين وخمسين غراما من الخبز.

ان جميع هذه الافكار قد دارت في رأسي باودويفا، عندما كنت اتحدث هناك مع الناس. ومما لا ريب فيه،

فاننا سنضطر، بل ونحن الان مضطرون عند تحرير ارضنا، لمواجهة مشاكل عظيمة كثيرة من قبيل هذا النوع، وايجاد حلول لها، كل حسب ظروفها الخاصة. وظهرت في اودويفا التي كان الالمان قد سيطروا عليها لمدة اكثر من شهر، مجموعة كبيرة من هذه المشاكل. فكم من نوع هذه المشاكل لابد ان يظهر منها في مدينة كييف، حيث يوجد الالمان بها منذفترة طويلة وحيث ينبغي على الناس الذين بقوا هناك، ان يعيشوا بشكل ما، لانه ليس من يستطيع العيش طويلا على عشب المراعي.

عندما تكون في الحرب، تنسى احيانا ان الحياة ستبقى هي الحياة، وان حصة الخبز ستبقى هي حصة الخبز والخدمات العامة ستبقى هي الخدمات العامة، وان الاطفال سيبقون اطفالا. فلنأخذ مثلا شخصية انسان مثل غروزينوف وهو رئيس بلدية فيودوسيا الذي كنت قد استجوبته فيما بعد، بشهر كانون الثاني - يناير. ان شخصية هذا الذي اعتبر نذلا وخائنا، هي مشكلة، أقل شأنا بكثير، بالنسبة لريشة الكاتب، من مشكلة هذه العاملة على الآلة الكاتبة ببلدية المدينة، والام لثلاثة اطفال.

امتدت طوابير قوات الفرسان طويلة، وهي تجتاز المدينة نحو الغرب. وجاءت فوق المدينة بضع طائرات المانية "يونكيرس" التي ظهرت فجأة من خلال السحب، نقصفت المدينة والقطعات العسكرية المارة من خلالها. اما الحالة بالنسبة لنا فانها كانت هكذا، فعندما تكون

الطائرات فيها تقصف هذه الناحية، نكون نحن في الناحية الاخرى، ومن ثم بالعكس ايضا. وظل القصف بعيدا عنا في المرتين، ولهذا فاننا عندما رجعنا الى الطائرتين، واردنا سحبهما الى الفسحة لاجل الصعود والاقلاع، جاءت تزأر فوق رؤوسنا طائرة واحدة، ومن بعدها طائرة ثانية فثالثة من طائرات "يونكيرش"، واستدارت الطائرة الاولى من فوق رؤوسنا بارتفاع واطيء مرة اخرى. ويبدو انها لابد وقد لاحظت الطائرتين على الارض. غير انها في الواقع لم تلاحظ الطائرتين، بل لاحظت الاطفال، وذلك لاننا بعد ان موهنا الطائرتين في الحرش، لم نأخذ بنظر الاعتبار، ان مئتي شخص من الاطفال قد احاطوا بالطائرتين على شكل نصف دائرة سوداء. وتفرق الاطفال شذر مذر، واختفينا نحن في حرش وراء الاشجار. وانقضت الطائرة "يونكيرس: وفتحت نيران رشاشتها من ارتفاع اربعين مترا تقريبا على ذلك المكان الذي كنا نقف فيه نحن والاطفال. ولحسن الحظ فان اي احد لم يصب بجروح، ولم يقتل اي احد من الاطفال او منا، على الرغم من ان طلقات الرصاص قد رسمت على الفسحة كلها خطوط طويلة في الثلج.

وبعد انتظار مدة خمس دقائق صعدنا الى طائرتينا واقلعنا عائدين. وفي اثناء الاقلاع والاستدارة، شاهدنا مرة اخرة طائرة "يونكيرس" تحلق بمحاذاتنا. ولكنها لم تطاردنا: اما لانها لم تلاحظنا، او لان لديها ما يشغلها

عنا. ومن بعد ذلك، عندما صار الطيران بعيدا عن اودويفا شاهدنا طائرة "يونكيرس" اخرى. ولكن طائرتينا او-٢ حلقتا تحليقا واطئا جدا يكاد يلامس الارض، وطارتا فوق مجرى النهر تزوغان بين ضفافه.

وعلى العموم، فان الطيران الالماني، قد استشرس في هذا اليوم. فبسبب تعطل المطارات المحلية من جراء العواصف الثلجية، فان طائرات "يونكيرس" كانت تحلق الى هنا، كما قيل لي، من ضواحي وارشو تقريبا. واضطر بولدين الذي كان قد تحرك في هذا اليوم الى كالوغا، ان ينزل من سيارته حوالي اثنتي عشرة مرة، انتظارا لمرور قصف جوي مرة، او غارة جوية مرة اخرى، ان الالمان ما كانوا راغبين بتسليم كالوغا، فوجهوا هجماتهم على خطوط مواصلاتنا بكل ما كانوا يملكون من طائرات.

وبعد ساعة ونصف من الطيران، وبعد ان حل الظلام التام عدنا الى تولا. وكنا نرتجف من البرد. وصعدت على السرير في غرفة ترويانوفسكي برجلي الاثنتين، وبعد ان تدفأت قليلا، باشرت بكتابة تحقيق صحفي عن اودويفا. وتم ارسال هذا التحقيق بالبرق، غير انهم في جريدة "كراسنايا زفيوزدا" اعتبروه تحقيقا "مدنيا" اكثر مما يجب، اي انه لا يحتوي على ما يكفي من الحوادث الحربية، وبالنتيجة فان هذا التحقيق الصحفي لم يظهر لهذا السبب.

وبالواقع فان هذا التحقيق الصحفي كان رديئا،

ولكنني انزعجت رغم ذلك من عدم نشره. لان النتيجة جاءت وكأنني طرت عبثا الى اودويفا من حيث وجهة نظر مصالح الجريدة.

وبالنسبة الى كنورينغ، فان الامر كان اسوأ من ذلك، لانه عندما قام بارسال اللقطات المظهرة عن اودويفا ليلا مع سيارة عابرة، كنا في نفس الوقت نتبادل الحديث عن المعارك التي تدور الان حسب آخر الانباء، من اجل السيطرة على مدينة بيليف، وانهم سيستولون عليها، كما هو واضح، عند الصباح. ولما سمع كنورينغ هذا الكلام وهو مشغول البال، كتب على الظرف الذي يحمل الصور الملتقطة عن اودويفا، كلمة "بيليف" وذلك بسبب شرود الذهن او تأثير التعب على الارجح.

ان اورتينبيرغ كان مغرما في الحياة اكثر من كل شيء، بمواضيع الساعة الساخنة. ولذلك فانه لم يستغرب كيف تم فورا التقاط صور عن بيليف - وبوقت ابكر قليلا من الاستيلاء عليها- بل على العكس، فانه كان مرتاحا من ان هذه اللقطات ستظهر في الجريدة في نفس الصباح الذي سيذاع به من مكتب الاخبار نبأ الاستيلاء على بيليف.

ولم يكن في اودويفا او بيليف، احد غيرنا من هيئة التحرير. ولهذا فلم يكتشف اي واحد ان هذه البيوت المهدمة في الصور الفوتوغرافية هي في اودويفا وليس في بيليف. وحالما رأى كنورينغ صوره الفوتوغرافية في الجريدة فيما بعد، حتى شد على رأسه بيأس. الا ان

الاحداث تعاقبت واحدة بعد اخرى، ويظهر انه لم يعرف احد آنذاك شيئا عن هذا الخطأ البريء الذي وقع به.

وفي صباح اليوم التالي قررت مع تيمين ان نطير في هذه المرة الى ضواحي كالوغا، سواء كانت ساقطة او غير ساقطة، وذلك لكي نطلع، على ما يجري هناك، في جميع الاحوال. فاذا كان الاستيلاء عليها قد تم انجازه، فاننا سنطير من هناك عائدين الى موسكو مع تحقيقات صحفية عن عمليات الاستيلاء عليها، واذا لم تتم السيطرة عليها بعد، فسنعود الى تولا لنرسل مواضيع تمهيدية، على ان نعود بالطائرة الى ضواحي كالوغا مرة اخرى.

ومع بزوغ الفجر، صعدنا نحن اربعتنا- بيليكوف وغوراري وتيمين وانا، بملابسنا الشتوية العسكرية، وبصعوبة في السيارة، وتوجهنا بها الى المطار. وكنت انا قد جلست بالمقعد الامامي. اما تيمين وغوراري وبيليكوف فقد جلسوا في الخلف.

ومن خلال صوت اهتزاز السيارة،سمعت تيمين وغوراري يتشاتمان بكسل من خلف ظهري، ويستعرضان حساباتهما بصدد الصور الفوتوغرافية، وسمعت كيف لعلعت فجأة من وراء ظهري صلية اطلاق رصاص رشاشة. وقفز تيمين الاول من السيارة بفزع واضح جدا واعلن لي رسميا تماما:

- ايها الرفيق سيميونوف - ان غوراري اراد قتلي!

ان غوراري الذي كان حتى هذا الحين يزهو بسلاحه "ديكتاريوف" ويحتضنه، صار الان يمسك رشاشته بيديه

وينظر بفزع مرة اليها واخرى لسقف السيارة المثقوب بالرصاص.

- قال وهو مذعور - انه لمدهش، كيف وقع هذا؟

- وصرخ تيمين مضطربا- لقد ازت الرصاصة فوق اذني تماما، وان هذه كانت حقيقة واضحة بحسب ثقوب الرصاص في سقف السيارة.

وغاصت السيارة في ثلج عميق ولم تتحرك الى امام. وقطعنا سيرا على الاقدام الكيلومترات الاربعة الباقية الى المطار.

وفي المطار جثمت عدة طائرات من طراز أو-٢ تستكمل تجهيزها للاقلاع. فان لدى قسم منها يجري تسخين المحركات، ولدى قسم آخر تجري تعبئة البنزين. وزيادة على ذلك كانت تهب على المطار عاصفة ثلجية شديدة، كما كانت الطائرات التي تنطلق للاقلاع تثير عواصف ثلجية من محركاتها. وانهالت ندف الثلج على اقمعة ملء البنزين مباشرة. وغمغم الطيارون متذمرين، ان يوقفوا ملء الخزانات وبتقليل كمية الثلج الساقط على البنزين، لكي لا تتوقف المحركات. ولكنهم رغم هذا التذمر فان طائراتهم قد اعدوها للاقلاع. ولم يستطيعوا في البداية تشغيل محرك واحدة من طائرتينا الاثنتين. واتضح فيما بعد انه لا يجوز التحليق بدون مصباح تسخين: فقد يصادف ونقضي ليلة في مكان ما! واخيرا حصلوا على هذا المصباح من طائرة اخرى.

وشرعت طائرات او-٢ المربوطة، تقلع الواحدة بعد الاخرى بوقت واحد. وكان النقيب ارابوف اول من حلق في الجو.

وقمنا نحن بحث "حوذيينا" قدر ما نستطيع للاسراع بالتحليق وراءه مباشرة. ولكنهما الى ان حصلا على المصباح فانه كان قد طار. ولحق ان يقلع من بعده، حتى الاخرون. والان حان لنا ان نحلق، آملين بالاعتماد على توجيهاتنا الخاصة. وكانت الرياح تهب عاتية، والعاصفة الثلجية تغطي بالثلوج كل مكان. وبالاضافة الى ذلك، فقد كان الجو باردا اشد البرد. ولم يرغب تيمين وغوراري بالافتراق عن بعضهما البعض، لغرض عدم وقوعهما في طائرتين مختلفتين، حيث يتهيأ لاحدهما الوصول فيلتقط الصور بينما لا يتهيأ ذلك للاخر فلا يلتقط شيئا. وجلسنا انا وبيليكوف في طائرة أو - ٢ الاخرى.

وينبغي القول ان هاتين الطائرتين او-٢ اللتين تحت تصرفنا كانتا من نوعين مختلفين. فواحدة منها مكشوفة، اما الثانية التي ركبت بها مع بيليكوف، فهي من نوع اثقل وكابينة مغلقة. وكان هذا قد افرحنا في البداية لان في ذلك وقاية لنا من البرد. ولكن هذا بالذات انتهى الى ما لا يرضينا فيها بعد. فاننا بعد ما طرنا فوق تولا وتجاوزناها، سلمنا ثقتنا من بعد ذلك الى الطيارين.

وبعد تحليق لمدة ساعة ونصف،كان يجب بحساب الزمن، ان نكون في منطقة ما بالقرب من كالوغا. ولم تكن هناك

اية علامة تلوح للعين من جميع الجهات. ولم يغادرني احساس كريه، في غمرة الثلج الهاطل الشامل وتأرجح الطائرة في الهواء، بأن طيارينا ليست لديهم اية فكرة عن الاتجاه الذي يحلقان به. واننا كثيرا ما حومنا على كل حال واستدرنا الى كل ناحية، وهو عمل زائد حتى بالنسبة للطائرة او-٢. وقد شعرت بأننا قد ضللنا الطريق، وظهر فيما بعد ان شعوري ذلك كان صحيحا. وبعد ان تخبطنا ودرنا، هبطنا اخيرا في فسحة وسط غابة كانت الاشجار تحيط بنا من كل جانب. وشاهدنا قرية على مسافة عدة كيلومترات.

وعندما خرجنا من الطائرة، تبين ان الطيارين ليس لديهما اي تصور عن المكان الذي نحن نزلنا به. فانهما كانا قد انحرفا منذ وقت طويل بسبب العاصفة الثلجية، عن الطريق الذي كان يشكل علامة دالة للطيران الى كالوغا. وقد تصورا هما اننا موجودون في مكان ما، بين مدينتي كالوغا وتولا، ولكنهما لم يستطيعا ان يعينا اين هذا المكان، ولم يرغبا في مناقشة كيفية الوصول الى كالوغا حاليا بمثل هذه العاصفة.

ان الوضع كان محزنا وتجمدنا من البرد حتى العظام. وتحولت العاصفة الى اعصار. وما عدا ذلك، فاننا اذا ما اخذنا بالحسبان، بأن ممر الاختراق الذي شقته قواتنا من تولا نحو كالوغا، كان عرضه ٦-١٠ كيلومترات، على اساس الخرائط، فان من الصعب الاطمئنان الى اننا لم نهبط

بهذا الوقت على ارض يحتلها الالمان. وقررنا بعد التشاور بأنه ليس لدينا مخرج افضل من محاولة العودة الى تولا، والاقرار بفشل طيراننا في هذا اليوم.

كانت الفسحة الغابية التي هبطنا فوقها، مغطاة بثلج عميق. وادى ذلك الى ان الواح عكازات وقوف الطائرتين التي تنزلقان عليها، قد غاصت بالثلج، بحيث انهما لم تتحركا من مكانهما رغم كل الضغط الشديد الذي وجهه الطياران على محركي الطائرتين. واخيرا فان الطائرة الأخف وزنا من الاخرى، التي طار على متنها غوراري وتيمين قد اقلعت من الفسحة الغابية. اما بالنسبة لنا فاننا لم يحالفنا الحظ في الاقلاع رغم تكرار المحاولات. وعند ذاك جلس طيارنا في الكابينة، بينما قمت انا وبيليكوف بالوقوف تحت الجناحين واستندنا اليهما وبدأنا في هز الطائرة. ولكننا حالما نهز الطائرة فتتحرك ونحاول مرة اخرى الصعود الى كابينة الطائرة، حتى تغوص الواح الانزلاق مرة اخرى بالثلج وتتوقف الطائرة عن الحركة. وظهر انه كان ينبغي علينا بعد هز الطائرة، الصعود اليها وهي حالة الحركة. ولم يبق امامنا سوى ان نفعل ذلك.

وحامت من فوقنا الطائرة الثانية وهي تتطلع الى محاولاتنا. اما انا وبيليكوف فقد بذلنا الجهد للانفلات من هذه الارض الملعونة. وعندما كان المحرك يدور بقوته، فان الريح القوية كانت تصفعنا في الحنجرة

مباشرة، وتحول دوننا ودون القفز في الوقت المناسب الى داخل كابينة الطائرة التي بدأت بالحركة. واذا كانت الطائرة تتحرك حركة بطيئة، واننا نلحق بالقفز الى داخلها، فانها تتوقف في أثر ذلك، الامر الذي يضطرنا الى ان نبدأ كل شيء من البداية وأن هذه كانت عملية ثقيلة، اذ نقوم كل مرة بالهز وبالركض وبالقفز وثم بالهز. وفي اثناء ذلك ما ابقينا اية كلمة لعنة مما هو موجود في اللغة الروسية الا وقلناها. واخيرا استطعنا ان نقفز الى داخل الطائرة، بعد ان رفعناها وهززناها باقصى ما لدينا من قوة، ومن ثم تحركت في هذه المرة دون ان تغوص.

كنت مختنقا بأنفاسي، وعندما اجتزت عبر طرف الكابينة، حشرت نفسي بها، والطائرة على وشك التحليق. واني قد تصببت عرقا لم يجف من على جسمي حتى مدينة تولا نفسها، التي كنا نتجه عائدين اليها بعد حلول الظلام، ومن ثم هبطنا بصعوبة كبيرة، بعد ان كدنا نصطدم باسلاك الهاتف.

وكان الجو في ذلك اليوم قد اضل جميع الطيارين، كما اتضح فيما بعد. ومن بين جميع الطائرات الست التي طارت من تولا الى كالوغا، وعادت رغم رداء هذا الطقس، هي طائرة آرابوف وحده. كما ان طائرتينا الاثنتين قد عادتا بسلام. ولدى الطائرة الرابعة سقط ثلج كبير جدا في المحرك، مما ادى الى توقف المحرك وسقوط الطائرة.

ولحسن الحظ فقد مر الحادث بدون وقوع ضحايا. وتحطمت الطائرة الخامسة على بعد ستين كيلومترا عن كالوغا. اما الطائرة السادسة فلم يعثروا عليها. ويبدو انها هبطت في مكان ما وسط الالمان.

وعندما رجعنا الى غرفة ترويانوفسكي الدافئة، بعد هذا الطيران الفاشل، استلقيت على الفراش، ومددت رجلي، وبعد ان غفوت مدة خمس عشرة دقيقة، رغبت بالنهوض، ولكنني احسست بعدم القدرة على الانحناء او الاعتدال. ويبدو انني قد اضنيت نفسي تعبا في دفع الطائرة. وكان الألم في البطن بتلك الشدة وكأنما سكين تقطع فيها. ولم يغمض لي جفن طول تلك الليلة كلها. وفي الصباح ذهبت الى الطبيب منحنيا على نفسي. وان زملائي لم يطيروا في هذا اليوم لان الطقس كان اكثر فظاعة من اليوم السابق. وحركني الطبيب وفحصني وقال في البداية بعض الكلمات العلمية، ومن ثم اوضح بأنه قد حصل عندي تشنج شديد في احدى العضلات. ولكن هذا لم يخفف عني شيئا ، وعدت راجعا بشق النفس الى ترويانوفسكي.

كانت حالتي حالة مجنونة تماما. فما كان بأستطاعتي عمل اي شيء: التحقيق الصحفي حول اودويفا لم ينشر. والى كالوغا لم افلح بالوصول. ولعل هذه الرحلة كانت اكثر رحلاتي جدبا خلال مدة الحرب حتى ذلك الحين.

وبعد المشاورة مع ترويانوفسكي، رأينا انه ليس

هناك من معنى للبقاء بلا عمل في مدينة تولا لمدة بضعة ايام. فاخذت سيارته وتمددت فيها بشكل اعوج وسافرت بها الى موسكو. وفي الطريق صادفتنا مطبات ثلجية وقد غصنا في واحد منها. فخرجت من السيارة وقمت بدفعها، غير اني شعرت بألم لا يطاق، الامر الذي اجبرني على التخلي عن هذه العملية. واتلف السائق جهاز ربط الحركة (كليج) بتأثير استعماله ضغط الوقود الشديد، فتوقفت السيارة نهائيا عن الحركة. واضطررت للنزول من السيارة وانا اصرخ. واركبني بعض من العاملين في اللجنة الشعبية للامن الداخلي بسيارة "ايمكا" ونقلوني عائدا الى تروينانوفسكي.

جلبنا سيارة حمل لربط سيارتنا المتعطلة وسحبها. وبعد كل هذه المزعجات تسنى لي اخيرا الحصول على مكان بسيارة "ايمكا" عابرة، وان اصل في الصباح الى موسكو.

وصعدت متحاملا على نفسي الى الطابق الرابع، وبعد ان ابلغت رئيس التحرير بذلك، استلقيت بغرفة الارشيف على الاريكة ولم انهض من عليها لمدة يومين. وبهذه الصورة انتهت رحلتي الخائبة من جميع النواحي، الى ضواحي كالوغا.

لقد تمددت وخجلت من كوني لا اقدر ان اقدم للجريدة اي شيء مفيد. واخيرا بدأت في الذاكرة مختلف المواقف التي عشتها خلال نصف عام مضى. وما ان اختطفتني هذه الذكريات حتى قمت وامليت على عاملة الآلة الطابعة

تحقيقا صحفيا، لمدة عدة ساعات متتالية، عنوانه "حزيران - يونيو، كانون الاول - ديسمبر"، وهو في رأيي واحد من احسن التحقيقات الصحفية التي توفقت في انجازها. وتم اختصاره بمشاركتي مرة ونصف المرة، ونشر على عمودين فيما بعد في عدد رأس السنة من جريدة "كراسنايازفيوزدا".

ان اليوم التالي - ٣٠ كانون الاول - ديسمبر، عام ١٩٤١- اتذكره جيدا، الى جانب عدد من الظروف الشخصية الحيوية. فقد اخذت حالتي الصحية بالتحسن قليلا، وبدأت اخطو في مكاتب تحرير الجريدة بشكل ما، ولو كنت محني القامة. وفي الليل دخلت على اورتينبيرغ لاجل اجراء بعض التعديلات على تحقيقي الصحفي (حزيران - يونيو، كانون الاول - ديسمبر) الذي دخل للنشر، ولكنني رجوته بشكل مفاجيء حتى بالنسبة لي شخصيا، ان يعطيني اجازة لمدة يومين، اعتبارا من يوم غد، ٣١ كانون الاول - ديسمبر، لكي اطير الى مدينة سفيردلوفسك، لزيارة اقاربي، على ان اعود في اليوم الثاني او الثالث على ابعد تقدير الى موسكو. ووافق اورتينبيرغ على ذلك وكتب ايفادا وامر بأن يحجزوا لي مكانا بالطائرة المغادرة غدا الى هناك.

كان يبدو ان كل شيء قد تقرر، وان كل شيء على ما يرام. وتصورت كيف اني غدا مساء ساكون في سفيردلوفسك. وبعدما اجريت التعديلات على التحقيق الصحفي، بقيت في

المكتب لدى رئيس التحرير. انه رجاني ان القي نظرة على قصة غروسمان التي ستنشر في العدد القادم. وكان ينبغي ان اعثر فيها على عشرين سطرا للاختصار. وبالاضافة الى ذلك فان رئيس التحرير قد اهتم بأن يعرف، هل يبدو لي شيء من الحقيقة نفسيا في احداث هذه القصة؟

اما القصة، فهي حسبما اتذكر، بهذه الصورة: ان القطعة العسكرية التي يعمل بها بطل القصة طباخا، تكون فجأة على بعد خمسة عشر كيلومترا من القرية التي تقطنها زوجة الطباخ التي لم يرها منذ نصف عام مضى. وان الطباخ يتضجر منذ مدة طويلة من مهنته، ويرجو ان ينقلوه الى الاستطلاع. ولكن الآمر يرفض طلبه باستمرار، ولا يوافق على التماسه. وفي مساء اليوم التالي كان على القطعة العسكرية ان تتحرك الى امام. ويوافق الآمر على السماح للطباخ بأن يخطف نظره على القرية ليلا، وان يرى زوجته، وان يعود في مساء اليوم التالي. وبينما هو يستعد لذلك، واذا بهم يستدعونه الى آمر اللواء الذي يوافق اخيرا على رجائه: بان يرسله في هذه الليلة ذاتها الى مؤخرة الالمان، مع مجموعة من افراد الاستطلاع. ويحتدم الصراع بين المشاعر، وبين الواجب، ومن ثم ينطلق الطباخ، رغم كل اغراءات اللقاء بزوجته، الى الاستطلاع.

واجبت عن سؤال رئيس التحرير، بأن هذه الحالة ليست واقعية بما فيه الكفاية، ولكنها قريبة من

الحقيقة نفسيا. واذا نفترض ذلك ممكنا من حيث الموضوع، فمن المحتمل نفسيا، ان يتصرف كل واحد منا مثل تصرف بطل هذه القصة.

واختصرت من قصة غروسمان عشرين سطرا، وواصلت الكلام مع اورتينبيرغ عن موضوع آخر، واذا بخبر يصلنا فجأة في الساعة الثانية ليلا، عن بداية عملية انزال لقواتنا في مينائي كيرتش وفيودوسيا.

واطلعني اورتينبيرغ على ما سمعه بالهاتف حول هاتين العمليتين، وقال بانه يجب ارسال شخص الى هناك، واعترف انا بشرف، بأنني ما كنت احس بالرغبة للطيران الى هناك. كما ان رئيس التحرير تصنع من جهته ايضا، ان مسألتي قد تقررت بالنسبة له، بحيث انه قد تحدث معي حول من سيرسل الى هناك: بافلينكو او اي واحد اخر من المراسلين الصحفيين؟. ومن بعد ذلك اتصل هاتفيا واستدعى بافلينكو ان يجيء اليه. اما انا فقد ذهبت الى المقصف لاحتساء الشاي.

ومرت حوالي خمس عشرة دقيقة. وتسنى لي ان اشرب بضعة اكواب من الشاي عندما رن في المقصف هاتف من اورتينبيرغ.

- اسمع يا سيميونوف. تعال عندي. انني اريد ان ارسلك الى القرم باية حال من الاحوال. وليس هناك احد غيرك. فان بافلينكو مريض.

وعندما دخلت عليه، كانت قصة غروسمان التي

اختصرتها ما تزال مطروحة على منضدة رئيس التحرير.

- قال اورتينبيرغ - هذه هي الحال، فليس لدينا من نرسله بالنتيجة. انني قد استطيع ان اجد شخصا اخر في اسوأ الاحوال - لا بافلينكو ولا انت - ولكني لا اريد ذلك. وبالرغم من هذا فاني لا اجبرك. وما تقرره انت هو الذي سيكون. وانني لا اتراجع عن كلامي، اذ باستطاعتك ان تطير الى سفيردلوفسك، فماذا تقول؟ واحاطني بانظاره وهو غير مستعجل.

واستغرقني التفكير. فقد كان وشيكا جدا ان اضع قدمي في سفيردلوفسك. ومن ثم نظر بعضنا الى بعض، والتقت عيوننا كلها على نفس قصة غروسمان هذه، وابتسمنا نحن الاثنين بصورة لا ارادية.

- قلت له - لا بأس عليك. فما دام ان هذا موقف قريب نفسيا من الحقيقة، فلا بد من ان اسافر، بشرط، ان كنت تستطيع الوفاء به، وهو ان تحصل لي على نداء هاتفي مع سفيردلوفسك اليوم قبل السفر.

واتصل اورتينبيرغ في البداية هاتفيا، بالملاحة الجوية، وحجز لي مقعدا بالطائرة المغادرة صباح غد الى مدينة كراسنودار، وبعد ذلك اتصل هاتفيا بوزارة المواصلات قائلا، بانه في خلال خمس عشرة دقيقة يريد ان يتحدث شخصيا مع سفيردلوفسك. وبعد خمس دقائق فتحوا له خط سفيردلوفسك.

وخرج رئيس التحرير من مكتبه، بعد ان تأبط محفظة

اعماله المتعلقة بالتحرير، واغلق الباب من ورائه. اما انا فقد بقيت اتبادل التوضيحات مع اقاربي عبر خط الهاتف. واخذ الحديث بالهاتف منحنى غير سار لأسباب متنوعة، ومن ثم خرجت من المكتب بوجه عابس. ولاحظ اورتينبيرغ ذلك في الحال وسألني ما الامر. واجبته بانه لا يوجد اي امر خاص، ثم ذهبت الى غرفتي، لاجل ان احصل ولو على ساعتين من النوم. غير اني قبل ان اغفو، رن الجرس يستدعيني فورا الى رئيس التحرير.

وقد ظهر انه بعد ما رأى سحنتي المتجهمة، قام بمبادرة منه بطلب نداء آخر الى سفيردلوفسك، ومن ثم خرج مرة اخرى من المكتب عندما تكلمت ثانية بالهاتف.

ولم تكن نهاية المكالمة الهاتفية الثانية بأفضل من الاولى، ومع ذلك فانني لن انسى اورتينبيرغ ابدا على هذه المبادرة الكريمة.

ونام معي في غرفة الارشيف، كابوستيانسكي. وعند قدميه وقفت منتصبة، جزمة لبادية ضخمة. اما جزمتي اللبادية فقد كانت ضيقة. وكنت خائفا ان اطير بها في طريق طويل. وأقدمت لأول مرة في حياتي على الغش، حيث اخرجت من جزمة كابوستيانسكي لفافة القماش المستعملة بدل الجواريب، واخذت هذه الجزمة ووضعت بمكانها جزمتي بنفس الحالة وفي داخلها لفافة القماش.

وفي الطريق الى المطار غطسنا بالسيارة في الثلج. وعندما اخرجناها تمزقت عندي العضلة مرة اخرى. واخيرا

وصلنا الى المطار في نفس تلك اللحظة التي استدارت فيها الطائرة ودرجت على الارض استعدادا للاقلاع.

وعندما سألت خفر المطار عن الطائرة المتوجهة الى مدينة كراسنودار قال "هذه هي" مشيرا الى الطائرة التي انطلقت بعيدا على مدرج المطار.

كان امرا مخجلا واحمق. وبالاضافة الى ذلك، فمن الممكن ان يتشكل انطباع، وكأن عدم الطيران قد جاء عن قصد. وكذلك فانني لم اعد اعرف ماذا افعل. فقد كانت في يدي حقيبة صغيرة، ووقفت معها مذهولا في المطار. وفجأة توقفت الطائرة التي كانت تدرج حتى هذه اللحظة على ارض المطار. فقد غاصت عجلاتها في حفرة وتزحلقت. ركضت مع خفر المطار نحو الطائرة، وبعد ان تقطعت انفاسنا، وصلنا اليها في نفس تلك اللحظة التي تخلصت بها من الحفرة، بفعل ضغط الوقود على المحرك، واستعدت للاقلاع.

وقد اتضح انهم اركبوا بمقعدي راكبا ثانيا آخر، حيث حشروا الاول في بطن هيكل الطائرة، واجلسوا الثاني بمقدمة الطائرة في كابينة الملاحة. وكانت الطائرة من طراز "سي بي ٦" وليس بها مقعد خال. ولكن الطيار وافق وهو يعربد، على ان يأخذني معه. وفي آخر دقيقة تماما، اصعدوني مع حقيبتي بايد ممدودة، وحشروني في كابينة الملاحة.

ولغرض ان اصف حالتي اللاحقة، ينبغي وصف الكابينة ذاتها. ففي مقعد الملاح في الكابينة يجلس شخص مسافر.

وفي الترس المتحرك من جبهة الطائرة، تنتصب رشاشتان مزدوجتان عبر فتحات عملت خصيصا لهذا الغرض. وانهم حشروني وكبسوني في اسفل العنبر. وهدرت الطائرة وشرعت تقلع. ولانه لا مجال للجلوس بتاتا، فقد جلست نصف جلسة، منحنيا على اخامص الرشاشات. وفي هذا المكان الضيق ما كنت استطيع ان اتململ تقريبا، بل وحتى من الصعب علي ان احرك يدي لأمسح وجهي او اعدل وضع القبعة على رأسي.

كان الجو فظيعا. وتجاوزنا عددا من الزوابع التي ارججتنا وهزتنا. ومن خلال كوى الرشاشات كان الهواء البارد يتدفق. اما الصقيع في هذا اليوم فقد كان اكثر من ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر.

واني في خلال جميع التحليقات الجوية التي قمت بها على الطائرة أو-٢، لم اشعر حتى ولا مرة واحدة بخمس مثل هذا البرد الذي احس به الان.

ولما هبطنا بعد اربع ساعات ونصف من الطيران تقريبا، بالقرب من كامينسك، حيث كان يرابط مقر قيادة الجبهة الجنوبية، خرجت من الطائرة وانا نصف حي. فما كنت احس بوجهي ولا بيدي، وكذلك فان رجلي ما كانتا تعكسان الالم. واخذت ارتعش من البرد. ولكن هذا يمكن تلافيه بسهولة على كل حال. ففي مطعم الطيارين شربت ثلاثمئة غرام من الفودكا، فشاع الدفء في جوفي، غير ان وجهي ويدي مهما فركتها بالثلج فان الالم ظل مستمرا

فيها.

وبالاضافة الى ذلك كله فقد اتضح باننا سوف لانواصل الطيران اليوم. وبعدما علمت ان بالقرب من هذا المكان، يقع مقر قيادة الجبهة الجنوبية، تذكرت ان بعض الشبان الذين اعرفهم ومنهم كوليا كروجكوف يعملون في جريدة الجبهة. وتبادر الى ذهني ان اتصل هاتفيا بالجريدة، فعسى ان اعثر هناك على كروجكوف.

وبعد نصف ساعة توجهت الى مدينة كامينسك، بسيارة عابرة، على امل ان اعود غدا في الساعة الثامنة، اي بوقت اقلاع الطائرة ، وتمكنت بلا تعب، من العثور على مكتب تحرير الجريدة. والتقيت هنا بشعور الفرح مع كوليا كروجكوف، وتعارفت مع مراسل جريدة "برافدا" ميرجانوف، الذي ما كنت على معرفة به من قبل، وظهر انه سيكون رفيقي غير المتوقع، في الطريق الى كراسنودار، ومن ثم الى فيودوسيا. واستلقيت على السرير ارد على اسئلة كروجكوف حول موسكو مدة خمس عشرة دقيقة، ثم غرقت في سبات الاموات.

واستيقظت على صلصلة اصوات. فقد وقف في الغرفة كروجكوف وشخص آخر لا اعرفه. وقام كوليا كروجكوف باخراج الاحتياطي من قناني الاسبيرت، من دولاب المنضدة، وهي تضج بين يديه. وسألت كم الساعة الان. وتبين انها الثانية بعد منتصف الليل. ان النوم قد اخذني بهذه الصورة في العام الجديد.

ولا ادري لماذا ان القنينة التي اخرجها كروجكوف من الدولاب كانت من نوع "شاتو- ايكيم" . وشربنا مقدار كوب شاي منها لكل واحد منا، ثم خرج كروجكوف وزميله من الغرفة، بينما استلقيت للنوم مرة ثانية، بعدما تحسست وجهي المتجمد من البرد. وفي الصباح عندما تطلعت في شظية مرآة، لاحظت ان الوجنتين والحنك والجبين، كلها مغطاة ببقع قرمزية كثيفة، تيبست على بعض منها قشرة سوداء. وكانت اليدان مغطاتين بمثل هذه البقع القرمزية. اما القدمان فقد تورمتا، بحيث صار من الصعب ادخالهما حتى في جزمة كابوستيانسكي.

ومع ذلك فليس امامي من مخرج آخر سوى الذهاب الى امام. وتهيأ لي خلال الطريق الان، ان اراجع المستشفى العسكري. وهناك دهنوا لي وجهي ويدي بنوع من المراهم، وغطوا وجهي كله تقريبا بالضماد ولم يتركوا سوى العينين والفم والانف.

وقال لي واحد من رفاق سفر يوم امس، وهو ضابط اشارة، عندما جاءني حسب اتفاقي معه امس مساء، باننا سنطير من مطار آخر، وليس على تلك الطائرة التي طرنا بها، بل على طائرة اخرى، وعلى ضوء هذا الكلام، فان الحقيبة التي تركتها هناك في الطائرة "سي بي" مع قنينة فودكا وجزمة جلدية ومعطف ملبد بالقطن، يمكن اعتبارها الان في عداد المفقودات.

وذهبت مع ضابط الاشارة وميرجانوف الى المطار الاخر.

وبعد قليل من المهاترات مع الطيار سكرينيكوف الفتى الجرىء، ولكن بغطرسة، ركبنا على كل حال بطائرته، التي هي في هذه المرة من طراز "بولتي" . لقد كنا في يوم من الايام قد ابدينا رغبة بالحصول على تصريح من احدى الشركات الامريكية على حق تصنيع هذه الطائرات القاذفة المقاتلة الخفيفة. بيد ان هذه النية لم يكتب لها التحقيق، بينما ظلت عندنا عشرات من هذه الطائرات الاختبارية تعمل في الجيش. لقد كانت هذه الطائرة مريحة بصورة عامة. ففيها سقف متحرك، وكابينة يمكن الجلوس فيها بشكل انساني، وهي ذات مناورة جيدة، وسرعتها ثلاثمئة كيلومتر في الساعة. ولكن النقص بالطائرة "بولتي" يتلخص في ان عددها في البلاد كلها، كان معدودا، وان رسومها الكونتورية لم تكن مؤشرة في اي دليل، وان بعضا من مدافعنا المضادة للطائرات ومن طيارينا يصرون من حين الى آخر على ضرب هذه الطائرة المسكينة واسقاطها.

جلسنا في الطائرة "بولتي" وصرنا فوق مطار كراسنودار عند الساعة الثانية من النهار تقريبا. ولكن في الاسفل كانت تدور بلبلة بابلية، اذ هطلت في كراسنودار ثلوج لم يكن لمثل هذا الهطول مثيل من قبل، وقد وصل ارتفاعه الى حوالي المتر ونصف المتر. وكانت جميع الطائرات الجاثمة في المطار مغطاة بالثلوج. اما في اطراف المطار، فقد تكدست عدة طائرات محطمة . وجرى

في المطار لحد الان كسح مدرج اقلاع واحد فقط، ازدحم عليه رتل كامل من الطائرات. وكان مرئيا من الجو، ان مئات من الناس يملأون المطار ويعملون به. وبالرغم من ذلك كله، فلا يوجد بعد اي مكان للهبوط. اما الهبوط على الثلج فهذا معناه اننا سننقلب في الثلج. واذا هبطنا على المدرج، فان المسافة الخالية منه غير كافية لوقوف طائرتنا، لا سيما ان مسافة جري طائرتنا "بولتي" لا يستهان بطولها.

وظل سكرينيكوف مدة اربعين دقيقة، لا يعطي علامة الهبوط، واستمر يحوم فوق المطار الى ان نفذت اخر قطرة من الوقود.

واخيرا حينما قرر الهبوط، لانه لا مفر من ذلك باي حال من الاحوال، ولانه لم يبق لديه ما يواصل به الطيران الى امام. فقد اتجه بجرأة الى الارض وحط عليها، وهو يناور في الجري ما بين الطائرات.

كان الوقت في الساعة الثالثة تقريبا من نهار يوم الاول من كانون الثاني ـ يناير. واسترحنا موقتا في كراسنودار. واننا الان ينبغي علينا ان نصل اما الى كيرتش واما الى فيودوسيا ولكن بحسب ما نقرره نحن.

وكان الطريق من المطار الى المدينة مطمورا بالثلوج، وتوقفت السيارات عن المرور فيه. ولكننا سمعنا ان عربات الترام تواصل سيرها. ومشينا راجلين مسافة كيلومتر ونصف، ثم ركبنا عربة ترام وتوجهنا

بهالى المدينة. وكان قد وصل الى هنا قبل ستة او سبعة ايام من بدء العملية العسكرية، قسم من مقر قيادة جبهة ما وراء القفقاس، بقيادة كازلوف، قائد الجبهة ، وشامانين عضو المجلس الحربي. اما القسم الباقي من المقر فقد بقي في تبيليسي بمكانه السابق.

وما عدا المهمة التي كلفوني بها بالوصول الى كيرتش او فيودوسيا كانوا قد طلبوا مني تنفيذ مهمة ثانية: ان اكتب للجريدة ما يدعى بمقالة "مؤلفة" للجنرال كازلوف عن هذه العملية التي نفذتها جبهته.

وبعد ان اخذت قسطا من الراحة لمدة ساعة على اريكة الضابط المرافق، واجهت القائد كازلوف. انه كان في الخمسين من عمره. وهو شخص حصل على وسامين خلال الحرب الاهلية. وجسمه مفتول، ورأسه اشيب، ووجهه مترهل تلوح عليه سيماء السأم . وكان في بعض الجوانب، لايشبه كثيرا الجنرالات الذين كنت قد رأيتهم في الحرب. ويبدو انه يختلف عنهم في ان الحرب صارت بالنسبة لهم منذ مدة طويلة في اوج استعارها، اما بالنسبة له فانها ما تزال جديدة عليه، كما انه ما يزال لم يتحول نفسيا من حالة مرحلة السلام الى حالة مرحلة الحرب. وان الحملة الايرانية، كما يبدو لي، كانت بالنسبة لجبهة ما وراء القفقاس، احباطا نفسيا فريدا من نوعه، وذلك لان الناس الذين لم يشاركوا في هذه الحرب حتى بداية تلك الحملة، قد

تكونت لديهم اولى الانطباعات الخاطئة كل الخطأ، حول حقيقة معنى العمليات الحربية، وماهي هذه العمليات. وان بعضا من هؤلاء قد دفعوا في القرم ثمن ذلك.

وتحدث لي كازلوف عن سير العملية ، ورجوت موافقته ان اكتب مقالا باسمه على ضوء هذه الاقوال. وقد اعطى هو هذه الموافقة. وبالاضافة الى ذلك، استأذنته بالحصول غدا على طائرة أو -٢ للطيران الى كيرتش، وان يزودني بورقة اذن، تسمح لي، بعد الرجوع مع المواد الصحفية من هناك، ان اسافر راجعا الى موسكو على اول طائرة مغادرة. وبعد ان حصلت على هذه الوعود كلها، ذهبت الى قسم العمليات من اجل الحصول على معلومات اضافية ضرورية للمقالة المؤلفة. وخلال الليل حصلت على هذه المعلومات، غير ان الوقت لم يسمح لي بكتابة هذه المقالة في الليل، فقررت ان ارجىء كتابتها الى ما بعد العودة من كيرتش.

وفي هذا الليل ظهر ميرجانوف انه اكثر نشاطا مني، اذ قد استطاع حتى الصباح ان يرسل بأول خبر الى موسكو.

ومن المناسب ان اذكر ان المراسل الدائم لجريدة "برافدا" في جبهة ما وراء القفقاس، كوزيريف، لم يصل الى كراسنودار الا في هذا اليوم فقط. وكما فهمت فانهم بسبب هذا التلكؤ منه، قاموا بارسال ميرجانوف الى هنا من الجبهة الجنوبية.

وانني اذ اتذكر هذا الموضوع فليس بقصد الاساءة لذكر اي واحد من الناس، بل لان هذه القضية هي قضية مزعجة، ومن الصعب العثور فيها على خيط واحد صحيح. فان المراسل الصحفي الذي يقيم في مقر الجبهة، باستطاعته ان يرسل، بفضل ما تحت متناول يده من خطوط الطوارىء العسكرية للاتصالات البرقية والهاتفية، الاخبار بشكل اكثر فاعلية وسرعة وقبل جميع الصحفيين الاخرين. اما المراسل الصحفي الذي يجلس في مقر قيادة الجيش، فانه يكون محروما على العموم، ولا سيما في اثناء الهجوم، من هذه الامكانيات، وليس باستطاعته سوى ان ينقل البرقيات القصيرة جدا فقط، او بضع كلمات معدودات عبر خط الطوارىء العسكري للاتصالات. وفيما يتعلق بالمراسل الصحفي الذي يكون موجودا في الفرقة او في مقر ابعد من ذلك ، فانه لا يتسنى له ان يقدم اية اخبار الا بعد ان يعود من هناك.

وعلى هذا الاساس، فان كثيرا ما يحصل ان ذلك الذي يرى كل شيء رؤية العين، يعطي الاخبار متخلفا عن الجميع. وان هذه المشكلة كانت وستظل ابدا مشكلة حادة.

واشد ما في هذا المجال صعوبة، هو ما يتعلق بالمراسلين الصحفيين الميدانيين، الذين هم مكلفون بواجب رؤية كل ما يجري بام اعينهم، وان ينقلوا في الوقت الدقيق، الاخبار التي لا يمكن ارسالها الا عن طريق مقرات القيادات. وانهم في جريدة "كراسنايا زفيوزدا" لا

يغفرون للمراسلين الميدانيين ذلك الذي غفروه لي في بعض الاحيان باعتباري كاتبا، عن تأخير هذه المادة او تلك لمدة يوم او يومين، لاعتبارها مادة مكتوبة باسلوب افضل من المقالات الاخرى التي ظهرت من قبلها.

وفي اليوم الثاني من كانون الثاني - يناير، انطلقت مع ميرجانوف الى المطار الذي تحط عليه طائرات أو-٢. وان واحدة منها كان الأمر قد صدر لها بأن تكون تحت تصرفنا في الطيران الى كيرتش. ومنذ الصباح هبت رياح عاصفة ثلجية شديدة. وقد أمضينا اكثر من ساعة في قطع مسافة الكيلومترات الاولى الى المطار، ومن ثم غطست السيارة وتوقفت عن السير. وبقي امامنا ثلاثة كيلومترات من الطريق. وبعد أن قطعنا نصف هذه المسافة، التقينا مع طيار عائد من المطار، كان المفروض ان يقود طائرة أو-٢ الى كيرتش. وقد ذكر لنا بصفة رسمية كاملة، بأنه قد تأجلت جميع التحليقات المقررة لهذا اليوم. واننا بدورنا كنا ايضا قد تحققنا بعد ذلك من صحة كلامه بواسطة الهاتف، واتضح ان الحالة هي بنفس الصورة. واضطررنا الى تأجيل سفرنا الى يوم غد. وكان هذا أمرا سيئا من جهة، وحسنا من جهة اخرى. فأن باستطاعتي الان ان اكتب وارسل الى الجريدة المقالة المؤلفة لكازلوف وان اطير غدا الى الامام الى كيرتش وانا بنفس مطمئنة.

وفي الوقت الذي تسلمت فيه اخبارا اضافية صباحية

من قسم العمليات، فأنني كنت قد أعددت المقالة المؤلفة واعطيتها الى كازلوف لكي يقرأها. ولكنني لم اتمكن من رؤيته حتى حلول الليل، رغم المحاولة التي بذلتها، مما حدا بي ان افكر مع نفسي، ولربما اكون غير محق في ذلك، بأنه لا يوجد انسان في العالم اكثر انشغالا من جنرال لم يتعود بعد على الحرب.

واتصلت بواسطة خط الطوارىء العسكرية، بالجريدة واخبرتهم بأني لا استطيع الطيران الى كيرتش في هذا اليوم، وسأطير غدا الى هناك. وفي الصباح، قبل الاقلاع آمل ان انقل اليكم بالهاتف تلك المقالة التي طلبتموها مني عن كازلوف.

- قال رئيس التحرير- اكتبها بسرعة وخذ الطائرة الى هناك، فأنك صرت قدما واحدة هنا واخرى هناك. المهم ان تعمل بسرعة وتعود. هل هذا واضح ؟

وفي الليل دخلت على شامانين عضو المجلس الحربي للجبهة، وظهر ان لديه حسابا عسكريا سابقا مع اندريه سيميونوفيتش نيكولاف، الذي كان مايزال عضوا، كما في السابق، في المجلس الحربي للجيش الحادي والخمسين. وقد تعرضت الى كارثة عندما تعاطفت مع هذا الانسان الرائع. وكان شامانين قد بدأ فورا بتقريعه. وتبين ان شامانين كان في احد الايام تحت امرة نيكولايف، وان ركل الرئاسة السابقة بالقدم، هو فرحة كبيرة فيها بعد، بالنسبة لكل انسان خبيث. وظل شامانين يوبخ نيكولايف

بفظاظة مدة طويلة. وكان هو جالسا. اما انا وميرجانوف فقد بقينا واقفين امامه. لقد استمر الكلام ساعتين تقريبا ونحن خلالهما بقينا واقفين حتى النهاية.

كنت دائما ارى من واجبي، في مثل هذه المواقف، أن اتذكر قبل كل شيء، بأني انسان في بدلة عسكرية، ومن بعد ذلك فأني كاتب. فأذا كانت الرئاسة لاتسمح بالجلوس، اذن يجب أن اظل واقفا. بيد اني في هذه المرة، وعندما استمرت مثل هذه الحالة ساعتين تقريبا القيت قرب انتهائها نظرة متسائلة على شامانين: هل انه بعد هذا كله سيسمح لنا بالجلوس اما لا ؟ ولكنه لم يسمح بذلك حتى النهاية. فأذا كان قد أراد متعمدا ان يوقف الصحفيين بذلك، عند حدهم، فأن هذا أمر محتمل. ولكن ماهو اسوأ من ذلك، انه اذا كان فعل ذلك بدون قصد، ففي هذه الحالة سيعتبر تعامله مع الجميع بهذه الصورة.

وفي نفس هذه الليلة عرضت مقالتي على كازلوف. وقرأها، وقال ان بها انعكاسات صحيحة للاحداث، ولكنه ينبغي ان يتشاور بصددها مع رئيس المقر. وفي هزيع متأخر من الليل دخلت على رئيس المقر. وقرأ هو المقالة ايضا، ولم يبد عليها اي اعتراض، غير انه قال بأن من الضروري التشاور بصددها مع البحارة.

كان ممثل البحارة في مقر قيادة الجبهة، رجلا مسنا

برتبة نائب ادميرال ومن الضباط البحارة القدامى، قامته طويلة جدا، ورأسه حليق كشعر القنفذ. وقد ذكرني بمظهره، بالصور الفوتوغرافية للحرب العالمية الاولى.

جلس نائب الادميرال على اريكة بمواجهتي، وراح يمعن النظر بالمقالة، بعيون نصف مغمضة وهو يمسد شعر رأسه بيده. وقد بدا وكأنه نائم. وما من دليل قائم على انه يقرأ، سوى يده التي تقلب الصفحات بهدوء. وفي النهاية رفع نحوي نظرات منهوكة، وحدجني لمدة نصف دقيقة بنظرة تتساءل بشكل غير مفهوم، لماذا وقعت هذه الحشرة عليه، ومن بعد ذلك قال بصوت غير مكترث: "ليس عندي اعتراض". ثم نهض من مكانه وخرج.

وفي الليل قدمت المقالة مرة اخرى الى مرافق كازلوف، وبقيت مع ميرجانوف نقضي الليل على اريكة في مقر القيادة.

وفي الصباح هبت عاصفة ثلجية اخرى ادت الى عدم اقلاع الطائرات مرة اخرى. وبالاضافة الى ذلك فقد حل اليوم الثالث من الشهر. وعند ذاك قررنا ان نغير خطتنا، وان نستقل قطار الساعة الثانية ظهرا الى مدينة نوفورسيسك، لغرض ان نصل من هناك الى القرم عن طريق البحر. ولا يهم ان يكون وصولنا الى كيرتش اوفيودوسيا، وذلك حسب توفر اقرب باخرة، والى اين تبحر.

وانقضى الصباح بانتظار ان يعطي كازلوف "السماح"

للمقالة المؤلفة حوله ليكون بالامكان ارسالها. وقد تم ذلك قبل عشرين دقيقة من سفرنا. وانني في آخر لحظة رجوت من المراسلين الصحفيين الاخرين، في حدود الواجب الصحفي المتبادل، ان يبعثوا المقالة برقيا. وقد وصلت المقالة الى موسكو، ولكنها لم تنشر في الجريدة لاسباب مختلفة. وعلى اية حال فلربما ان من الافضل ان لم تنشر في الصحف نهائيا هذه المقالة التي تتحدث عن العملية العسكرية التي بدأت بمنتهى السطوع وانتهت باشد الحزن.

لقد وصلنا الى محطة القطار عبر شوارع كراسنودار الغارقة بالثلوج، وركبنا بقطار من طراز محلي، نقلنا خلال ست ساعات الى مدينة نوفورسيسك. وسرنا وسط الظلام تحت بعض الاقواس، ومن ثم عبر احد الانفاق، واخيرا بعد نصف ساعة من السير على الاقدام، وصلنا الى شارع البحر، حيث يقع مقر قيادة اسطول البحر الاسود في دار غير كبيرة مؤلفة من طابقين. وكنت على أمل ان التقي هناك مع ازاروف عضو المجلس الحربي للاسطول الذي تعارفت معه في اوديسا. ولكنني لم اجده هناك، الأمر الذي حملني على التوجه الى قوميسار المؤخرة، الذي اعلن عن الاسف لتأخرنا نصف ساعة، ولو وصلنا قبلها الان فقط، لكنا قد لحقنا بالصعود الى المدمرة "كراسني كفكاس" التي كانت قبل دقيقتين فقط - ونظر قوميسار المؤخرة الى ساعته - قد اقلعت من الرصيف مبحرة الى فيودوسيا.

ولأني لا اطمئن الى مثل هذه الصورة من الدقة

الزائدة، رجوت القوميسار، رغم ذلك، ان يتصل هاتفيا بالميناء، فعسى ان المدمرة لم تقلع بعد. ولكنه اجاب، ان الدقة في الاسطول هي الدقة فعلا. ومع ذلك فقد رجوته مرة اخرى ان يقوم باتصال هاتفي.

واتضح بعد الاتصال الهاتفي، أن المدمرة ماتزال هنا، بيد انها متهيئة للاقلاع بين دقيقة واخرى. واخذنا ورقة اذن دخول من القوميسار، وقفزنا من المقر كالمجانين برفقة جندي من الاسطول الاحمر، وهرعنا عبر شارع البحر الى المرسى الاقصى الذي تقف عنده المدمرة. وكانت المراسي كلها مزدحمة بالسفن. وكان الجو باردا جدا والثلج يهطل بغزارة، وكان البخار الابيض الكثيف يدخن فوق البحر وفوق الميناء ايضا، وحرس الاسطول الاحمر ينقلون خطى مدوية. وبعد عشرين دقيقة من الركض، وصلنا الى المدمرة التي ماتزال تزمع الابحار. وقد شحنوا عليها المدافع وصناديق العتاد الحربي والسيارات وغير ذلك. وماعدا الحمولة فسيذهب الى القرم على هذه المدمرة، العاملون في الجيش الرابع والاربعين الذي توجد قيادته حاليا بفيودوسيا.

ولم يكن يلوح على بحارة المدمرة في فصل الشتاء، ذلك المنظر الانيق المألوف. فأنهم يمشون بمعاطف فرو قصيرة، ولا يختلفون عن الاخرين الا بقبعاتهم البحرية السوداء.

ومرت ساعة أخرى قبل أن تقلع المدمرة. وتحدث الينا

اثنان من البحارة، عن اليومين الاولين من الانزال، غير اني كنت ميالا للنوم الى درجة لم استطع المقاومة ازاء ذلك فغفوت.

ووصلنا الى فيودوسيا في الساعة الرابعة صباحا ورست المدمرة وبدأوا بالتفريغ.

ولعجلتنا الصحفية كدنا انا وميرجانوف ان نكون اول النازلين الى الرصيف. وان جميع المراسي وكل الارصفة كانت مكدسة بصناديق الاعتدة الحربية وبصناديق اخرى وبالسيارات. وعلى مبعدة من ذلك تراءت خطوط صورة خيالية لحطام مستودعات منسوفة، وللحديد المتفجر، ولسقوف منحنية أو مندفعة نحو السماء. وعند الجدار الاسفل للميناء، الذي اتذكره منذ الطفولة في فيودوسيا اي منذ عام الف وتسعمئة واربعة وعشرين تناثرت جثث ملتوية للالمان.

وبعد التخبط وسط كل هذا التيه من الدمار والحطام الذي هو نتيجة للقصف من قبل مدافعنا في ليلة الانزال وللقصف الجوي الالماني الذي اعقب الانزال، خرجنا من حدود الميناء.

وترتفع المدينة الى اعلى بشكل حدوة حصان كبيرة. وهي في هذه الساعة سوداء فارغة، وسيطر عليها جو صقيعي بارد - تسع عشرة درجة مئوية تحت الصفر - وللعلم فأن الصقيع في الجنوب، يبدو دائما اشد قسوة مما في الشمال. وهبت من البحر ريح صرصر عاصفة، وفغرت البيوت

الخالية بنوافذ محطمة. وان الخراب عم الكثير منها. فمنها ماكان بنصف جدار، او ان ثقبا هائلا من جراء قذيفة قد فتح بالحائط. والابواب المشرعة على مصاريعها، كانت تئن متوجعة مع صرير الرياح، والزجاج المهشم يقرقع ويتهاوى الى اسفل. اما صفائح الحديد المحترقة فقد تدلت من سقوف المنازل التي احترقت، وكأنها رايات تخفق بالجدران اثر كل هبة للريح فتثير الضجيج.

وكلما صعدنا بالجبل الى اعلى، وقع نظرنا على عدد اكبر من السيارات الالمانية المتروكة، وسيارات الحمل والسيارات الصغيرة. وهناك على الارصفة والطرقات كانت ماتزال مبعثرة جثث الالمان، اذ لم يتم بعد جمعها من كل مكان. لقد اخذت المدينة على حين غرة. ولهذا فأن جميع سيارات النقل التي توقفت عند الالمان مفرغة من الماء خشية الانجماد من الصقيع، سواء منها التي في المرائب او في الطرقات، اذ قد بقيت في نفس اماكنها التي تركت بها في الليل.

وبحسب منظر السيارات وعددها، فليس من الصعب تحديد كيف واين اقام الالمان. وقد كانت جثث الالمان المبعثرة في الشوارع نصف عارية احيانا: فالالمان لما أخذوا على حين غرة، كثيرا ما قفزوا من دور سكناهم بأي شيء تقع عليه اليد، بينما قتل الكثير منهم في البيوت نفسها.

ان كل هذا قد جرى قبل حلول العام الجديد. ففي

الشقق التي سكنها الضباط الالمان، وكذلك الجنود، كانت قد جلبت المواد الغذائية من جميع اطراف القارة الاوربية، مثل الشمبانيا والكونياك من فرنسا، والشحم المملح الدانماركي، والجبنة الهولندية، والسمك المعلب النرويجي والى اخره مما شابه ذلك.

وبدا الصبح يضيء، ومررت مع ميرجانوف في اثناء تجولنا بالمدينة على القسم الخاص، ولكنهم نصحونا هناك بأن نرجع اليهم بعد وقت قصير اخر. ووعدونا بأننا سنحصل على مادة مثيرة. وفي خلال مواصلتنا التطواف في شوارع المدينة، دخلنا في واحد من بيوتها، حيث كانت هناك عيادة لطبيب اسنان تشغل منه غرفتين متجاورتين وصيدلية المانية. وكان الزجاج محطما، والثلج متكدسا حتى على كرسي طبيب الاسنان ذاته. وفي كل ماحول ذلك، تبعثرت انواع من العلب والقناني وزجاجات حقن الادوية، وبراءات امتياز الادوية واقراص الادوية وحبوبها. ان كل هذا كان محطما عن اخره. ولربما ان الالمان ، وهم يهربون من هنا، قد حطموا كل هذا، وقلبوه في لحظاتهم الاخيرة، او ان من الممكن ان جنودنا قد قلبوا، عندما دخلوا الى هنا، كل هذا، اما بصورة عفوية او لسحق التنظيم الالماني. فالانسان الروسي ليس بمقدوره، في مثل هذه الحالات ان يمتنع عن التمتع بقلب كل شيء رأسا على عقب من كل ماتقع عليه يده.

ومع بداية ضوء النهار بدأت الغارات الجوية.

وتوقفت مدافعنا المضادة للطائرات بلا حول ولا قوة، في الساحات وتقاطعات الشوارع في فيودوسيا. ومع ان الكثير منها كان قد تم نقله الى هنا الا ان المحزن في امرها ان الالمان قد اغرقوا ليلة امس سفينة النقل التي جاءت الى هنا محملة بالعتاد للمدافع المضادة للطائرات. وكان جنود الدفاع الجوي يقفون الى جانب مدافعهم، كما تقضي بذلك التعليمات العسكرية، الا انهم كانوا عاجزين عن اطلاق النار. وكان هذا كله يبدو بمجمله مأساة كاملة.

وأغار الالمان على مدينة فيودوسيا بمجموعات غير كبيرة من الطائرات بصورة خاصة لا تتجاوز ست او تسع طائرات، بل وفي بعض الاحيان بثلاث طائرات. ولكن هذه الغارات كانت متواصلة باستمرار، وكأنها سلسلة ناقلة. وخلال كل خمس دقائق كانت اصوات الانفجارات، تسمع في هذا الطرف من المدينة تارة، وفي طرف اخر تارة اخرى. واذا كنا قد مررنا في احد الشوارع، ثم نعود اليه بعد نصف ساعة، كان بالعادة ان نعثر بالتأكيد على حفر جديدة فيه لم تكن موجودة بالاصل في اثناء مرورنا السابق.

كنت احمل جهاز تصوير فوتوغرافي - كاميرا - والتقطت، بعدما تذكرت ضرورة التقاط بعض الصور للجريدة، عددا من الصور الفوتوغرافية:- مثل الدور المنسوفة، وجنود الدفاع الجوي عند تقاطعات الشوارع.

ولم اكتشف في اثناء التقاط الصور،ذلك الابداع الخاص، بل وحتى لم احاول ان اقوم بنوع من المسرحية، من تلك التي تجري في اوساط المصورين الصحفيين. ولا ادري لماذا كنت اشعر بالحرج دائما، عندما تستدعي الحاجة مني التقاط صورة للناس الذين اصورهم، ان اطلب منهم القيام بعمل او حركة معينة، أو الوقوف بشكل اخر، بأن ذلك فوق طاقتي. وبعد بضع لقطات من الصور تعطلت كامرتي الفوتوغرافية "ليبكا" وذلك بسبب البرد كما يبدو ذلك واضحا للعيان.

وبعد ساعة ونصف التقينا باثنين من العاملين في الجريدة العسكرية للجيش الرابع والاربعين، وذلك عند منعطف احد البيوت، بأحد الشوارع الرئيسية. وقد اخذونا معهما الى مكان اقامتهم، وحدثونا عن بعض الاحداث التي جرت في فيودوسيا، ومن ثم ضيفونا بطعام الفطور.

وكان العاملون في تحرير هذه الجريدة بمعنويات مسحوقة. فقبل نصف ساعة ماضية، قتل في الشارع المجاور واحد من رفاقهم الصحفيين. وبقدر مافهمت من رواياتهم فأنه قد صرعته شظية قنبلة، ولكنه كان يعلق بحزامه قنابل يدوية ذات فتيلة، وبعد ان سقط وهو يرتطم بالجدار انفجرت به القنابل اليدوية فوق ذلك ونسفته. ولما سمعوا منا بأننا سنمكث مدة يوم واحد لا اكثر، وسنبحر عائدين على واحدة من اوائل السفن، كتب الصحفيون قصاصات ورقية بدورهم الى ادارة تحرير

جريدتهم التي ماتزال باقية في مدينة نوفورسيك، ورجوا منا ان ننقل بالتأكيد هذه القصاصات المكتوبة خلال طريق عودتنا. وانهم في هذه القصاصات ذكروا خبر مصرع رفيقهم.

واثناء ما كنا نتناول طعام الفطور في المطبعة، جاء الينا، حيث كنا نجلس، منضد الحروف العجوز الذي هو واحد من اثنين او ثلاثة من اليهود الذين نجوا، على حد زعمه، بجلودهم في فيودوسيا كلها. فأنه تحت تأثير هاجس داخلي ثقيل، لم يذهب الى الادارة العرفية الالمانية، عندما اعلنت عن تسجيل وجمع اليهود الساكنين في المدينة كلهم. انه توارى عن الانظار من بعد هذا الاعلان، فبقي حيا حتى وصولنا. اما اولئك الذين حضروا التسجيل، وعددهم كان الف شخص تقريبا فقد ماتوا كلهم.

واحب ان استبق الاحداث الى امام، فأروي مايبدو انني سوف لن انساه مطلقا، كيف جاءتني من بعد ذلك في شهر شباط - فبراير بموسكو، امرأة يهودية لا استطيع الان ان اتذكر لقبها، بعد ان وصل الى علمها انني عدت قبل قليل من فيودوسيا، واتهيأ مرة اخرى للذهاب الى هناك، الى القرم في شبه جزيرة كيرتشينسكي، وبدأت تلح بالسؤال عن فيودوسيا، وهل من الممكن حسب ظني ان يكون قد بقي على قيد الحياة، ابواها العجوزان وابنها الذي ارسلته، لسوء الحظ، منذ اول بداية الحرب، الى فيودوسيا بالذات كمنطقة هادئة والى ابويها. وماذا

باستطاعتي ان اقول لها جوابا على ذلك ؟ لقد احاطتني بعينين طافحتين بالأمل. اما أنا فقد تذكرت ذلك العجوز، منضد الحروف الذي تحدث لي بصوت مرتعش، كيف جرى كل ذلك في فيودوسيا، وعدد على اصابعه القاب عدد من الناس الذين ظلوا احياء.

وذهب ميرجانوف من المطبعة الى القسم الخاص، بينما ذهبت انا الى محطة النقل العام. وحسبما سمعت فأن هناك تقف عدة مئات من السيارات الالمانية التي رغبت انا في تصويرها.

كانت الشوارع قد أنقشع عنها ذلك الاحساس بالرعب الذي كان مسيطرا في الليل، والذي كان متولدا من الظلام ومن اصوات تهشم الزجاج، ومن اصوات اصطفاق الابواب المفتوحة، وصليات رصاص الرشاشات من بعيد. غير ان احساسا مثله كان قائما، وهو شعور ثقيل بالعجز من كون الالمان يوالون قصف المدينة طول الوقت بلا عقاب. وكانت المسافة الى المرآب -الكراج- تبلغ كيلومترا واحدا. والى ان وصلت اليه اضطررت مرتين للانبطاح في وسط الشارع منتظرا هل ستحميني رحمة الله ام لا ؟

كان النهار نهارا شتويا نادرا من شدة برده وصفائه. وبحسب العادة القديمة، فأنني، وانا منبطح على الارض، كنت قد التفت برأسي ونظرت الى اعلى لأرى كيف تنهال القنابل قطرات سوداء نازلة على الارض من الطائرات.

وكـان في المرآب فعلا تجمع عجيب من السيارات، من طراز "ميرسيدس" و "اوبل" وسيارات شحن وسيارات باص ضخمـة للمقـرات. وفي كشـك الحـراسـة، المشـاد الى جانـب المـرآب، التقيت بملازم فـني. وتحـدث لي بـأنـه هـو وجنـوده من الجيش الاحمر، قد استولوا على هذا المرآب، وبقي هـو رئيسا له هنا من بعد ذلك.

وسـرت معـه في فنـاء المـرآب. ويبـدو ان كـامـرتي الفوتـوغـرافيـة "ليبكـا" قد تـدفـأت، فـاستطعت بـها ان التقـط عدة صـور. وتـوقفنـا انـا والملازم الفـني نـودع بعضنـا بعضـا عند كشك الحراسة.

-قـال المـلازم - انـه مـرآب كـبـير. ومـا اكـثر هـذه الامتعـة التي تكـدست. فهـل يمكـن، يـاتـرى، ان تحيط بكـل شـيء؟ انظـر الى الفنـاء، فـما اوسعـه. امـا السقـائـف والمخـابىء، فـلا يلـم بهـا حـتى الشيطـان!. وإننـا خـلال اليـوم المـاضـي اصطـدنـا اربعـة مـن الالمـان. فلقـد اختفـوا هنـا بـين السيـارات، واطلقـوا النـار علينـا وجـرحـوا واحـدا منـا. والقينـا القبـض في هـذا اليـوم على واحـد آخـر. فقـد جلـس في سيارة بـاص، وحشر نفسه تحت الكرسي، وعمل له ثقبـا وصـار يطلـق النـار منـه. ولكنهـم - لـو تعلـم - كيـف يطلقـون الـرصـاص؟ انهـم يفتحـون علينـا نـيرانهـم تحت دوي الانفجـارات، عنـدمـا يبـدأ القصـف الجـوي. امـا عنـدمـا يسـود الهـدوء، فـأنهـم يلـزمـون السكـون. وتـوجـد صعـوبـة كـبـيرة في اصطيـادهـم. ولكننـا قـد اصطـدنـاهـم كلهـم كـما يبـدو. وقـد

طاردنا واحدا منهم في جميع السقائف الى ان القينا القبض عليه.

وفي هذا الوقت استدارت موجة اخرى من ثلاث طائرات "يونكيرس" واخذت تحوم فوقنا. والتصقنا بالجدار. ودوى صوت انفجار في الشارع الذي خلف المرآب. وفجأة لاحظت دون ان اسمع، كيف ان خطا من الطابوق في الحائط بالقرب منا قد تطايرا نثارا. وكان هذا شبيها بنثار صليات الرصاص من العربات التي كانت ترسم في يوم ما الاخاديد في الرمال. ان هذا النثار قد تطاير الآن فقط من الجدار. وقفزنا نحو الزاوية.

- قال الملازم الفني - ان هذا شيطان. شيطان اخر يختبىء في مكان ما. هيا بنا الى داخل غرفة المبنى، والا فأنه سيطلق النار مرة اخرى بصورة عشوائية.

ودخلنا في كشك الحراسة. وهدأ دوي انفجارات القنابل.

- قال الملازم الفني - والآن، فأنهم لا يطلقون النار خلال الهدوء. ان هذا هو الواقع فعلا.

كان مدهشا، ان حامل رشاشة قد اطلق علينا النار قبل لحظة من احد الاماكن.

نادى الملازم الفني على اثنين من الجنود المقاتلين، وامرهم بتفتيش السقيفة كلها مرة اخرى. واخذت انا عددا من المجلات الالمانية المصورة المبعثرة في المرآب، ووضعتها في حقيبة الميدان. وعلى واحدة

منها تشامخ "غيرنغ" السمين بوجه رجل البر، وعلى مجلة اخرى بدا "لي" منحنيا باحترام وهو يشد على كتف هتلر.

وذهبت من المرأب الى الدار التي قيل لنا ان السلطة المحلية قد أقيمت فيها. وخلال هذا الطريق استلقيت على الارض مرتين منتظرا سقوط القنابل. وعاد الى الذاكرة فجأة ذلك الاحساس بالتعب والاعياء الذهني، وعدم الاكتراث الذي اصابني يوما ما، خلال غارة جوية في اوائل الحرب في الجبهة الغربية.

نزلت السلطة المحلية في دار صغيرة، بقيت سليمة وسط شارع قد تهدم نصفه. وظهر ان رئيس السلطة المحلية ملازم في امن الدولة. وهو شخص متوسط القامة منهوك ومثقل باعبائه الجديدة التي لا نهاية لها. وقد قال لنا بأن اية سلطة اخرى لم تصل بعد الى المدينة. وبناء على ذلك فهو يمثل الجميع هنا. وقال انه البديل لرئيس مجلس بلدية المدينة، والبديل لمدير اللجنة الشعبية للامن الداخلي، ولمدير الميليشيا، وانه يسعف ويزوج ويزف وعلى المزمار يعزف.

- قال - لم اظن ابدا بأن في المدينة مثل هذا العدد الكبير من السفلة.

- سألته - هل هم كثيرون؟

- انهم كثيرون، والشيطان يعرف من اين قد تجمعوا بهذا العدد؟

وفهمت من لهجة كلامه، ان هذا الكلام حول "الدهشة

من كثرة السفلة" لم يكن ناجما عن حرص الخدمة العسكرية او الشك الوظيفي، بل هو كلام حزين لانسان مندهش فعلا.

وتذكرت بصورة لا ارادية، احدى القصص التي اردت ان اكتبها قبل الحرب عن مدينة يالطا، ومع ذلك فلم اباشر بكتابتها لحد الان، ولكنني استعدت اسمها: "مدينة النساء المنبوذات". وكان من المفروض ان تكون هذه القصة، عن المدينة المصيف التي يؤمها الناس لشهر واحد، ويكون اوله بداية لحياتهم، ويكون اليوم الثلاثون منه نهاية لها، وحيث يحس القادمون بأنفسهم ضيوفا، وحيث كل شيء - وهو الحب والتعلق - والتعلق هو الغالب، يكون معقودا لشهر واحد تماما. وان امام عيون اولئك الذين يقطنون دائما في هذه المدينة، يمر دون انقطاع، صندوق الدنيا من الناس الذين قصدوا الى هنا لا لأمد طويل، والذين هم هنا بحاجة الى القليل.

ولعله لا يوجد مايربط بين هذه الذكرى، وبين ماقاله الملازم، غير انه قد جال بذهني انذاك، بان في مثل هذه المدن السياحية بالذات، لابد وان يوجد الكثير من مختلف الناس السابقين، الذين تواروا واختفوا وعاشوا بهدوء منتظرين شيئا ما، والذين ماكانوا مرتاحين بل ويكرهون احيانا جميع اولئك الضيوف، من الحياة الاخرى الذين يأتون الى هنا موقتا.

قلت للملازم بأن لدي رغبة بالتحدث مع بعض المعتقلين المتهمين بالتعاون مع الالمان. واجابني بان ذلك من غير المؤكد ان يتم تحقيقه في هذا اليوم، لأنه سوف لن يستجوب اي احد قبل المساء، كما انه ليس لديه اي احد من المساعدين تحت يده وهو على العموم وحيد*.

- قال - حسنا هذا هو غروزينوف رئيس بلدية المدينة وكلب ميؤوس منه. او مدير البوليس. كل شيء واضح. ولكني اريد منك ان توضح لي ايها الرفيق:- لقد اعلن الالمان هنا قبل اسبوعين من حلول العام الجديد، دعوة علنية، للعمل في مبغى عام. انهم اعلنوا اقتراحا مجردا للتسجيل لهذا العمل، حسب الرغبة. تفضل وانظر هنا. اذ ان وثائق التسجيل موجودة عندي. لقد ظهرت مثل هؤلاء النسوة اللواتي قدمن طلبات الى هناك. ولكن، ماذا يجب ان نفعل معهن ؟ ان الالمان فاتهم الوقت لافتتاح المبغى العام، اذ قطعنا عليهم نحن الطريق. ولكنه ماذا يجب علينا ان نفعل الان مع هؤلاء النساء؟ ومن اين قد نبعن؟ واعدامهن لقاء ذلك بالرصاص امر غير جائز، ولا يوجد مبرر لذلك، اما السجن... ولكن لنفترض ان نسجنهن، ومن بعد ذلك ماذا ستفعل معهن؟

سألته اين يوجد رئيس البلدية.

---

* انظر الملحق.

- سلمت رئيس البلدية الى القسم الخاص في الجيش وهو الان معتقل هناك.

ذهبت الى القسم الخاص. وقيل لي هناك مثلما قال لي الملازم تقريبا: بأنه لم يستجوب اى احد، ولا وقت لذلك. واخذت ابدي الحاحا. وعند ذاك اجابوني، بأنهم ليس لديهم الوقت للاستجواب، ولكني اذا كنت راغبا في استجواب غروزينوف رئيس البلدية، فانهم لامانع لديهم بهذا الصدد، وانهم سيجلبونه الان.

جلست مدة عشر دقائق لوحدي انتظر في الغرفة. واستمر القصف الجوي، والبيت يرتج باستمرار. واخيرا دخل الى الغرفة جندي من الجيش الاحمر، ومن خلفه شخص طويل القامة، بسترة جلدية ذات صفين من الازرار، وبنطلون خيالة، وجزمة لونها ضارب الى الحمرة، وقبعة شتوية. ويوحي شكله بأن عمره في الخمسين تقريبا، ووجهه مايزال قويا ولا يبدو عليه الهرم، وانفه اعقف، وفمه منطبق الشفاه بقوة.

انني اتذكر وبمنتهى الدقة، الاحساس الاول الذي انتابني عندما ظهر امامي. فأنه من حيث مظهره كان شبيها بمدير لاحد المحلات التجارية، أو مدير متجاوب هادىء مع رئيسه، وشديد مع مرؤوسيه، ومغازل مع جميع النساء اللواتي تحت امرته.

ومن بعد ذلك كتبت في جريدة "كراسنايازفيوزدا" تحقيقا بعنوان "خائن"، وصفت فيه وصفا مسهبا حديثي مع

غروزينوف. ولكنه من غير الممكن طبعا ان تصف ضمن عمود جريدة، جميع الاحاسيس التي تنتابك خلال وقت حديث كهذا، ولهذا فأني احاول ان اضيف شيئا اليها هنا في هذه اليوميات.

أن هذا الانسان كان بالنسبة لي، شخصا مكروها، وكريها الى حد اكبر بكثير من اي اسير الماني. وقد لعبت دورها في تشديد هذه المشاعر حالتان: الاولى انه خدم الالمان، اي انه كان خائنا. اما الحالة الثانية، فهي انه كان من الممكن ان احس نحوه بكراهية طبيعية اقل من ذلك، لو انه كان عدوا مبدئيا من اعدائنا، يؤمن بأنه ماكان لروسيا، ان تكون على ماهي عليه، وبأن من الافضل اعطاء الالمان قسما من اراضيها، لأجل اقامة دولة برجوازية، أو ملكية على القسم الباقي، على ان تتم اقامة ذلك بأي ثمن مهما كان، فهو افضل من الحياة في ظل السلطة السوفيتية.

غير ان هذا الانسان، لم يكن لديه، كما هو واضح، اية مبادىء حتى من حيث هذا المستوى. انه ليس لديه مايعنيه على مصير روسيا. وكان اهتمامه منصبا على نفسه فقط، وعلى مصيره نفسه، وعلى حياته المرفهة. لقد كان بالنسبة لي تجسيدا لكل مافي ذلك الشخص الهادىء، الراضي عن نفسه، وعن المحيطين به في ظروف الابتزاز الجشع، وتجسيدا لكل مافي ذلك البرجوازي الضيق الافق، الذي ترقب حزينا، ماكنت امقته منذ الطفولة. واتذكر

يوما انني كنت مرة قد قرأت لدى خليبنيكوف عبارات رائعة، عن ان درب التبان، ينقسم الان امام البشرية، الى درب التبان للمبدعين، ودرب التبان للمتكسبين. وهذا هو امامي جزء من درب التبان للمتكسبين.

ان هذا الشخص قد تسلل الى الحزب، كمرشح الى عضويته، قبل بضع سنين مضت. وكان مديرا لاحد معامل انتاج النبيذ، غير ان حلمه الاساسي في الحياة، هو ان يصبح مالكا، وليس مجرد مدير. وينبغي ان نفكر بأنه سعى في زمن السلطة السوفيتية، قدر ماستطاع، ليصبح ذلك المالك بالذات، اى انه سرق واستشرس. وقد عرف بالغريزة، وهو بانتظار وصول الالمان، ان امنياته يمكن ان تتحقق في ظلهم حتى النهاية. اما تلك الحالة المحزنة بالنسبة له انذاك، بكونه صار في حينه مرشحا لعضوية الحزب، فأنها قد عودلت بحالة مفرحة اخرى، وهي ان زوجته قد كانت لحسن حظه، المانية من مدينة بوفولجيا، وتعرف اللغة الالمانية. ومن الواضح جدا، انه كان على اعتقاد بأن وجود زوجة المانية، سيبرر صفحهم عن انتمائه الحزبي السابق. وفي ايام الجلاء العام، كان هو قد تحايل باحد الطرق، فاستدعى زوجته من القفقاس اليه في فيودوسيا. اما وظيفته الجديدة، فقد بدأ يمارسها من اجلائه مقدما لجميع الذين يعملون معه، بينما بقي هو في مكانه زاعما، اما لنسف المستودعات والاقبية، واما لحرقها، ولكنه كان قد اغلقها ومهرها في

الـواقـع، ثـم تـوارى عـن الانظـار منتظـرا المعـركـة.
وعندما ظهر الى النور مرة اخرى بعد المعارك، بدأ الجنود الالمان باخراج كل ماوقع تحت ايديهم في تلك الاقبية. وقام حينذاك باتخاذ خطوة لبقة: اذ ذهب الى الحاكم العسكري الالماني، واشتكى، مدعيا بأنه احتفظ بهذه الاقبية من اجل ان تستخدمها القيادة الالمانية استخداما مخططا، لا لان يدخلها ويأخذ منها كل من هب ودب. وقام الحاكم العسكري الالماني، الذي ارتاح لهذه الشكوى الغيور، بتعيينه فورا مديرا لهذه الاقبية، وأمره بأن يقدم النبيذ حسب اوامر مكتوبة من ادارة الحاكم فقط. وسرعان مادخلت في العملية الزوجة الالمانية، التي عينت موظفة للعمل في البلدية، ومن ثم عينوه هو نفسه غروزينوف رئيسا للبلدية.

وظهرت واضحة لدي كل الوضوح، خلال ساعة ونصف ساعة من الكلام معه، نفسيته واسباب تصرفاته. ولكن شيئين اثنين فقط لم استطع ابدا ان افهمهما. الاول، انه مايزال يعقد الامل على شيء ما، ومايزال غير مدرك بوضوح، بأن اية نهاية يجب ان لا ينتظر، غير الاعدام رميا بالرصاص. والشيء الثاني، انه كان يخشى من القصف الجوي الذي كان يجري على المدينة. فلقد كان يخاف خوفا ذريعا على حياته. ومن الواضح ان كلا من هذين الاحساسين مرتبطان مع بعضهما البعض. ولهذا بالذات، فأنه مايزال غير معتقد حتى الان، بأن حالته

ميؤوس منها، وانه يخاف من قصف القنابل. وكرر عدة مرات بأنه "يستحق اكثر". وفي اثناء كلامه معي كان يتبرأ من فعاله باكثر الصور غباء. وعندما سألته، هل انه هو الذي وضع القائمة باسماء اليهود والكارائيين للاعدام (قوم يقطنون في جنوب الاتحاد السوفييتي ويتحدثون باللغة التركية)، اجاب بالنفي، انه ليس هو الذي فعل ذلك. وعندما مارست الالحاح عليه بالسؤال، اين اذن وضعت القائمة، اجاب بأنها وضعت في مجلس البلدية.

- ولكنك انت كنت رئيسا للبلدية !
- اجل، كنت.
- اذن انت الذي كتبت هذه القوائم.
- كلا اني لم اكتبها.
- اذن من هو الذي كتبها ؟
- كتبها الموظفون العاملون.

وبعد ذلك استجوبته عن تلك الادلة التي على ضوئها منح التوصية بالثقة للبعض وحجبها عن بعض اخر. وقد أجاب عن ذلك، بأنه نفسه لم يسلم اي فرد للالمان، ولم يتكلم بسوء ضد اي من الناس.

- ولكن من هو الذي تكلم ؟
- عندما يسألني الالمان، فأنني عند ذاك اجيب عن سؤالهم. اما اذا لا يسألون فأني لا اتكلم.
- يعني انك تحدثت عن الناس بالسوء، عندما كان

الالمان قد سألوك فقط عن هؤلاء الناس.

- نعم.

وهذا بالضبط ماكان قد بدا في نظره، انه ظرف مخفف لذنبه، وهو انه كان يشي بالناس لدى الالمان، بعدما يسألونه عنهم، وقد ظل يكرر ذلك عدة مرات في جميع الاحوال.

واثناء كلامي معه، سقطت في الشارع زختان من القنابل. وفي كلتا الحالتين بدأ يتململ على الكرسي منذ اول صوت انفجار للقنابل، ومن ثم حاول الانزلاق من الكرسي والاستلقاء على الارض. وانني صبرت عليه في المرة الاولى، ولكنني صرخت به في المرة الثانية:

- هل انت لا تدرك بأنك ستعدم رميا بالرصاص في جميع الاحوال؟ فلماذا اذن انت تزحف على الارض؟

ونهض مرتجفا وبمنظر المنهوك، من الارض، وعاد للجلوس على الكرسي وقال:

- انني ما ازال آمل في ان ابرر الثقة.

ان من الصعب التصديق، بأن انسانا بمثل هذه الحالة يستطيع النطق بمثل هذه العبارة، ولكنه قد نطق بها. ومن بعد هذه الكلمة تماما وحتى نهاية التحقيق، لم يبق عندي حتى الشعور بالحقد عليه. بل قد بقى فقط الاشمئزاز والنفور اللذان وصلا الى حد، ان من الصعب علي حتى ان المسه. فأن هذا ما عاد يعتبر الان انسانا بل نوعا من قناديل البحر.

وفيما بعد، عندما قام الفنان اصلانوف، بتمثيل دور الخائن خاريتونوف بمسرحية "الناس الروس" على مسرح الدراما بموسكو، وانه بموهبته الفنية المدهشة ماكان يمشي على المسرح، بل يزحف عليه زحفا، فقد ذكرني بغروزينوف ذاك تماما على الرغم من انه لم يكن يشبهه جسميا.

ومن المناسب ان اقول، ان صورة خاريتونوف، بالشكل الذي ظهرت به في مسرحية "الناس الروس"، قد تكونت عندي من تأثيرين اوليين اثنين: من عبارة كنت قد سمعتها تقول "ان اشيائي بدوني هي اشياء دائما. اما انا بدون اشيائي فلا شيء" وهي عبارة قالها زوج لزوجته في محطة قطار خلال دقائق النزوح، ومن ذكرياتي عن غروزينوف وحالته تلك، التي رأيته بها في ذلك اليوم في فيودوسيا.

بعد الكلام مع غروزينوف، التقيت بالمطبعة، مع مارتين ميرجانوف، وذهبت معه، نجري لقاءات مع جنود البحر الذين هم اول من نزل هنا من جنود الانزال. وانهم، كما علمنا، مازالوا موجودين بالمدينة، وان قوتهم كلها ملحقة بأدارة المدينة.

ان ادارة المدينة اقامت في احد الشوارع السفلى بفيودوسيا غير البعيدة عن الميناء. وهي كانت مطوقة بعدد من حفر قنابل القصف الجوي المنفجرة في هذا اليوم والعشية قبله، وكأنها بوسط دائرة هندسية كاملة. وان

النوافذ كلها قد تحطم زجاجها، وسدت بأكياس الرمل. اما في داخل الادارة، فقد أوقدت الغلايات. كان ازدحام في داخل الادارة، والناس يدخلون ويخرجون. وسيطر على المدينة، بصفته فصيل طوارىء، نفس اولئك البحارة من فصيل آيدينوف الذين بقوا على قيد الحياة، ولم يصابوا بجروح، بعد ان كانوا اول من تمسك بالجرف ليلة الانزال الأول.

وتحدثت في الادارة العسكرية عدة ساعات مع آمر الفصيل آيدينوف، ومع القوميسار بوناماريوف وعدد اخر من المقاتلين. ولم تهدأ بعد، في نفوس هؤلاء الناس، فرحة الحماسة بعد الانزال الناجح، ولكنهم في نفس الوقت، تعبوا جدا خلال هذه الايام، وكانوا متهيجين من القصف الجوي الذي لم يتوقف طول الوقت، بل وكان يبدو انه لن ينتهي ابدا.

واعتقد بانني لن ابالغ اذا قلت، ان المزاج لدى جميع الناس في المدينة تقريبا كان متوترا في ذلك اليوم، بسبب هذا الغضب، وهذا العجز امام القصف الجوي الذي لا يتوقف، ولربما انه لهذا السبب بالذات، وسعيا مني لتجاوز الفزع الذي احس به، ورغبة في عمل شيء بصورة حيوية، ولكي ارحل بسلام من هنا عائدا الى البيت، فقد كنت اسأل الناس بدقة متميزة وبلا تسرع. وقد افادني ذلك فيما بعد فائدة جيدة خلال العمل. فانني كنت سألتهم عن جميع التفاصيل. ولهذا بالذات

فان التحقيق الصحفي بعنوان "الليلة الاخيرة" الذي نشر فيما بعد بجريدة "كراسنايا زفيوزدا" قد كان غير سيء كما يبدو.*

وفي الساعة السادسة مساء عندما خيم الظلام، وكنت قد أنجزت مقابلاتي، قيل لي ولميرجانوف، بانه ستقلع بعد قليل من المرسى، احدى البواخر التي نسيت اسمها الان، مبحرة الى مدينة نوفورسيسك. وذهبنا الى رصيف الميناء. وسار تعويض من الجنود الذين نزلوا توا في الشوارع، وهم يتطلعون الى الابواب المصطفقة وقرقعة الحديد مع كل هبوب للرياح.

وقبل ان نصل انا وميرجانوف بمسافة ثلاثمئة متر من المرسى واذا بدوي انفجارات متعددة يتعالى في الامام وارتفع عمود من اللهب، ومن ثم عندما اقتربنا اكثر، اتضح ان الباخرة التي كان من المزمع ان نبحر عليها، سوف لن تبحر. فان الانفجارات التي سمعناها، كانت نتيجة لسقوط احدى القنابل على مؤخرتها.

وبعد وقفة قصيرة على المرسى على مقربة خطرة من اكداس العتاد الحربي الكثيرة، عدنا راجعين الى مقر الادارة العسكرية، لكي نستعلم من هناك عما اذا ستبحر اليوم سفينة اخرى. وامسى مبنى الادارة العسكرية

---

* انظر الملحق.

مزدحما مع حلول الليل: فان الناس قد استلقوا للنوم على الارض وفوق الكراسي. وخلال انتظارنا للضابط رئيس الادارة، اتكأت انا ايضا، واضعا مسند الكرسي تحت رأسي، ومن ثم اتضح انني قد غفوت ساعة كاملة.

وكتب لنا ضابط الادارة بعد عودته، عدة كلمات على ورقة وقال بانه في مكان ما، عند تعويمة للخشب، هو نفسه لا يعرف أين تقع، يرسو زورق حربي بحري، من المقرر ان يغادر في ظرف ساعة او ساعة ونصف متجها مباشرة الى نوفورسيك.

ومشينا مرة اخرى نحو المرسى. وعلى رغم ان ساعات واياما مرت بي كانت اكثر فزعا من حيث مستوى خطرها الفعلي، الا انني سوف لا انسى هذه الليلة لمدة طويلة، كما ارى. فانني كنت قد عانيت في تلك الليلة من الخوف والفزع اكثر بكثير مما عانيته في مرات سابقة. ولربما ان ذلك يعود الى ما عانيته من توتر عصبي وتعب شديد، بعد كل هذه الرحلات خلال الاوقات الاخيرة، او بسبب الاستغراق الزائد بالتفكير حول تلك المرأة التي احب كثيرا ان التقي بها من يوم لآخر بموسكو، او للوهم الذي صار يراودني بان هذه الليلة يمكن ان تكون الليلة الاخيرة التي تفصلني عن هذا اللقاء، او لربما بسبب هذا كله مجتمعا.

وعندما خرجنا للمرة الثانية من مبنى الادارة، كان الظلام دامسا تماما. ودخلنا الى المرسى الذي

يحترق بالقرب منه اثنتان من البواخر اصابتهما القنابل، مثل فنارين. وفي النهاية الاخرى من المرسى، الى اليمين، كان يشتعل حريقان آخران اعلى لهبا. وانهما كانا دارين اشعلت القنابل بهما النار. وكان ميناء فيودوسيا يبدو على شكل نصف قوس بين هذين الفنارين اللذين على ضوئهما يصوب الالمان نيرانهم باستمرار.

وبقينا نتخبط بمحاذاة المراسى وكانت كلها مليئة بالحطام، وانقاض المعادن وقطعها، وبراميل النفط والبنزين، المسحوقة والمشوهة، والقطع الممزقة من صفائح السقوف الحديدية لمستودعات البضائع. وكنا نتعثر وسط الظلام كل دقيقة بالحفر، ونصطدم بالحديد، ونسقط على الارض. لقد تخبطنا في ذلك الجزء من المراسى حوالي الساعة، ورغم ذلك فلم نكتشف فيه اي شيء شبيه بزورق حربي بحري.

وفي الاخير انتقلنا الى الجهة اليسرى من الميناء بمحاذاة جدار الميناء. وفجأة توهجت امامنا مباشرة طلقة تنوير، وقد اشتعلت بنور ابيض يغشي البصر، فصرخت على ميرجانوف، مدركا ما الأمر، ورأيت على ضوء التنوير ان على جهتي من اليمين واليسار شيئا مثل الملاجىء. وارتفعت من الجهتين انواع الصناديق. واستمرت شعلة التنوير بالاضاءة، ولكن القنابل لم تسقط بعد. واستدرت بوجهي نحو الاعلى، فرأيت ان كل

شيء غارق في بحر من نور. وكانت تلك انارة غير طبيعية، وكأنها انارة في غرفة صغيرة اشعل داخلها مصباح كهربائي كبير. والتفت الى اليسار، لأجل ان اقدر اين انا منبطح.

اني الان اتذكر ذلك مع الضحك، غير اني لم أكن املك آنذاك ما يضحك. فقد كنت مستلقيا بين صفين من صناديق العتاد الحربي، المصفوفة بعناية،وعليها خطوط صفراء وكتابة سوداء "الغام". وفي الممر المجاور بين هذه الصناديق امتد ميرجانوف بنفس الحال وما كدنا نتأكد من اننا نستلقي بين الالغام، حتى انفجرت ثلاث قنابل او اربع واحدة بعد الاخرى. ومن حسن حظنا انها سقطت بعيدا عنا نسبيا، اي على بعد ثلاثمئة متر، او ابعد من ذلك على الارجح. وفي مكان ما انبعث شيء ما، من الانفجارات. ولكن صناديق الغامنا ظلت سليمة ونحن معها ايضا.

وانطفأت شعلة التنوير. وتحركنا نحن الى الامام. وبحثنا عن الزورق الحربي البحري ساعة اخرى، ولكننا لم نجد له مكانا. وعند ذاك قلت لميرجانوف، وانا استعيد كالاطفال الذكريات في ذهني، عن منظر مدينة فيودوسيا، بان الضابط آمر الادارة، لربما كان يقصد بتعويمة الخشب، مع الفنار الذي يلوح بعيدا في البحر، من جهة الميناء اليمنى، بينما نحن نبحث عن الزورق الحربي البحري ليس هناك في المكان الذي يجب ان يقف فيه

ابدا.

وتحركنا الان من جهة الميناء اليسرى الى جهته اليمنى بمحاذاة الشاطىء تماما سعيا منا لاختصار الطريق.

وهدأ القصف الجوي. وكان الالمان يغيرون بطائرة واحدة. غير ان الطائرة بعد ان تفرغ قنابلها، تظل مدة طويلة تهدر بالهواء الى ان تحل محلها طائرة اخرى. وكانت القنابل تسقط على المدينة بعد كل عشر أو خمس عشرة دقيقة من الزمن.

ورأينا في طريق سيرنا بمحاذاة المرسى، ان في الجهة المقابلة للمكان الذي اخذنا به وضع الانبطاح قبل قليل تتمايل واحدة من السفن الصغيرة. واقتربنا منها. وكانت تلك، السفينة ناقلة الخشب "سيروف" قد وصلت قبل قليل من نوفورسيسك. وانها افرغت اخيرا في فيودوسيا عتاد المدافع المضادة للطائرات الذي طال انتظاره وسيارات حمل وبالونات هواءمضغوط، ومعدات احتياطية ضرورية لاستقبال طائراتنا المقاتلة في فيودوسيا عند هبوطها.

وتوقعا لكل الاحتمالات، سألنا، متى تتحرك هذه السفينة في طريق العودة. وقيل لنا ان ذلك يكون بعد ساعات اربع حالما يتم تفريغ الحمولة. وواصلنا سيرنا الى امام. وفي احد الاماكن على المرسى، استمرت تحترق بقايا المستودعات، كما ان الانقاض كانت مبعثرة بشكل

كان من المتعذر عموما اجتيازها هناك ليلا . وعند ذاك صعدنا الى اعلى نحو المدينة، وصرنا نسير في الشارع السفلي بعيدا خلف جدران الميناء.

وفي هذا الوقت بدأ قصف جوي كثيف بالقنابل. واستلقينا على الارض حوالي عشر او خمس عشرة مرة تقريبا. وفي هذه المرات الأخيرة من الغارات الجوية، بدأ الالمان بالقاء قنابل ثقيلة شديدة الانفجار، تؤدي الى حدوث وشوشة وانين طويل من حولها بعد الانفجار. وان الشظايا واصوات الدوي تتصاعد في الهواء، وتتساقط على السطوح وتنزلق منها.

وكانت الشوارع القريبة من الميناء مليئة بجثث الالمان. وقسم منها بحالة استلقاء، وقسم آخر، كانت لسبب ما، بحالة جلوس. وحدث عدة مرات ان اضطررنا الى الانبطاح الى جانبها.

واخيرا تمكنا، وعلى كل حال، من الوصول الى تعويمة الخشب وسرنا فوقها. ولكن الزورق الحربي البحري لم يكن موجودا هناك.

والان لم يبق امامنا سوى الركوب في ناقلة الخشب "سيروف". ولكنه ينبغي اجتياز كل هذه المراسي في طريق العودة للوصول الى السفينة.

واستمر قصف القنابل من الطائرات. وعندما وصلنا الى سفينة نقل الخشب تقريبا، دوى صفير مخيف على بعد قريب. واستلقينا ملتصقين بالجدار الاسفل الجنوبي.

ودوى انفجار بقيت بسبب شدته، عدة ثوان ممتدا بلا حراك. واحسست بأن الجانب الايسر من جسمي، اي الرأس واليد والرجل كانت كلها وكأنها ليست جزءا مني، او انها تشبه القطن، او كان يبدو وكأن شخصا ما قد حشاني بالقوة بشيء غريب علي.

وكان ميرجانوف قد استلقى من ورائي. وقد همزته برجلي دون ان التفت اليه وسألته، هل هو حي. فظل هو صامتا. ومن ثم في المرة الثالثة فقط، عندما اخذت اصرخ باعلى صوتي، اجابني بأنه حي. ولكنه حتى لو كان قد مات فلا يوجد ما يبرر رفسه بالقدمين في رأسه.

وحالما نهضنا رأينا ان التقاطع الذي اقتربنا منه توا لم يعد له وجود. فان القنبلة قد سقطت في قلب مركز التقاطع ونسفت كل البيوت الاربعة من حوله. وكانت الحفرة على درجة من الاتساع بحيث اضطررنا ان نجتازها عبر تقاطع آخر من الشوارع، لكي نواصل طريقنا. ولقد كانت آخر قنبلة. ومن بعدها ساد الهدوء مدة ساعتين.

وبعد ان وصلنا الى السفينة ناقلة الاخشاب وابرزنا هوياتنا صعدنا الى ظهرها. وقادنا احدهم الى غرفة جماعية، فجلسنا هناك منهوكين من التعب المميت، وانتظارا للانتهاء من عملية التفريغ، والشروع بالابحار. وحاول ميرجانوف القراءة، بينما حاولت حسب عادتي ان انام دقائق مزعجة، وفعلا اجبرت نفسي على النوم. واستيقظت من النوم بفعل ضربة. وقذفت الضربة

بميرجانوف من الكرسي، وضربته بالجدار بدفعة واحدة، ومن ثم بالمنضدة. وعندما وقفت، كان باب الغرفة مفتوحا على مصراعيه. وهرع الجميع راكضين. واتضح ان قنبلة كبيرة قد سقطت غير بعيد عن السفينة، وادى انفجارها الى انفجار كمية من بعض اكداس العتاد الحربي، ادى بدوره الى ان يهز السفينة ايضا هزة هائلة. وتبين فيما بعد، ان هذا الانفجار قد احدث انشطارا في هيكل السفينة، بحيث انها وصلت الى نوفورسيسك وهي تزحف شيئا فشيئا.

واستؤنف القصف الجوي بقوة اشد عنفا. ولكن السفينة ظلت رغم ذلك تواصل عملية التفريغ.

وعندما عدنا من على ظهر السفينة الى الغرفة الجماعية، جلس هناك ثلاثة بحارة من سفينة مجاورة ما تزال تحترق. وروى هؤلاء كيف سقطت القنبلة على سفينتهم، وكيف قطعت رجل طباختهم، وتحدثوا عن اشياء اخرى واخرى. لقد كانوا في اشد حالات البرد. ولتدفئتهم اعطوهم هنا في السفينة ناقلة الخشب قليلا من الفودكا. ولكن هذه الجرعات لاتساعدهم. وانهم كانوا حزانى،وان واحدا من بينهم كان دائم الخروج الى ظهر السفينة، ويتطلع الى سفينته ويعود راجعا ثم يكرر القول:

- الحريق مستمر.

وفي نهاية الامر، غفوت رغم كل شيء على ايقاع كلامهم، واستيقظت في الساعة السابعة صباحا. وقد كنا

نسير في عرض البحر باتجاه نوفورسيسك.

كان الجانب الايسر كله من جسمي يؤلمني. والألم في الرأس واليد والرجل. واستلقيت على هذا الجانب الايسر، لاجل ان اقلل من الاحساس بالألم، وبدأت اقرأ في رواية "الحرب والسلام" التي كانت موجودة في مكتبة السفينة من حسن الحظ.

ومن ثم في النهار تحدثت كثيرا مع عدد من بحارة سفينتنا ناقلة الخشب. ومن دون اقدام على توجيه انتقاد، من حيث وجهة النظر الستراتيجية البحرية الحربية، فانني حملت من هذه الاحاديث، وكذلك من بعض الانطباعات الشخصية، احساسا، بأننا ما كنا نحمي اسطولنا التجاري في بداية الحرب وفق المستوى المطلوب، وكنا مقصرين في تغطية السفن التجارية بقوة اسطولنا الحربي، حيث لا نضع فوق الواحدة من هذه السفن التجارية غير مدفعين او ثلاثة مدافع، بل واحيانا نتركها الى مصير مجهول في رحلات محفوفة بالخطر. وقد حصل مثل هذا بصورة خاصة، حتى في فيودوسيا، وذلك بعد الانزال العظيم لجنود الانزال، ومن ثم عند توصيل التعزيزات والعتاد الحربي، عندما راح كثير من السفن شذر مذر بدون حماية، فاغرق الالمان منها اربع او خمس سفن.

انا لا أدري، فلربما ان هذا كله ليس صحيحا تماما وغير دقيق، ولكن مثل هذا الاحساس قد ظهر عندي بالذات

عندما كنت آنذاك فوق السفينة ناقلة الخشب. اما بالنسبة لبحارة الاسطول التجاري الذين تحدثت معهم في ذلك النهار، فان هؤلاء كانوا شبابا بسلاء، غير ان نفوسهم كان يجثم عليها شعور بالمرارة والغضب، بل وحتى شيء من الاستسلام للقدر المحتوم: - ما الفائدة، فقد يكون من الممكن ان يقوموا برحلة واحدة اخرى، ثم من الممكن برحلة واحدة ايضا ولكن هناك... من المحتمل ان الذي ترك عليهم هذا التأثير هو ما شاهدوه في ذلك اليوم، بأم اعينهم كيف اغرقوا لهم سفينتين في ميناء فيودوسيا. او لربما انهم قد اثر عليهم قصف القنابل من الجو الذي استمر ساعتين متواليتين الى ان ابحروا بدون اي حماية الى فيودوسيا.

لقد استغرقني تفكير كالعلقم في هذا الحديث، ولكنني عندما قرأت فيما بعد القرار بتكريم بحارة الاسطول التجاري، تذكرت هؤلاء البحارة في السفينة "سيروف" وفرحت لأجلهم.

نزلنا الى البحر في نوفورسيسك ليلا، وذهبنا مباشرة من السفينة الى مقر القيادة البحرية، حيث رايت ازاروف هنا في هذه المرة. وعندما علم بأني عائد من فيودوسيا، وكذلك، وكما هو واضح، فانه عندما تذكر بأنني كنت في يوم ما، ببداية الحرب، قد ابحرت في غواصة، قال:

- هذا هو الرفيق سيميونوف. ليته جاء قبل ساعة من الان...

ـ ماذا حصل؟
ـ ارسلنا جنود انزال الى مختلف النقاط، وخاصة ان قسما منهم ارسلوا في غواصة. وما امتع هذا لو كان قد حصل بالنسبة لك! واضاف بعد صمت قصير ـ يا للأسف، يالالأسف انكم لم تكونوا هنا حتى ولو قبل ساعة فقط. انكم لو كنتم هنا لبعثت بكم معهم.
كان عندي احساس في تلك الدقيقة، هو انه ليس من حظي ذلك. غير ان هذا التأخير مقدار ساعة قد تحول، كما اتضح فيما بعد، الى الافضل بالنسبة لي، وذلك لأن الانزال الذي كان موضوع الحديث، قد تم بنجاح من حيث مفهوم الانزال، وان رجال الانزال الذين نزلوا بالرشاشات، قد احتلوا حتى كوكتيبيل، غير ان تقدم قواتنا بمحاذاة الساحل قد توقف، ولم يلتق اي احد مع رجال الانزال، وبذلك ظل مصيرهم اللاحق غير معروف ولحد الان.
وفي وقت متأخر من الليل، وصلنا الى مقر تحرير الجريدة العسكرية للجيش الرابع والاربعين، وهي نفس الجريدة التي كنا في مقر تحريرها المتنقل في فيودوسيا. واستقبلونا في مقر تحرير الجريدة بسرور وكذلك فاننا قد جلسنا وتحدثنا طويلا.
واثار الخبر الذي نقلناه عن مصرع الرفيق، لدى رفاقه المحررين، ذلك النوع من الحزن الذي يحصل لدى الناس الذين يشفقون على بعضهم البعض، والذين هم في

نفس الوقت تعودوا على ان يروا في ذلك، مصيرهم انفسهم.

واخيرا هيأوا لنا فراشا للنوم: ميرجانوف نام في المكتب مع المحرر، وانا نمت في غرفة مجاورة، حيث مكان نوم الكاتبات على الالة الكاتبة. وقد حشروا البنتين المسكينتين على سرير واحد واعطوني السرير الاخر. وغفوت مثل الاموات، واستيقظت في الصباح لأسمع بالقرب مني همسا نسويا. وفتحت اجفاني لثانية واحدة، فتذكرت واستدرت فورا نحو الحائط، لكي تستطيعا ارتداء ملابسهما. ومن بعد ذلك، عندما ذهبت الفتاتان ، ارتديت انا ملابسي.

وعلمنا ان اقرب قطار الى كراسنودار قد فات علينا بالنوم. وصار ينبغي علينا السفر الان في النصف الثاني من النهار فقط.

ان الفتاتين اللتين قد نمت في الغرفة الى جوارهما، بعد ان علمتا بمصرع ذلك الفتى في فيودوسيا الذي نقلنا نحن خبره المحزن، قد تأثرتا عليه اشد التأثر، حتى اني عندما دخلت عليهن في الغرفة مرة اخرى، وجدتهما تبكيان بدموع. وسرعان ما هدأت واحدة منهما. اما الثانية فقد ظلت تتخطى بعيون متورمة من البكاء، بينما تتوسل بها تلك التي توقفت عن البكاء كالتوسل بالمريض. وعندما خرجت الفتاة الباكية، سألت الفتاة الاخرى عن جلية الامر، فقالت لي وهي تشهق من الحزن متحدثة عن قصة حب مؤلمة، هي ان هذه الفتاة التي

تبكي بهذه الحرقة، وذلك الفتى الذي قتلوه، قد احب احدهما الاخر وعقدا العزم على الزواج. ولكنه قبل ان يتم ذلك، راح الى فيودوسيا. واتفقا على اللقاء هنا او هناك في فيودوسيا ثم يتزوجان. وان كل هذا كان متفقا عليه ما بينهما.

ورثيت لهما بعدما سمعت هذه القصة المحزنة، بحيث انني لما قابلت رئيس التحرير بعد نصف ساعة من ذلك، لمته بالقول: لماذا اسقطوا عليها الخبر هكذا بدون ممهدات؟ فالفتاة قد أحبت، وتهيأت للزواج. وبناء على ذلك كان لابد من التمهيد بصورة من الصور لايصال الخبر اليها، والا فها هي الان تبكي.

- ذهل رئيس التحرير وقال - اية فتاة؟ من تبكي ؟ من ؟ ولماذا؟

وسردت له الموضوع.

- قال رئيس التحرير- إن كل هذا غير صحيح. انهما لا يعرفان تقريبا احدهما الاخر. فهو قد كان شابا جيدا جدا .غير اني اعلم بدقة، ان القضية ليست بهذه الصورة. ولكن من الممكن انها كانت معجبة به بعض الشيء، وليس اكثر من ذلك على كل حال. واؤكد بثقة ان القتيل لم يكن قد وعدها بشيء. ان هذا كله محض خيال. انهما حزينتان. وهكذا هما تتصوران.

وبالفعل فان رئيس التحرير عندما تحدث لي عن ذلك، اقتنعت بأنه يقول الحقيقة. وتصورت بأن الفتيات يواجهن

في الحرب حقا، صعوبات كبيرة جدا، وانهن يهوين ويحببن بتعطش، ويعشقن عشقا حلوا، ويتخيلين خيالا جميلا. وان هذا الحادث هو الدليل على ذلك. فانهن كن فعلا مشفقات على ذلك الفتى، ولكنهن اردن اضافة الى ذلك، افتعال مثل هذه القصة الرومانسية عن الحب. ان هذا كان حاجة روحية ضرورية لهن، فصار قصة.

وانني قد ازمعت حتى على كتابة قصيدة شعر حول هذا الموضوع. ومع ان القصيدة لم تظهر، الا انني جلست فيما بعد، وكتبت قصة بعنوان "الناس الروس" وقد ادرجت بها بصورة كاملة تقريبا هذا الحدث الذي سمعته من الحياة.

وفي المساء سافرنا الى كراسنودار في عربة قطار جمعتنا مع وفد من آذربيجان يحمل الهدايا الى الجبهة في ضواحي موسكو

وفي الصباح، ذهبت مباشرة من القطار في كراسنودار الى ادارة تحرير الجريدة المحلية، حيث سكرتير التحرير كابيت الذي هو انسان سمين مرح، ومن عداد اولئك الصحفيين المحليين الذين يعرفون الجميع، والجميع يعرفونهم، والذين لديهم في مكتب الادارة بالتأكيد الكرسي الذي جلس عليه الشاعر مايكوفسكي، والذين مر عليهم الجميع، وتكلم معهم الجميع، وكتب الجميع عندهم موضوعا ما، والذين هم يحبون روحيا الادب، وكذلك اولئك الناس الذين لهم به اي نوع من الصلات.

وساعدني كابيت في انه وضع تحت تصرفي عاملة على

الالة الكاتبة، فامليت عليها فورا مقالة بعنوان "الليلة الاخيرة" عن الاستيلاء على فيودوسيا. وفي المساء بعثت بالمقالة عبر الخط المباشر، ثم عكفت فورا بنفس الليلة على كتابة مقالة ثانية بعنوان "الخائن" عن غروزينوف.

وفي نفس هذا الليل، وانا ما زلت منكبا على كتابة المقالة، تسنى لي الاتصال عبر خط الطوارىء العسكري مع رئيس التحرير الذي قال لي بأن احدى المقالات قد تم تسلمها، وان اطير مع المقالة الثانية الى موسكو مباشرة بدون تأخير وحال توفر اية امكانية.

وبعد ان انجزت كتابة المقالة في صباح اليوم التالي، التقيت لحسن حظي، في مكتب الاستعلامات، بطيار إعرفه هو توجيلين الذي كان في وقت ما قد نقلني مرة على طائرته "سي بي" من روستوف الى موسكو.

وانه سيغادر غدا الى موسكو، وانني على ثقة بأننا سنكون غدا هناك. فأن توجيلين كان من اؤلئك الشباب الذين لا يرغبون بالمبيت في الطريق مهما كانت الاحوال الجوية.

وفي اليوم التالي، في الساعة الخامسة قبل غروب الشمس، هبطنا بموسكو على نفس المطار الذي اقلعت منه الى الجنوب في عشية العام الجديد.

١٩٤٣

بقي عندي ان اتحدث عما آل اليه فيما بعد مصير بعض الاشخاص الذين ورد ذكرهم في يومياتي.

وابدأ بمصير الانسان الذي صارت مأثرته التي حققها في عام الف وتسعمئة واثنين واربعين في شبه جزيرة سريدني، موضوعا للمحمتي الصغيرة "ابن المدفعي" التي كتبتها في نفس ذلك العام.

لم اعد اذكر الان هل ان الرائد ريكليس قد ذكر لي آنذاك، في اثناء اللقاء في الشمال، لقب ذلك الملازم المدفعي ام لا، بل وحتى لو ذكره لي فلابد اني نسيته لأني لم أسجله.

ان تلاميذ المدارس ظلوا سنوات طويلة يسألونني في رسائلهم عن مصير "ابن المدفعي" الذي هو ليونكا. ولم يظل امامي غير ان ارد عليهم بأنني لا أعرف مصيره الذي آل اليه، بالاضافة الى انني كنت آمل ان ليونكا سيظل حيا ويجتاز الحرب كلها حتى النهاية حيا معافى.

ومن بعد ذلك، وفي يوم من ايام عام ١٩٦٤ فقط، علمت فجأة من نيكولاي بوكين "شاعر شبه جزيرة سريدني" الذي ترقى خلال هذه المدة، من رتبة رئيس عرفاء الى عقيد، واصدر عدة دواوين شعرية، ان "ابن المدفعي" حي يرزق ومعافى وما يزال يخدم في المدفعية كالعادة، ما عدا انه الان ليس في اقصى الشمال، بل في الشرق الاقصى.

ومن ثم سرعان ما تبادلنا الرسائل بعد ذلك

والتقينا مع "ليونكا"، اي مع العقيد في المدفعية الساحلية ايفان الكسييفيتش لوسكوتوف.

وفي شتاء عام ١٩٦٦، بعدما تسلمت حزمة من الرسائل من التلاميذ الذين قرأوا في الصف الخامس "ابن المدفعي" كتبت الى ايفان الكسييفيتش لوسكوتوف، حيث يخدم في فلاديفوستوك راجيا منه المساعدة: ان يتحدث بلسانه، عن مأثرته التي قام بها، وعن مصيره من بعد ذلك. واحب ان انقل النص كاملا للرسالة التي بعث بها استجابة لرجائي، مع القول، ان هذه الرسالة قد كتبت باختصار الرجل العسكري الذي لا يميل الى الاسهاب.

" حضرة المحترم كونستانتين ميخائيلوفيتش سيميونوف. بناء على رجائكم، اجيب عن الاسئلة التي طرحها عليكم تلاميذ المدارس في رسائلهم اليكم عن مصير ليونكا بتروف المذكور في ملحمتكم "ابن المدفعي".

اذن، ابدأ قبل كل شيء بوصف ذلك المشهد الذي صار اساسا للملحمة. ففي بداية الحرب خدمت في الشمال بلواء مدفعية امرا لفصيل استطلاع مساحة برتبة ملازم.

وفي حزيران - يونيو عام ١٩٤١، صارت منطقتنا من الجبهة، في وضع صعب استثنائي،اذ ان الالمان اندفعوا اندفاعا قويا الى الامام، الامر الذي استدعى من لوائنا توجيه اقوى النيران كثافة ودقة. ولهذا الغرض ارسلوني آنذاك، بقرار من قيادة اللواء، الى نقطة تصويب تقع على احد المرتفعات. وكانت القضية تنحصر في ان هذا

المرتفع قد صار في مؤخرة الالمان القريبة عمليا بعدما شنوا هجومهم، وبقى فوقه من مقاتلينا الحرس، في حدود ٤٠ شخصا. ان هذا هو المكان الذي اختير موقعا لنقطة التصحيح.

وكنت قد استدعيت من قبل آمر اللواء الرائد ريكليس (الرائد دييف) وقوميسار اللواء يريمين، اللذين كلفاني بمهمة ان اخرج مع جهاز لاسلكي الى هذا المرتفع. وبعد ان تسلمت المهمة، انطلقت مع جهاز اللاسلكي واثنين من عناصر الاستطلاع، الى الخطوط الامامية لقواتنا. وقام المشاة باعطائنا دليل، وخرجنا الى المكان المعين تحت غطاء من الضباب. وكان ينبغي علينا ان نسير مسافة ثلاثة كيلومترات تقريبا. وما ان سرنا حوالي كيلومتر واحد الا وقد انقشع الضباب، ففتح الالمان نيران الرشاشات والهاونات على مجموعتنا فجرح دليلنا وطلبت منه الرجوع. والمسافة التي بقيت امامنا قطعناها بحوالي ثلاث ساعات. وفي الواقع اننا لم "نمشِ" هذه المسافة بل كنا نزحف اساسا، لان محاولة الوقوف بطول القامة كانت تقطع بنيران رشاشات الالمان وهاوناتهم. ومع ذلك فان الهدف قد تحقق رغم الذي حصل. وفي الحقيقة ، فان حقيبتي كانت قد خرقتها رصاصة، ثقبت داخل الحقيبة، خريطة ودائرة سيليلويدية، وحزمة من النقود الورقية (راتبي الشهري)، ولم ينقذني من الاصابة، الا المنقلة الهندسية الموجودة في الحقيبة

التي ارتفت الرصاصة من عليها.

ان منظر المواقع الاساسية من هذا المرتفع كان واضحا بصورة جيدة جدا. وصرنا نراقب بشكل رائع بطارية مدافع الهاون، والمطبخ، وعددا كثيرا من اعشاش الرشاشات، ولاحظنا بشكل بارز جميع تحركات الالمان. وفي خلال هذا اليوم، اشرنا جميع الاهداف المنظورة، وحددنا مسبقا، ونقلنا جميع المعلومات الضرورية الى اللواء باللاسلكي.

وفي اليوم التالي تم بواسطة نيران بطارياتنا وعلى ضوء تصحيحاتنا، تدمير بطارية الهاونات، ودفن مجموعة كبيرة من المشاة الذين كانوا يتناولون الطعام، وتدمير عدة نقاط رشاشات.

ومن الواضح جدا ان الالمان قد ادركوا (بل لربما انهم استرقوا اشارات محطتنا اللاسلكية)، بأن تصحيح عمليات تسديد النار، يتم من هذا المرتفع، ففتحوا عليه نيران المدافع والهاونات. وكانت احدى بطاريات الهاونات قد رصدت من قبلنا، وبحسب توجيهنا للنار اسكتت تلك البطارية. وبعدما رأوا ان صبهم النيران على المرتفع لم ينجم عنه اي تأثير، وكذلك لم يستطع وقف التصويب الدقيق لنيران بطارياتنا، دفع الالمان في هجوم ضم على المرتفع بمجموعة كبيرة من المشاة. واننا لم نتمكن بنيراننا من وقف الالمان المهاجمين الذين استطاعوا ان يطوقوا المرتفع من جميع الجهات، وشرعوا

بالتسلق نحوه مباشرة. ولم يبق لدينا ما نفعله سوى ان ندعو الى تصويب النيران على المرتفع مباشرة، وقد اعطينا مثل هذا النداء، بيد ان قوميسار اللواء قال ان ذلك مجرد خطأ. فقام بالسؤال ثانية. وفقط بعد ندائنا الثاني توجهت عاصفة نيران مدافعنا نحو المرتفع.

وتمت ابادة جزء من المهاجمين الالمان، بينما لاذ الاخرون بالفرار. وبذلنا نحن جهدنا بالاختفاء في فترة اطلاق النار، فبقينا على قيد الحياة. غير ان الحالة كانت نظيعة فعلا. وكانت محطتنا اللاسلكية قد اصيبت. ولهذا صارت اقامتنا اللاحقة على المرتفع بدون اتصال مع اللواء غير مثمرة، فقررنا العودة الى اللواء. ولكن الخروج لم يتيسر لنا الا في اليوم التالي، عندما تصاعد الضباب، وذلك لان اية حركة على المرتفع تثير اطلاق نيران الرشاشات الالمانية. وعدنا الى اللواء، الذي حسبونا فيه بعداد القتلى، واعلنا عن تنفيذ الواجب.

هذا هو كامل الصورة التي استحقت ان تكون اساسا لكتابة ملحمة "ابن المدفعي".

وقد خدمت في هذا اللواء حتى نهاية الحرب. وفاز هذا اللواء سنة ١٩٤٤ بوسام الراية الحمراء، واطلق عليه اسم "بيتشينسكي".

وفي عام ١٩٤٥ حركونا الى الشرق الاقصى، حيث شارك اللواء في الحرب ضد اليابان، ونزل في الموانىء الكورية.

واعتبارا من عام ١٩٤٧ اخدم انا في اسطول المحيط الهادىء حامل الراية الحمراء.

وخلال سنوات الحرب حصلت على اوسمة الحرب الوطنية من الدرجة الاولى والدرجة الثانية، وعلى وسامين من النجمة الحمراء وعلى تسع ميداليات.

هذا هو كل ما يتعلق بي.

ارجوكم يا كونستانتين ميخائيلوفيتش سيمونوف، ان تنقلوا الى مراسليكم تحياتي الحارة وتمنياتي بالنجاحات الممتازة في الدراسة، وآمالي في ان يكونوا جديرين بامجاد ابائهم واخوتهم الاكبر وبامجاد وطننا العظيم.

ای.أ. لوسكوتوف" ١٩٦٦/٣/٣

انني منذ ذلك الوقت الذي تسلمت به هذه الرسالة، اقوم بارسال صور مستنسخة عنها لجميع تلاميذ الصفوف الخامسة، وبالدرجة الاولى، الى الاولاد الذين يسألونني عن مصير ليونكا. والان اضحت حياتي اسهل قليلا. اما حياة ايفان الكسييفيتش لوسكوتوف فاصعب قليلا، لان بعض الفتيان صاروا، بعد ان تعرفوا على عنوانه، لا يكتبون لي وحدي، بل واليه ايضا.

وطوال ما كنت لا اعرف شيئا عن لوسكوتوف، والى ان تراسلت معه، فقد كان ايماني ضعيفا بصراحة، في ان هذا

الانسان الذي دار عنه الحديث في ملحمتي، قد بقي حيا بعد الحرب.

وقد كان قد اشير في الملحمة الى اسم مكان الحادثة بالذات، بحيث ينفي اية شكوك محتملة. وبالاضافة الى ذلك، فان هذه الملحمة قد اعيد نشرها عشرات المرات. ولهذا فقد بدا لي ان الانسان الذي لو علم ان تاريخ "ابن المدفعي" هو تاريخه الخاص، وبقي حيا بعد الحرب، لبعث لي برسالة حتما سواء كان ذلك آجلا ام عاجلا.

ولكن الامور في الواقع كانت بعكس تصوراتي. فان ايفان الكسييفيتش لوسكوتوف، كان قد قرأ الملحمة، وعلم بوضوح ان الكلام فيها يدور عن مأثرته بالذات، غير انه لم يسارع للاعتراف بنفسه، بطل الملحمة الاصلي. ولو لم تكن هذه القضية موضع اهتمام اناس اخرين، لربما انه ما كان قد اعترف بذلك. ان هذا الذي هو واحد من اؤلئك الذين يستحقون الاحترام العميق، لديه مثل هذه الطبع.

وفي سياق الحديث عن لوسكوتوف، احب الكلام باختصار عن مصير اثنين آخرين من الناس صارا آنذاك شخصيتين فعاليتين في الملحمة "ابن المدفعي".

ان في الملحمة ابياتا شعرية تتحدث عن والد ليونكا، بأنه كان قد قضى نحبه في الجنوب سنة ١٩٤١،في القرم، ولكن الواقع كان بصورة اخرى، فأن والد ايفان الكسييفيتش لوسكوتوف، واسمه الكسي ميخائيلوفيتش ،

وهو مدفعي ايضا، كان قد حارب في الجنوب سنة ١٩٤١، ولكنه لم يستشهد، بل انه اصيب بجروح شديدة فقط، وعولج فترة طويلة، ومن ثم عوفي من اصابته، وعمل معلما في مدرسة مدفعية، وقد قضى نحبه في عام ١٩٦٥ عن اربع وستين سنة من العمر.

وفي الملحمة اطلقت انا على "الأب الثاني" لليونكا اسم ديف. اما في الواقع فان هذا الشخص كانوا ينادونه باسم يفيم سومسونوفيتش ريكليس. وانه سيرد ذكره في اليوميات.

وكنت قد التقيت فيما بعد، بشهر ايار - مايو ١٩٤٢، مع آمر لواء المدفعية الرائد ريكليس في الشمال ايضا، وليس في شبهي الجزيرتين، بل في القارة، حيث كان ايضا آمراً للواء. وكتبت آنذاك ونشرت في جريدة "كراسنايا زفيوزدا" في ربيع عام ١٩٤٢ تحقيقا صحفيا عن ريكليس بعنوان "يوبيل الجندي". وقد صار آنذاك برتبة مقدم، وصادف بالمناسبة مرور عشرين سنة على خدمته في الجيش الاحمر.

لقد حارب ريكليس طول مدة الحرب وحتى انتهائها، ونال مرات عديدة،شارات التكريم، وانهى الحرب وهو برتبة عقيد، وهو الان يعيش، بعدما احال نفسه على التقاعد، في القفقاس، باوسيتيا الشمالية.

وأروي الان حديثا عن مصير اثنين آخرين من لواء واحد، كانا يخدمان في شبة جزيرة سريدني بنفس لواء

المدفعية الثقيلة ١٠٤ واحدهما قوميسار اللواء دميتري ايفانوفيتش يريمين، وهو مثل آمر هذا اللواء، قد أحال نفسه الى التقاعد منذ مدة طويلة. وهو يعيش في مدينة ستافروبول، ويبعث لي من وقت لآخر بالرسائل التي تبين ان الايام لم تغير منه شيئا. فانه حتى الوقت الراهن، وهو يقترب من السبعين من عمره، باق على ما كان عليه، انسانا مرحا نشيطا غير كئيب، مثلما كان في يوم ما عند مقابلاتنا الاولى في بداية الحرب.

والثاني هو الملازم الاول ياكوف دميتريفيتش سكروبوف، الذي اجتاز في سنوات الحرب طريقا ساطعا: مبتدئا الحرب في ريباتشي بصفته آمر سرية مدفعية، ومنهيا لها في براغ برتبة رئيس مقر مدفعية الجبهة الاوكراايينية الاولى

وقبل بضع سنين مضت ، صادف ان تحدثت عن العمليات الهجومية الاخيرة للجبهة الاكرايينية الاولى مع قائد هذه الجبهة، ايفان ستيبانوفيتش كونييف الذي اطرى في سير حديثه على سكروبوف، بصفته وان كان ما يزال شابا صغيرا جدا آنذاك، الا انه كان مدفعيا ماهرا بشكل استثنائي. ان رتبة رئيس مقر مدفعية جبهة هي رتبة جنرال، ولكن سكروبوف قد تسنمها وهو برتبة عقيد. وفي سنوات شبابه لم يترفع الى اعلى من ذلك.

ان ياكوف دميتريفيتش سكروبوف مستمر في الخدمة

الان في الجيش، وهو الان برتبة جنرال ليتينانت او فريق.

وعن آمر كتيبة الحرس، ايفان ايوستينوفيتش كالينيكوف في شبه جزيرة سريدني، فانه بعد ان حارب الجزء الاكبر من وقت الحرب هناك في الشمال، عاد مثل كثيرين غيره، ممن بقوا على قيد الحياة من آمري الحرس، الى واجباتهم السابقة المباشرة، وهي اداء الخدمة على حدودنا الدولية. ولكنه عندما احيل الى التقاعد، استوطن في مولدافيا التي تربطه سنوات غير قليلة من العمر في الخدمة على الحدود فيها.

وقبل مدة قريبة جدا تسلمت من كالينيكوف رسالة تضمنت عتبا اخويا، لاني في خلال الرحلة الى منطقة جزيرة دامانسكي (منطقة صدام عسكري سوفييتي صيني في الستينات - المترجم) في الشرق الاقصى، لم اقابل ابنته، رغم انني صرت في مكان قريب منها، وجوهر العتب هنا، ان اسرة كالينيكوف، على عكس المعلومات التي وصلت عام ١٩٤١، كانت قد نجت، وان ابنته تزوجت بعد الحرب من ضابط في الشرق الاقصى. ان لدى عوائل حرس الحدود والجنود جغرافية للخدمة خاصة بها: اي ان الاب اذا كان قد حارب يوما ما في شبه جزيرة سريدني، عند مدخل المحيط المنجمد، فان صهره، قدر له بعد ثمانية وعشرين عاما، ان يخدم غير بعيد عن سواحل المحيط الهادىء.

ويشتغل ستيبان ماكسيموفيتش موتوفيلين عنصر

الاستطلاع البحري، الان في مدينة اوريويتسك بأكثر موسسات المنطقة المتواضعة، تواضعا، اي في مجمع الخدمات العامة. وكانت قضيته، هو انه بعد الحرب، احب التصوير الفوتوغرافي، فصار مصورا فوتوغرافيا محترفا. اما الحرب، فانه كان قد انهاها متأخرا ثلاثة ايام عن غالبية المقاتلين الاخرين، وتقع جريرة ذلك على المهمة الاستطلاعية الخمسين البعيدة المدى التي قام بها خلال زمن الحرب. ففي هذه المرة كانت المهمة بعيدة جدا، اذ ان الغواصة التي سار بها موتوفيلين في مهمته الاخيرة قد تسلمت نبأ استسلام المانيا الفاشية، والامر بالعودة، عندما كانت موجودة بعيدا في عرض البحر، بحيث ان موتوفيلين، لم يرجع من هذه المهمة الاستطلاعية الاخيرة غير المنجزة، وينزل على الساحل الا بعد ثلاثة ايام فقط من نهاية الحرب.

وعن ضابط التوجيه السياسي السابق في جيشنا الرابع عشر الذي حارب قرب مورمانسك، العقيد المتقاعد ليونيد فلاديميروفيتش روزوف، فانه قد قضى نحبه قبل بضع سنوات في مدينة لينينغراد، بعد ان صار طاعنا في السن. ورغم السنين والمرض، فقد ظل حتى نهاية حياته انسانا نشيطا وعمليا. وفي اثناء حياته، عمل بصورة مستمرة ولسنوات عديدة بمدينة غاتتشينا بضواحي لينينغراد، على وضع الارشيف التاريخي لهذه المدينة، وكشف الكثير من المواد التاريخية المهمة، ومن بينها ما يتعلق بتاريخ الطيران

الوطني عندنا. وكانت غاتتشينا واحدة من تلك المناطق التي ولد بها الطيران. وبعد جهد سنوات طويلة، نشر روزوف كتابا عن مدينة غاتتشينا وماضيها التاريخي. وكان هذا اخر عمل له.

واذا اردنا التذكير بسنوات الحرب، فان روزوف، ذهب بعد الشمال الاقصى الى الجنوب، وانتقل من التوجيه السياسي الى الاستطلاع، ومن ثم ظل ضابطا في قسم الاستطلاع باحدى الجبهات حتى نهاية الحرب.

وحدث بحكم الصدفة، ان روزوف بينما كان بهذا المنصب خلال شهر ايار- مايو سنة ١٩٤٥، صار له دور في قصة القاء القبض على الخائن فلاسوف الذي خان القسم، وقاد في الجيش الفاشستي، ما تسمى "فصائل فلاسوف".

واتذكر عن روزوف وهو يروي لي بسرعة كيف حدث هذا المشهد بعد الحرب، اي مشهد اصطياد فلاسوف وارساله فيما بعد. وقد تحدث عن هذه القضية بتلك الحيوية التي يتسم بها، وبتفاصيل كثيرة مثيرة. وانني لا أستطيع ان اغفر لنفسي حتى الان، كيف اني لم اسجل في حينه تلك القصة التي لا اجرأ على استعادتها من الذاكرة رغم مرور كل هذه السنوات الطويلة.

وتضم صحائف يومياتي اشارات كثيرة الى اسم محرر جريدة "كراسنايا زفيزدا" (اي النجمة الحمراء - المترجم) انذاك، دافيد ايوسيفوفيتش اورتينبيرغ، الذي يوقع مقالاته الصحفية في الجريدة باسمه الصحفي د.

نادیموف.

وانني كثيرا ما اتذكر هذا الانسان، لانه كان من عادته ان يتابع بنفسه عمل مراسليه الصحفيين. وانه يرسلهم شخصيا الى الجبهات ويستدعيهم منها، وهو يعين لهم شخصيا الواجبات، ويقرعهم شخصيا، ومن ثم فانه "نادرا" ما يمتدحهم.

واحسن من يتحدث عن اورتينبيرغ من اي محرر آخر، هو ارشيف جريدة كراسنايا زفيوزدا" لتلك السنوات من الحرب. وان جريدتنا كانت تحظى بالحب في الجبهة. وان هذا هو الامر الاساسي

اما اذا اردنا ان نتكلم عما هو ثانوي، اي عن العلاقات داخل اسرة التحرير، فان لدى رئيس تحريرنا صفة واحدة رائعة توافقني وتوافق كثيرين غيري في بعض الحالات الحاسمة، وهي ان رئيس التحرير الصارم مع نفسه ومع الاخرين، حرص على ان لا يلطخ مراسلو جريدة "كراسنايا زفيوزدا" عندما يكونون موجودين في الجيوش المقاتلة، سمعة الجريدة مهما كانت الظروف. وفي نفس الوقت فانه كان على استعداد دائم، الى جانب ذلك للدفاع عن رفعة اسم المراسل الصحفي العزيز، وحريصا على ان لا تقع عليه اية ظلال واهية.

واكتشفت في ارشيفي الخاص، مذكرة عمل قديمة، مؤرخة في ٣١ كانون الاول - ديسمبر ١٩٤١، من رئيس تحرير جريدة "كراسنايا زفيوزدا" الى نيكولايف، الذي

كـان آنـذاك عضـوا في المجلـس الحـربي للجيـش الحـادي والخمسين:

"ايها الرفيق العزيز نيكولايف! اهنئك بالانتصار الاول، واعانقك كصديق مقاتل. انني افهم ان الانتصار الاول لم يأتكم بسهولة، بل كلف الكثير من الدماء، ولهذا فهو اكثر اهمية. انا واثق ان القضية ستصل الى نهايتها. انني ارسل سيميونوف بالطائرة لمدة بضعة ايام. ارجو عدم تأنيبه لعدم عودته الى القرم في الوقت المطلوب. ان سيميونوف، كان مكلفا من قبلي، رغم رغبته، بالذهاب الى الشمال الاقصى، ارجوك ان تساعد سيميونوف، وبالدرجة الرئيسية ان ترسله بسرعة عائدا الى موسكو مع المواضيع".

كان اورتينبيرغ قد اعطاني هذه المذكرة لأحملها معي عندما طرت الى القرم. ولم يكن ليعرف هو ولا انا في ذلك الحين، انني سوف لن اصل الى الجيش الحادي والخمسين الذي نزل في كيرتش، بل الى الجيش الرابع والاربعين الذي نزل في فيودوسيا. وقد حسب رئيس التحرير، انني اذا لم اصل الى ذلك الجيش الذي فيه نيكولايف، فينبغي علي ان ادافع عن نقاء اسمي، وذلك فيما يتعلق بالوعد الذي اعطيته الى نيكولايف، بالعودة الى القرم عندما غادرتها بالطائرة في يوم ما ولم اف بذلك الوعد.

وفي ما عدا ذلك، فان رئيس التحرير كان يرى ان من الضروري الاشارة الى ان مراسله الصحفي كان في هذه

القضية، مأمورا بالاسراع في جمع المواد والعودة الى موسكو.

ان هذه العبارة في مذكرة العمل لم تكن من قبيل الصدفة. فقد تظهر احيانا صعوبات نفسية لدى زميلنا الصحفي: فقد يقع باحراج خلال احتدام الاحداث، في الذهاب او الطيران من الجبهة الى موسكو. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فان من مصلحة القضية اقتضاء مغادرة الجبهة في بعض الاحيان، وتقديم المواد شخصيا الى ادارة التحرير. وان رئيس تحريرنا كان قد ادرك هذا. وبناء على ذلك فان مذكرة العمل التي تحدثت عنها، ما هي الا واحد من الامثلة على هذا الادراك.

وفي خريف عام١٩٤٣ خرج اورتينبيرغ من وظيفة رئيس تحرير جريدة "كراسنايا زفيوزدا" وذهب الى الجبهة رئيسا للقسم السياسي في البداية في الجيش السادس ولمدة قصيرة، ومن بعد ذلك، وحتى نهاية الحرب شغل هذه الوظيفة في الجيش الثامن والثلاثين. وهو الان برتبة لواء متقاعد. ويبذل الكثير من الجهد والوقت، في العمل المتصل بتاريخ الحرب الوطنية الكبرى بصفته محررا ومؤلفا لعدد من كتب التاريخ.

ووردت في اليوميات اسماء الكثير من رفاقي في العمل خلال الحرب، وهم كتاب وصحفيون. وغالبيتهم لحسن الحظ احياء واصحاء، وان اسماءهم كثيرا ما يمكن ان تقع عليها العين حتى الان على صفحات مطبوعاتنا الصحفية.

غير اني احب ان اتحدث ولو باختصار، عن مصير اولئك الرفاق الذين لم يبقوا على قيد الحياة حتى نهاية الحرب.

جينيا بيتروف - اي يفغيني بيتروفيتش بيتروف، هو صاحب الروايتين المشهورتين مع ايلف، في سنوات ما قبل الحرب، "الكراسي الاثنا عشر" و "العجل الذهبي". اما في سنوات الحرب فقد صار مراسلا حربيا. وقد قتل في طريق عودته الى موسكو من سيفاستوبول المحاصرة، خلال شهر تموز- يوليو ١٩٤٢. وكانت رحلته الى سيفاستوبول آخر رحلة جبهوية. اما في الرحلة ما قبل الاخيرة التي كانت باتجاه مورمانسك في شهري نيسان - ابريل، ايار - مايو ١٩٤٢، فانني كنت خلالها معه والتقينا مع بعض من اصدقائي الشماليين القدامى ومن بينهم ريكليس ويريمين.

ميشكا او ميخائيل بيرنشتين. انه قتل حتى من قبل مصرع يفغيني بيتروف، اي في شهر ايار- مايو عام ١٩٤٣. فقد كان قد سافر الى ضواحي خاركوف مراسلا لجريدة "كراسنايا زفيوزدا"، وقتل هناك في الحصار. اما كيف حدث ذلك بالذات، فلا يوجد احد يعرف شيئا عن ذلك بالتفصيل حتى الان، لانه لم يبق احد من الشهود حيا.

المصور الصحفي لجريدة "ازفيستيا" بافيل تروشكين الذي خرجنا معه في احد الايام من الحصار في منطقة

ماغيلوف، كان قد قتل قبل وقت قليل تماما من انتهاء الحرب. ووقع مصرعه على يد قطاع للطرق في تبادل لاطلاق النار، على طريق بالقرب من مدينة لفوف.

وذكروا بأنه امتد قرب سيارته المصابة، بخندق ومعه رشاشته التي ظل يطلق منها النار حتى النهاية. واني اصدق هذه الرواية، لانه جدير بها.

لقد تحدثت عن مصائر عدد غير كبير من الناس. وكم احب ان اتحدث عن كثيرين غيرهم، غير انه ينبغي لذلك ان اعرف عنهم اكثر مما اعرفه الان.

وآمل ان يساعد نشر يومياتي، في ان اعرف بالذات المصائر الاخرى. واحب مقدما ان اعرب عن الشكر لكل من يجد، وهو يقرأ في هذه اليوميات اسمه او اسماء رفاقه في الجبهة ان يكتب لي عن نفسه وعنهم.

١٩٦٩

الملحق

صفحات من دفتر اليوميات

كونالينكو أ.أ
كاربوف غ.ف
موتوفيلين س.م
كومبانيتس م.اى
آريشوف أ.
دانيلوف أ.اى
ياكوشيف ب.اى
ليخونوسوف يا.أ
ترونين ل.اى
دانيلوف اى.ف
كريطسين ى.س
آرابوف أ.ن
فيليكوفسكي ب.غ
بيتروف أ.
آيدينوف أ.
بونوماريوف د.ف

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

أنظر ص ٣٥

الملازم الاول، الطيار المقاتل الكسندر اندريفيتش كوفالينكو يتحدث:

.... خاصية المسرح، هي التبدلات المناخية الحادة. وعلى الطيار ان يحفظ عن ظهر قلب، جميع علامات الاستدلال النادرة. ونادرا ما يتيسر للطيار ان يحلق في خط مستقيم، ويتجاوز الشحنات الكهربائية الثلجية التي هي تحصينات ثلجية. وان المحرك يسخن مرة ويبرد اخرى، بسبب التبدلات الحادة في درجات الحرارة في الاعالي. وتستدعي الضرورة التحليق الواطىء في الشعاب ما بين الجبال. وبهذه الصورة، نضطر الى التخفي، والى البحث عن العدو، لان الطيار عندما يحلق بطيران واطىء، فان من الصعب اكتشافه.

ان المنطقة تسمح بامكانية المصائد الجوية. والشحنات الكهربائية الثلجية تستر العدو بسهولة. لقد ذهبت في غارة مع الرف. وفجأة دخلنا بالالمان. وكانت هناك غيوم ومطر، وان ذرى الجبال غير مرئية. ودارت المعركة الجوية بين الجبال وفي الشعاب. وظلت القمم الجبلية غير مرئية طول الوقت. وبعد ان اسقطنا طائرتين من طراز "ميسسير شميت" رجعنا بصعوبة كبيرة وسط الضباب الى المطار.

وفي احدى المرات طرنا بست طائرات تحت السحب

وقررنا ان نخترق الغيوم ونخرج الى اعلى. لانه يكون الامر محزنا عندما لاتستطيع العثور على العدو. وهكذا قررنا الصعود. وما كدنا نطلع من الغيوم حتى شاهدنا ست طائرات "يونكيرس" ست طائرات (ميسسيرشميت". وانقضضنا كلنا بطائراتنا الست على طائرات "يونكيرس" التي حاولت الانتظام بشكل حلقة مألوفة بالنسبة لها، الا انها لم يسعها اللحاق بتنفيذ ذلك، اذ اسقطنا منها طائرتين وهي في الطريق عائدة الى قاعدتها. وفي مرة اخرى اقلعنا بسبع طائرات. ولاحظنا انفجارات قنابل على الارض من الاعلى. وشرعنا نتطلع لنرى من اين هذا النبش، فلمحنا طائرات قاذفة ومطاردة، وتوجهنا في هجوم عليها. وفي الاغارة الاولى اسقطت انا وسافونوف طائرتين قاذفتين، اي كل منا طائرة. ولكن سافونوف كان قد هجم وخرج من الهجوم، اما انا فقد صرت في الوسط وهم من حولي بحيث صار من المتعذر عليهم ان يطلقوا النار كي لا يصيبوا بعضهم بعضا. كما صار من الصعب بالنسبة لي ان اطلق النار لاني كنت مشغولا فقط بالتقلب والانتباه لتحاشي الاصطدام بشيء بغتة. وفيما بعد، لاحظت كوة بالأخير من الاسفل، تؤدي خلال الشهاب بين السفوح الى جماعتي، فأنسللت اليها. طار الالمان في البداية مخادعة، الى مورمانسك، ومن ثم نحو الخليج. وبعد ذالك الى الطريق. وفجأة التقينا بتسع طائرات المانية مقاتلة فوق خط الجبهة. وفي

الالتحام الاول، هجمت انا على هدف منتخب، هو طائرة "ميسسيرشميت -١١٠" وقررت تدميرها مهما كلف الامر. وبعد ان اصبتها انقضضت وراءها نحو الاسفل، الى ان كدت اسبقها الى الارض نفسها، لمسافة مئة متر، وحتى اصطدامها بالسفح الذي كان يوجد عليه مركز مراقبة الماني. ومن بعد ذلك اخذت بالصعود. وهنا هوجمت فورا من قبل خمس طائرات، من الخلف ومن الامام. وظننت بأنهم سيقتنصوني هنا. غير اني احتميت مرة اخرى في الشعاب بين السفوح. ولكن الطائرة كانت قد خرمها الرصاص كلها.

انا تبادلنا مع الزملاء الانكليز تقطيع الازرار كلها لبعضنا البعض. انهم فتيان طيبون، ويشتعلون حماسة في القتال.

كنت انا قد انهيت مدرسة الطيران في كانون الاول ـ ديسمبر عام ١٩٣٣ واجتزت جميع المراحل. وكنت عنصر استطلاع، وطيارا مطاردا وقاذف قنابل...

في عام ١٩٣٨، زمن الحرب باسبانيا، تحولت الى الطائرات المطاردة، املا في الذهاب الى هناك.

كنت متشردا، ومن ثم راعيا، ومن بعد ذلك اشتغلت من سنة ١٩٢٥ حتى ١٩٣٢ في معمل للزجاج بصفة صانع زجاجيات.

انني هنا منذ الحرب الفلندية.

اجلس هنا عند قمرة الطائرة، وانتظر اياما متى

يطلقون الاشارة، طلقة التنوير. اما النهار هنا فهو مضيء على مدار اليوم. وعندنا ثمانية تحليقات في اليوم.

والان يحل الظلام في وقت ابكر، والحياة صارت اسهل، وفي بعض الاحيان نغفو في قمرة الطائرة

* * *

انظر ص ٣٩

عنصر الاستطلاع البحري الملازم غينادي فلاديميروفيتش كاربوف يتحدث:

... عهدت الينا مهمة اختبار امكانية اجتياز قطعاتنا عبر خط الجبهة.

كنا سبعة افراد، وخرجنا من بوليارنايا ليلا على ظهر زورق. وكانت العاصفة قد هدأت لتوها. والامواج شديدة. وكان الظلام دامسا بحيث استطعنا ان نمر بهدوء وبشكل جيد.

وبحلول الصباح كنا في القاطع المقرر لنا.

وفي النهار تفحصنا الخط الامامي للعدو وعينا الطريق.

وعند المساء تحركنا نحو المقدمة .

قادنا آمر الفصيل حتى الخط الامامي للحماية. وخرجنا الى الارض الحرام. لقد كان شابا جيدا، وتوادع

معنا بحرارة شديدة. واخذنا منه ومن رجاله جميع القنابل اليدوية، اضافة الى ماعندنا، واتفقنا على اشارة اللقاء، وذهبنا لتنفيذ العملية.

كان هناك شلال كبير، يتدفق عبر مجرى حجري نحو الخليج، وكذلك حرش من الشجيرات القصيرة ، وصخور وشلال بين اثنين من خطوط الجبهة الامامية.

كنا مسلحين كلنا بالبنادق الرشاشة. كما كنا نرتدي كلنا المعاطف القصيرة المبطنة بالفرو، والجزمات الطويلة والاقنعة. وكانت الجزمات ذات نعل حديدي، وهذا شيء سيء، لانها تقدح شررا عندما تضرب بالصخر، فتكون ملاحظتها من الأمام ممكنة في الظلام.

كان الظلام داكنا جدا. وما كان يجوز لنا ان نسير مجتمعين، لانهم لو شعروا بنا فسيحصدوننا كلنا بصلية رصاص واحدة. لقد تحركنا بشكل قفزات، لكل اثنين على حدة او لكل ثلاثة اشخاص.

وعند الحركة كان ينبغي الالتزام باشد الحذر، لأن السلاح يرن عند الاستلقاء على الصخور.

سرنا مدة ساعة حتى موقع الخط الامامي لهم. وتجاوزنا نقاط المراقبة والحماية دون ان يلمحونا. وتخطينا البطارية، وعبرنا مواقع مطاعمهم ومطابخهم.

ومن بعد ذلك وثبنا الى الطريق الذي يخترق الجبهة. وكان يمر في واحد من الشعاب الجبلية الضيقة، وهو مزروع كله بالالغام. وانبغى علينا ان نتجنبه، والانتقال

الى السفوح الجبلية المؤدية الى البحر. وهذه السلسلة الجبلية هي صخور جرداء. وقد احسوا بنا ونحن على السفوح الجبلية، فاطلقوا صاروخ التنوير الاول. والتصقنا على الصخور، خلال ذلك، مدة ٢٠-٣٠ ثانية. ومر صاروخ التنوير الاول من جانبنا الى الجانب الاخر. ونزلنا الى الاسفل واستلقينا خلف صخرة. وعند ذاك اطلقوا صاروخ تنوير ثانيا فوق نفس ذلك المكان الذي كنا به قبل قليل.

كان امامنا منخفض مكشوف من الارض. وقررنا المجازفة بالقفز نحو هذا المنخفض، انتظارا لصاروخ التنوير الثالث، وحالما تحركنا راكضين، تعلق صاروخان آخران للتنوير فوق مكاننا القديم.

وتجاوزنا مضيقا آخر فخرجنا الى وهدة ضيقة بين شقين مقطوعين من الصخور بشكل عمودي. وعندما سرنا في هذه الوهدة، لاحظ كوفاليوف، الجندي البحري الاحمر، الذي سار في المؤخرة شخصا مراقبا على القمة اليمنى، كان يحاول متابعتنا. لقد ارتسم بوضوح على صفحة السماء، بحيث ان التخلص منه كان قضية اطلاقة واحدة. غير انهم كانوا قد حذرونا، بأن هذه هي عادة عندهم، وهي انهم يتظاهرون برؤية شيء، وان كانوا لا يرون شيئا فعلا. ولهذا فأنني قررت عدم قتله وسرنا في ظل الصخور واختفينا.

عند الخروج من الوهدة، شاهدنا بحيرة تعترضها.

وكـان الصبـاح على وشك الحلول علينـا . والضـوء يـأتي مـن اليمـين. ولغـرض ان لا تكـون لنـا ظـلال، قـررنـا تجـاوز البحـيرة عـلى سـاحلهـا مـن اليسـار. واتجهنـا الى اليســار وبـدأنا بتجـاوز البحيرة. وفي هـذا الوقت لاحـظ خـرابـرين وكـازلوفسكي اللذان سارا في المقدمـة، وجود المان. وكـان هـذا غير متوقـع. اننـا في البـداية سمعنـا اصواتـا ومـن ثـم رأينـا انـوار مصـابيـح يـدويـة وسكـاير، واخـيرا شـاهـدنـا الالمـان انفسهـم. واستلقـى افـراد المجمـوعـة كلهـم وشـرعـوا بالمراقبة.

كـان الالمان الذين لم يحسوا بعد بوجودنا، يدخنون ويتكلمون، بينما كنا نحن على بعد مئتي خطوة منهم. وكـل هذا كـان تحت ظل الصخور. وانهم، ببساطة، ماكان ليدور في خلـدهـم بـأننـا هنـا . فعنـدمـا كـانـوا يمـرون بمحـاذاتنـا وهـم يفتحـون اضـواء المصابيح اليدويـة، فأن انـوارهـا كـانـت تـتراقـص فـوق عيـوننـا عـلى الصخـور الـتي كنـا نستلقـي عنـدهـا . ولم يبـق للفجـر الا القليـل. والاعصـاب كـانـت متـوتـرة. وفي بعض الاحيـان كـانـت تـدور في الخيـال اشيـاء زائدة. وزحفنا متقدمين نحو الامام.

كـانت هناك ثلاثة مخابىء تقف ملتصقة بالسفح، وهي مكونة من الصخور. وقد بقي عندها حارس واحد، بينما ذهب الاخرون كلهم الى اسفل. وقررنا ان نعلن تماما عن وجودنا وان نشعل الضجة ونسير في وسطها.

اخذ الحارس ينادي علينا، ولكننا التزمنا الصمت.

ثم بدأ باطلاق النار. ولم نرد عليه. وفي ندائه الثالث قضينا عليه واندفعنا نحو المخابىء لأجل نسفها بالقنابل اليدوية. وفي لحظات انفجارات القنابل اليدوية كانت تلاحظ الالواح الخشبية المتطايرة والاحجار والظلال المتراكضة. وقد فتحنا النار على هذه الظلال، والقينا عليها سبع قنابل يدوية. ومن بعد ذلك فتحنا نيران الرشاشات على الهاربين. ومن ثم قمنا بقفزة نحو المخبأ الثاني ونسفناه عن آخره.

تصاعدت ضجة مخيفة، ولعلعت اصوات الرشاشات تتحدث من كلا الحاجزين الصخريين للوهدة ، ومن ثم انضمت المدفعية للمشاركة في الضجة.

تسلقنا السفوح الى اعلى في نفس ذلك الوقت الذي كانوا يمشطون به الوهدة، ظنا منهم اننا نتراجع عبر نفس الطريق الذي جئنا منه. كانت الرماية وحشية، غير ان الالمان كانوا يطلقون النار في الفراغ او على جنودهم.

لقد كانوا يفتشون عن مكان وجودنا بمسالك من خيوط الرصاص.

وفي خلال التراجع، جرح رئيس العرفاء فالوشينيوك.

وقررنا ان نتخذ في العودة طريقا مكشوفا للسير عبر ساحل البحر، حيث ان ظهورنا هنا أقل توقعا.

كان المشي على صخور الشاطىء عسيرا وزلقا بسبب الاعشاب البحرية عليها.

وتجاوزنا بسلام نقطة رشاش ونقطة مراقبة، وخوضنا بالماء لاجتياز الخليج الصغير الذي تحدث لنا عنه الضابط الملازم في اثناء مرافقته لنا.

صار الوقت مضيئا تماما عندما وصلنا الى خطوطنا الامامية للمراقبة. واستقبلنا الملازم مع الجنود، ورافقونا الى المقر، حيث قدموا الينا المساعدة هناك. لقد استقبلتنا هناك الراحة والشاي والدفء. وكذلك استقبلنا آمر الكتيبة، النقيب ماركوف الذي كان قد أهدى الينا صندوقا من القنابل اليدوية. وكنا قد استخدمناها ضد المخابىء، حيث القينا أربع عشرة قنبلة يدوية على واحد منها وسبعا على آخر.

ان الذين ذهبوا في عملية الاستطلاع هم: انا كاريوف، وخرابرين وفالو شينيزك وكازلوفسكي، وكافاليوف وفومين، وتشكماتشيف.

وقبل هذه العملية، اضطررت مرة، في عملية استطلاع اخرى، ان اسير خمسة ايام متغذيا بقطعتين من الشوكولاته. وقتلنا غزلان الرنة واكلنا لحمها بدون ملح، لأن الملح غير موجود. وكانت المسيرة موفقة.

* * *

انظر ص٣٩
رئيس العرفاء من الدرجة الثانية ستيبان.

ماكسيموفيتش موتوفيلين يتحدث:

.... في بداية تموز - يوليو انزلونا في منطقة زابادنايا ليتسو بواسطة سفينة كاسحة للالغام. وقد رافقنا النقيب دابروتين. وعند هبوطنا على الساحل، تودعنا وقبلنا بعضنا بعضا ثم ذهبنا. وكنا انا ونيكيتين.

في اليوم الاول، سرنا دون ان يلاحظنا احد. وفي اليوم الثاني قاموا يفتشون عنا بالطائرات، بحيث لا نكاد نتسلق ربوة حتى تأتي الطائرات على ارتفاع منخفض... ومن بعد ذلك صاروا يطلقون علينا نيران الرشاشات. واختفينا في السفوح الصخرية واتجهنا نحو اليسار. وهناك صوبوا علينا نيران الرشاشات ايضا. ان التحصينات كانت موجودة من جميع الجهات، وطعامنا على وشك النفاد. وبعدما اطلعنا على المنطقة عدنا راجعين.

لقد سرنا في العمق مسافة ثلاثين كيلومترا بعيدا عن الساحل. ورجعنا في اليوم الرابع. ولما رجعنا الى الشاطىء قمنا باعطاء الاشارات. وحالما التقطونا من الشاطىء خلدنا للنوم الى ان وصلنا الى بوليارني.

بعد بضعة ايام اخرى كلفونا بواجب اخر جديد. وفي هذه المرة سرنا كفريق يتألف من اثنين وعشرين نفرا، بأمرة الملازم الاول ليبيديف.

وعند الانزال قال: "ياموتوفيلين، انك ستكون النائب الاول للآمر. وفيما اذا حدث شيء فأنك المسؤول عن

الفصيل".

كانت في الطريق ربوة واحدة مثيرة للشك. وتقدمت نحوها مع اثنين من الرفاق. وكان هناك كل شيء هادئا، غير اننا لاحظنا وجود ثلاثة خطوط للهاتف. اخذنا فترة استراحة ودرسنا الطريق، فرأينا سيارة تسير عليه، بينما الخريطة التي لدينا، لا اشارة بها لهذا الطريق.

هبطنا. وتسلق الشبان اعمدة خطوط الهاتف، ولكنهم لم يفلحوا في قطع الاسلاك لعدم وجود مقص. وذهب سبعة افراد من قوتنا لاقتلاع الاعمدة بواسطة الاحجار، بينما بقي قسم اخر منهم على الربوة. اما انا مع ليبيديف فقد تقدمنا الى امام.

سأل ليبيديف يقول: من يتسلق العمود ؟ قلت له انا. وقمت بتثليم الخنجر واخذت اقطع به السلك مثل المنشار.

ومن بعد ذلك، قطعنا السلك، وانتزعنا ستة اعمدة وتقدمنا الى الامام. ورأينا على تل، جماعة من الناس. فأخذنا وضع الانبطاح، وارسلنا اثنين من الفتيان في المقدمة. وظهر ان هؤلاء الناس هم كثيرون. ولذلك قرر ليبيديف الرجوع.

رجعنا الى الخلف، فاكتشفنا وجود مخابيء وصناديق عتاد مدافع. وهكذا فأننا رجعنا.

في المسيرة الثالثة، سرنا بنفس افراد هذا الفصيل، والى نفس هذا المكان، عدا ان انزالنا صار بمكان آخر، ووسط ضباب كثيف. وعندما وصلنا الى الربوة

المعهودة، كان الضباب يغطي كل شيء. واخذنا فترة استراحة عند بحيرة صغيرة، حيث جلسنا واكلنا. وفجأة رأينا شخصا على الربوة وبعد ذلك بدأت تظهر حركة. وغطى الضباب الربوة، وتحركنا عبر منطقة مكشوفة ووصلنا الى الربوة نفسها.

رأينا على بعد بضعة امتار منا مخبأ، غفا الحارس عنده في نوم عميق. قال ليبيديف: " ياشباب خذوا الربوة" قالوا - "نأخذها".

زحفنا عبر اخدود حتى الربوة نفسها. وهرع من الخيمة نائب عريف فاطلق ليونوف النار عليه. وصرخت قائلا "القنابل اليدوية على الخيمة !" فقذفنا بها.

وقام الالمان بدورهم بالقاء القنابل اليدوية علينا، فاصابوا ريابوف في رجله وتحطمت بندقيته. اما انا فقد اصيبت خوذتي الحديدية.

شرعوا يطلقون علينا نيران مدافع الهاون من الربوات المجاورة.

لقد صرعنا على هذه الربوة ستة عشر المانيا ودمرنا وكرين للرشاشات وقال ليبيديف: "ياموتوفيلين، انت تقود الانسحاب، وأنا اقوم بالتغطية".

بدأنا نحن بالانسحاب. وحملوا ريابوف على الايدي. وكانت الاصابة في رأسه قاتلة. وكانت خسائرنا اولا ثلاثة قتلى، واثنان اخران في الانسحاب.

كان التراجع عصيبا. وقد وصلنا عائدين الى مكان

الانـزال قبـل الـوقـت المعـين، مما ادى الى ان يفتحـوا علينـا نـيران المـدافـع. وانتقلنـا الى السفـوح الصخـريـة حيث استرحنا ونمنا هناك.

قـام ليبيـديف بـارسالنـا الى الخليج، كمحاولة للعثور على زورقنـا. ولكـن الـزورق لم يكـن لـه وجـود، اذ هـو قـد ذهـب الى خلـيـج اخـر، متخفيـا مـن قصـف المـدافـع.

وفي الـوقت الـذي كنـا ننتظر فيـه الـزورق، عثرنـا عـلى مـنزل صغـير. ووجـدنـا فيـه ملحـا مـتروكـا. ولم يبـق علينـا الان الا ان نحل قضية اللحم، فاصطدنا غزالا بـالرصـاص، وشوينا اللحم مقطعا على اعواد الحطب.

ووصـل الـزورق، وقمنـا بـأخـذ الغـزال معنـا الـذي لم ينضج شواؤه بعد.

عدنـا الى بـوليـارني. ومـن هنـاك ذهبنـا الى مـورمـانسـك. استرحنـا هنـاك، ولكنهـا[1] في الحقيقة استراحة قصيرة، فهي كلهـا اثنتـا عشـرة سـاعـة. واستيقظنـا بعـدهـا وعـدنـا راجعين للذهاب في المسيرة الرابعة.

في هـذه المسـيرة الـرابعـة، خـرجنـا فـريقـا مكـونـا مـن ٨٠- ٩٠ شخصـا، بقيـادة دوبـروتـين. وكـان ليبيـديـف احـد المشاركين في هذا الفريق.

لقـد وصلنـا الى تلـك الـربـوة الـتي كنـا عنـدهـا في المـرة السـابقـة. وسمعنـا اصـوات لعلعـة رشـاشـات وبنـادق اوتـومـاتيكيـة. ارسلنـا نفـرا منـا للاستطـلاع. ولكنهـم لم يتبينـوا اي شيء. فتقـدمنـا نحن الى الامـام. وقبـل ان نصـل

الى المرتفعات، اخذنا قسطا من الراحة عند البحيرة. وهناك لاحظت وجود اناس، فاخبرت النقيب عن ذلك. فأرسلني للاستطلاع مع ستة جنود اخرين.

صعدنا نحن الى المرتفع، فتبين ان هناك يوجد مقر مراقبة لهم. وكان ذلك على مسافة عشرين كيلومترا من خليج زابادنايا ليتسو. ونشبت حالة تبادل اطلاق نار. واقتربنا زاحفين حتى مسافة اربعين مترا. واستلقينا خلف حجر: انا من جهة وديدينكو من الجهة الاخرى. وفجأة سمعت صوتا، وطارت الخوذة. نظرت فأذا ديدينكو مقتول. اخذت بندقيته الاوتوماتيكية وعتاده، وبعثت بخبر عن ذلك.

تجاوز الفريق هذا التل بحركة التفاف. وعثرنا على بندقية متروكة واثار دم. اما المراقبون الالمان فقد اختفوا.

اخذوا يطلقون علينا النار من مدافع الهاون والرشاشات. واستلقينا على الارض. وصارت انفجارات القنابل تقترب منا شيئا فشيئا. لقد ارادوا الالتفاف علينا. غير اننا نجحنا بالافلات. واصيب واحد منا فحملناه معنا على قماش خيمة.

وبموجب أمر النقيب، فأني قدت الرجال الى الخلف بأقصر الطرق. وكنا احد عشر شخصا انفصلنا عن بقية القوة. وعندما اجتزنا الصخرة الشاقولية، اطلقوا النار علينا من عدة جهات. وهنا استدرنا وشرعنا نبحث عن

افراد القوة الاخرين. وخرجنا الى وهدة فلم نجد احدا، وصعدنا على ربوة فلم نعثر على احد. وانحدرنا وراء الربوة فوجدنا حطام طائرة "يونكيرس" سقطت قبل قليل، والمنطقة من حولها محترقة. وبما ان الامطار كانت قد هطلت يوم امس، فهذا يعني ان الطائرة قد سقطت في هذا اليوم.

وصلنا الى الخليج حتى مكان الانزال. وسمعنا هناك صوت طير الفاختة ينادي. كان الأمر مدهشا في البداية، اذ ان المنطقة مكشوفة، فمن اين هذه الطيور ؟ وتبادر الى ظني ان هؤلاء فلنديون على الارجح. وبقينا ننتظر الزورق مدة اثنتي عشرة ساعة بكاملها.

قضينا عدة ايام في بوليارني، وخرجنا بعدها في المهمة الخامسة. وجرى انزالنا من زورق بحاري عند بيوت مهجورة. ورأينا غزالا مشتبكا بشبكة صيد عند الضفاف. ورغم ان الصخور جرداء في هذه المنطقة الا انه جاء يتجول بها. وسحبت سكيني ومزقت الشبكة، فقفز الغزال متحررا. لقد كان جائعا وهزيلا.

كانت القوة مؤلفة من ثمانين شخصا فقط. وسرت انا مع مجموعة من سبعة افراد بقيادة الملازم الاول كلمينكو. وكان علينا ان نجتاز مسافة ثلاثين كيلومترا في العمق، لنتوحد مع بقية القوة عند رأس بيكشويف.

قمنا نحن باستطلاع المنطقة. ومن بعد ذلك بعثوا الينا بشخصين للاتصالات، ونقلا الينا بأنه سيشن هجوم عام

على رأس بيكشويف في الساعة الثامنة مساء.

تقدمنا ابعد من العمق، لأجل ان نطوق الفلنديين تطويقا تاما. وعندما اقتربنا من الساحل، وصل الى سمعنا مايشير الى ان المعركة قد نشبت هناك. ومن ثم رأينا اربعة اشخاص يركضون. واستطاع ثلاثة منهم الهرب. بينما اردينا الرابع قتيلا من على بعد ستمئة متر.

كان على ربوة في الامام يدور اطلاق نار. فاطلقنا نحن طلقة تنوير وردوا علينا بطلقة مماثلة، مما حدا بنا الى الالتفاف من حول الربوة. وقطعنا على الفلنديين الطريق نحو الغابة، وطوقناهم في منطقة مستوية.

تحركت انا مع بعض الرجال نحو اليسار قليلا، تحاشيا للربوة، بينما ارسلنا ثلاثة منا نحو الساحل، لاننا كنا قد شاهدنا بعض الفلنديين يتراكضون منفردين بلا هدف في الماء.

سيطرنا على ربوة صغيرة، وبقيت صامدة امامنا، الربوة الرئيسية. وهجم الفلنديون على اولئك الثلاثة الذين انطلقوا نحو الساحل. وصرع واحد من رفاقي الملقب بوروفسكي. وكان فتى رائعا. وهو رغم اصابته قتل اثنين من الفلنديين بقنبلة يدوية.

اما نحن فقد زحفنا كلنا نحو الربوة . وفي الوقت الذي تأهبت فيه للركض في منطقة مكشوفة، حيث لم يبق امامي سوى بضع خطوات، واذا بي احس بضربة

في رجلي. وعندها بقيت ازحف المسافة الباقية، الى ان سيطرنا على الربوة.

بعثت بخبر عن اصابتي بجرح. فأمروني بتضميد الجرح. وضمدته. وفتشنا المخابيء التي استولينا عليها وانعشنا انفسنا بكحول شنابس الذي كان موجودا فيها.

جلس عند المخابيء سبعة جنود أسرى وضابط واحد. وافاد الجنود بانهم أرادوا بانفسهم الاستسلام، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك خشية من الضابط. وتمدد هنا الى جانبهم ضابط اخر مقتول.

وفجأة قيل لي: ان ليبيديف قد قتل. ولكني ماأردت ان اصدق ذلك. وقال لي مسؤول التوجيه السياسي: "هيا بنا نلعب شطرنج"، فقد وجدنا عندهم شطرنج وهارمونيا موسيقية شفاهية. قضينا الليل بين الصخور. وفي الصباح انسحبنا تحت غطاء من النيران، نحو الزورق. لقد زحفنا زحفا وسحبنا الجرحى معنا. وقام زورقنا وزورق بحري حربي، بتسهيل تراجعنا، وذلك بتوجيه نيرانهما على العدو فوق التلال. وانتقلنا نحن الجرحى سويا مع الاسرى اولا، الى الزورق البحري الحربي بواسطة القوارب المطاطية.

وفي المهمة السادسة خرجنا الى العمق الفلندي مسافة ١٧٥ كيلومترا. وسرنا على الاقدام مدة ستة ايام، والسير في الليل فقط. وماكنا نتحرك في النهار حيث كنا نأخذه فترة استراحة. كان المطر يهطل بلا انقطاع، وكنا

كلنا مبللين تماما. ولم نشعل نارا، وبقينا نقتات على الغذاء الجاف البارد. وكانت المنطقة منطقة غابات ومستنقعات، واجتزنا خلالها اربعة انهار. ولم نجد مكانا نجفف به انفسنا، حيث ان المستنقعات من جميع الجهات. وسقط نائب العريف داريغين في المستنقع. وصاحوا به: "انزل البندقية وقف عليها بقدميك!" ولكنه قال: "لا يجوز ذلك فالبندقية قناص". وهكذا راح يغوص دون ان يطرح بندقيته، الى ان اعطوه بندقية اخرى.

وصلنا الى النقطة المعينة، وبعد ان نفذنا المهمة عدنا راجعين. وانهم، ولو كانوا يتصيدوننا صباح مساء، وفي اثناء الطقس السيء، الا انهم لم يعثروا علينا.

وفي اثناء المسيرة السابعة انزلونا في منطقة عمليات حربية. وقد مرت بدون وقوع مجابهة، على الرغم من ان القطعة الالمانية العسكرية كانت بجانبنا.

اجل لقد رأينا مجلاتهم. وعلب الطعام، وشاهدنا حوض حمام مصنوع من الخشب المتفحم. وسرنا على مرأى من الالمان عمدا في الجانب الثاني من النهر بعد ان ادرنا الخوذات على طريقة القبعات الفلندية، اعتمادا على انهم لايمكن ان يتوقعوا ذلك بأية صورة من الصور. ومن ثم، وبعد ان اجرينا جميع التحريات، سرنا نحو الساحل تحت مطر مدرار، وصرنا نعطي الاشارات من فوق الصخور. وكنا نسمع من هناك هدير حركة الزورق فنعطي له الاشارة، ولكنه لا يقترب ولا يدنو.

واخيرا سمعنا من ينادي علينا بالبوق: "هيا الى الساحل". حاضر "الى الساحل !". ولكننا كنا حتى هذا الوقت في حالة من التوتر والشجار. وكنا مبللين تماما ومتجمدين من البرد. ولو كان الزورق قد تأخر ولو ربع ساعة اخرى لأنبغى علينا ان نقضي ليلة اخرى في الصخور متوارين حتى الليل التالي.

وعندما سرنا عائدين الى بيوتنا، كنا نتمنى ان يكون الظلام اشد سوادا. ولكن من اين يتسنى ذلك وهنا الهالة القطبية الشمالية.

* * *

انظر ص٤٢

ميخائيل ريغناتوفيتش كومبانيتس الهارب من اسر الالمان يتحدث:

.... بعدما احصونا كلنا مساء، زحفت انا مع تشيبيل نحو هذه الغرفة المهجورة المحفورة في الارض، وحفرنا الرمل الندي باظافرنا. وتمددنا، بعد ان رجونا من اثنين من الرجال الآخرين ان يهيلا علينا من فوق كل مايطمرنا. وقاما بسترنا بالالواح والتراب. وبقينا في حالة استلقاء لمدة ساعتين. وتخدرت ايدينا من الرطوبة. وكان الهدوء مسيطرا فزحفنا وجلسنا.

وعندما خيم الظلام، قدرنا بأن الوقت قد حان. وقال

تشيبيل: "هل انت عينت الخطة ؟". انني ببساطة القيت نظرة على جميع الجهات التي يكون فيها الالمان اقل من غيرها. قال هو: "كلا لا اذهب. اننا سنهلك". قلت له: "اننا قد اجتزنا المنطقة الاشد خطورة، فما معنى كلامك هذا ؟". قال هو: "حسنا".

اخذنا نزحف ونزحف بمحاذاة سدة ترابية عبر مستنقع واسع. ومن ثم اتجهنا بالسير نحو الشمال الشرقي. وتسلقنا مرتفعا، فرأينا بصيص انوار بعيدة. ولكننا ماكنا نعرف الى اين يجب ان نتجه. وقررنا انتظار شروق الشمس. فمن اين ستطلع، فهذا يعني اننا يجب ان نتوجه الى هناك تماما. غير ان النوم قد اخذنا، ولهذا سرنا مباشرة باتجاه الشمس نحو الشرق. وهكذا بقينا نمشي مدة يومين ونصف. لقد واصلنا السير الحثيث بلا توقف نحو الشرق حتى وصلنا الى نهر، فسرنا بمحاذاته، وعبرنا النهر فوق جذوع خشب. وشاهدنا غرفة مهجورة محفورة بالارض. وعثرنا فيها على رسائل وعلب طعام، وبحثنا فيها على مايؤكل، فلم نجد شيئا.

ومشينا مسافة ثلاثمئة متر اخرى. وكنا نسمع تقطيع خشب بالطبر. فادركنا انهم من اولئك، لأن جماعتنا ليس لديهم من طريق الى هنا. وسرنا متحاشين اياهم جانبا مدة ساعة، ثم عدنا نسير متجهين نحو الشرق. وعبرنا نهرا آخر ايضا. وكانت هناك مواضع تناثرت مابينها بقايا من طعامنا وطعام الالمان. ووصلنا الى مخبأ،

وسمعنا كلاما باللغة الالمانية. ابتعدنا عنه. وعثرنا في احد المواضع على قنبلة يدوية لكل منا، فقلنا انا الان لن نستسلم حتى الموت. وواصلنا السير الى امام نرأينا على النهر، يتمدد جندي احمر مقتولا.

وعبرنا النهر، فرأينا دربا، وعليه سلك رفيع اسود نقطعناه بواسطة حجر، ومشينا في الغابة بمحاذاة الدرب. وعثرنا على ساعة بافل بوريا ممول صاحب الجلالة.

سرنا بمحاذاة الدرب وبقينا نمشي اياما بطولها. وتحولنا من هذا الدرب الى درب اخر جديد، يبدو انه طريق مسلوك من الناس. قلت: "انتبه، يجب الان ان تفتح عينيك". ولكنني رأيت فجأة حرس الحدود. جاؤوا الينا وسلموا علينا، ثم أعطوا كل واحد منا قطعة من الخبز الجاف وقالوا: "ها اننا نتوجه بالذات للالتحاق بفوجكم.."

* * *

أنظر ص٧٣

نازع الالغام آيت مقام بيت آريشوف يتحدث:

... أمرني آمر البطارية: " انصبوا رشاشة ثقيلة على السفح". حسنا. وقمت بارتداء المعطف الخفيف وتوجهت الى الملازم وقلت له: انني احمل الرشاشة وانت تسحب

الفوهة، اما الاخرون فيدفعون العربة. قال الملازم: "حسنا، ولكن، انتبهوا فهناك القناص، و"طير الفاخته*.
وصعدت بمفردي والعربة من خلفي ومعي الفوهة، وبقي الاخرون ينتظرون. صعدت لوحدي اتخبط نحو الامام.

وعند الانسحاب حملنا عبر النهر كلا من الفوهة وجندي جريح على الاكتاف.

وارسلوني مرة انصب اسلاكا شائكة امام انف الاعداء مباشرة. وكانوا يطلقون علينا النار باستمرار، من الراقم مئة واثنين وعشرين. وحملنا بايدينا الاطواق والاسلاك الشائكة، لأنه لا طريق هناك لمرور الجياد. وكنت اربط الطوق في داخل البكرة، ومن ثم اسحب السلك بيدي فوق الجبل.

وعندما اطلق العدو نيران مدافع الهاون علينا، استمر الجنود في مد الاسلاك الشائكة، بينما تقدمنا نحن الى الامام مع رشاشة. وعندما كانوا يطلقون النار على افرادنا كنت اطلق النار على الالمان.

ومن بعد ذلك نقلت اثنين من مدافعنا الرشاشة المحمولة امام الاسلاك الشائكة، وقدمت المساعدة الى جنودنا الشباب في عملية نصبها.

وفي احدى المرات، انجزنا اقامة الهدف في قاطعنا،

---

* القصد اصوات الخداع.

وذهبنا مع المقاتلين لمساعدة الجيران، وشبكنا هناك الاسلاك الشائكة على الاوتاد التي كانت جاهزة. وكنت قد قلت لهم: كل مابيدنا هنا، اربعون دقيقة، يجب علينا فيها ان نعمل. فهيا بنا لنبدأ. وننتهي. وقد أجابوني - هيا بنا. وهكذا انجزنا العمل.

لقد عمل بشكل جيد كل من بيلوف وفرولوف وتكاتشينكو. كنت اقول لهم - احنوا اجسامكم عندما يقصفون بالقنابل. ولكنهم لا ينحنون. انهم على كل حال يقولون: كيفما تنحن فلن تكون أقل عرضة للرؤيا من هذا.

اني عندما ستنتهي الحرب سأعود الى اهلي واتزوج. واني سأرافق زوجتي حتما الى هنا في الشمال. لقد عشقت الجولات في الجبال. واني ما أن اقف على الواح التزلج على الثلج حتى انسى الحنين الى الخيل...

* * *

أنظر ص٨٢

نائب العريف المدفعي الكسندر ايفانوفيتش دانيلوف يتحدث:

.... عملت بالمدفعية بمهمة كبير الاستدلال بالصوت. وفي اثناء المعارك في موستا- تونتوري، ذهبت الى الخط الامامي للجبهة، وانتميت الى حراسة قتالية بصفة آمر

فصيل.

وكنت قد تسلمت امرا بتنفيذ عملية هجوم. وكان بأمرتي عشرة اشخاص. اما نحن كلنا فكنا حوالي ثلاثين. والواجب المكلفون بتنفيذه، هو طرد العدو من على احد التلال في موستا- تونتوري، واتخاذ مواقع دفاعية هناك.

تحركنا ليلا في الساعة الثانية عشرة، وعبرنا ركضا هضبة صخرية، وكنت انا وفصيلي اول العابرين ركضا. واخذوا يطلقون النار علينا ويقذفوننا بالقنابل اليدوية.

وتعرض بوريسلافسكي، احد افرادنا، الى اصابة. وصار يصرخ: "يارفيقي الآمر". ولكني قلت له "انت اهدأ". واصيب الكثير من جنودنا وقتلوا انذاك. وبلغ عددهم اثنى عشر جنديا من ستة وثلاثين.

لقد قذفت الكثير من القنابل اليدوية. وبعد ذلك وصلنا كلنا الى الهدف. وقد اصابتني شظية قنبلة يدوية في الجنب ولوح الكتف. ولكني بقيت هناك بعد أن ضمدوني.

والان كنا سبعة عشر شخصا فقط. وارسلنا ستة منا الى جهة اليسار لأجل منع الالتفاف من حولنا. وبقيت أنا آمرا للأشخاص العشرة الباقين.

وفي الساعة الخامسة مساء من اليوم الثلاثين، شن الالمان علينا هجوما. وكنت في خلال النهار قد جمعت عددا كثيرا من القنابل، وكومتها بالقرب مني، وعددها ستون قنبلة. ووضعت قرب يدي ثلاث بنادق. وعندي كانت بندقيتان

اخريان لقتيلين هما العريف، وجندي يدعى تيريتسف.
ورغم ذلك فأن الالمان يزحفون وصاروا على اقرب مايكون منا مسافة. انني شخصيا، كنت انتقيت القنابل اليدوية من نوع الحجم الكبير، لأن الاخرين لا يستطيعون ان يقذفوا بها بعيدا، وبذلك تكون بلا فائدة. اما انا فاقذفها الى ابعد مسافة ممكنة. ووزعت القنابل اليدوية من حولي، لأجل ان لا أنسف أنا بانفجار واحد.
- الى اية مسافة تقذف انت القنبلة ؟
- الى حوالي اكثر من خمسين مترا. الى ثلاثة وخمسين، والى ستة وخمسين، وهذا في الظروف الآمنة. اما هنا فاظن انني اقذفها الى مالايقل عن ذلك.
وبدأوا هم يقذفوننا بالقنابل اليدوية ويصلوننا بالرشاشات ومدافع الهاون. وكان من خلفنا منحدر، ومن امامنا هضبة صخرية والالمان ايضا. وقد وقفت انا بين صخرتين. ورغم انهما مرتفعتان الا انهما كانتا تصلان الى منتصف صدري . اما الجنود فقد اخذوا وضع الانبطاح بالقرب مني. وشرعت في قذف القنابل اليدوية. وشرع افراد جماعتي في قذف القنابل. وكانت ساحة المعركة في حدود ثلاثين مترا فقط. وان الواجب المكلف به هو ان اطرد الالمان منها. لقد القيت عليهم كل ما كان عندي من القنابل، فقام الجنود يهيئونها لي في الاسفل ويناولوني اياها.
وبصورة عامة ، فأنني لم اشاهد اي الماني يقف على

طولَ قامته، لأنه لا يكاد ينهض الى نصف طوله حتى اقذف عليه قنبلة يدوية، وبعدها يكون لا وجود له. كان هذا في البداية. اما فيما بعد، وبسبب الدخان الكثيف المتصاعد من انفجارات القنابل اليدوية، فأنني ماكنت أرى اي شيء. ولهذا فأنني حالما اسمع قرقعة الترابيس هناك عندهم امامي، كنت اقذف عليهم قنبلة، وكذلك عندما تخطف قنبلة يدوية منهم فوق الدخان. وفي هذا الوقت نفذت ذخيرتنا من القنابل اليدوية تقريبا.

وأصبت بجرح آخر ثانية، في اصابع يدي اليمنى، وفي خدي وعيني. وصارت عيني تنزف دما، ولم تعد ترى شيئا. وهنا هدأت النيران بعض الشيء، فتحركت نازلا الى الاسفل بضعة امتار نحو الآمر. "قلت - ماالعمل ؟ فليس عندنا ضماد، واستهلكت ماموجود منه عندي، وان يارسلافسكي هو الذي ضمدني". وقال الآمر: "اذهب الى المضمد". وهبطت الى هناك وساعدني الجنود في التضميد وسقوني الماء لأني لم اشرب منذ مدة طويلة....

* * *

أنظر ص١٠٩

حرس الحدود الملازم الثاني بافيل ايليتش ياكوشيف يتحدث:

.... في بداية اول استطلاع لي فتشت عن منطلق نحو الجسر وعينت اتجاهه.

تسلقنا مرتفعا، ثم تطلعنا، وتحركنا الى ذلك المكان الذي كان يرى منه موقع الجسر واتجاهه، حسب فوانيس السيارات، وانعطافات انوارها، بل وحتى كان سياجه يرى في الضوء لمحا لعدة ثوان.

عدت من هناك وقدمت تقريرا، ثم تحركت على نفس تلك الخطة، في مقدمة المجموعة كلها. وتوقفنا في نفس ذلك المكان الذي كنت فيه، وشرعنا نتوزع. صدر لي الأمر بالتحرك الى يمين الجسر، وبتدمير الحامية العسكرية، ان وجدت هناك، ولكن بشرط ان يكون التنفيذ ليس قبل نسف الجسر وانكشافنا.

زحفنا بمحاذاة طريق، على حاشية حرش من الاشجار القصيرة، وشاهدنا ان هناك على الطريق يقف ثلاثون جنديا المانيا، وكلهم في اردية معتمة كانت واضحة بصورة جيدة على صفحة الثلج، وكأنهم بدون سلاح. وتمددنا عند الحاشية على مسافة عشرين مترا منهم، وبنادقنا على يسارنا والقنابل اليدوية على اليمين. كان كلامهم مسموعا، وهو محض ثرثرة. كما انهم كانوا في نفس الجانب الذي نحن فيه، دون ان يتجاوزوا الطريق. وقبعنا ننتظر. ومرت دقيقتان. وهنا سمعنا اصوات اطلاق نار على الجسر. وتحرك الالمان. وبدأت اثنتان من رشاشاتهم تطلقان النار من مخابىء ارضية نحو الجسر.

اصدرت الامر قائلا : "فصيل هيا ورائي الى الهجوم! "هورا*". وقفزنا، والقينا عليهم القنابل اليدوية مباشرة، ونحن راكضون. وسقط بعض منهم، واجتاز الاخرون الطريق ولاذوا بالحرش ! وطرحنا منهم تسعة اشخاص. وعندما قفزنا الى ذلك المكان الذي كانوا يقفون فيه، رأينا مخابيء ارضية، مخفية ومموهة، في تلك الجهة التي كنت قد جئت اليها من قبل. وظهر هنا، انها عربات صغيرة ذات مصابيح مضيئة. ولاح لنا كيف انهم بداخلها يلبسون القبعات المعدنية ويتسلمون السلاح. كما ان بعض الالمان فتحوا علينا النار. من خلال النوافذ.

وصرخت آمرا: "فصيل الى الوراء !". وركضنا باندفاعة واحدة. وصرنا بالقرب منهم. وقلت: "الرمي - قنابل يدوية !".

ضربناهم بالقنابل اليدوية مدة عشرين دقيقة واستمر اطلاق الرصاص من احدى العربات. وقام نائب العريف ليخونوسوف، وجندي الجيش الاحمر بوغاتشيف بالقاء قنابل يدوية في انابيب المداخن فأنطفأ الضوء وتعالى صراخ وانين. "ايها الروس انا نستسلم! حرام هذا الذي تفعلونه !". وتوقفنا لمدة دقيقة عن اطلاق النار. كان كل شيء هادئا باستثناء

---

* صرخة تشجيع روسية تتعالى في الاحتفالات وماشابه ذلك.

الانين. وبالقرب من العربات وقفت دراجة نارية وسيارة ضخمة هي ورشة متنقلة. وقذفنا عليهما القنابل اليدوية واطلقنا الرصاص الخارق للدروع.

وصدر الأمر بوقف اطلاق النار. وبدأنا بالانسحاب. وهنا تناقلوا الأمر حسب تسلسل المسيرة، بأن يبدأ الانسحاب بصورة مشتركة. وتراجعت جماعتي كلها. وبقيت انا مع عشرة رجال لتغطية الانسحاب. وفجأة فتحوا علينا النار من رشاشة ثابتة واخرى كبيرة الفوهة. وكان ينبغي علينا الانسحاب فوق سفح صخري مكشوف مباشرة. فأمرت بوقف الانسحاب وفتح النار. وفتح ليخونوسوف نيران رصاص خارق للدروع على الرشاشتين ودمرهما كليهما. وبعد ذلك واصلوا اطلاق النار علينا من البنادق فقط، اضافة الى مسدس اوتوماتيكي كان يطلق النار علينا ايضا. واستأنفنا الانسحاب مرة اخرى. وصار الالمان يطلقون علينا من ثلاث جهات طلقات تنوير كاشفة. واطالة للطريق سرت في حركة التفافية. وقطعت مسافة ثلاثة كيلومترات وهم يتابعوننا من على بعد خمسمئة متر، بينما يقوم جنودي باطلاق النار وهم سائرون. ثم تأخر الالمان وانقطعت الرماية.

وبواسطة البوصلة خرجت الى نقطة التجمع، ومن ثم في الساعة السابعة صباحا، وعلى ضوء الفجر الشاحب لحقت بجميع افراد الحملة...

* * *

أنظر ص١٠٩

حرس الحدود نائب العريف ياكوف الكسيفيتش ليخونوسوف يتحدث:

.... عند اقترابنا من المخابىء الارضية، أمرني ياكوشيف بالتقدم مع الفصيل من جناح اليسار الى الامام. وعندما قفزت الى يسار المخابىء الارضية وتطلعت، فرأيت دراجة نارية امامي، واستكثرت عليها قنبلة يدوية، فاطلقت عليها نيران البندقية الاوتوماتيكية، اى بحوالي عشرين طلقة. ومن ثم قفزت نحو البيوت التي فيها الافراد وتسمع منها اصوات، والقيت قنبلة يدوية واحدة على كل بيت من البيوت الثلاثة. ونشب تبادل اطلاق النار من جهتي اليمنى. فذهبت الى هناك. وقال لي الآمر ان اسدد النار على الرشاشة. ومن بعد ذلك سمعت فجأة من المخبأ الارضي الذي ورائي خشخشة شيء ما، فقذف جندي قنبلة يدوية على المخبأ ولكنها لم تصل اليه. وخرج شخص من المخبأ الارضي. فقلت متصورا "ماذا لو ان هذا من جماعتنا ؟" فصرخت: "كلمة السر". ظل ساكتا. ففتحت عليه صلية رصاص. انحنى ذلك الشخص ولكنه ظل واقفا، فاردفته بصلية اخرى وعندها سقط على الارض.

بعد هذا صدر الينا الأمر بالانسحاب. وشرعنا بالانسحاب. ولكنني أنشغلت بملء المخزن فتأخرت. وعندما اخذت اتراجع واتطلع، رأيت انهم مايزالون يطلقون النار

علينا من الخلف. فعدت الى هناك، واذا بي ارى اثنين من جنودنا يطلقون النار من حالة الامتداد. فقلت لهما: "هيا بنا والا ستضيعان". ومن ثم عثرت على جنديين آخرين. وصرنا خمستنا اخر المنسحبين. ورحنا نتخبط من هذه الوهدة الى تلك، بعد أن ضيعنا الطريق. وكانت السماء ملبدة بالغيوم. غير ان النجم القطبي قد ظهر بعد نصف ساعة، وعندها لزمت الاتجاه الامين. وفي خلال الطريق مررت مرتين من امام انف مجموعتين من الالمان الذين كانوا يطاردوننا.

وتكشف الوقت، عندما وصلنا الى النقطة المعينة للتجمع، بيد اننا لم نجد احدا هناك. واخذنا نتطلع من حولنا فسمعنا صفيرا متفقا عليه. واجبناهم بنفس الصفير، ومن ثم سرعان ما التأم شملنا مع جماعة الملازم ياكوشيف كلها....

أنظر ص١٠٩

حرس الحدود ليونيد ايفانوفيتش ترونين يتحدث:

.... عندما خرجنا كان الجميع مستعجلين للقتال، ومن ضمنهم انا ايضا كنت مستعجلا. وتحدث لنا مسؤول التوجيه السياسي، عن مهمتنا، وكيف يجب علينا ان نقاتل. واستوعب ذهني كلماته كلها. وكنت انا احمل رشاشة. وعند اقترابنا، وكنت موشحا بالقنابل اليدوية حسب الاوامر، فحصت قرص الرشاشة: وكان الرقم الثاني

معي الجندي بيكوف من حرس الحدود.

وتحركنا الى مسافة اقرب. وصرخ احدهم "هورا". وعلى الرغم من ان "هورا" لا يصرخون بها بصوت واطيء، الا ان احدهم صرخ بها بهذه الصورة، واذا بنا نندفع كلنا الى الامام ! صارخين "هورا". وركضت انا مسافة خمسة عشر مترا وانبطحت على الارض.

قذفنا القنابل اليدوية على البيوت التي امامنا، وفتحت نيران الرشاشة على الالمان الذين كانوا يسيرون بالقرب منها. لقد نفد عندي رصاص القرص كله، ولا وجود قربي للجندي، العدد الثاني. ونادى قائد القوة صارخا "يا بيكوف هيا غط الانسحاب". وصرخت: "ليس عندي قرص عتاد" - "بيكوف، اين انت اين انت ؟" - "انا هنا". وزحف الجندي ، عدد- اثنان ، نحوي واخذت منه القرص، وباشرت بتغطية الانسحاب. وراح الجنود ينسحبون. وبقيت اطلق النار الى ان لم يبق احد بالقرب مني. وبعد ذلك حملت الرشاشة على كتفي وركضت في اثر الشباب. وبعدما لحقت بهم وقطعنا مسافة خمسمئة متر، فتحت علينا النار من مكان فجأة، اربع بنادق اوتوماتيكية. واخذت وضع الانبطاح، بينما تقدم الجنود الى امام، لأرى من اين يطلقون الرصاص علينا. ومن مراقبتي لخيط الرصاص قدرت ان النيران تطلقها اربع بنادق اوتوماتيكية من مخبأ ارضي. واخذت اطلق النار عليها بصليات قصيرة ولكن ذلك لم ينفع في

اسكاتها. فغيرت موقعي، حيث استلقيت، كما اتذكر، تحت شجرة بتولا صغيرة كانت بالقرب مني، وباشرت باطلاق النار مرة اخرى.

كفوا عن اطلاق الرصاص. ومن ثم فتحوا النار مرة اخرى فجأة. واذا بهم يحصدون جميع الاغصان التي فوق رأسي. وسقطت الاغصان فوقي. والتزمت الهدوء تماما وفكرت: بأنني لابد ان اصطادهم في نهاية المطاف. وجهزت القنابل اليدوية الى جانبي اذ وضعتها تحت يدي جاهزة لانسف بها نفسي في حالة الوقوع بالاسر.

كنت اراقب، واذا بباب المخبأ الارضي ينفتح فجأة وفي داخله ضوء. وكنت ارى بوضوح في الضوء، كيف ان شخصين قد وقفا بالباب. وفتحت عليهما صلية رصاص طويلة فسقط الاثنان فورا. اى انني باختصار، قد قضيت عليهم. واغلقوا الباب من هناك مرة اخرى ودفعوا الجثتين واستأنف اطلاق النار، الاثنان الاخران اللذان بقيا على قيد الحياة. وظلا يطلقان الرصاص ويطلقان الى ان توقفا.

وتركت انا رشاشتي عند شجرة البتولا وحملت قنبلتين يدويتين. وفي البداية ابتعدت جانبا، ومن بعد ذلك ركضت نحو المخبأ الارضي من جهته الاخرى، بينما هما استأنفا اطلاق النار بذلك الاتجاه الذي تركت به الرشاشة. وركضت نحو المخبأ الارضي وانزلت القنبلتين اليدويتين من خلال المدخنة، واحدة بعد الاخرى. وتحطم كل ماكان هناك وطار

الباب والنوافذ وتمزق السقف من فوق. وقد هلك كل من في الداخل. اما انا فركضت عائدا الى الرشاشة، وانتزعتها من مكانها ومشيت وراء جماعتي، ولكني لم اجد اي واحد منهم. وبعد خمس عشرة خطوة، خرجت الى الطريق، فأذا بي ارى سيارة تسير ومصابيحها مضاءة. وفتحت عليها النار فانحرفت السيارة جانبا، ولكن فوانيسها ظلت مضيئة، واخذ الاشخاص الذين بها يقفزون من ظهرها المغطى. وهنا اخذت رشاشتي وركضت.

وعندما تقدمت الى الامام رأيت وهدة صغيرة، فمشيت من خلالها حتى الجبل. واضطررت الى القيام بحركات التفاف قليلة، بسبب وجود الالمان في كل مكان، وفي الاخير التقيت بواحد من حرس الحدود. واخذ هذا يعنفني: "لماذا لا تنظر الى الخلف؟ ألا ترى أننا لم يبق منا الا نحن الاثنان"، غير اني لم افهم اي شيء. لكنه كرر علي كلاما آخر. وقلت له: "سواء نظرت الى الخلف او لم تنظر فلا يوجد احد هناك". قال هو: "انني سرت في المقدمة دون النظر الى الخلف. اما هم فقد استداروا في مفترق الطرق وذهب الجميع بدرب آخر".

تهنا وقتا طويلا. وكان المشي صعبا بسبب الثلج الذي كان يعيقنا مرة ويتركنا اخرى. ثم وصلنا الى بحيرة، ونظرنا فاذا بآثار عليها. ولكننا لم يتسن لنا اللحاق بجماعتنا الا في مساء اليوم التالي. وقد تخبطنا لوحدنا في غابة طول النهار. اما هناك فقد اعتبرونا في عداد

المفقودين في القتال. وبدأت قدماي تؤلمانني ألما شديدا، بسبب الصقيع الذي اصابهما، ولكن سرت رغم ذلك مع الاخرين.

انظر ص١١٢

عنصر الاستطلاع نائب العريف ايفان فاديفيتش دانيلوف يتحدث:

... تحركت السرية. وسارت في البداية خلال الاحراش وفوق الصخور، ومن ثم وصلنا الى مشارف مفتوحة تؤدي الى الجبال.

وانذاك سار في المقدمة اثنان هما انا وجندي الجيش الاحمر فولكوف. وصعدنا الى فوق، لغرض تدمير رشاشة كانت تحول دون اعطاء المجال لنا للنهوض. ومن حجر الى حجر اجتزنا بصعوبة عبر الشقوق، وزحفنا حتى النقطة. وبواسطة القنابل اليدوية، ابدنا اربعة المان عند الرشاشة. بينما فر ثلاثة اخرون. واصبنا واحدا منهم على الطريق. وبقينا على المرتفع الجبلي وحطمنا الرشاشة.

كانت عندنا بندقيتان اوتوماتيكيتان. واخذنا وضع الانبطاح على المرتفع الجبلي، وشرعنا بالمراقبة لكي نمنع عليهم التقدم نحونا. واقمنا لانفسنا موضعا من الصخور واخذنا نراقب من خلال الفجوات. ولا حاجة هنا للمسحاة، فالموضع يشاد هنا من تكديس الاحجار على

بعضها فقط.

في البداية اخذوا يطلقون علينا نيران البنادق والرشاشات ومن بعد ما رأوا ان ذلك لا يجدى معنا، بدأوا يقصفون المرتفع الجبلي بنيران مدافع الهاون. ولقد قصفوا المرتفع كله اذ صبوا عليه ثلاثين قنبلة.

وذهب فولكوف الى مجموعة اخرى لاقامة الاتصال. وبقيت انا في مكاني. وفي الامام كانت توجد وهدة صغيرة اخرى، ومن بعدها مرتفع جبلي اخر اكثر ارتفاعا. وان الالمان كانوا هناك. وهم الذين كانوا يطلقون النار علي. ولكن اي الماني حالما يظهر في الامام اطلق عليه زخة رصاص فيخر صريعا فورا ولا يظهر من بعد ذلك.

وبقيت يوما كاملا على المرتفع الجبلي، ولم اغادر مكاني حتى جاء البديل.

ومن بعد ذلك كلفوني بمهمة اصطياد "لسان"*. وما كدنا نزحف حتى نشبت معركة بالقنابل اليدوية. ولقد سمعنا الاصوات وواصلنا الزحف الى الامام. اما العلامة على بدء المعركة فهي اطلاق رصاصتين من مسدس. ومضينا في التقدم، ولكنهم كانوا يقذفوننا بالقنابل اليدوية. وهنا قام يساعدنا مدفع هاون. وصرنا في المنطقة الامامية! والقينا عليهم القنابل اليدوية، فقتل قسم

---

* المقصود جندي حي اسير من العدو.

منهم وهرب القسم الاخر، وغنمت هناك بندقية قصيرة وست قنابل يدوية. ووجدت حفرة فقبعت بها. وهنا قفز علي الماني مباشرة. وقد اردت ان اشاكسه نقط، فسحبته نحوي لكي آخذه بالاسر "لسانا". ولكنني تباطأت مع البندقية، فاستدار هو وراء صخرة، فالقيت عليه مضطرا، قنبلة يدوية، والا فانه سيهرب.

عندما قتلت هذا، قفز امام وجهي ثلاثة المان. وهنا اردت استخدام القنابل اليدوية، غير اني سحبت البندقية الاوتوماتيكية، واطلقت عليهم النار فاختفوا وراء صخرة. فقذفتهم بقنبلتين يدويتين. وقد اصيب اثنان منهم، اما الثالث فقد تدحرج الى اسفل.

وبعدما استمكنوني هنا- اذ انني كنت آخر واحد من اليسار- شرعت بالزحف، وبقذف القنابل اليدوية. وانهم حالما يقذفونني بالقنبلة اليدوية حتى تسقط مباشرة على رأسي، وكأنهم متدربون على ذلك. وقد ضربت احدى القنابل اليدوية بطرف صخرة، ونطت بعد ذلك منها على خوذتي المعدنية، ومن خوذتي تدحرجت على الحجر وانفجرت امام وجهي. واصابتني بالصمم وسال الدم من وجهي.

وقذفت باخر قنبلة يدوية عندي، وشرعت بالتراجع الى الخلف. واصبت بجروح في الوجه والخدين والعنق ولوح المتن. ولقد تراجعت وانا ادافع عن نفسي. وفي هذا التراجع جرحت مرة اخرى في منطقة الحقو.

نزلت الى تحت، وكان هناك اثنان اخران من الجرحى.

احدهما مجروح في رجله، والاخر في ظهره. واحدهما كان يبكي ويقول: "ضمدوني بالله عليكم فاني سأموت من نزيف الدم". وقد اعطيتهم انا ضمادي، واردت ان امزق القميص لاضمد نفسي، ولكني سألت من قبل ذلك: "هل دمي ينزف بشدة" - "قالوا، كلا، انه يجف" ما دام صار هكذا فلا اريد ضمادا. وكان احد هؤلاء الاثنين، قد ترك بندقيته في منطقة الالمان، بسبب انهيار قوته. ورجعت فورا وجلبت له البندقية، والا كيف يكون جنديا بلا بندقية؟ وفي هذه الاثناء، عندما سرت راجعا، وانا احمل له البندقية، اصابتني شظية لغم في الحقو. وبقي احدهما قادرا على السير، اما الثاني فقد حملته على كتفي. ووقع انفجار لغم آخر وتعالت صرخات! وصرت انبطح بصعوبة بالغة وازحف كالافعى الى امام، على بطني. وهززته قليلا. وتهيج عندما سقط. ولكني قلت له: "لا بأس عليك يا فانكا، فقد كانوا ينادونه فانكا. وباختصار فاني قد اوصلته الى المضمدين.

وكان يرقد هنا مصابا بجروح ايضا، ملازمنا الاول. وقلت له، هون عليك. انني يجب ان انقلكم! وذهبت لجلب نقالات. فالمضمدون غير موجودين. وجلبت نقالات الاسعاف. ومن بعد ذلك جاء المضمدون. وهكذا فانني اعطيت الجريح لهم، اما انا فقد زحفت راجعا.

والان سنقاتل بشكل افضل اذ تعلمنا بعض الاشياء.

انظر ص ٢٢٤

مرافق قائد الجيش الخمسين، الملازم الاول يفغيني ستبانوفيتش كريطسين يتحدث:

... طار بولدين في اول يوم من الحرب، على طائرة قاذفة مطاردة الى بيلوستوك. وقد اطلقت علينا النار في الجو، ولكننا رغم الاصابات فقد وصلنا. وتحركنا مع رجال مسلحين في سيارة شحن الى مقر الجيش العاشر. وقطعنا مسافة خمسة - ستة كيلومترات. وبالقرب من بيرستوفتسا تعرضنا في سيارة الشحن لنيران من طائرة فقتل جميع من في السيارة سوى السائق وانا والجنرال الذي جرح بيده اليسرى جرحا نال اربعا من اصابعه. وان شظية واحدة ظلت في جسمه. وقد ارادوا انتزاعها غير انه قال، ليس الان، ان ذلك من بعد الحرب، وما دمت بهذا الحماس فان الشظية لن تعيقني. وأنتقلنا الى سيارة اخرى، حيث وصلنا بها الى مقر قيادة الجيش العاشر. وهناك اصدر الاوامر وامضى يوما كاملا، ثم تفقد القطعات العسكرية حتى الثامن والعشرين من حزيران - يونيو.

واشترك بنفسه في اصعب اللحظات، بهجوم مع رتل دبابات عند كوزنيتس-سوكولكي.

ووصل كوليك، وقال "حسنا"، مادمت انت هنا يا بولدين فانا استطيع الذهاب".

كان الامر بالانسحاب قد صدر، بيد انه كان اخر من في المقدمة. فقد جمع القوات واعاد تنظيمها، وقام

باختراق قتالي للحصار في بيسك. لقد اوقف الجنود على الدبابات. وجمع الفين منهم. وكلفهم بتحقيق الاختراق.

وتجمعت الى الشمال الغربي من مينسك قطعات بما يعادل فرقة. ونقل رجال الاستطلاع معلومات تفيد، انه على مسافة قريبة، يوجد مقر لواء دراجات نارية. وقد ابادوا هذا المقر. واستولوا في المقر على وثائق وغنموا ١٨ سيارة. وجاءت الى هنا مئات الدبابات. اما عندنا فلا توجد سوى دبابتين ومدفعين، وامر باطلاق النار واستمر في ذلك حتى أخر قنبلة. واعطى الامر بمواصلة الاختراق الى الامام. وقد جرحت انا مرتين في هذه المنطقة.

وحل الظلام، والعتاد غير موجود. وجرحت بقدمي والحوض، فتلقفني، وحملني مسافة مئتي متر بيده تحت قصف عاصف من النيران.

وفي هذه الاثناء جاء بعض الاشخاص وقالوا لي: "تمدد". فتمددت. وقام هو بتنظيم القوة. وكانت ضفة العبور بيد العدو. وشرع بنفسه في التأكد من حالة المخاضة، وسحب بالاشتراك مع الاخرين، خمسين سيارة وهو يخوض بالماء الى صدره.

وصار الناس يتجمعون من حوله تدريجيا. وفي اثناء طريقهم، قاموا بشن الغزوات واحراق المستودعات والسيارات والطائرات وبتدمير مقرين للقيادة وسبع سيارات مع الوثائق. وكان هو في المقدمة دائما.

وقضى اربعة ايام كاملة يعمل بدقة على التحضير للخروج. وسلح جميع من في الغابات. وصار عندنا احد عشر مدفعا وسيارات. وغنمنا من العدو جهاز ارسال لاسلكي الذي بواسطته اتصلنا بقطعاتنا. وفي يوم ١١ آب-اغسطس، وفي الساعة السابعة صباحا قمنا بالاختراق على مسافة ٣٠-٤٠ كيلومترا شمال غرب سمولينسك. وكان قد قاد الناس بنفسه وسار على رأس الهجوم.

وغنمنا في هذه المعركة: ٢١ مدفعا وقتلنا ١٥٠٠ جندي الماني، واحرقنا ١٠٠ سيارة و١٣٠ دراجة نارية.

كانت يده متورمة في الضماد.

لقد جلس الالمان يحتسون الشراب قرب مدافعهم فانزلنا بهم الذعر.

حققنا الاختراق ووصلنا الى مقر قيادة تيموشينكو. اما في اليوم الثاني فكان قد استقبل من قبل ستالين. وفي يوم ١٨ آب-اغسطس، صار نائب القائد العام للجبهة، وانتقل الى الجيش الثلاثين الذي كان في وضع عسير.

انظر ص ٢٣٠

النقيب الكسي نزاروفيتش ارابوف يتحدث:

... كنت قد اشتغلت خراطا بالمعادن. ومن بعد ذلك تسلمت في دونباس عملا حزبيا ومن ثم صرت مساعدا لسائق ماكنة في منجم. انني عضو في الحزب منذ العام الثلاثين. وساقوني للخدمة العسكرية عام ١٩٢٨ وقضيت سنة

سنة منها جنديا في الجيش الاحمر، وبعد ذلك تخرجت من فلاكوفسكي للمشاة.

وفي خلال سنوات دراسته، اشتركت سنة ١٩٣٠ في عمليات القضاء على العصابات.

وعندما تخرجت من المدرسة عملت سنة اخرى آمر فصيل في القفقاس. اما منذ عام ١٩٣٢ فقد عملت في الشرق الاقصى. واننا انفسنا قمنا هناك ببناء التحصينات في المنطقة تحت درجة حرارة اربعين تحت الصفر.

وانتقلت مرة اخرى الى اوربا في عام ثمانية وثلاثين فقط اي بعد ست سنوات في مدرسة الشرق الاقصى.

وانتميت الى الاكاديمية. وظفرت بي الحرب وانا في معسكرات التدريب في كاوناس. وبعد ذلك حصلت على دراسة اضافية في الاكاديمية والتحقت بقسم العمليات في الجيش الخمسين.

انني لم ابخل بقواي، لا ليلا ولا نهارا، ولا بالوقت ولا بالراحة.

ان عندي زوجة طيبة. وكانت تساعدني دائما في العمل وتفهمني. وعندي ولد وبنت. وانهم كانوا معي في كل مكان.

وعند الانسحاب من بيلوف، كان الوضع غير معروف. اما المهمة القائمة فهي: ايقاف الفرق الثلاث حيثما وجدت، واعطاؤها الأمر بتنظيم خطة الخروج والعمل

بصورة مشتركة.

كانت القضية في نهاية تشرين الاول - اكتوبر. والوحل في كل مكان لان الموسم موسم (اوحال)، مما استدعى الى التنقل بالسيارات وعلى ظهور الخيل ومشيا على الاقدام. كان الوضع مبهما جدا.

وفي الساعة الثامنة مساء، سلموني الامر في مدينة تولا. وفي الصباح بدأت بالتحرك. وتركت السيارة في الطريق وامتطيت حصانا. واصطحبت معي مراسلا، ولكنه جرح في الطريق، فواصلت السير لوحدي. وفي خلال الليل زرت ومررت على جميع مقرات الفرق الثلاث، واطلعتهم على الامر والحالة، وعينت طريق الانسحاب والحدود.

وعدت ليلا الى تولا عبر قرية شيوكينو. وعلى خط متواز معي، سارت الدبابات الالمانية. وعندما رجعت قيل لي: "ان الدبابات الالمانية في قرية شيوكينو"، وقلت لهم: "لقد مررت هناك قبل قليل".

وعندما حدث الاختراق الالماني قرب ستالينغراد في نهاية شهر تشرين الثاني - نوفمبر، فقد ذهبت الى ديديلوفو لأقامة الاتصال مع مقر القيادة. ولقد سافرت الى هناك، غير ان قواتنا لم تكن موجودة. وقد قالوا لي: انها قد مرت من هنا، وكذلك فان الالمان سرعان ما مروا بعدها ايضا، على مسافة خمسة عشر كيلومترا.

ومع ذلك فقد واصلت البحث عن فرقة سيريفين. وقد ظهر انها مطوقة بالدبابات والمشاة الآلية في

الكسندروفكا. ورغم ذلك قررت التوغل الى هناك، ووجدت الفرقة في الكسندروفكا. ولقد ذهبت الى هناك بطريق ملتو. وخرجت من هناك بنفس الطريق. وكنت قد قررت انني كلما اسير اعمق في مؤخرة الالمان فسأصل بوقت اسرع.

وفي احدى المرات، خلال وقت الانسحاب، صدر لي الامر بالوصول الى فرقة مارتيروسيان. وتوجيهها للاختراق، باتجاه مدينة تولا. واعطوني حرسا مؤلفا من سبعة جنود مسلحين بالبنادق الاوتوماتيكية وسيارة شحن.

انني افهم جيدا بتحديد الاماكن. وقد وصلت الى تلك الفرقة وبقيت هناك، ثم خرجت معها الى تولا.

وبصدد كالوغا، فان حالة قطعات فوكانوف كانت غير معروفة. وتوقفت محطة البث عن الكلام. اما الطريق فكان قد قطع ببعض الفصائل الالمانية الصغيرة. وان الاتصال انقطع ايضا مع قائد المجموعة الذي قام بالاختراق عبر هذه الفصائل.

استدعاني قائد الجيش.

وقال: "خذ الطائرة واقم الاتصال. أنك ستطير عبر ارض محتلة من قبل الالمان. وان مناطق الهبوط غير معروفة وعليك ان لا تخطىء!"

لقد كان المعروف فقط، هو ان هناك في الامام، تقاتل قوة لنا متحركة، وليس اكثر من ذلك.

قمت باول هبوط، من جراء تأثير الطائرات الالمانية كما يقال. فقد اطلقت علينا النار، اربع طائرات قاذفة مقاتلة المانية.

واخفى الطيار الطائرة في الغابة، حيث هبط في فسحة بين الاشجار. وانتظرنا هناك مدة ثلاثين دقيقة. وقمنا بالهبوط الثاني في كوتويانوفو. ومن بعدها بست كيلومترات كانت تتفجر القنابل.

نزلت مع الطيار. وتركته عند الطائرة، بينما ذهبت الى قرية، واخذت معي بندقية اوتوماتيكية. ويجب القول ان انفعالاتي كانت سيئة. واقتربت من القرية مسافة ٤٠٠ متر واخذت اراقبها. وقد لاحظوا وجودي. وتجمعت هناك كومة من النساء والاطفال. ولكنه لم يتوجه اي منهم للاقتراب مني. وقررت انا، بانه مادام لا يوجد احد غير النساء والاطفال، فهذا يعني ان الالمان غير موجودين. وقد فرحوا بوجودي وسألتهم: "هل صحيح ان قواتنا تقاتل بالقرب من مدينة كالوغا؟" فأجابوا بأن الالمان قد هربوا من هنا، من القرية ليلا، وان بعضهم بدون احذية عسكرية. وقالوا لي ان المعارك تدور قرب كالوغا. وحلقت بالطائرة ونظرت الى المنطقة، واكتشفت مواقع قواتنا. فهبطت وسط القوات واقمت الاتصال.

وهناك عرفت ان محطتنا اللاسلكية قد ضربتها القنابل من الطائرات. وان قواتنا تقاتل فعلا الان قرب كالوغا.

انظر ص ٢٨١

الملازم في أمن الدولة ب.غ فيليكوفسكي يتحدث:

... كان الالمان قد قتلوا في المدينة ٩١٧ يهوديا. ففي اليوم الاول من كانون الاول - ديسمبر. اجريت عملية احصاء لجميع اليهود، بدعوى العمل. وقد امروهم بالحضور مع هوياتهم في خلال يومين، اما في اليوم الثالث من كانون الاول-ديسمبر فقد اعدموهم كلهم رميا بالرصاص، ابتداء من عمر اثني عشر عاما. وخدروا الاطفال ما قبل سن اثني عشر عاما واعطوهم الى امهاتهم، واطلقوا النار على الامهات. اما الاطفال فقد دفنوهم في الواقع وهم احياء.

واستدعوا ابناء القرم لوحدهم في ١٢ كانون الاول-ديسمبر. حضر منهم ٣٠٠ شخص، لان كثيرين منهم قد هربوا، مستفيدين من دروس الخبرة المرة، وقد اعدم بالرصاص كل من حضر منهم، وذلك في خنادق مصائد الدبابات، اذ اطلقوا عليهم نيران الرشاشات ودفنوهم هناك. لقد ظل الانين يتصاعد مدة يومين، ولم يسمحوا للحراس بالوصول الى هناك. ووقع ذلك خلف مصنع بيدريزوف السابق للكلس.

واعد الالمان مثل هذه العملية كذلك للكارائيين ايضا. غير ان الوقت لم يتيسر لهم لتنفيذها. اما جميع عمليات التسجيل فقد كانت تقوم بها بلدية المدينة باشراف كل من اندرجيينسكي وغروزونوف.

انظر ص ٢٩٠

البحار المتطوع، العريف من الدرجة الاولى غ.س بيتروف يتحدث:

...خرجنا ليلا من نوفوروّسيسك، وكان معنا عدد كبير من جنود الدفاع الساحلي. وقد اصابهم دوار البحر بسبب شدة الامواج العالية، اذ بلغت ٥-٦ درجات. لقد سرنا مبحرين على زورق بحري حربي. وكان الجو باردا، وفيه ثلج ورياح. ووصلنا الى هنا في الساعة الثالثة ليلا. وكان الليل مظلما بحيث لا يرى اي شيء على بعد خمس خطوات. واقتربت من المرسى الرئيسي مباشرة، ثلاثة زوارق بحارية مرة واحدة، ورست هذه الزوارق. وكان الأمر قد صدر بالقتال، فقفزنا الى الشاطىء. وانسحبت الزوارق الحربية وبدأت تشارك المدمرات في اطلاق النار. ورد الحرس بالنار من المرسى.

وركضت فورا على المرسى، ومن ثم بدأنا باطلاق الرصاص. وهرب الحراس، كل الى جهة. وفي هذه اللحظة جاء آيدينوف من الجهة اليمنى، وامرني مع اثنين اخرين، برتبة عريف بالذهاب الى المحطة.

وتصدى لنا الالمان بالرصاص عند الجسر. وتكشف الوقت. وكان مقر قيادة الالمان موجودا هناك في محطة الانواء الجوية عند الجسر. فاطلقنا عليهم النار وقذفنا عليهم القنابل اليدوية. فاشتعلت النار بالمحطة. واخذ الالمان يتواثبون. وتوارى ضابط الماني خلف كشك لبيع

المرطبات-ايس كريم، واصاب احد جنود الاسطول الاحمر، فاندفع ملازم ثان الى ما وراء سياج وبقفزة واحدة طعن الضابط الالماني بالحربة.

ومن ثم نشبت معركة كبيرة في الشارع الرئيسي. وفي هذا الشارع كان الجميع بقيادة آيدينوف الذي قسمنا الى مجموعات. وذهبت انا مع رئيس العرفاء البحري ريشيتنيكوف، وبيدي مسدس. واتجهنا نحو اليمين الى الغستابو. وعندما دخلنا هناك، وجدنا هناك حوالي ١٠٠ شخص من ابنائنا جالسين. ومن بينهم فتاة يهودية صار ظهرها اسود مثل هذه القفازات التي في يدي. فقد كانوا قد وضعوها عارية على ارضية اسمنتية وضربوها. وجلس هناك شخص عجوز كان من المقرر ان يعدم صباحا رميا بالرصاص.

واعتقلنا هناك اربعة من افراد الشرطة.

وسارت النساء في الشارع. هل تعرفون كيف خرجن لاستقبالنا؟ لقد كن يقولن "اولادنا. انتم اولادنا" واخذننا بالاحضان.

اننا اخذنا الالمان اسرى، من شقق سكناهم مباشرة. وقد خرج راكضا من الباب شخص الى شارع البحر وهو بسرواله الداخلي، فاردي قتيلا في الحال. وفيما بعد عثرنا على بدلته العسكرية برتبة كابتن.

واسرنا احد المضمدين وهو فرنسي وكذلك اثنين من الالمان. وكانت اشجار عيد رأس السنة جاهزة في كل مكان

من المدينة.

لقد صارت فيودوسيا من حصتنا، ولكن رفاقا ابرارا استشهدوا فيها.

انظر ص ٢٢٨

آمر فصيل القوة البحرية، الملازم الاول أ. آيدينوف يتحدث:

... كانت القوة مؤلفة من المتطوعين بشكل استثنائي. وقد خرجنا على متن سبعة زوارق حربية بحرية. وعددنا ثلاثمئة شخص.

لقد امرنا بيرفوشين بتنفيذ عملية جدية تنطوي على مجازفة. وهي النزول في الميناء مباشرة واحتلاله وخوض المعركة الاولى.

كان الليل مظلما لا يحسد عليه. وطلع القمر وهبت الريح. واقتربنا نحن من الميناء فاطلقوا باتجاهنا سيلا عاصفا من النيران. وكان الزورق الحربي رقم ١٣١ بقيادة رئيس العرفاء البحري كوليكوف هو البادىء بالانزال. وكان ثلثي من به اما قتلوا فورا او اصيبوا بجروح.

ووقع جندي الاسطول الاحمر يفتوشينكو في وسط سبعة من الالمان. وصاروا يصرخون عليه: "استسلم" فيجيبهم هازئا: "نعم استسلمت!". ثم يقذفهم بقنبلة يدوية. واتجهت مع باناسينكو وراء العوارض، ونحن نطلق النار على الالمان. ولم يبق من افراد هذا الزورق البحري

الحربي الا قلة معدودة، ولكنهم قاتلوا كالاسود.
واستطاع كوندراتوف التسلل الى مدفع هاون ودمرة بقنبلة يدوية. اننا كنا قد اخترنا لهذه الزوراق الحربية الثلاثة، اؤلئك الرفاق الذين يمكن القول صراحة بصددهم انهم عفاريت.

وبعد ما نزل من الزورق البحري الحربي الثاني. رئيس العرفاء البحري كوزينكو، تقدم الى امام، رغبة منه في السيطرة على جدار الميناء، والجلوس فوقه لمنع العدو من الدخول فيه. وعندما وصل هو وسبانديكو وكريكوف الى الجدار، فانهم رأوا مجموعة من الالمان اتت تركض في الجانب الاخر. وكان ذلك الجدار عاليا. فدحرجوا نحوه برميلا فارغا، ومن عليه اخذ اثنان يناولانه القنابل اليدوية من تحت، وصار يقذف قنبلة يدوية على كل مجموعة المانية حال تحركها. وقد القى اربع عشرة قنبلة يدوية فاسقط كومة من الالمان.

وكان رئيس العرفاء البحري سيمونوف قائدا لمجموعة. وانهم حال نزولهم من الزورق الحربي اندفعوا نحو الجدار. وقد سقط قتيلا على يده ويد اوخوتوف وكوزنيتسوف، خلال الطريق، اثنا عشر المانيا من حملة البنادق الاوتوماتيكية.

وافلح نائب مسؤول التوجيه السياسي بلوخين، بعد ان طهر الشوارع الاولى، في ان يصرع شخصيا، ضابطين من حملة الصليب الحديدي.

كان سيميتشيف، وهو آمر افراد رشاشتين، موجودا مع رشاشتيه في كل مكان يحصل فيه لدى جنودنا اى تأخير.

وكان تكاتش وغيبروف اول من فاز باخذ اسير حي. وكان برتبة ضابط. وذكر السكان: " ان من هذه الدار يطلقون نار". فقلت: "احتلوه". وهنا قتلوا اثنين وجروا الثالث من تحت السرير وجلبوه.

ان باوتين هو عريف من الدرجة الاولى. وقد خرج لتوه من المستشفى. ومع ذلك فقد اندفع الى الامام. ويبدو انه ينتقم لدمه الذي سال منه.

وان كاميروف المصاب بجرح شديد في رجله يقول: "كلا، انني استطيع ايضا المشي بعرج قليل وان اقنص".

ونزل الملازم بوطيليف مع خمسة واربعين شخصا. ورغم انه جرح في رأسه فانه لم يلتفت للألم. وظل يقاتل حتى المساء.

ان نائب مسؤول التوجيه السياسي خوريكوف من اوديسا، كان قد قتل ثلاثة المان مسلحين بالبنادق الاوتوماتيكية، واصيب بجروح مرتين.

وان قائد الزورق كوليكوف اصيب بجرح فورا، ولكنه ظل يشجع المقاتلين، فخاض تلاميذه المعركة مضحين بحياتهم من اجله.

رئيس العرفاء البحري ريشيتنيكوف. لقد وجهوا في اثناء الانزال بعاصفة من نيران الرشاشات. وكان هو اول من قفز الى المرسى المغطى بالثلج واندفع الى امام.

واباد ريشيتفيكوف ومقاتلوه ثلاثة عشر فاشستيا في اثناء تطهير الشوارع. وانهم بشكل عام نفذوا شعار ستالين بسرعة. وعمل صديقه نيتشبورينكو مثلما عمل هو نفسه. ولو انهما وضعا في كفتي ميزان، فلن يرجح احدهما على الآخر.

وجاؤوني يقولون: "ان في احد الدور يعتصمون، ولا يتيحون لنا العيش". وذهب الى هناك سيميتشيف ونائب المسؤول السياسي بوبوف وغيرهما. ورغم المحاولات التي بذلوها فانهم لم يستطيعوا دخول الدار. وهنا وثب بوبوف الى هذه الدار عن طريق السلم، فقتل واحدا يحمل صليبا وتصارع مع الثاني فصرعه بالمسدس. وانتهت هذه الحالة بهذه الصورة.

وبحسب معلومات السكان فان ثمانية عشر نفرا اعتصموا بدار اخرى. فذهب الى هناك ستيبانوف وزفيريف وساموشكين. وأنطلق ساموشكين اولا. وما ان طار الى الغرفة حتى اردى ثلاثة قتلى واخذ ستة اسرى. وقد جرحوه في ظهره الا ان زفيريف سحبه من وسط النيران اما الاخرون الذين اندفعوا في اثر ساموشكين فلم يتركوا هناك الا مكانا منقوعا.

وفي أحد الاقبية توارى مئتا شخص. فوضعنا رشاشة ذات مساند في النافذة وفتحنا عليهم النار الى ان استسلموا تماما.

وقد سقط صريعا ستاتسينكو رئيس عرفاء مجموعة، وسافتشينكو. وكان قد قتل اثنين من الالمان، ولكن

الثالث ارداه قتيلا. ومات ميتة الابطال، افراد طاقم احد الزوارق الحربية البحرية، وهم ايفانيكوف وكوتشيتكوف وشافرين وبيرميكوف. ان هؤلاء لم ينزلوا في ميناء الخليج، بل ضلوا طريقهم لمسافة اربعة كيلومترات الى اليمين. وقد خرجوا عند قرية ساريغول. واستشهد جميع الافراد السبعة والاربعين وهم يقاتلون حتى آخر اطلاقة. انهم كانوا ابناء بررة. وقد استشهدوا وواريناهم الثرى.

انظر ص ٢٩٠

قوميسار القوة د.ف بونوماريوف يتحدث:

... اندفعت سبعة زوارق حربية. وبعد ان تمسكوا بالارض، اخذوا فيودوسيا. وماذا يريدون غير ذلك؟ ان كل دار اقتحمناها وجدنا فيها كل شيء وكأنه في ايام السلام. فالبدلات الرسمية معلقة على الكراسي اما اصحاب الدار فقد هربوا بسراويلهم الداخلية.

لقد مات ميتة الشجعان، كل من ماغوميتنوف وتسيبولينذرا وشالاخوف وزامورايف. وقتل من بين الثلاثمئة شخص اثنان وثمانون واصيب ستة وثلاثون.

كانت مهمتنا ان نحتل الميناء والشارعين القريبين فيه. وسيطرنا على الجدار، ومن بعد ذلك رأينا ان هناك فوضى تسود. فهل يمكن ان نقف متفرجين؟ هيا الى الامام! واذا بنصف المدينة تحت سيطرتنا. وبالنسبة لي فقد كان

عندي نسختان من خطاب ستالين. واصدرت امرا بتجميع الجرحى في دار العتال. وعندما ذهبت الى هناك رأيت الناس يسقون الجرحى ويغطونهم. واعطيت الخطاب الى واحد كبير السن وقلت له - خذ واقرأ. وسرعان ما تجمهر الناس حوله. وكذلك كان هناك مستشفى بالقرب منا ودار للتوليد، فاعطيتهم ايضا النسخة الاخرى، فهرعت الممرضات لقراءته.

وقابلتني واحدة من الفتيات وقالت: (يا جدي هل من الممكن شد الشريط الاحمر في الوقت الراهن؟ فها هو عندي "جاهز تحت اليد!" انه موجود واخفيته من الالمان...).

لقد غنمنا في الميناء عند احتلال المدينة ٢٢٥ بندقية و٢٥ رشاشة و٢ مدفع هاون و٨٠٠ سيارة شحن.

كان الانزال قد بدأ في الساعة الرابعة ليلا. وسيطرنا فورا على الجدار ومن ثم توغلنا في الشوارع. ووصلت قوات المشاة في الساعة السادسة، وفي الساعة السابعة. وتم تطهير المدينة تطهيرا نهائيا حتى مساء الثلاثين. وكان في داخلها قد دار صراع من دار الى اخرى.

وان البحارة كانوا هنا اول من اقام السيطرة، ولا سيما في هذه المدينة المصيف. وسيظل الناس يتوافدون باستمرار الى هنا ويحترمون الذكرى.

تشرين الاول-اكتوبر١٩٤١-كانون الثاني-يناير١٩٤٢

القســـم الثانـــي

ثلاث قصص حول نفس الموضوع



حادثة مع بولينين

-١-

في السابع من كانون الثاني - يناير عام واحد واربعين، اخرجوا بولينين من المستشفى الذي رقد فيه عشرة ايام، من جراء تشنج في عضلات رجله اليمنى. وبعد ان رفع ياقة معطفه الجلدي، آتقاء للريح، وتوكأ على العصا البلاستيكية ذات المقابض التي ارسلها الميكانيكيون اليه في المستشفى، خرج الى الشرفة ووقف بضع دقائق يتنسم رائحة الجو، وكانت سماء مورمانسك الرمادية معلقة فوق السقوف مباشرة، والثلج يهطل، والرؤية معدومة تقريبا. وفكر بولينين بأن الالمان لا يغيرون على مورمانسك بمثل هذا الجو، ومن المشكوك فيه ان تطير طائراتنا وتقصف، وهذا يعني ان طياري سربه سوف لا يكونون مضطرين اليوم لا لحماية المدينة ولا للمرافقة.

واقتربت من مدخل المستشفى العسكري، سيارة

"ايمكا". وجلس الى جانب السائق، مستندا برأسه الى سقف السيارة "ايمكا"، غريتسكو، الذي هو رئيس مقر الفوج، واقرب اصدقاء بولينين.

- قال- غريتسكو، وهو يحني رأسه ويخرج لملاقاة بولينين- أننا انتظرناك عند قسم الاستقبال، هيا اجلس في المقعد الامامي ايها الرفيق العقيد، لتكون اقل عرضة للاهتزاز.

شد بولينين على يد غريتسكو، وطرح العصا على المقعد الامامي للسيارة "ايمكا"، وجلس بحذر الى جانب السائق.

- مرحبا يا غوربونوف.

- مرحبا ايها الرفيق العقيد. اتمنى لكم الصحة.

- قال بولينين- الصحة ليست كاملة. فالاطباء مازالوا يمنعوني من الطيران. كيف الحال في الفوج؟- قال ذلك ملتفتا برأسه نحو غريتسكو عندما تحركت السيارة.

- قال غريتسكو- النظام سائد في الفوج، واسقطنا يوم امس احد الالمان.

- هل اسقطتم ام دونتم؟

- لقد اسقطنا. ومع التوقيع والمهر، اذ تم ذلك في الشارع مباشرة، قرب فندق "آركتيكا" وطرحناه على الاسفلت مباشرة.

- وكيف الحال مع الجيران؟ كان سؤال بولينين بلهجة

من الغيرة، كان يوجد في المطار، سربان للانكليز مجاوران للفوج. وهم يطيرون على طائرات "هاريكين". وان الطيارين في فوج بولينين هم اول من استوعب، بمساعدة الانكليز، قيادة هذه المطاردات الانكليزية التي بدأت تصل بموجب قانون الأعارة والتأجير.

- الجيران اسقطوا طائرة ايضا. وان بريوس هو الذي اسقطها. ليس بريوس ذاك، بل شقيقه طويل القامة.

- انه ليس اطول منك.

- بسنتمتر واحد. فاني تطاولت معه مرتين.

- ابتسم بولينين وقال - مفهوم فليس لديكم ما تقومون به.

عندما عاد الان الى الفوج، افرحه كل شيء: الالماني الذي اسقط على يد قواتنا، والالماني الذي اسقط على يد الانكليز، وكون ان غريتسكو الذي كان قد قاتل معه في اسبانيا من قبل، ها هو يجلس من ورائه. وكون ان غريتسكو قد قاس طوله مع بريوس، هذا الذي صار عدد الطائرات التي اسقطها هنا في مورمانسك ثلاث هانزات*، او "جيرى" كما يسمونهم بلغتهم.

- قال غريتسكو- يوم امس كان الجو سيئا، فقمنا بزيارة الانكليز وعند ذاك قسنا طولينا.

- سأل بولينين - وهل هنا من اخبار اخرى؟

---

* هانز- اسم يطلقه الروس على كل الماني استخفافا بالالمان.

- قال غريتسكو- اننا ليس لدينا اخبار اخرى، وهل لديك انت اخبار. - ومد يده الطويلة من فوق كتف بولينين بعدد يوم ٤ تشرين الثاني - نوفمبر من جريدة "كراسنايا زفيوزدا" وقال انظر في الصفحة الرابعة.

فتح بولينين الجريدة، وشرع يقرأ عندما رأى اسمه.

- سأل السائق - ايها الرفيق العقيد- ألا تحب ان نمر من جانب فندق "آركتيكا" لتشاهد طائرة "ميسيرا" المسقطة؟

- قال بولينين دون ان يرفع نظره عن الجريدة - ولماذا، فهل اني لم ارها؟

ان الموضوع الذي نشر بعنوان "سماء مورمانسك" جاء فيه وصف لنفس تلك المعركة الجوية التي خاضها بولينين، واضطر بعدها الى القيام بهبوط اضطراري، الامر الذي ادى الى اصابته بتشنج عضلي وادخاله الى المستشفى. كما ان بولينين نفسه عرف ان تلك المعركة الجوية كانت من طراز تلك المعارك الخارقة، غير ان المراسل وصفها بتلك الصو التي جعلت بولينين يحتقن احمرارا من خلال قراءة المقالة.

على العموم، ان كل ما ورد في المقالة، كان حقيقة من حيث الواقع. فان بولينين كان فعلا، عصبي المزاج جدا، عندما طار انذاك في تلك المعركة، يوم ٢٧ تشرين الاول-اكتوبر. فان الالمان توغلوا منذ الصباح الباكر،

الى مورمانسك، وافلحوا في اسقاط جميع القنابل تقريبا دون ان يفقدوا سوى طائرة "يونكيرس" واحدة. وصار بولينين "سخاما" من جراء ذلك. وبعد "السخام" اقترحوا عليه ان يسحب الطلب حول نقله الى الجبهة الغربية للخدمة في الطائرات المقاتلة التي تقوم بحماية موسكو.
ان بولينين لم يتحدث عن كل هذا الى المراسل الصحفي، بيد ان المراسل الصحفي كتب الواقع عندما ذكر ان بولينين كان عصبيا واراد تصفية الحساب مع الهانزات - أي الالمان-المترجم) عندما شنوا غارة جوية اخرى على مورمانسك.

لقد وصف المراسل الصحفي كيف اسقط بولينين في هذه المعركة ثلاث طائرات المانية. ففي البداية، وفوق مورمانسك مباشرة، اسقط طائرة "يونكيرس" بالاشتراك مع غريتسكو، ومن بعد ذلك اسقط طائرة "ميسسير شميت - ١٠٩" فوق خط الجبهة في اثناء المطاردة. اما الطائرة الثالثة وهي "ميسسير شميت" اخرى، فقد اسقطها بالمناطحة وهو في طريق العودة.

ومع هذه الطائرة الالمانية الثالثة، حدث ان بولينين، وبعد ان افتقد جماعته من مجال الرؤيا ونفاد ما لديه من ذخيرة، وجد نفسه امامها وجها لوجه. وكان الطيار الالماني ، على ضوء مناورته الاولى، قوي الشكيمة. وبسبب عدم وجود ذخيرة لاطلاق النار عليه، قرر بولينين البدء بتحاشي القتال، والالتفاف عليه من الذيل

واسقاطه!

ولكنه من اين للالماني ان يدري بأن احتياطي العتاد قد نفذ عند بولينين؟ ولهذا فان بولينين قرر عدم الخروج من المعركة وان يقوم بالمناورة الى حين ان يتسرب الخوف الى الطيار الالماني نفسه، ليكون هو المبادر الاول بالذهاب الى قاعدته.

ولكن هذا الالماني كانت اعصابه قوية كما يبدو، وظل يدور ويدور في سماء المعركة ويتحرك بمراوغة، بحيث ان بولينين ظن للحظة: ان هذا الهانز، لربما انه قد حزر ان بولينين لا يملك عتادا لاطلاق النار؟

في نهاية المطاف، وفي واحدة من الدورات، سها الالماني اخيرا فاستدار بولينين ليخرج في ذيل طائرة الالماني تماما. انها صلية واحدة وينتهي كل شيء!، لو انه يوجد ما يرمي به... وفي هذا الوضع بالذات قرر بولينين استعمال المناطحة.

لقد وصف المراسل الصحفي كل ذلك تقريبا، كما حصل فعلا، وبحسب ماأفضى به بولينين نفسه في المستشفى.

ولكن المقالة تحدثت، اضافة الى ذلك، عن مشاعر بولينين وافكاره في تلك الدقائق. ان بولينين لم يتحدث للمراسل الصحفي بأي شيء من ذلك، ولكن المراسل الصحفي كتب كل ذلك من بنات افكاره. انه كتب عن الغضب العارم الذي غص به القلب لدى بولينين وعما دار برأسه من افكار حول موسكو عاصمتنا الحبيبة، التي من اجلها قرر

تنفيذ تلك المناطحة في المعركة التي دارت بسماء مورمانسك. مع العلم ان بولينين لم يفكر بأي شيء من هذا القبيل انذاك.

انه في ذلك الصباح تذكر عدة مرات الطلب الذي تقدم به، وتذكر موسكو، وتلك الاحوال السيئة هناك. وغلت لديه رغبة اشد واقوى من جراء ذلك، لأن يذهب الى هناك، ويقاتل الالمان هناك لا هنا.

غير ان هذه الافكار جميعها كانت في الصباح وعلى الارض. اما في الجو، اما بعد استقرار السرعة ورؤية ذيل الطائرة الالمانية امامه، فقد فكر، وهو ينتفض للمناطحة، بأمر واحد فقط: وهو انه كيف يتسنى بعد اندفاعه الى امام للحظة واحدة ان تمس، بمنتهى المهارة، وان تمس فقط بمروحة طائرتك، مجموعة ذيل الطائرة الالمانية، لتسقط هي وتنجو انت.

ومن ثم كتب المراسل الصحفي في المقالة كل شيء تقريبا من واقع الحال: وهي كيف شعر بولينين، رغم ذلك، ان المروحة قد التوت بعد الضربة، وان المحرك يجرش بشكل لايمكن التحليق به طويلا، اي انه يمكن ان يسقط، وكيف انه لم يقفز بالمظلة لأن الريح كانت تهب بأتجاه الالمان، وكيف أنه قرر بدل كل ذلك ان يطيل التحليق حتى الهبوط الاضطراري، وفعلا فأنه مطط ذلك حتى هبط على الجليد في بحيرة صغيرة قرب الخطوط الامامية، وكيف هم قد عثروا عليه هناك في الليل فقط، وكيف انه كاد يطلق

نيران مسدسه على جماعته ظنا منه انه هبط وسط الالمان. ولكن عمودا كاملا جاء في آخر المقالة هو الذي اغرق بولينين في حمرة الخجل. ولكنه ماهو الشيء الذي لم يكن له وجود هنا: لقد دار الحديث هنا عن سوفوروف وحول كوتوزوف (قادة عسكريون تاريخيون روس - المترجم)، وعن شجاعتنا الروسية الهادئة، وعن ان النصر على الفاشية ليس بعيدا بالنسبة لاولئك الذين هم من جبلة بولينين !.

ان بولينين يعتقد من اعماق نفسه، لو ان الجميع عندنا سيطيرون لا اقل منه نفسه ومن طياريه، بل افضل منهم، ولو اننا تسلمنا بسرعة بدل الجحوش* المزيد من الطائرات الحديثة، من طراز ميغ او حتى "هاريكين" فأننا سوف لن نخسر في الجو، وعلى الاخص في مجال الطائرات المطاردة. ولكن كلمات المراسل الصحفي، بأن معركة يوم ٢٧ تشرين الاول - اكتوبر، هي مثال يحتذى بالنسبة لجميع نماذج البطولة، ان هذه الكلمات هي التي اربكت بولينين.

عندما كان هو نفسه يتذكر هذه المعركة، او يتحدث عنها مع الناس الاخرين، من ذوي الاطلاع، فأنه كان يرى بشرف، ان الاحداث في هذه المعركة بالذات، لم تكن

---

* هكذا وصف الطائرات الحربية السوفيتية التي لديهم انذاك.

جميعها قد جرت بشكل مثالي، ابتداء من كونه قد فقد من مجال الرؤيا، في نهاية المعركة، جميع زملائه الطيارين. ولكن الامر الرئيسي هو انه على خلاف عادته، اخذته الحماسة غير المبررة، فأطلق على الطائرة الالمانية الثانية كل مالديه من احتياطي العتاد، وانه بسبب هذا الخطأ بالذات، اضطر فيما بعد، اثناء مواجهته للطائرة الالمانية الثالثة، الى المغامرة بكل شيء وتنفيذ عملية المناطحة.

غير انه من جهة اخرى، فأن عملية المناطحة تحتاج طبعا الى شجاعة. وانه ادرك بالذات، ماهي قيمة مثل هذا القرار عند تنفيذه عن وعي.

وصار هذا حقيقة، وهو انه قرر رغم كل شيء، تنفيذ المناطحة وانه اسقط الالماني، وانه نفسه لم يسقط بل اطال التحليق حتى حط على الارض. وقد عرف هو، بأنه صار مرشحا، بفضل هذه المعركة للتكريم بلقب بطل الاتحاد السوفيتي، وكان سعيدا جدا بذلك، لاسيما وكان قد حيل بينه وبين هذا الترشيح مرتين من قبل. وكانت المرة الاولى، بعد اسبانيا بسبب انه تهارش بعنف قليلا، وفي وقت غير مناسب، مع الرئاسة، وفي المرة الثانية بعد معركة خالخين - غول*. ولكنه في هذه المرة لم يعرف هو

---

* منطقة معارك طاحنة بمنغوليا في الثلاثينات من هذا القرن ضد الجيش الياباني.

نفسه سبب ذلك.

وعلى الرغم من تفسير بولينين النزيه، فيما يخص مادار في هذه المعركة من انه ليس كل شيء قد جرى فيها بشكل مثالي متميز، فقد أحس نفسه بأنه بطل المرحلة على كل حال. ولهذا فأنه بعد ان قرأ المقالة التي كتبت عنه حتى نهايتها، مالبث ان اعاد قراءتها مرة ثانية في نفس الحين.

- أيمكن ان تمر؟ - قال غريتسكو هامسا في اذن بولينين بعد ان حركه من كتفه.

التفت بولينين متطلعا من خلال الزجاج، حيث انهم مروا من امام مبنى المسرح. والتفت السائق مستفهما نحوه، ولكن بولينين تمتم قائلا: "هيا الى المطار" - ومن ثم انكب مرة اخرى على الجريدة.

غير انه الان ماعاد يقرأ المقالة، بل يفكر بما اشار اليه غريتسكو مما اخذ يدور في فكره أهو فأل نجاح أم خيبة. ومهما كانت التسمية فأن الحقيقة تظل حقيقة: وهي انه وقع فجأة بالغرام، والغرام بمن، بفنانة من فرقة موسكوفية جاءت الى الجبهة هنا. وكل ذلك بدأ من حفلة في فوجهم واستمرت في المستشفى. اما كيف ستكون نهاية هذا الحب واين، فان ذلك لا يعرفه حتى المنجمون.

ان هذه الممثلة استحوذت على اعجابه فورا، منذ الدور الاول الذي ادته. انها مثلت دور طالبة، وبدت

بعين بولينين اكثر شبابا. وطوال ما كان يشاهد هذه المسرحية، فقد كان يحس برغبة، لو انها تأخذ بقوة اشد، بتلابيب هذا الكلب المتقاعس عن الحرب الذي يلاحقها هناك على المسرح.

ومن ثم، وبعد المسرحية، قامت بقراءة قصائد شعر، بدت فيها الى بولينين، انها ليست شابة الى هذا الحد، ولكنها جميلة جدا. ولكنها عندما اقام الطيارون بعد الحفلة، وليمة عشاء رفاقية للفنانين، في الملجأ الارضي لجماعة الطيران، فأنها - وينادونها غالينابيتروفنا - وان كانت مجهدة بعد الحفلة الغنائية، وبفستان اسود مع معطف فرو قصير ملقى فوق الكتفين، فقد بدأت تغني بصوت واطيء غير قوي، اغنيات روسية واكرايينية، واحدة بعد اخرى، واغاني الحب الغجرية "البحر امتد رحيبا" ومن ثم اخذت تغني حسب الطلبات. وانها لم تتصنع التمنع، ولا انتظرت الالحاح، بل ظلت تغني وتغني. كانت عيناها سوداوين وعليهما مسحة من الحزن. وانها غنت وهي تسند خدها بيدها وكأنها مكتئبة، او كان يبدو وكأنها تفكر طول الوقت بشيء آخر غريب وبعيد.

وهنا بالذات حام الخطر الرئيسي: اذ ان بولينين احس فجأة بالعطف عليها، واراد أن يسألها لماذا هي على مثل هذا التجاوب مع التماساتهم، وهي مكتئبة في نفس الوقت. وماذا جرى لها، وكيف كانت حياتها حتى هذا اليوم الذي كان بولينين قد رأها فيه في الفوج.

-اما هذه فاغنيها من اجلكم ايها الرفيق المقدم- افضت بذلك عندما انتهى العشاء وتهيأ الجميع للنهوض... ومن ثم، وهي تشخص بعينيها السوداوين الحزينتين مباشرة في عيني بولينين، بدأت تغني اغنية عن شجرة الغبيراء التي لا تجتاز المسافة نحو شجرة البلوط. وكان وجهها على مقربة قريبة جدا من وجه بولينين، بحيث بدا وكأنها تتحدث اليه، وانه كان يتحدث اليها بشيء ما جوابا على ذلك: هل ياترى، انها لحقيقة ان الغبيراء لا تجتاز المسافة نحو البلوط؟ وهل أنها تبقى فعلا وحيدة تتمايل طول العمر ؟

لما انتهت من الغناء ثم نهضت، نهض هو ايضا، وقبل يدها فجأة عبر المائدة، وهو امر لم يكن من طبعه.

بعد ذلك، ودعوا الفنانين حتى السيارة. وانهم ضجوا بعدة اصوات داعين الطيارين للمجيء الى مورمانسك لمشاهدة المسرحية التي سيمثلونها بعد اسبوع على مسرح المدينة. اما غالينا بيتروفنا، فقد ظلت ملتزمة بالصمت الى ان صعدت بالسيارة، فمدت يدها الى بولينين، مطلقة حسرة وكأنها ارادت ان تقول له شيئا ولكنها لم تجرأ على ذلك.

وفي اليوم التالي وقعت تلك المعركة بعينها، ومن ثم، وبعد يوم اخر، وفي ساعة متأخرة من الليل، عندما لا يسمحون لأي فرد بالدخول في المستشفى، دخلت ممرضة على بولينين في الردهة ومن خلفها غالينا بيتروفنا بصدرية

بيضاء.

- قالت له بصورة وكأنها ملزمة بالمجيء اليه قبل هذا الوقت - أنني لم اتمكن من المجيء قبل هذا الحين. فأننا كنا قد سافرنا بجولات غنائية الى البحارة في فاينفا، ولم اعلم عن كل مادار، الا في نهار هذا اليوم. وقد جئت اليك مباشرة من هناك، وكما ترى فأنني حتى لم اغسل المساحيق كما يجب... هذه انظر.

- ومسحت صدغها وأرته اصابعها التي حملت أثار صبغ المساحيق. - انهم تحدثو عنك بكل ما يثير الهلع ! ولكنهم قالوا هنا، ليس هناك من خطر! فهل انه فعلا لا يوجد خطر ؟ كيف حالك انت ؟ - سألته عن ذلك، وهي تجلس على مقعد الى جانب سريره.

قال بولينين، وهو مرتبك من الاحساس الذي يعاني منه من جراء قدومها، لا يوجد خطر، بل وعلى العموم، فأنه لايوجد اي شيء خاص، ثم سأل سؤالا اخرق: كيف سمحوا لها بالدخول في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟.

-أجابته ببساطة - لقد قلت لهم بأن لي حاجة مهمة معكم. وكما ترى فأنهم صدقوني وسمحوا لي بذلك. ولكنك تثق بذلك؟

اجاب هو بأنه يثق. وعلاوة على ذلك فأنه ماأراد في الواقع ان يقدم جوابا غير هذا.

وبعد ذلك زارته في الصباح، عندما كان غريتسكو

يجلس الى جانبه متجهما غارقا كله بالصمت، من المعاناة في كونهم ضيعوا من مجال الرؤيا في تلك المعركة، قائد فوجهم. ولكنه على الرغم من المضايقة التي يحس بها من جراء وجود غريتسكو، فأن بولينين ماكان بوسعه ان يحول انظاره عن غالينا بيتروفنا طول المدة التي كانت خلالها جالسة الى جانبه. فلقد كانت جميلة جدا بالصدرية البيضاء وبشعرها الاسود المرسل اللامع. ولاحظ بولينين في شعرها بعض الشعرات البيضاء، واعجبه منها انها لاتخفي شيباتها، وكذلك فأن شعرها ممشوط بنعومة وبساطة مع عقصة صغيرة من الخلف.

- قالت له وهي تلاحظه ينظر الى شعرها- انت لا تدري اية جدائل كانت عندي من قبل. انها تصل حتى الركبة - وطوت نفسها حتى ركبتيها. ولكنني اضطررت فيما بعد الى قصه، لأنه عند وضع الشعر المستعار، فلا يجوز انذاك ان يكون شعري اطول منه كثيرا. وبذلك يكون في علمك مدى العذاب الذي يتعرض له اخونا الممثل من اجل الظهور على المسرح.

انها بعد ان لفظت كلمة "اخونا" ابتسمت، وخرجت ابتسامتها رقيقة ولكنها حزينة. وعندما نظر بولينين الى كتفيها الضيقتين، احس اتجاهها بالشفقة مرة اخرى.

وعندما خرجت قال غريتسكو الذي اطال جلسته اكثر منها حالما توارب الباب :

- اجل ان الغجرية هذه قد وقعت في حبك. ان لديك

املا يابولينين.

- لايوجد حقى - هكذا اجاب بولينين رغم ارتياحه لذلك الذي سمعه من غريتسكو.

لقد ظلت في كل يوم تجيء الى المستشفى. اما اذا كان بولينين لوحده، فأنها تجلس مدة طويلة الى جانبه، وهي تضع يده في يدها وتتطلع اليه بصمت. ومن بعد ذلك تبدأ فجأة وباضطراب، باخراج كتب ومجلات من حقيبة ميدانية وتقرأ منها قصائد شعر.

- انكم يلزمكم معرفة هذه القصائد حتما - قالت ذلك رغم ان بولينين ما احب القصائد ولا يدري لماذا ينبغي عليه ان يعرفها.

- وقالت له - انك تحس بالقصائد الشعرية، ولكنك لم تقرأ منها الا القليل حتى الان. ولكنك تتأثر بها. وان هذه هبة من الله، فهل اعجبتكم هذه القصائد.

انه ماكان يعرف هل ان هذه القصائد تعجبه ام لاتعجبه. غير انه معجب بطريقتها في قراءة القصائد الشعرية، وانه معجب بها نفسها. ولهذا فأنه قال دون الخوض بالتفاصيل: "اجل تعجبني".

وقد جاؤا اليها مرتين من ردهات اخرى، عندما كانت جالسة الى جواره، ورجوها ان تذهب معهم لتقرأ قصائد شعر للجرحى. واستجابت لذلك، فذهبت الى هناك وقرأت الشعر، ومن ثم عادت مرة اخرى الى بولينين.

انها لم تزره في المستشفى خلال اليومين الاخيرين،

اللذين سبقا خروجه من المستشفى. وفي المستشفى عندما ترقد، فأن كل يوم هناك تحسبه بثلاثة ايام، بل وحتى اكثر من ذلك. انها لم تمر عليه. اما هو فقد انتظر، وحزن من جراء ذلك، حتى انه غضب على نفسه بالذات. ولم يستطع صبرا في اليوم الثاني مساء، فسأل الممرضة عن الفنانين واين هم الان. واخبرته الممرضة ان الفنانين رحلوا على سفينة لعدة ايام الى بوليارني. ثم ذهبت الممرضة الى مكان خفارتها وعادت من هناك وهي تحمل في يديها رسالة.

- ان غالينا بيتروفنا التمست ان اخبركم لماذا هي غير موجودة في حالة ما اذا انتم سألتم عنها فقط - وتطلعت الممرضة الى بولينين بنظرة حنون. وكانت الممرضة جميلة ممتلئة الجسم، ولم تكن قد تجاوزت نضارة الشباب كثيرا. وانها كانت معجبة ببولينين نفسه، بل وانها اكثر اعجابا بما يدور امام عينيها من قصة غرام، وتتحدث عنها كثيرا مع النساء الاخريات بعد كل نوبة خفارة مساء.

فض بولينين ظرف الرسالة. وكانت الرسالة مكتوبة بالقلم الرصاص. "يعني انك على كل حال قد سألت عني. وانني عندما اخبروني فجأة، بعد تلك الحفلة في الفوج عندكم بأنك في المستشفى، فأنني فزعت بشكل لم اعهده بنفسي، بحيث اني تركت كل شيء، وهرعت اليك. وعلى رغم دهشتك الشديدة جدا، فأني بقيت اواصل التردد عليك...

وعندما سأعود الى مورمانسك تكون انت قد خرجت من المستشفى. وسوف لن اعرف ماذا اصنع بنفسي فيما بعد، اذ من الظاهر انني صرت احبك. وقد جبنت عن البوح لك بذلك مباشرة. وفي جميع الاحوال فأن الكتابة عن ذلك اسهل. فأذا كان هذا غير ذي بال بالنسبة لك فما عليك الا ان لاترد بجواب. وبالنسبة للصورة، فأما ان تحفظها ببالغ العناية او تمزقها فورا".

تطلع بولينين داخل الظرف حالما قرأ مايتعلق بالصورة الفوتوغرافية، واخرج منه صورة، من التقاط الهواة، ذات حواف متهرئة. كانت غالينا بيتروفنا في هذه الصورة الفوتوغرافية في عمر سبع عشرة سنة، اي انها ملتقطة لدور بهذا العمر. وحول رقبتها منديل جمعت اطرافه بقبضتها. وفكر بولينين بانها الان اكثر جمالا مما في هذه الصورة. فلماذا وضعت هذه الصورة الفوتوغرافية ضمن رسالتها.

جلس بولينين طويلا على السرير متطلعا الى الصورة الغريبة شبه الطفولية لغالينا بيتروفنا، ومفكرا ماذا يجب عليه ان يفعل بعدما كتبت له غالينا بيتروفنا انها تحبه. ان الثقة الساذجة للانسان الصادق بصدق طوية الناس الاخرين، لا تسمح له بالتشكيك. وانه نفسه ماكان بوسعه ابدا ان يكتب عبثا مثل هذا الشيء. زد على ذلك، لو ان للأمر صورة اخرى، فلماذا اذن هذه الرسالة، ولماذا نظرت انذاك في الفوج في عينيه. وغنت له، ومن

ثم جاءت مسرعة الى المستشفى ؟ انه لم يتشكك في ان هذه هي الحقيقة، وانه ببساطة لا يعرف كيف يتصرف.

انه كان قد فكر بذلك، اثناء ماكان يمسك الرسالة بيده، ويفكر به الان ايضا، عندما عزم على الذهاب الى المطار، دون العروج على المسرح. ولم يكن الموضوع يدور عن اي شيء اخر، سوى الحب بالذات. اي انه يدور حسبما يدركه، عن موضوع زواجه من غالينا بيتروفنا . اما هذه الرسالة فلأي امر هي، ان لم تكن لهذا الغرض؟.

وهو بعد ان قبع بالعزوبة حتى الحرب، فأنه منذ اندلاعها لا يفكر عموما بالزواج، قبل انتهائها . وكذلك فأنه ماكان ليظن طبعا بأن من الممكن ان يتزوج من ممثلة، والاكثر من ذلك، الان في وقت الحرب.

ولكنها كتبت له رسالتها الآن بالذات، وليس من بعد الحرب. وان عليه الان ان يقرر كيف يتصرف. فلقد كان اعزب، وباستطاعته ان يقول لها غدا : "اقبلي بالزواج مني ". ورغم ان الوالدة - العجوز لا تحب حتى ان تسمع كما يبدو، بأنه سيتزوج من ممثلة، غير ان في مثل هذه الامور لايقيمون كبير اهتمام.

وتذكر سنوات عمر غالينابيتروفنا وهو يفكر بسنوات عمره. فأنها تبدو من حيث شكلها في السابعة والعشرين. الا انها كانت قد قالت في اول حفلة في الفوج، بأنهما قرينان بالعمر، اي ان عمرها اثنان وثلاثون عاما ايضا. وذكرت ذلك دون ان يسألها احد. وان هذا قد اثار اعجاب

بولينين انذاك. ولكنه تذكر الان بأنها كانت تتكلم عن كل شيء خلال مقابلاتها الا عن حياتها الشخصية. ألم تنتظر حتى الثانية والثلاثين من العمر الا لتكتب في ذلك اليوم رسالتها هذه الى بولينين.

"- لقد فكر بولينين بشعور من الغيرة متسائلا - ماذا كان لديها هناك ؟. من المحتمل انه كان لديها شيء ما ماكانت تود الحديث عنه. بل ولربما ماتزال حتى الان في عصمة زوج ؟ ومن المحتمل ان زوجها واحد من هؤلاء الفنانين الذين يسافرون سويا معها، والذين يمسك بعضهم بعضا بتلك الرفقة التي لايمكن ان يفهم منها، من يمسك بمن ولا ماذا يدور بينهم.

وفي الواقع فأن الامر ليس شبيها بهذه الصورة كما يبدو، ولكن زوجها يمكن ان يكون عندئذ ليس معها الان هنا، بل في مكان اخر بموسكو او في المهجر".

وهاجت به الرغبة في أن يرى غالينا بيتروفنا في الحال، وان يسألها وجها لوجه عن كل هذا. غير ان الاستدارة بالسيارة الى الوراء نحو المسرح الآن، ومن منتصف الطريق، ستكون مثيرة للسخرية، وان ذلك غير لائق لا امام غريتسكو ولا امام السائق.

وانحرف الطريق من الخليج نحو الجبل، الذي بدت عليه جلاميد الصخور وكأنها لحى سوداء معلقة تحت الثلوج. وكانت السماء بلون ابيض متسخ، والثلج يكتسح الطريق بموجات بين آونة واخرى.

- سأل غريتسكو- ايها الرفيق المقدم، ماهو تقديرك للجو ؟ فيوم امس كان مناسبا للطيران وملائما للحركة. ولكن مسؤولي الانواء الجوية لا يعدوننا حتى متى سنتحرك.

- ان مسؤولي الانواء الجوية يمكن حتى ان يكذبوا. ولكن انظر الى الطريق فهو شبيه بالعاصفة ! - قال بولينين ذلك وهو يفكر بالعثور على اي سبب للذهاب سريعا الى مورمانسك ورؤية غالينا بيتروفنا.

-٢-

ان المطار الذي رابط في احد نصفيه فوج بولينين، ورابط في نصفه الثاني سربان انكليزيان، هو مثل جميع المطارات المحلية، عبارة عن ساحة من الارض غير كبيرة، خالية من التلال، ومحصورة بالجبال من جميع جهاتها. وان جميع الطائرات، عدا تلك التي تقف على مدرج التحليق في نوبة الحراسة، قد دفعت الى المخابىء في اطراف المطار. وعند السفوح الصخرية تجمعت عشوائيا الملاجيء الارضية المغطاة بالثلوج لقاعة افراد الطيران وللمقر، والحراسة، والمطعم، والزاوية الحمراء*.

---

* ركن التثقيف السياسي.

فكر بولينين مرة اخرى، وهو يجتاز طرف ساحة الاقلاع، من خلال ريح ثلجية تضرب بالصخور، وحتى انها تدور المراوح البيضاء، حول طلبه الانتقال الى ضواحي موسكو الذي قدمه قبل ثلاثة اسابيع منفعلا، بعد انباء المعارك على جبهة ماجايسك. وان الجو في ضواحي موسكو حتى في هذا الوقت من شهر تشرين الثاني - نوفمبر، هو افضل بكثير مما في هذه المنطقة، وان التحليق يمكن ان يكون اكثر بمرتين في اقل الحالات. ولكنهم سوف لن يوافقوا، كما يعتقد، على طلبه.

طلب بولينين ان تتجه السيارة نحو الزاوية الحمراء، تقديرا منه ان جميع الطيارين هم هناك الآن بمناسبة العيد، وتوقع انهم سيخرجون من الملجأ الارضي لاستقباله. ولكن السيارة عندما توقفت، لم يخرج احد من الزاوية الحمراء لاستقباله. ونزل بولينين من السيارة "ايمكا" وهو يعرج ودفع باب الملجأ. وكان الملجأ غاصا بالطيارين والفنيين وهم يصغون الى المذياع. لم يدرك بولينين عماذا كان يتحدث المذياع ولكن الجميع كانوا يصغون بانتباه، بحيث ان اثنين او ثلاثة فقط من الجالسين عند الباب تماما قد التفتوا اليه وهبوا واقفين.

- قال بولينين - مرحبا ايها الرفاق.

ونهض الموجودون كلهم، وهم ينظرون الى آمر الفوج ويواصلون الاصغاء الى صوت الراديو.

- قال قوميسار الفوج ليفيكين، بعد ان اقترب من بولينين وصافحه - مرحبا يانيكولاى نيكولايفيتش (كنية بولينين ولقبه - المترجم). اننا نستمع الى المذياع. العرض العسكري جرى في موسكو، وخطاب الرفيق ستالين يقرأه المذيع. هيا بنا نسمع. - واخذ بيد بولينين الذي طار من رأسه مرة واحدة كل ماكان قد دار به خلال الطريق.

لقد كانوا قد قالوا له منذ الصباح في المستشفى، انه قد جرى امس في موسكو اجتماع احتفالي مع خطاب لستالين. ولكن هذا كله جانب واحد، اما العرض العسكري في الساحة الحمراء، فأنه جانب اخر. ان هذا هو التحدي للالمان ولطيرانهم. وماكان يعرف بولينين اي جو يغطي موسكو في هذا اليوم، غير انه كان واثقا: بأنه من اجل قصف العرض العسكري في الساحة الحمراء، فأن الفاشست سيشنون غارات جوية مهما كانت حالة الطقس. وهذا يعني ان السماء فوق موسكو كانت محمية تماما، بحيث انهم لم يتمكنوا من اختراقها !.

" لن تروا موسكو ايها الكلاب..." - فكر بولينين بفرح وشتم بسره طويلا الفاشست الذين يهجمون على موسكو. وكان هو الان وفي هذه الدقيقة، مستعدا لنسيان كل ماأغضبه منذ اول بداية الحرب: نسيان كيف ان الجحوش يحل محلها ببطء شديد، طائرات ميغ، وان الميغ رغم سرعتها الجيدة، ماتزال خفة المناورة الفعلية

لديها جيدة في الارتفاعات العالية فقط، وان الطائرات المطاردة، غير كافية، الأمر الذي استدعى التدريب على استعمال هذه الطائرات "هاريكين" الانكليزية، علما ان الحصان الهدية لا ينظرون الى اسنانه !.

حسنا، فما دام قد تقرر اجراء هذا العرض العسكري في موسكو فهذا يعني ان الامور ستكون على مايرام ! اننا سنعيش ونرى ذلك. لقد توفرت رغم كل شيء، تغطية لموسكو من الجو بحيث لم تسقط على الساحة اية قنبلة!.

وعندما فرقع جهاز الراديو وسكت، فأن الصمت قد خيم على الملجأ الارضي لمدة دقيقة كاملة. ومسح بولينين بالمنديل جبينه الذي تصبب عرقا من التأثر، وتطلع الى كل ناحية.

- لقد لووا انف الهانز بالم ! - قال بولينين ذلك بفرح، وهو يردد مكررا عبارته المحبوبة هذه. اما قوميسار الفوج ليفيكين فقد صرخ وهو يقفز على احد المقاعد:

- ايها الرفاق الطيارون، ايها الرفاق الفنييون، ارجو منكم الوقوف! المجد لستالين! - قال ليفيكين هاتفا - المجد لموسكو ! المجد لطياري موسكو ! الموت للمحتلين الالمان ! هورا !

- ايها الرفيق المقدم - ظهر الحارس عند عتبة الباب مناديا - لقد جاء الانكليز للتهنئة !.

زرر بولينين الزر الاعلى في قميصه العسكري، ونحى

العصا جانبا وخرج من الملجأ الارضي لاستقبال الانكليز، وهو يجاهد ان لايعرج.

وترجل من سيارة "جيب" مكشوفة، خمسة افراد انكليز، وهم الآمران للسربين الانكليزيين، الرائد بريوس والرائد كوللر، اضافة الى بريوس اخر الذي اسقط يوم امس طائرة المانية، وهو برتبة نقيب وشقيق بريوس الاكبر الرائد، والنقيب كلارك، وهو طيار صغير الجسم اعوج الساقين، كان قد احرق فوق لندن اثنتي عشرة طائرة المانية، اما هنا في مورمانسك فهو لسوء الحظ مايزال لم يسقط حتى ولا طائرة واحدة حتى الان. ومن ثم الانكليزي الخامس وهو الرائد السمين هينيغر.

بعد ترجلهم من سيارتهم "جيب" ومصافحتهم لبولينين بفرح، دفعوا اصابعهم الكبيرة نحو السماء، وكرروا، يقاطع بعضهم بعضا: " أوه، سبيتش*!، اوه، ستالين، فيري ويل:** ".

- قال الرائد هينيغر بلغة روسية جيدة خالية من اللكنة وهو يهز بكلتا يديه، وبكل قوة يد بولينين الذي لم يعد يثير عجبه - اهنئكم، أنني اهنئكم من كل روحي! ان العرض العسكري في الساحة الحمراء، هو مظاهرة تحد رائعة للالمان. وان خطاب ستالين لخطاب هائل. وواصل هينيغر كلامه وهو يهز يد بولينين.

---

* تحية مائدة باللغة الانكليزية.

رائعة للالمان. وان خطاب ستالين لخطاب هائل. وواصل هينيغير كلامه وهو يهز يد بولينين.

لقد علم بولينين بأن هينيغير لدى الانكليز ليس اكثر من ضابط اعاشة. وان الطيارين الانكليز انفسهم لا يحبونه كثيرا، ولكنهم لايفقهون شيئا باللغة الروسية، وانه الانكليزي الوحيد الذي يتكلم بها، ولهذا فهو يحشر نفسه دائما في المقدمة.

- انا كلنا سعداء لدرجة كبيرة، سعداء لدرجة اننا جئنا نهنئكم بهذا! اننا فرحون جدا! - كرر هينيغير الكلام وهو يقف امام جميع الانكليز الاخرين ضاحكا بملء شدقيه امام بولينين مباشرة.

ان الرائد هينيغير السمين الجميل الذي تجاوز مرحلة الشباب والذي شارك في يوم ما، كما ذكر ذلك هو نفسه، في احتلال آرخانغلسك، ومن ثم عمل مدة عشرين سنة في مختلف الشركات السياحية، هو، حسب قناعة بولينين، مجرد جاسوس لا أكثر ولا أقل. غير ان هذا الشخص الذي لا يرتاح له بولينين، تقضي الضرورة بأن يجري التفاهم الان بواسطته مع جميع الطيارين الانكليز الاخرين الذين هم حسب رأي بولينين، على عكس هينيغير، شبان طيبون.

وواصل هينيغير الكلام بلا انقطاع، اما الطيارون فقد وقفوا من خلفه يهزون رؤوسهم حسب عادتهم الانكليزية بالموافقة على كلامه، معلنين بذلك، بأن كل ما يقوله

صحيح، وانهم سعداء فعلا باجراء العرض العسكري في الساحة الحمراء، وان العم جو* قد القى خطابا في هذا العرض العسكري، وان الامور عموما، وعلى ضوء هذا كله، يجب ان تصير افضل من قبل.

ورأى بولينين بانهم فرحون فعلا، وشعر بالاسى انه لا يستطيع بنفسه التحدث اليهم، بل يجب ان يتكلم بواسطة الرائد هينيفير.

وكان الطياران الشقيقان بريوس كلاهما يبتسمان الى بولينين بفرح عبر رأس هينيفير القصير. وان احدهما مجرد طويل القامة اما الاخر فأنه طويل بشكل غير معقول، وانهما كلاهما شابان، وكلاهما بشاربين اسودين رفيعين فوق الشفة العليا، وكلاهما محتقنان ومقشعران من البرد، ويقمصلتين من الجلد الاخضر وبفروتين بدون اكمام.

وابتسم ايضا آمر السرب الثاني الرائد كوللير الاشقر ذو الوجه المستدير والصلعة الكبيرة الكالحة. ورغم انه كان بدون قبعة الطيران، الا ان الخوذة المعدنية الانكليزية المستديرة الشبيهة بالماعون، كانت معلقة في حزامه. ولم يبتسم شخص واحد فقط هو النقيب كلارك الصغير الجسم والاعوج الساقين ، بوجهه الطويل

* كنية ستالين في الصحافة الغربية انذاك.

الكئيب الذي يشبه وجه رجل كنيسة، امضى حياته كلها عاكفا على الورق. فقد كان قد امال رأسه جانبا، ونظر الى بولينين شزرا وبصمت، وهو يوسع عينيه قليلا وكأنه يقول له : "دعهم يتدافعوا، فأنني معك سنضرب على كل حال اكثر من جميع الاخرين عندما يجد الجد".

وبعدما استمع بولينين الى تهاني هينيفير، وشد على ايدي الطيارين ذهب مع الانكليز الى مطعم افراد الطيران،دون ان يرجع الى الزاوية الحمراء،حيث انه لم يكن لديه سبب للشرب فحسب، بل وكانت عنده الرغبة ايضا بذلك. فلقد تناغم عنده كل شيء: اموره الشخصية،والعرض العسكري، والرجوع من المستشفى، ومجيء الانكليز. وبالاضافة الى ذلك فأن الشرب معهم في هذا اليوم بالذات، يوم العرض العسكري في الساحة الحمراء هو ان ندعهم يشعرون بعض الشيء بقوة المناسبة،ولأي سبب!.

كان بولينين يعاني نفسيا، من أن هؤلاء الانكليز، قد جاؤا الى الشمال هنا، وكأننا نحن لا نقدر بأنفسنا ان نحمي انفسنا. وعلم هو بأن وجودهم هنا، في مورمانسك بالدرجة الاولى، يعود الى انه كلما تصل ارسالية جديدة تقريبا تحمل شحنة من طائرات "هاريكين" فأن من الواجب استيعابها بجهود مشتركة. وانه بالذات، وكذلك نصف فوجه كانوا منصرفين الى ذلك في الوقت الحر الخالي من الطيران. وانه ليس لديه في هذا بالذات مايستطيع لوم الانكليز عليه. فأنهم قد علموا طيارينا على طائراتهم

"هاريكين" باخلاص، بل وحتى على تفاصيل زائدة: لأن طائراتهم "هاريكين" لم تكن بمستوى تلك الماكنات الدقيقة التي تتطلب وقتا طويلا لفهمها من قبل الطيار المطارد الذي يدرك كيف يمسك بالمقود.

وفي اثناء اوقات الفراغ من التدريب، كان الانكليز يطيرون معنا لحماية مورمانسك، ولمرافقة طائراتنا القاذفة. ولقد طار الانكليز طيرانا جيدا، بل واذا اردنا ان نكون عادلين حتى النهاية، فأنهم لم يكونوا اقل من طيارينا. وفي البداية فرح بولينين بنجاحاتهم، لكنه فيما بعد، اثر ما ترجموا له مقالة من احدى الجرائد الانكليزية التي وصلت الى مورمانسك، فقد ادرك منها بأنهم في انكلترا هناك، يريدون ان يجعلوا من البقة فيلا. فقد ذكروا في الجريدة عن الطائرات الانكليزية المطاردة الثلاثين الموجودة هنا، وكأن الدفاع عن مورمانسك يقع على عاتقها وحدها. وان هذا قد ظل يثير غضب بولينين مدة طويلة.

ومن الطبيعي ان الطيارين الانكليز ليس لديهم يد في ذلك، فأنهم كانوا يطيرون حسب الاوامر، ووراوا الثرى اربعة من رفاقهم. وان سرب الرائد بريوس اسقط احدى عشرة طائرة المانية "ميسسير شميت" بينما اسقط سرب الرائد كوللير ثلاث طائرات فقط. وهذا ليس بسبب تقصير منه، بل ان السرب عكف بالدرجة الاولى على التدريب. وبسبب انهم اسقطوا ثلاث طائرات المانية فقط، فأن هذا

كان كوجع الضرس تماما حتى بالنسبة للرائد كوللير، ولمعاونه النقيب كلارك. وان بولينين ادرك جيدا مشاعرهم هذه. ولهذا فأنه في الوقت الراهن، وعندما جلسوا حول المائدة، فأنه رفع متعمدا كأس شراب الفودكا بصحة النقيب كلارك، قبل كل شيء، وبحياة مدينته لندن. التي دافع عنها في الجو دفاعا يشبه في جودته كما يبدو، دفاع طيارينا عن موسكو.

طوى النقيب كلارك الصغير الجسم، بيده القصيرة الكأس المضلعة مع الفودكا وقرعه مع بولينين ثم اجهد نفسه في احتسائه حتى الثمالة. ولكنه مال من بعد ذلك فورا الى الوراء، واخذ يتطلع بصمت الى السقف. ومن يدري حول ماذا كان يفكر. فمن الممكن انه راح يفكر بزوجته واطفاله الثلاثة، او بمدينته لندن، بل ولربما بشيء اخر ليس لدى بولينين اي تصور عنه.

ان كلا من بريوس الرائد وبريوس النقيب المنحدرين من عائلة انكليزية عريقة جدا، حسب قول هينيغير قد احتسيا خمرة الفودكا بجرعات صغير بطيئة، وهما يبتسمان بوجهيهما الورديين وشاربيهما الاسودين، ويتحدثان بشيء ما. ولكن الرائد هينيغير كان يترجم بنوع من الاختصار والتكرار، بحيث ان بولينين كان طول الوقت يظن بأنه يكذب ولا يترجم ذلك الذي يقولونه بصدق.

وشرب الرائد الاشقر الاصلع كوللير كمية ربع كأس في كل جرعة بانتظام، وفي كل مرة يأكل بشراهة، ويمسح

شاربيه الاشقريين، وقد لاح الى بولينين، الذي اخذته الخمرة قليلا، احتمال ان لديه ولدى الرائد كوللير مصيرا مشتركا، من حيث كونهما يعملان دائما ليس اقل بل اكثر من الاخرين، ولكن احدا لم يلاحظ ذلك. بل وحتى انه غمز الى الرائد كوللير مامعناه بأنه يفهم سبب المه من جراء ان سربه لم يسقط سوى ثلاث طائرات المانية فقط، وبصدد ان الرائد كوللير هو في الواقع ليس اقل من الرائد بريوس في جميع الاحوال، على الرغم من ان سربه اسقط احدى عشرة طائرة. وكذلك فأن الرائد كوللير غمز بدوره الى بولينين، اما عن فهم او غير فهم، ولكن بشعور من نفس العطف الذي يكنه بولينين نحوه.

وسعى كل من قوميسار الفوج ليفيكين وغريتسكو وطيارين اخرين ان يشرحوا مرات عديدة عن طريق هينيغير للانكليز، ماذا يعني العرض العسكري في الساحة الحمراء بالنسبة لنا، وعبروا عن افتخارهم بما جرى اليوم في موسكو، وارادوا ان يفهم الانكليز مشاعرهم. ولكن الانكليز رغم انهم كانوا يهزون رؤوسهم بالرضا، الا ان بولينين احس بأن هينيغير لا يترجم لهم كل مايقال بصورة صحيحة، وانهم لا يفهمون كل الذي كان جماعتنا يريدون ان يقولوه لهم.

وبعدما اخذ الانزعاج يدب في نفسه اكثر فاكثر، شعر بولينين بالارتياح عندما رأى النقيب غافاريوشين، المكلف بمرافقة الانكليز، ويجيد اللغة الانكليزية ،

داخلا الى المطعم.

- اسمع يا غافاريوشين، ترجم لهم كل ما سأرجو منك ترجمته - قال بولينين ، دونما حرج من حضور هينيفير، حال دخول غافاريوشين وجلوسه وراء المائدة. - ترجم لهم انهم شبان طيبون.

- وماذا غير ذلك ايضا؟- تساءل غافاريوشين، وهو لم يلحق بعد، باحتساء الشراب، لهذا فهو غير مؤهل لان يكون في مجرى الحديث.

- لا بأس، ترجم لهم انت اولا، انهم شبان طيبون - قال بولينين. وترجم غافاريوشين العبارة، وانتظر ان يقول بولينين الان شيئا اخر، وذلك لأن الناس الذين يسكرون قليلا، وهم في مزاج حسن، يحبون التكرار. ولكن بولينين نفسه، احس بأنه قد سكر، وان هذا قد جاء الان في غير محله، فشد يديه بتوتر، وشحب وجهه وقال:

- ترجم لهم ايها النقيب - انه لم يصح بعد حتى النهاية، ولكن منظره صار منظر انسان صاح تماما، وقال - قل لهم انهم شبان طيبون. كرر لهم انت هذا القول...

" مرحبا مرة اخرى" فكر غافاريوشين وترجم.

- ... ولكنهم لا يجب ان يظنوا- ترجم لهم - لا يجب عليهم ان يظنوا...

وترجم غافاريوشين بصوت عال مامعناه ان على الانكليز ان لا يظنوا...

- قال بولينين - كلا، ليس هم، بل يجب عليه ان لا

يظن ـ واشار بولينين بأصبعه الى الرائد هينيفير ـ يظن بانـنا لانستطيع ان نحط ايضا في مكان ما دعه لا يظن بانـنا لانستطيع ان نحط ايضا في مكان ما قرب مدينتهم لندن وان نفعل عندهم نفس مايفعلونه عندنا. فأننا لسنا بأقل منهم. انت ترجم دون خشية من التعقيد فأنهم يفهمون.

لقد ترجم لهم غافاريوشين حتى هذا الكلام.

- أن الموضوع ليس في كونهم اسقطوا هنا أربع عشرة طائرة، فأنا رغم هذا، احترم كوللير ليس أقل من بريوس، مع انه اسقط ثلاث طائرات فقط ... ترجم انت هذا، انت ترجم. ان بريوس لن ينزعج، وانا اعرف ذلك. انا احترمهم لانهم يطيرون ويقاتلون معنا، اما كم هو عدد الطائرات التي اسقطوها، فليس مهما، وذلك لأننا نتفاوت ايضا في اسقاط الطائرات. فيوجد من هو اكثر، ويوجد من هو أقل. ان القضية ليست في هذا الموضوع، بل القضية في ان العرض العسكري قد جرى اليوم في الساحة الحمراء... ترجم لهم ترجم. وكذلك فأنه لم يستطع حتى ولا فاشستي واحد من التسلل الى موسكو! ان هذا هو الامر المهم! والتفت بولينين فجأة الى هينيغير الذي كان يترجم شيئا ما في وقت واحد مع غافاريوشين وقال ـ كفى كفى فأنك تترجم بصورة مختصرة جدا. وقد لاحظت ذلك. اما انا فاحتاج الى ان تترجموا كل ماقول....

شعر بولينين بأنه لم يتخلص نهائيا رغم ذلك، من

النشوة التي ضجت في رأسه، ولكنها لم تربكه، حيث كان على ثقة بأن الطيارين الانكليز يجب ان يفهموه، ولهذا فهم طيارون !

- وقال - انه العرض العسكري، ترجم لهم، انني من اجل مثل هذا العرض لا اشفق على نفسي لو واجهت الموت! فلو انهم قالوا لي : عش ولكن بدون ان يجري العرض لقلت لهم لا اريد! اما لو قالوا: مت وسيجري العرض فأقول لهم، أموت! ترجم لهم فانهم يفهمون.

ان الانكليز قد فهموا وهزوا رؤوسهم علامة على ذلك. وان بريوس الرائد وبريوس النقيب كليهما كانا ثملين ومرحين، وان الرائد كوللير كان جديا. اما النقيب الصغير كلارك فأنه قد دمعت حتى عيناه.

لقد جلسوا سويا ساعة اخرى او ساعة ونصف الساعة، بعد ان اتوا على جميع الطعام الذي امامهم من البيض المقلي والشحم والسمك المعلب واللحم المعلب. ومن بينهم من اراد ان يضع على المائدة حتى لحم الخنزير المعلب في علب انكليزية مثلثة الشكل، الا ان بولينين التفت ولاحظ ذلك فأشار بيده الى ارجاعه الى مكانه، حيث ان عزة النفس لا تسمح باكرام الانكليز من لحومهم المعلبة.

وعندما رافقوا الانكليز لوداعهم، فأن الرائد هينيغير الذي شرب قليلا وتحول من شخص مرح وقح الى متبرم متجهم، قد جلس وراء مقود السيارة "جيب" وجلس

الاخـوان بـريـوس وكـولـلير في المقعـد الخلفـي. امـا النقيـب كـلارك الثمـل الـذي اثقلـه الحنين، فقـد جلـس في المقعـد الامـامـي الى جانب هينيفـر. وبعـد ان شـد بقـوة على يـد بـولينـين، فـأنـه قـال لـه عبارة وديـة طويلة، مـاكـانت لـدى هينيفـر رغبـة في تـرجمتهـا، ولم يلحـق غـافـاريـوشـين بـذلـك ايضـا. وهكـذا فـأن بـولينـين مـافهـم انـذاك، ولم يستطـع ان يفهـم فيـما بعـد مـاذا كـان معنى تلـك العبـارة، وذلـك لأن النقيـب كـلارك كـان قـد قضـى نحبـه في اليـوم التـالي في معـركـة سقـط خـلالهـا مـع طائـرتـه في خليـج مـورمـانسـك.

واعطى هينيفـر، وهـو يقطـع الـوداع، بـوقـا غـاضبـا، فتحركت سيارة "الجيب" الانكليزية.

ورافق بـولينين سيارة "الجيب" بعينيه، ثـم رفـع رأسـه وتطلـع الى السـماء الـتي تـراقصـت في ارجـائهـا كـلهـا بـلا عجلـة، الهـالـة القطبيـة الـتي تلمـع بـالـبرد. ولاح الى بـولينـين فجـأة انـه اتجـه صـاعـدا الى الاعلى ويسـير الان على ارتفـاع خمسة الاف مـتر فـوق مـوسكـو بجهـة اخـرى من هـذه الهالة القطبية.

- نـادى بـولينـين وهـو يقـف في الـبرد- غـريتسكـو ايهـا الرائد غريتسكو.

- قال غريتسكو - حاضر.

- الا نذهب؟

- قال غريتسكو- هيا بنا. ولكن يجب ان اخذ المعطف الجلدي.

وعـاد الى المطعـم وجلـب المعطـف الجلـدي الـذي كـان ملقـى بـالقـرب مـن المـوقـد، وهـو دافىء حـار والقـاه عـلى كتفي بولينين.

- قـال بـولينـين - شكـراً - وسـار بجـزمتـه الطـويلـة العنق وهـي تصـر على الثلج نحـو الملجـأ الارضـي، حيث كـان يسكن مع غريتسكو.

-٣-

بعد ان نام بولينين وغريتسكو مدة ساعة وشربا شايا قـويـا مـن الـترمـوس. واحـب بـولينـين ان يتفقـد مـرة اخـرى الملاجـىء الارضيـة للطـيران، غـير ان رجلـه مـاتـزال تـؤلمـه، فقرر ارجاء التفتيش الى يوم غد.

- قـال غريتسكـو الـذي كـان في اجازة مـن الخدمـة، مـع بـولينـين بسبـب الاصـابـة - ان قسـما ينـام ، والاخـرون يكملـون سهـرتهـم او يقـومـون بـأي عمـل آخـر... فلـدى غـوليـايـف تجلـس امـرأة مـن مخـزن المبيعـات العسكـري. وأنـا رأيتهـا كيـف راحـت تـدرج نحـو ملجئـه الارضـي، فـأذا كنـت ستـذهـب فستـزعـج الجميـع. "ايهـا الـرفيـق المقـدم هل تسمح لي بمواصلة العمل؟..."

- ابتسم بـولينين وقـال - عمن انت تتحدث، هل بصدد غولياپف ام عن غيره؟.

- مـن الافضـل ان تطلـع عـلى معلـومـاتنـا خـلال الايـام العشـرة المـاضيـة، وسـأذهـب الى المقـر لجلبهـا.

- غدا صباحا سابدأ العمل. فلا تضغط علي. وانا ما

ازال خارجا من المستشفى خروجا مشروطا. ولولا اشتياقي لكم لكان باستطاعتي الرقود والتصنع مدة اخرى.

- اذن من الافضل لك التصنع هنا، اذا كنت مشتاقا.

- مالعمل، فالحياة كلها في الفوج، ولاحياة غيرها.

- قال غريتسكو- هكذا اذن ولا غيرها. وماذا بصدد الغجرية؟.

أن غريتسكو العملاق بالنسبة الى بولينين كان اكثر من شقيق: فانهما كانا قد درسا معا في مدرسة ليبيتسك، وكانا سوية في اسبانيا وفي خالخين - غول. واضافة الى ذلك كان بولينين الذي كان يعمل مفتشا بموسكو، عندما طلب في اول ايام الحرب الذهاب الى اي مكان في الجبهة، ولأية مهمة كانت، فأن غريتسكو نفسه، عبر عن رغبته في ان يذهب معه الى هنا في الشمال، لأجل ان يكونا معا في الخدمة ايضا. وان بولينين ثمن تلك المبادرة من غريتسكو تثمينا حتى اعلى من تلك المصادفات، عندما قدم له غريتسكو المساعدة في الجو. فهناك في الجو كان قد افلح في تسديد الحساب الى غريتسكو، اما هنا فيعتبر نفسه مدينا له.

ورغم ذلك فقد تردد الان: هل يتكلم مع غريتسكو عن غالينابيتروفنا ؟ غير ان هذا، من الممكن ان يذكرهما باحاديث سابقة لهما عن النساء، وانه بالذات لم يكن ليريد ذلك.

- وفي الاخير تكلم بولينين، داعيا غريتسكو

بكنيته القديمة، كالانتشا، التي لازمته منذ ايام الدراسة في مدرسك ليبيتسك وقال - ان اموري جيدة، اي بمعنى سيئة - خذ واقرأ - واخرج من جيب القمصلة رسالة غالينا بيتروفنا، واعطاها الى غريتسكو.

اخذ غريتسكو الرسالة، وسرح بها مدة طويلة بانفه الطويل، وجال بعينيه في الرسالة وصال، وقلبها وقرأها حتى خاتمتها، ثم بدأ يقرأ بها من جديد.

- سأله بولينين وهو يحاول اخذ الرسالة من يده - ماذا انت تدرس؟ ان هذه ليست تعليمات للطيران.

- ولكنها تستحق الدراسة. انهم يريدون ان يتزوجوك يانيكولاى!

- ومن اين رايت ذلك؟

- اذا كان ذلك غير واضح بالنسبة لك، فأنه واضح بالنسبة لي بصفتي رجلا متزوجا!

- وفجأة سأل بولينين - واذا كان الأمر هكذا، فما هو السيء في ذلك؟

- وسأل غريتسكو بدوره - وماهو الجيد في ذلك؟ ثم اعاد له الرسالة وقال - انها تزوجك من نفسها، ولكنها تخوض بالجذور.

- وهل أنهم سألوا عنك ياترى ؟

- أنني اخترت لنفسي بالذات تلك التي لا تسأل.

- لماذا تحمل انت عنها فكرة سيئة؟ ولأي سبب؟ هل لأنها ممثلة؟ - سأل بولينين، وهو يتذكر زوجة

غريتسكو، ماروسيا التي هي دائما لا ترى ولا تسمع ولا تختلط بين الناس، وقارن ذهنيا بينها وبين غالينا بيتروفنا.

- قال غريتسكو- لا ادري، وسكت، مدركا اهمية جوابه بالنسبة الى بولينين. واضاف - رغم انني لا يلوح لي اي سبب، الا ان بولينين الاعزب اغلى عندي من المتزوج. طبيعي انها تغني بشكل جيد، ولكن هل هذه الاغاني هي لأجلك، فأنا لا اعرف.

ورن جرس الهاتف. فمد غريتسكو ذراعه الطويلة الى السماعة، وبعد ان سمع ماقالوا له، امر قائلا: "اسمحوا".

- لمن يسمحون؟

- خفر مقر قيادة الفوج كان على الهاتف. ويقول ان المشاة جاؤا بصفة ضيوف. وضحك غريتسكو، ولكن بولينين لم يفهم بعد، مغزى هذه الضحكة وقال - كم مرة ذهبت هي اليك في المستشفى؟

- لم احسب ذلك - قال بولينين، رغم انه كان قد حسب في الواقع : سبع مرات.

- قال غريتسكو- دعنا ندخن مادام الحال هكذا، وفتح علبة سيكاير "كازبيك".

وصار مسموعا صوت توقف سيارة قرب الملجأ الارضي.

- سأخرج لأرى من يقود السيارة - وخرج غريتسكو بعد ان انحنى واطئا في الباب.

وبعد دقيقة، تعالى خلف الباب كلام، ومن ثم انفتح مرة اخرى، واذا بغالينا بيتروفنا تدخل الى الملجأ، وهي بجزمة من اللباد ومعطف فرو قصير وفي يدها حقيبة.

- قال غريتسكو وهو يدخل من خلفها- ها قد جلبت الضيوف.

نهض بولينين لاستقبال غالينا بيتروفنا، التي وقفت في منتصف الملجأ، ومن دونما اي سؤال، اخذ الحقيبة من يديها الباردتين.

- قالت غالينا بيتروفنا،في اثناء ما كان بولينين يخلع عنها معطف الفرو القصير - يالها من سعادة، فالعرض العسكري سعادة لاتوصف حقا. انني ما كانت عندي فكرة في الصباح ان ازوركم. غير انني فيما بعد، وعقب انتهاء الحفلة، عزمت على وجوب رؤيتكم. هل انتم منزعجون من ذلك؟

- قال غريتسكو، وهو ينفض الثلج من على قبعة غالينا بيتروفنا ويتطلع الى بولينين، الذي كانت تعابير الارتياح بادية على وجهه، الى درجة ان النظر اليه كان يثير الضحك - عن اي انزعاج تتكلمين. انه سيوجه الان لي عقوبة لأني سمحت لك بالدخول الى المطار.

- كنت في هذا اليوم في المستشفى العسكري، وقالت لي الممرضة بأنكم سألتم عني... - قالت غالينا بيتروفنا متلعثمة. وقد ظن بولينين: انها ستتكلم الان

عن الرسالة، ولكنها لم تتكلم. واضافت غالينا بيتروفنا- وظهر فيها بعد ان الحفلة قريبة جدا منكم. وكذلك فان ضابط التوجيه السياسي وافق على ايصالي اليكم لدقيقة واحدة، ومن ثم نتوجه الى مورمانسك. ولكن الرفيق غريتسكو قال بأنكم ستهيئون لي فيما بعد سيارة للذهاب، وبذلك فأني بقيت هنا. فهل ستعطوني سيارة؟

واحست بنفسها انها ليست لبقة جدا، وكذلك فقد بدا لها انها لا تعرف ما ستقول.

- سأل غريتسكو- هل من الممكن ان تتدفأ قليلا من الصقيع ثم تأكل شيئا ما؟

اجابت غالينا بيتروفنا انها توافق بارتياح ان تتدفأ وتأكل، وذلك لأنها متجمدة من البرد وجائعة، وان رفاقها قد بقوا هناك يتناولون العشاء، في المكان الذي اقاموا به الحفلة. اما هي ففي البداية الحت على نقلها فورا الى مورمانسك، ومن ثم في الطريق، اقنعتهم في التوجه بها الى هنا.

- قالت غالينا بيتروفنا- على العموم فأنا خادعتهم وافلحت في ذلك، رغم اني لا اجيد ذلك كثيرا. هل انكم ستنقلوني بالتأكيد.

قال غريتسكو - مادام هناك وعد فسيتم تنفيذه. انا لا اعرف كيف هو الحال عند المشاة، اما عند الطيران فهو هكذا.

- قالت غالينا بيتروفنا - ولكنه لا ينبغي عليك لوم المشاة، اذ انهم هم الذين اوصلوني اليكم.

- قال غريتسكو- ولماذا اللوم. بل بالعكس، فأننا سندرج الشكر لهم في الامر اليومي غدا. وسأعد ذلك واقدمه للمقدم ليوقعه! وعندما كان غريتسكو يتكلم عن ذلك، كان في نفس الوقت يسحب بيديه الطويلتين، من تحت المائدة، ويضع فوقها وينضد مرة هذا واخرى ذاك، من قنينة اسبيرت، وعلبة بسكويت، وعلبة معلبات، ونصف قرص جبنة وحلقة من الصوصج المطبوخ.

كان بولينين قد اعتاد على ان غريتسكو، ليس هو الذي يدير حياة العزوبية المشتركة لهما فحسب، بل ولايحب ايضا، عندما يتدخلون في ذلك. ولهذا فأنه لم يشارك في الاستعدادات للعشاء، بل ظل جالسا بصمت في زاويته وهو يتطلع مهموما الى غالينا بيتروفنا التي تتحدث بجرأة مع غريتسكو وكأنما هي قد نسيته.

فكر بولينين وهو ينظر اليها - "هل انها تتقصد ذلك؟".

ان الجواب عن هذا السؤال لم يتسلمه الا، عندما شربوا الاسبيرت الممزوج بالماء- شربت غالينا بيتروفنا نصف قدح صغير، بينما شربا هما قدحا كاملا لكل منهما - وبعد أن اكل غريتسكو ربع حلقة صوصيج استعجل في الذهاب الى المقر.

وما كاد الباب يتوارب من خلفه، حتى تغير وجه

غالينا بيتروفنا، اذ ظهر عليه مرة ثانية، التعب، وعلامات الحزن التي ادهشت بولينين، منذ اول لقاء لهما عندما غنت الاغاني. لقد جلست ساكنة ومدة طويلة، ولم تتكلم كما يبدو لمدة عدة دقائق بأي شيء، بل وحتى لم تنظر الى ناحية بولينين.

-قالت له - ها اني قد جئت اليكم. والنساء الذكيات لايفعلن ذلك، غير اني حمقاء كما يبدو. هيا قل ولو أي شيء! فانا تكلمت متكلفة طول ما كان رفيقك موجودا، بينما انا في الواقع اشعر بالحياء والفزع.

بماذا يمكن الرد على ذلك؟ ان بولينين ادرك من كلامها، بأن كل ماكتب في الرسالة، هو حقيقة، وانها تحبه، وجاءت لتأخذ الجواب. ونهض من مكانه وسار مقتربا منها، وانهضها من وراء المائدة، ماسكا اياها من مرفقيها، واخذها بحضنه وقبلها من شفتيها، وهو مستمر بالنظر في عيونها التي لم يطرف لها جفن. وهي تنظر اليه مباشرة وعن قرب. وعاد فاجلسها على المقعد مرة اخرى، ولأنه بعد أن قبلها، مايزال غير عارف ماسيقول لها، فقد أخذ دون ان ينظر اليها، يمشي وهو يعرج الى الامام والخلف في الملجأ الارضي.

- اجلس! الا تسمع؟

وقطع الملجأ الارضي مشيا مرة اخرى، وجلس، وهو يظن بأنه قد اساء اليها.

ولكنها مدت اليه كلتا يديها عبر المائدة، واخذت

بها يده وقبلتها بشكل لم يكن ليتوقعه، بحيث انه لم يلحق في سحبها، فأحمر من المفاجأة والخجل.

- قالت له - هذا كل شيء، اما انت فلا تقبلني اكثر من ذلك من هذا اليوم. هل انت موافق؟.

هز رأسه بالموافقة، وهو لما يزل في حالة انعدام القدرة على الكلام.

- ولا تمشي اكثر من ذلك، من زاوية لأخرى، فأنت تعرج.

- قال بولينين اخيرا بصعوبة - لا تنزعجي من السؤال: هل انت متزوجة؟

- الان كلا- قالت ذلك متريثة واضافت - كنت متزوجة من قبل. وتريثت مرة اخرى. وقالت - تزوجت انا مرتين. وهل اضحكتك صورتي الفوتوغرافية؟

- لماذا؟

- اذن هي ادهشتك؟ هل انت لم تمزقها؟

فتش في جيب القمصلة، وسحب بصمت، الصورة الفوتوغرافية، ووضعها امامها على المائدة.

- لقد كنت سأشعر بالأسف لو أنك مزقتها. وقالت له - ان هذه هي احب صورة عندي ، ولهذا فأني قد تركتها عندك. وهذه الصورة كانت بداية كل شيء: فهي بداية ذلك الذي حصل فيما بعد، وبداية ذلك الذي لم يحصل بعد، الا انني افكر فقط بأنه سيتحقق... انك في تلك الاوقات لو رأيتني ماكنت لتسألني هل اني

متزوجة ام لا ؟

- سأل بولينين - كم كان عمرك انذاك؟

- بنفس عمرك، ثماني عشرة سنة.

- قال بولينين - يمكن انك ماكنت انذاك لتعيري نحوي الانتباه. فأنا ماكنت قد دخلت بعد، في مدرسة الطيران، اذ كنت اعمل سائق عربة ترام، وادرس في كلية عمالية.

- قالت موافقة - من المحتمل الا اعير الانتباه انذاك، فأنا نفسي انذاك...

وبدأت تتحدث له عن نفسها بصفتها فتاة، جاءت انذاك لتوها من المحافظات الى موسكو، وكيف انها درست مباشرة في ستوديو مسرحي، وكيف اشتغلت. وحدثته عن بعض عمليات التحايل التي اضطرت لممارستها، من اجل ان تظهر حسنة الملبس، وهي لديها فستان واحد وقميصان من الصوف، وكيف انهم بعدما حصلوا بالحاح، على بطاقة اشتراك مجانية واحدة لمسرح مخات* ، كان يتسلل حيلة بها ومجانا في المسرح اكثر من شخصين او ثلاثة اشخاص، وكيف انها صبغت حذاءها القديم بيدها بمختلف الوان الدهان، وكيف انها حدثت صويحباتها، عندما اضاعت بطاقتها التموينية لمدة نصف شهر، بأنها تنحف من اجل

---

* احد اشهر مسارح موسكو لحد الان.

تمثيل الدور.

وبحديثها هذا، جعلت بولينين اقرب اليها مما كان عليه من قبل، لأن فترة شبابها كانت شبيهة بشكل ما، لحياته التي كانت ايضا فقيرة الى المال والاهل، ولكنها غنية بالرفاق، ومرت انذاك على الكفاف، بل واحيانا على الشاي بدون سكر، وعلى الطعام الجاف، من الراتب الى الراتب ومع قلة النوم.

غير ان فرقا يوجد هنا، ليس بأمكانه ان لا يلاحظه: فأنه نفسه عندما استعاد ذكريات شبابه، تذكر ذلك الشباب بسيطا ومرحا، بصفته انسانا يعتبر الماضي بالنسبة له، مجرد طريق يؤدي، بدهيا، الى الحاضر، اما الحاضر فهو تماما، ذلك الذي فكر به في الشباب باعتباره مستقبلا. ولكن غالينا بيتروفنا - وقد لاحظ ذلك - قد تذكرت شبابها بشيء من الدهشة الحزينة، وكدرجات سلم قادها في نهاية المطاف ليس الى ما كانت ترغب به. وحاول، وهو يصغي اليها، التوغل هناك، وراء هذا الحزن، ليدرك ماجرى لها، ولماذا لم تأت النتائج، وفق ماكانت تشتهي. "فهل من الممكن انها كانت ذكية جدا في الواقع، ولكنها بسبب خبث الاخرين - او ان احدهم كاد لها - فجاء كل شيء ليس بالصورة المطلوبة ؟ وحتى عندنا في الطيران يحصل مثل هذا فنجد ان واحدا يحصل على الرأس وآخر على الذيل، وهناك سوء حظ وهناك احباط وتأتي النتيجة: الانسان واحد والكشف لآخر ! فهل من الممكن انه

حصل لها مثل هذا ؟ ".

وفكر بزوجيها الاثنين، ولكنه لم يبادر الى سؤالها، اذ احس بانها لاتريد الافاضة اكثر من ذلك.

ونهضت، وهي تنحني على حقيبتها الصغيرة، ثم فتحتها. وكانت هذه الحقيبة مليئة بالمواد المسرحية: فستان اسود، ذلك الذي قرأت به الشعر انذاك في الحفلة، وبعض عقود من الزينة الشبيهة باوراق شجرة رأس السنة، ومشابك لشد الشعر... وفتشت بالحقيبة، واخرجت من قعرها حزمة من الصور.

- لنجلس متجاورين - قالت ذلك وهي تتجه نحو المائدة. سنشاهد صوري الفوتوغرافية.

دفع بولينين المقعد وجلس الى جانبها، وشرعت هي بعرض صورها الفوتوغرافية عليه، واحدة بعد اخرى، وهي صور ملتقطة في سنوات مختلفة وادوار متنوعة. وكانت في بعض هذه الصور الفوتوغرافية جميلة، وفي اخرى غير جميلة، وفي البعض الاخر تشبهها وفي غيرها لاتشبهها، ولاسيما في الشعر الاشقر المستعار الذي يغير ملامح وجهها تماما. وتحدثت له كيف انها ادت تلك الادوار. فأن قسما منها ادته اداء جيدا، وقسما اخر، اداء سيئا، او انها كانت تتساءل بسذاجة: "اليس صحيحا انني مضحكة في هذه الصورة هنا؟ "، أو أنها تقلب فجاة الصور الفوتوغرافية وتقول: ("ألا تنظر الى هذه الصورة. وكان ينبغي على كل حال تمزيقها منذ مدة طويلة.")

- واخيرا قالت ـ هذا هو كل شيء. ولعلك فكرت بأني خدعتك، عندما قلت بأنني جئت صدفة، بينما جلبت معي الصور الفوتوغرافية، فما هو رأيك؟ ولكن الحقيقة هي انني كنت قد وضعت الصور الفوتوغرافية منذ مدة طويلة في الحقيبة، واني احملها معي طول الوقت، وحتى اني اخذتها معي مرتين الى المستشفى.

- قال بولينين ـ انني لم أفكر بأي شيء، ثم طوق كتفيها .لكنها حركت كتفيها حركة من يطلب رفعها عنهما.

- لا تلفني الان بيدك، لأن هذا كله أمر جدي. ولعله سيء ايضا ان يكون بمثل هذا الجد، ومع ذلك فهو هكذا... انني يجب ان اذهب ولكني لا ارغب بالذهاب. فعندك هنا دفء، وفي الطريق برد شديد. الا تسمع كم هي الريح شديدة؟ فقد تطويني الريح في الطريق ثم تعصف بي وتلقيني في كثيب ثلجي مثل بقية الكثبان. اما انت فتمر في الصباح عابرا، بل وحتى لا تلاحظني... ان هذا كله هراء !. هكذا قاطعت نفسها بنفسها. وقالت ـ اما الان فقل لي الحقيقة: لو اني بقيت هنا لأغادر غدا صباحا، فهل سيكون هذا امرا غير لائق جدا؟ فاذا كان هذا غير مناسب جدا فلا حاجة حينئذ له.

- قال بصوت مبحوح ـ سأتدبر ذلك الان.

- هل هذا مناسب فعلا؟

- سأتدبر ذلك الان ـ كرر كلامه بدلا من الجواب والقى على كتفيه المعطف الجلدي وخرج.

-٤-

بقيت غالينا بيتروفنا لوحدها. وماكانت تدري كيف انه سيتدبر مبيتها: فهل سيأمر باعداد فراش لها في الملجأ مع النساء، حيث انها كانت في اثناء الحفلة قد شاهدت بعض النسوة اللواتي كن في الفوج. ام انه سيخرج مع رفيقه من الملجأ ليتركوها تقضي الليل وحدها، ام انه ـ وهذا مافكرت به ايضا، وهي تسمع صوته المبحوح - سيرجو من رفيقه اخلاء المكان ليتسنى له البقاء معها؟ انها لم تكن تقدر كيف هو سيتدبر الامر، ولكنها تعلم ماذا تريد هي بالذات. ولاح لها ان من الممكن ان يقع بحبها، وانها ارادت ذلك. وكانت لديها الرغبة في ان تتحدث له عن حياتها، ولكنها تفهم الى جانب ذلك، بأنه لاينبغي له ان يعرف عن حياتها اي شيء، يمكن ان يحول دون حبه لها. فأنها كذبت عندما قالت، انها تحمل دائما هذه الصور الفوتوغرافية معها، حيث انها لم تأخذها معها الا في هذا اليوم لأجل ان تطلعه عليها. وكذبت عندما قالت بأنها جاءت اليه بصدفة غير متوقعة بالنسبة لها، وذلك لأنها كانت قد قررت في النهار الذهاب اليه، بل وحتى انها توقعت مسبقا، بأن من الممكن ان تبيت الليل هنا. ولكنها ماكانت ترغب في ان يكون بينهما اي شيء اخر في هذا اليوم، ماعدا ذلك الذي وقع وصار. وليس ذلك بسبب انها نفسها غير راغبة في ذلك، بل بسبب انها كانت بحاجة لان يحبها. وهي قد

اخذت ذلك بنظر الاعتبار عندما جاءت الى هنا. وفكرت ايضا بأنها اذا بقيت هي نفسها معه، شرط ان لا يحصل بينهما اي شيء، فأن هذا الليل سيربطه بها بقوة اكثر من اية ليال اخرى.

وفي الاستراحة مابين فصلين من الحفلة التي جرت اليوم، عندما اخبرت صديقتها ماشا ماكاروفا، بأنها ليست فقط ستذهب اليه، بل ومن الممكن ان تبقى هناك وتقضي الليل عنده، فأن صديقتها تلك صفقت يديها فقط وقالت: "احذري".

- قالت بثقة - لن يحصل اي شيء.

- افتحي عينيك - قالت ماشا مكررة ذلك وهي غير واثقة منها، ومن ثم نظرتها نظرة فزع بعينيها المستديرتين.

- كررت غالينا بيتروفنا قولها بعناد - لن يحصل أي شيء وسترين ذلك.

بيد انها وقد بقيت لوحدها في الملجأ، قد شعرت فجأة بالخوف من نفسها هي.

"انني اذا ماسمحت له بالبقاء، وتصرفت وفق مااريد ان اتصرف، فأن كل شيء سيضيع! وان هذا لا يجوز فعله بتاتا. فالناس الذين من امثاله لايتسامحون ابدا مع مثل هذا. كلا. لايجوز ذلك ولا ينبغي فعله بأي حال من الاحوال!".

أن غالينا بيتروفنا قليلا ماكانت حذرة. وان اكثر

مافعلته في حياتها، كان ليس ذلك الذي كانت هي تريده، بل ذلك الذي اراده الاخرون من الناس الذين هم اشد منها بأسا . وقد عاشت حياة ليست بائسة بقدر ماهي خرقاء لممثلة سيئة الحظ، ورغم كل حبها للمسرح، فأنها اما لايحالفها الحظ على خشبة المسرح، او عاجزة عن الاداء. وبحسب ظنها، فهي تعزو ذلك لسوء الحظ، أما برأي الاخرين فهي غير كفوءة.

انها في الفرقة الترفيهية هنا في الجبهة، وبما لديها من قدرة على قراءة الشعر بصوت رنان مؤثر، وبمظهرها الخارجي الجميل وبصوتها غير المريح بعض الشيء، استطاعت ان تحصد لأول مرة مثل هذا النجاح الذي لم يكن من نصيبها فيما مضى، بل ولعلها شعرت لأول مرة في حياتها المتعثرة، بانها تؤدي شيئا مهما جدا، وضروريا لجميع الناس وليس لمجرد نفسها.

وهي في اثناء قراءتها عدة مرات في اليوم، سواء في الزوايا الحمراء، ام في السفن او الملاجيء الارضية، امام الرجال المتلاصقين على بعد خطوتين منها، قد أحست بأنها ليست محط اعجابهم فحسب، بل وتبدو سعيدة في نظرهم. في الوقت الذي كان هذا كله بعيدا كل البعد بالتأكيد عما هم يفكرون به.

كان زواجها الاول من قرين لها، هو ممثل شاب مثلها. وقد عاشت معه عيشة راضية او قريبة من ذلك. ولكنها ظلت

تواصل الرفض ان يكون لها طفل منه، لعدم رغبتها في ان تضيع موسما مسرحيا كاملا. وانتهى الامر الى ان زوجها قد صار له طفل من امرأة غير جميلة تماما - وقد رأتها غالينا بيتروفنا فيما بعد رؤية خاطفة - وليس لها اية صلة بالمسرح، وقد ذهب زوجها الى هذه المرأة، بل بالأحرى الى الطفل.

وبعد ذلك تزوجت من رجل يكبرها بعشرين سنة. وكان مخرجا مشهورا. وهي قد سبق لها ان تدربت عنده في ستوديو المسرح، وبعد عودتها من المحافظة الى موسكو وقعت عنده في المسرح. انها لم تكن تحبه، ولكنها معجبة به، واعتقدت بأنه قد يمكن ان يصنع منها ممثلة كبيرة، زد على ذلك، انه حدثها بنفسه عن هذا. ولكن هذا لم يصنع منها ممثلة كبيرة، بل انه ھجر في الواقع زوجته، وعاش معها ثلاث سنوات كاملة. وظهر ان الحياة معه بائسة كل البؤس، ومع ذلك فأن غالينا بيتروفنا بذلت الجهد لان تشيع في نفسها الثقة بأنها تعيش مع هذا الانسان لأجل العثور على طريقها في عالم الفن.

وفي نهاية الامر رجع الى زوجته التي لم تعد شابة ولكنها فنانة كبيرة فعلا. اما غالينا بيتروفنا فقد عادت مرة اخرى لتعيش وحيدة.

ومن بعد ذلك، وقبل سنتين من نشوب الحرب، ظهر في حياتها فيتينكا بالاكيريف، المخرج الشاب الذي انهى لتوه معهد المسرح، وتعين فورا في مسرح بالعاصمة، ولكن

ليس بسبب مواهبه، بل بسبب والده فاسيلي فاسيليفيتش بالاكيريف، الذي كان مديرا مشهورا في المسرح ويعرف الجميع، ويستطيع فعل كل شيء. ان فيتينكا لم يعط غالينا بيتروفنا وعدا ان يصنع منها ممثلة كبيرة، ولكنه كان وسيما ومعتدا بنفسه واصغر منها بخمس سنين. وعندما قرر بأنه يجب ان تكون له معها قصة غرام فقد تحقق له ماأراد بعد وقت قصير.

ان غالينا بيتروفنا عندما قالت لبولينين بأنها الان غير متزوجة، فهي قالت الحقيقة وغير الحقيقة، لانها مع فيتينكا قد عاشا منفردين، كل على حدة، وذلك لأنه لم يوجه لها الدعوة للانتقال اليه في شقة والده الكبيرة، اما هي فلما كانت تلح على ذلك، خوفا من ان تُفقد غرفتها الطويلة المقبضة للنفس الشبيهة بالتابوت، والكائنة في شارع برونايا غير بعيد عن المسرح. ولكن علاقتهما امتدت وقتا طويلا، وفجأة صاروا يتكلمون عن هذه العلاقة كما يتكلمون عن شيء وسط، بين قصة غرام وبين الزواج.

وخلال الاوقات الاخيرة صارت غالينا بيتروفنا لا تفكر بهذا كزواج الا قليلا: حيث انها كانت خاضعة لمشاعر فيتينكا اكثر مما تحس به من ميل نحوه من مشاعرها الخاصة. وهي تعيش معه لا لأنها تحبه، بل لانها لاتحب اي شخص آخر. وما عدا ذلك فأنها تذكر جيدا بأنه اقل منها عمرا مدة خمس سنوات. وان هذه الحياة مع أي واحد مثله لا تجلب لها أي شيء حسن.

وفي بداية الحرب مرت بها هزة، ابعدتها عن فيتينكا، وهي انه فرح صراحة، عندما انتدبوه في اخر لحظة بفضل والده، بدل شخص آخر. وفيما بعد ذكرت غالينا بيتروفنا حتى اسم ذلك الممثل الذي ذهب الى الجبهة بدلا من فيتينكا. وكان ذلك عملا شنيعا ومخجلا بنظرها.

ولكنها حتى في هذه الحال، لم تكن تملك الارادة الكافية لان تقطع صلتها مع فيتينكا. ومع ذلك فأنهما ولو توادعا ببرود، الا انه رافقها بالذات الى محطة القطار وذلك في شهر آب - اغسطس عندما سافرت فرقتهما المسرحية الى الشمال.

لقد اعجبها بولينين فورا، ومنذ الحفلة الاولى حالما رأته. ففي اثناء الحفلة لاحظت المقدم الذي كان جالسا امامها مباشرة، وبدا لها انه مايزال شابا تماما، ومع وسامي الراية الحمراء، ووسام لينين واوسمة اخرى كبيرة غير معروفة بالنسبة لها، تشبه النجوم. وكانت لدى الطيار اكتاف عريضة، وعينان زرقاوان، ووجه نحيف وسيم ملفوح وبه جرحان. واحد الجرحين مائل يخترق الجبين ويغور في الشعر الفاتح الذي بدأت كثافته تخف، اما الجرح الثاني فقد كان على الاذن اليسرى، وهو يبدو بشكل وكأن احدهم قطع شحمة الاذن بمقص. بيد ان هذين الجرحين لم يشوها محيا الطيار، بل بالعكس فأنه لولاهما لكان يبدو بالتأكيد فائق الجمال. وفي اثناء

فترة الاستراحة، سألت غالينا بيتروفنا الملازم الشاب المكلف بمرافقة فرقتهم المسرحية في الحفلة، من يكون هذا المقدم الجالس في الصف الأول.

- قال الملازم - انه بولينين آمر القطعة، وهو مستغرب كيف ان من الممكن ان لا تعرف آمر قطعتهم من وجهه.

- قالت غالينا بيتروفنا - ان عنده اوسمة كثيرة، حتى ان بعضا منها لم اشاهده من قبل ابدا!

وقد اوضح لها الملازم، بأن الاوسمة التي لدى آمر القطعة، هي لقاء تنفيذ مهمات حكومية خاصة. فأنه كان في اسبانيا وفي منغوليا، ويقولون انه كان حتى في الصين، ولكن هذا الطيار الملازم، احب ان يكون آمرهم في كل مكان. ولهذا فقد تحدث عن ضابطه المقدم باعتزاز. اما عندما خرجت غالينابيتروفنا، فيما بعد، لتقرأ قصائد شعرية عن تشكالوف* فأنها قد قرأتها وهي تتطلع الى بولينين. وكان مريحا بالنسبة لها ان تقرأ هذه القصائد الشعرية وهي تنظر في عيون الانسان الجالس امامها وعلى صدره الأوسمة الخمسة التي قال لها الملازم عنه، انه اسقط ابتداء من اسبانيا تسع عشرة طائرة.

وعندما جلسوا لتناول العشاء، اجلسوا غالينا

---

* طيار سوفييتي مشهور ذاع صيته في الثلاثينات.

بيتروفنا مقابل بولينين بين الطيارين التابعين له. وكان يبدو في عينيها بطلا، كل واحد من هؤلاء الناس الذين اسقطوا الطائرات الالمانية فوق مورمانسك. غير انها فهمت من كلماتهم وتصرفاتهم: انه ليس الملازم الشاب وحده، بل كلهم تقريبا يعبرون باشكال مختلفة عن اعتزازهم بآمر قطعتهم.

لقد اثر عليها الجو المحيط بفوج بولينين، واعجبها كل شيء فيه، ابتداء من كيفية تبادل التحية، وضغطه قليلا وبقوة على يديها وبروح رفاقية، ونطقه اسمه وكنيته بنفسه - نيكولاى نيكولايفتش، وكيف انه لم يواصل الالحاح عليها، عندما غطت كأسها براحة يدها في المرة الثالثة، بعد ان شربت كأسين، والاهم من كل ذلك، كيف انهم عندما التمسوا منها ان تغني، قال في البداية: "لربما لاحاجة الى ذلك اذا كنت تشعرين بالتعب ؟". وعندما قالت: "اخشى ان ليست لديكم الرغبة في الاستماع ببساطة؟"- اجاب هو قائلا وبدون ابتسامة، بأنه على العكس، فهم راغبون، غير انه ظن بأن التعب قد سيطر عليها.

وهنا بدأت هي تغني، ولكن بالذات ليس لهم كلهم، بل له وحده، وفكرت وهي تتطلع عدة مرات إلى اوسمته والى وجهه الشاب، في اثناء ماكانت تغني، بأنها هاهي الان تجلس في مواجهته، وتغني له، اما غدا، فأنه سيطير، وقد يحدث أنه سوف لن يسقط الطائرة الثانية

عشرة، بل بالعكس سيسقطونه، وسيواريه التراب رفاقه، كما واروا في يوم ما، تشكالوف في تابوت مغلق.

ومن ثم عندما حان موعد الوداع فيما بعد، فكرت رغم ذلك، وهي تنظر الى بولينين نظرة شغوف، بمدى جبن فيتينكا الذي ودعها من موسكو. وهذا جرى في ذلك الوقت الذي يوجد في الحياة مثل هؤلاء الناس الطيبين!. ولكنها، وهي انسان طيب من حيث الجوهر، فلماذا مرت حياتها جزافا امام مثل هؤلاء الناس الطيبين بالذات.

لقد فكرت ثم غنت اغنية عن شجرتي الغبيراء والبلوط. وكما بدا لها، فأن بولينين الذي كان يصغي الى الاغنية، قد اخذه الحزن على شيء ما، ومن ثم اخذ يدها فجأة وقبلها قبلة ماكانت تتوقعها منه حتى من قبل دقيقة واحدة ولايمكن ان تتوقعها.

ومن بعد يوم واحد من ذلك قالوا لها، ان المقدم بولينين قد اسقط فوق مورمانسك ثلاث طائرات في معركة واحدة، ولكنه اصيب شخصيا عندما قام بهبوط اضطراري، وهو يرقد الان في المستشفى. وعندما سمعت بذلك، تذكرت مرتجفة، كيف انها غنت وفكرت: "واذا اسقطوه فجأة ؟". وحتى انها بكت وهي التي ليس من طبيعتها البكاء، وقررت - ليكن مايكون - ان تذهب الى المستشفى العسكري.

وهكذا ظهر عندها ازاء بولينين، ذلك الشعور الذي سارعت هي ووصفته بالحب، في رسالتها اليه.

انها استعجلت في جر نفسها على كل درجة جديدة من

درجات هذا الشعور الغامق الذي تحس به في داخلها قبل ان تظهر هذه الدرجة ظهورا طبيعيا. فقد انتعش لديها الاستعداد الفعلي للحب، مع تضخيم لكل ماسبق وعانت منه. واشعلت فيها الحمى حالة استعجال روحية، من نوع ما، خارج سيطرتها.

كان بامكان بولينين لو احس بذلك، ان يرتاب بالحقيقة، فيقطع فورا، دون الدخول عميقا بالتفاصيل، جميع ماظهر بينه وبين غالينا بيتروفنا. وزيادة على ذلك، فأنها قد تعلقت به باخلاص وقوة، وصارت معجبة بكل شيء فيه، كتميزه الواضح بين الناس الذين ساقتها الاقدار فالتقت بهم من قبل، وصارت معجبة بصدق نظرته للامور، وبثقته كأنسان ليست الثقة عنده نابعة من كونه ساذجا، بل بسبب كونه لا يريد العيش بصورة غير هذه الصورة، وكذلك بحياء الشباب الذي كانت تراه يغطي به كل مايحيط به مما لا ينبغي لأمراة ان تنظر اليه، عندما كانت تزوره كل مرة في ردهة المستشفى.

انها قد أعجبت بشبابه، وبعينيه الزرقاوين، وكذلك الصارمتين والطاهرتين معا، اللتين تطلع اليها بهما بجدية، دون ان تطرفا، حتى عندما كانت تحدثه بشتى انواع الكلام الفارغ، لا لشيء الا لأدخال السرور الى قلبه في المستشفى. وقد أثارت القلق لديها شهرته، وكونه هو الذي اسقط اولئك الالمان واحدا بعد الاخر الذين خشي منهم الرجال الاخرون الذين تعرفهم علنا او سرا.

ومع انها امرأة عاشت حياة ليست شديدة الضلال، الا انها كانت، الى جانب ذلك، من وسط شعبها، ولو حدث لها وجاءت الى الجبهة ليست بصفة ممثلة في فرقة ترفيهية في الجبهة، بل مخابرة لاسلكي او ممرضة، لكان باستطاعتها فعلا ان تضحي ليس بأقل من الآخرين. اما الان فأن شعبها يحارب، وانه ليسعدها ان من وقعت في حبه، ليس فيتينكا بالاكيريف، بل الانسان الطيار الذي جازف بحياته، وانها سوف لن تشعر امام كائن من كان بالخجل، لا من مشاعرها نحوه، ولا من قربها منه، حتى لو اتضح ان هذا القرب،لا يملك اية استمرارية. غير انها تريد في قرارة نفسها، لهذا القرب، ان يملك الاستمرارية. وانها ليست فقط تريد هذه الاستمرارية، بل وانها تصرفت من وعي وبلا وعي، وبكل ما تملك من طاقة لكي تتحقق هذه الاستمرارية بالذات.

وانها وان كان من عادتها قلة التمحيص في اظهار مشاعرها، الا انها امتنعت الان عن كل مامن شأنه ان يعرقل زواج بولينين منها، ولكنهامندهشة بالذات، لماذا لا تخجل من هذا التدبير غير المتوقع بالنسبة لها.

وظلت جالسة تنتظر عودة بولينين، اما هو فقد تأخر دون أن يأتي لمدة طالت اكثر مما ينبغي، بحيث صارت لاتعرف ماذا حدث وكيف تتصرف. واخيرا رجع اليها.

- قال - ان مستودع الامتعة مغلق، ولم اعثر على مدير المستودع. لقد أردنا انا وغريتسكو ان نجلب لك

فراشا، ولكننا ما وجدنا فراشا ! فنامي على سريري، وان فراشه جديد كله، اذ فرشوه قبل وصولي. وانا في النهار استلقيت فوقه فقط وعلى اللحاف...

وكما لو انه يصحح غلطة فعلية، فقد ربت بيده على اللحاف فوق سريره الذي هو مفروش بنظام اصلا، وكأنه يعدل شيئا فيه.

" اذن هذا هو سبب اختفائه كل هذا الوقت الطويل" - هكذا فكرت غالينا بيتروفنا، ولهذا فأنها راودتها الرغبة بقوة اكبر في ان تقول له ايضا، ذلك الذي ماكان يجوز لها ان تقوله: لكي يكون غير مضطر للذهاب.

لم يكن بولينين غرا، ولكنه لم يعترف في الحياة بازدواجية المعاني مهما كانت. فما دامت غالينا بيتروفنا قد اعترفت نفسها صراحة بحبها له، ورجت من بعد ذلك، ان لا يقبلها اليوم اكثر مما قبلها، فأنه قد فهم بأن رغبتها في البقاء، هي بالذات، كما تم توضيح سببها من قبلها: انها متعبة، وتخشى السفر في البرد من ان تتعطل في الطريق. وبعد ان ادرك هذه الاسباب كلها، فأنه لم يخطر بباله موضوع استغلال هذه الظروف، بل قال وهو يدخل ملجأ القوميسار الذي كان غريتسكو يلعب معه دور شطرنج، طالبا من غريتسكو ان يجد بطانيتين: ان غالينا بيتروفنا ستنام الليلة هنا، وانه ينبغي عليهما ان يناما عند القوميسار بهذه الاغطية.

- قال بولينين دون ان ينظر الى غالينا بيتروفنا

ونزع من على الجدار معطفين قصيرين من الفرو: معطف ومعطف غريتسكو - اذا رغبت في شرب الماء فالابريق على المنضدة.

- قالت غالينا بيتروفنا - لا أحتاج لأي شيء، شكرا!! واضافت قائلة - لماذا لا تنظر ألي؟

- ولماذا أنظر أليك؟ - اجابها بفظاظة لم تنزع منها ادراكا منها للسبب. ومن ثم وبعد ان اخذ المعطفين بحضنه اتجه نحو الباب وقال - تصبحين على خير!

جلست غالينا بيتروفنا على سريره، وهي تنظر في اثره غارقة في التفكير، وتمسد بيدها البطانية العسكرية الخشنة التي كان السرير مغطى بها. انها كما يبدو تحب هذا الانسان فعلا.

واستلقت على السرير، دون ان تخلع ملابسها، وتغطت بمعطف الفرو القصير، ولكنها ظلت وقتا طويلا مسهدة لا تستطيع النوم، بحيث بدا لها انها لن تنام بعد ذلك ابدا. اما كيف انها قد غفت رغم ذلك، فلم تدرك ذلك الا في الصباح، عندما سمعت قرعا على الباب. وبعد ان انزلت رجليها من السرير وادخلتهما في الجزمة اللبادية الباردة، مشطت شعرها بسرعة وقالت: "أدخل".

دخل غريتسكو في الملجأ وهو يحمل تحت ابطه ابريق ترموس، وبيديه صحنان ازرقان، واحد يغطي الآخر.

- صباح الخير. اشربي الشاي وكلي البيض المقلي ما دام ساخنا.

ـ قالت غالينا بيتروفنا ـ يجب ان اغتسل في البداية.

ـ قال غريتسكو موافقا ـ صحيح.

وسحب من تحت سريره احدى الحقائب واخرج منها منشفة رقيقة، واخذ صابونة من الرف، ومغرفة ماء من السطل الواقف عند الباب. وفي هذا السطل تهشمت تهشما ناعما طبقة الجليد الخفيفة فوق سطح الماء. ومن تحت الباب كانت تهب الريح، والجو في الملجأ بارد منذ الصباح.

ـ هيا الى الخارج لأصب لك الماء هناك. ألا تخشين من البرد؟

ـ قالت غالينا بيتروفنا - لا أخشى من البرد.

وشمرت عن ساعديها، وطوت ياقة قميصها العسكري، حيث انهم في فرقتهم الترفيهية، استبدلوا من قبل مدة طويلة ملابسهم، بالزي العسكري من اجل الخفة،وخرجت في أثر غريتسكو. وكانت السماء رمادية كالحة بالغيوم، والثلج يدور دوامات فوق المطار.

ـ سألت غالينا بيتروفنا، عندما عادا الى داخل الملجأ، وهي تمسح بقوة يديها اللتين تتقصهان من الماء المتجلد ـ اين اذن نيكولاى نيكولايفيتش؟

ـ قال غريتسكو ـ لقد ذهب الى مورمانسك، اذ استدعاه القائد.

ـ قالت غالينا بيتروفنا باحباط، وهي لم تتوقع

ابدا انها لن ترى بولينين - كان من المناسب ان يأخذني معه.

- نصحته بذلك. قلت له يا نيكولاى، خذ من عندنا هذه الغجرية، وألا فانها ستسيء الينا بشيء ما، وانا أخشى من الغجر ...ولكنه اشفق عليك ان يوقظك. ولكن لا تخافي، لانه ذهب في سيارة شحن صغيرة، وترك لك سيارته "ايمكا".

- لماذا في سيارة شحن صغيرة وهو مصاب برجله...

- قال غريتسكو بنفس ذلك الاسلوب الساخر - لقد قلت له بصدد رجله ولكنه لا يسمع الكلام. كلي البيض المقلي قبل ان يبرد.

- وأنت؟

- اما انا فسأكون بدور المراقب. انني قد اكلت. فنحن لسنا ممثلين. اننا نعيش حسب جدول مواعيد.

وسكب الشاي الى غالينا بيتروفنا، وكشف الصحن الذي تحته يوجد قرص من بيض - اومليت، مكون من مسحوق البيض والشحم ثم جلس مقابل غالينا بيتروفنا.

وطوال ما كانت تأكل ظل صامتا. ولكنه عندما بدأت تشرب الشاي قال فجأة بسخرية وهو يضيق ما بين عينيه:

- رأيت اليوم في المنام، انك تريدين ان تتزوجي من نيكولاي.

- واذا صار هذا الحلم، فجأة حقيقة؟ - قالت غالينا بيتروفنا ممتعضة، ولكنها اجبرت نفسها ان تظل مبتسمة.

- سأل غريتسكو وهو مضيق ما بين عينيه كالسابق - واذا ظهر فجأة انه متزوج؟

- قالت غالينا بيتروفنا وهي تواصل الضغط على نفسها لتبقى ابتسامتها مستمرة - ولكنني سمعت منه انه غير متزوج.

- سأل غريتسكو- واذا كذب عليك؟

- قالت غالينا بيتروفنا بثقة، رغم تزلزل روحها- انه لا يكذب أبدا.

- بالطبع، وانه حقا غير متزوج لحد الان، وانه فكر بذلك عدة مرات ولكنه صرف النظر فيها بعد... وفتح غريتسكو ما ضيقه بين عينيه، الأمر الذي جعل وجهه يصبح جديا على الفور، وقال - ومع ذلك فلن تكون هناك اية فائدة: لأنكما مختلفان عن بعضكما البعض!

اصاب غالينا بيتروفنا الذهول، وصارت لا تعرف كيف تتصرف مع هذا الانسان الطويل القامة، والساخر، والصريح حد الفضول، والذي قال عنه بولينين انه احسن صديق لديه.

- سأل غريتسكو- لماذا تصمتين؟ هل تريدين شتمي؟

- لا أنني لا ارغب في ذلك. - وفجأة خيمت عليها الكآبة، ثم قالت ذلك الذي كانت تفكر به:- اننا في الواقع شخصان مختلفان كل الاختلاف، ومن الممكن تماما ان اية فائدة سوف لن تجنى من ورائي، كما قلت انت.

- قال غريتسكو وهو يسكب لها كوبا ثانيا من الشاي،

ويشعر بالوهن في العزم امام مثل هذا الجواب الصريح - حسنا، لا تزعلي.

- أنا غير مستاءة منك. وسألته غالينا بيتروفنا- هل انت نفسك متزوج؟

- ضحك غريتسكو ضحكة ساخرة، واراها ثلاثة اصابع وقال - متزوج وكثير الابناء.

- وسألته بصورة جدية - وأين هم لديك الان؟

- انهم بعيدون، في مدينة أوفا.

- اما أنا فليس عندي اي احد في الحياة. فهل هذا أمر حسن؟ وهل تفترض ان الامر سيظل هكذا دائما؟ - لقد وجهت غالينا بيتروفنا هذه الاسئلة بحرقة غير متوقعة حتى بالنسبة لها شخصيا.

ولم يرد غريتسكو بأي جواب. وبدلا من ذلك سألها متى ستكون بحاجة الى السيارة.

- قالت غالينا بيتروفنا- اني اسافر الان اذا كان ذلك ممكنا، فعندي تمرين مسرحي بعد ساعة ونصف.

خرج غريتسكو، وفكرت غالينا بيتروفنا وهي تنظر في أثره، انها رغم انفجارها. وعدم اصطبارها، فانها خلقت لديه، كما يبدو، انطباعا جيدا. وان هذا لأمر مهم جدا.

- ٥ -

استدعى الجنرال توركوف، قائد جيش القوات الجوية

الحربية، بولينين، للمثول امامه كي يخبره: ان الطلب الذي قدمه بولينين الى القيادة حول انتقاله الى الطيران المقاتل في ضواحي موسكو، قد تقرر قبوله بعكس المرة السابقة. وقد تم تسلم الامر: بتسليم الفوج والمغادرة الى موسكو.

- تهانينا، فالموافقة قد حصلت!- كانت هذه هي الكلمات الاولى التي سمعها بولينين، ومست القلب، وهو يدخل مكتب توركوف.

قبل ثلاثة اسابيع عندما قدم بولينين طلبه، فان توركوف قد حفظه بدون نقاش لعدم رغبته في الافتراق عن بولينين. بيد ان بولينين اصر، وفق صلابته المعروفة، على رفع الطلب الى جهات اعلى في القيادة. وكان توركوف مضطرا لان ينفذ ذلك، حتى جاءت النتيجة في نهاية المطاف، ليس بموجب ما حسبه ضروريا هو نفسه، بل بموجب ما اراد بولينين.

وقد ظن توركوف ان المقالة التي نشرت في الجريدة، هي التي استطاعت ان تكون القطرة الاخيرة في هذا القرار. ففي المعارك بضواحي موسكو،حصلت عدة مناطحات جوية، وان الصحفيين كتبوا في بعض الاحيان عنها، وكأنها هي افضل المناورات على العموم، في المعارك الجوية. وفي الوقت الذي لا تحجب فيه البطولة عن أي من أولئك الذين هم قادرون على اتخاذ القرار بالمناطحة في الجو، فان هذه الضجة المبالغ بها، والمرافقة لهذه

المناطحات، هي ظاهرة موقتة حسب رأي توركوف. ولكن في القضية وجهة نظر اخرى، وهي انهم اخذوا منه افضل آمر فوج.

ـ سأل بولينين ـ أيها الرفيق القائد، وماذا بصدد طلب غريتسكو؟

ابتسم توركوف ساخرا، دون ان يخفي غضبه المشروع، من حيث وجهة نظره، وأجاب بأن الرائد غريتسكو سيتسلم الفوج بدلا من بولينين. اما اذا كانوا يريدون ان يأخذوا من هنا غريتسكو ايضا، فأنه، اي توركوف، سيرفع طلبا للقيادة، حيث ان باستطاعته ايضا ان يفعل ما هو ليس بأقل من بولينين.

لم يجب بولينين بأي شيء، سوى انه اخذ نفسا عميقا.

لقد كان بولينين قد رفع مع غريتسكو طلبين في وقت واحد سعيا منهما لان يكونا معا في ضواحي موسكو، على الرغم من عدم وجود قناعة كافية بأن ذلك سيحصل وفق ما يرغبان به. وها هو الان قد افلح في ذلك، بينما الأمر احبط لدى غريتسكو، وسوف يبدو هذا ، امراً غير مريح امام غريتسكو. وطبيعي ان الاوامر هي الاوامر، ولكنه على كل حال...

ـ متى تسليم الفوج ومتى الطيران؟

ـ قال توركوف ـ سلم الفوج في هذا اليوم، وفي الواقع فان القضية هذه لا تشكل عائقا لديك، حيث انك لم تتسلم الفوج اصلا من بعد المستشفى. اما بالنسبة للسفر

جـوا، فهـذا يتعلـق بمقـدار مـا انـت مستعجـل للسفـر.
- ماذا وراء هذا السؤال؟
- اذا كنت مستعجلا، فانني لو كنت بمكانك، لتركت السفر جـوا الى الشيطـان. لانـه قضيـة غير مضمـونـة. وعلى ضوء معلومات الانواء الجوية، فان الاعصار سيستمر ثلاثة ايام على اقل تقديـر. - وتبسـم تـوركـوف بسخـريـة، ثـم اضاف جادا بأنه امر بالحصول على معلومات: وهي انه من الافضل عموما ان تـرحـل اليوم ليلا بـالقطـار الى كاندالاكش، ومن هناك تبحر غدا سفينة نقل للاخشاب الى آرخـانغلسك. امـا مـواصلة السفر من هنـاك، فـانـه حسبـما يسمح به لك الجو، فاما ان تسافـر بالطائرة او بـالقطـار الى مـوسكـو في خـلال ستـة ايـام ولكنهـا مضمـونـة.
وعبر بولينين عن الشكر للارشادات، وتوادع معه وذهب لتسوية وثائق السفر.
وبعـدمـا انجز جميع مـا يتعلق بـه مـن اعمال في مقـر القـوة الجـويـة الحـربيـة، ركـب سيـارة النقـل وذهـب بهـا الى فندق "اركتيكا"، الذي يسكـن بـه الممثلـون اعضـاء الفـرقـة الـترفيهيـة للجبهـة. وحـالمـا دلـف بـولينـين في مبنى الفنـدق المكعـب الشكـل، المشـاد في السنـوات الثـلاثينيـات سـأل العـاملة المنـاوبـة التي كـانـت تجلـس قـرب لعبـة بهيئـة دب، وهـو يكتـم شعـور الارتبـاك، عـن الغـرفـة التي تسكـن بهـا الممثلـة غـالينـا بيـتروفنـا وابتسمـت المنـاويـة ابتسـامـة لم تـرق لـه، واجـابـت بـأن المـمثلـة بـروكـوفيفـا- (اي

غـالينـا بيـتروفنـا ـ المـترجـم)، تسكـن في الغـرفـة رقـم ستـة عشـر من الطـابـق الثـاني، وهـي غير مـوجـودة في مكـانهـا كـما يبدو. ولكن دعه هو يتأكد من ذلك بنفسه.

وصعد السلم مشيا وهو يعرج، وشرع يقرع باب الغرفة رقم ستة عشر، ولكن بدون جواب.

" ترى هل انها تأخرت عندنا هناك الى هذا الحد؟ "ـ وعندمـا فكـر بـذلـك، انفتـح على صـوت قـرع البـاب، بـاب الغـرفـة المجـاورة، وخـرج منـه شخـص كبـير العمـر، يـرتـدي بنطلـون خيـالـة، وجـزمـة لبـاديـة، وقـميصـا تحـتـانيـا، مـع منشفـة مشـدودة على اليـاقـة، وبـوجنـة مغطـاة بـالصـابـون ـ أنـه بـالتـأكيـد ممثـل ايضـا ـ وقـال بـأنـه لا يـوجـد احـد. ثـم اضـاف ان بـروكـوفيفـا ومـاكـاروفـا ذهبتـا الى المسـرح اذ لديهما تمرين مسرحي.

وتطلع بولينين بفزع الى الساعة، اذ تستدعي الحاجة العـودة الى المطـار لتسليـم الفـوج، ولم يبـق وقـت كـاف تقريبا.

-٦-

كـانـت غـالينـا بيـتروفنـا ومـاشـا مـاكـاروفـا، وهمـا تـرتـديـان فـوق البـدلـة العسكـريـة تنـورتـين طـويلتـين حتى الارض تسلمتهما من غرفة ملابـس المسرح، وذلك لان الفرقة الترفيهية للجبهة تتمرن على تمثيل مسرحية قصيرة ساخرة

قديمة اسمها "الاسد غوريتش سينيتشكين" وقد جلستا في زاوية من البهو شبه المظلم، بمعطفين قصيرين تلتفان بهما. جلست غالينا بيتروفنا مقرورة من البرد، وهي عاقدة يديها على صدرها، اما ماشا ماكاروفا، فقد كانت كعادتها، تلف السكائر اليدوية وتدخن التبغ المفروك، وكثيرا ما تعبت من الدخان وتسعل. وكلتاهما كانتا تنتظران متى يأتي دورها في سير التمرين على المشاهد، وتتحدثان عن بولينين.

- قالت ماشا ماكاروفا، المرأة الصغيرة الجسم، التي تصفف شعرها مثل الصبيان، ولم تستطع بناء حياتها الخاصة الى حد يثير الضحك، ولكنها لا تبخل ابدا بتقديم المشورة الصادقة النابعة من القلب الى كل انسان، قالت - هذا جيد - وقطبت جبينها دلالة على التعقل، واضافت - لنفترض انه اقترح عليك الزواج، ووافقت انت على ذلك، فماذا سيكون من بعد ذلك؟ اين هو سيكون؟ أفي مورمانسك ام فلاديفوستوك او بأي مكان آخر غير هذا؟ وهل انت ستظلين تسيرين وراءه؟

- قالت غالينا بيتروفنا - ماهي مناسبة فلاديفوستوك هنا؟ بل وعلى العموم، حول اي شيء انت تتحدثين؟ فما دامت الحرب قائمة، سيكون هو هناك حيث يجب ان يكون.

- وانت؟

- وانا ايضا.

- رويدك! ها نحن خلال شهر، سيعيدوننا الى موسكو

من هذه الجولة، ومن ثم فاننا سنسافر مرة اخرى الى الجبهة، ولكن ليس الى هنا. فهل ستسافرين معنا ام لا تسافرين؟

- قالت غالينا بيتروفنا بشيء من عدم الثقة - أسافر طبعا.

- حسنا، ستسافرين معنا بعد ذلك مرتين، وثلاثا، ومن ثم؟ وبعون الله سيجري في الجبهة كل شيء بصورة جيدة، وان مسرحك سيعود الى موسكو. فكيف ستكون الحال انذاك؟ انت في موسكو، وهو هنا؟ ام انك ستتركين مسرحك، وتأتين الى هنا في فرقة مورمانسك؟ وبالمناسبة فان الفرقة هنا تافهة - وتنهدت ماشا ماكاروفا حسرة على غالينا بيتروفنا وكأنها قد تزوجت وانتقلت الى هذه الفرقة "التافهة" في مورمانسك.

- وتنهدت غالينا بيتروفنا ايضا وقالت - انا لا أفهم اي شيء.

وبالفعل فانها ما كانت تدرك اي شيء. فانها ليست لديها الرغبة في الافتراق عن الفرقة الترفيهية للجبهة التي عاش الجميع فيها بوفاق اكثر مما في المسرح قبل الحرب، ولكنها عندما تفكر بالمستقبل، فانما هي تفكر، على كل حال، بمسرحها الذي هو الان موجود في المهجر بآسيا الوسطى. ولكنها عندما سافرت اليوم صباحا من المطار الى الفندق، اربكتها ارباكا شديدا، رسالة وصلتها من فيتينكا بالاكيريف، مرسلة مع مرافق موسيقى

في فرقتهم، جاء بالطائرة من موسكو.وكتب لها فيتينكا، انه صار نائبا لمدير مسرح جديد، جرى تأسيسه توا في موسكو من ممثلين من مختلف المسارح الاخرى، وكذلك وعدها بأنها عندما ستعود الى موسكو، فأنه سيأخذها ليس الى هناك فحسب، بل وسيعهدون اليها بدور جديد. اما ما كتبه فيتينكا في نفس هذه الرسالة عن علاقتهما السابقة، فقد كان بالنسبة لها الان بلا معنى. ولكن الوعد الذي ذكره لها بأنه سيأخذها الى المسرح قد شوشها. فانها ما كانت لترغب بالرحيل الى اية جهة في المهجر، وتشبثت بمختلف الذراع الصحيحة، والباطلة لكي تبقى في مسرحها القديم الذي ملت منه بسبب شعورها منذ مدة طويلة بأنها لا حاجة لهم بها فيه. وقد احست برغبة شديدة في ان تكون بموسكو، وفي هذا المسرح الجديد، وفي ان يأخذوها فيه فعلا، وفي ان يعطوها فعلا مثل هذا الدور الذي لم تلعبه من قبل ابدا!

وخلال ما كانت تقرأ وتعيد عدة مرات قراءة هذا المقطع في رسالة فيتينكا، فان افكارها قد سرحت جانبا الى جهة ما بعيدا عن بولينين، ولم ترجع اليه مرة ثانية فورا.

- كررت غالينا بيتروفنا القول - انا لاأعرف اي شيء- ونهضت واتجهت الى باب صالة العرض، والقت عليها نظرة وقالت - ألم يحن الموعد على المسرح - ثم جلست مرة اخرى، وهي تعدل من وضع معطف الفرو القصير فوق

كتفيها.

- قالت ماشا ماكاروفا- من الطبيعي ان تكوني لا تعرفين اي شيء. فهذه حرب، وهو طيار: غدا تتزوجين، وبعد غد يقتلونه! وبالاضافة الى ذلك، فانه ليس من المعروف بعد، هل ستستحقين الحصول على راتب تقاعدي، في حالة ما اذا ما تزوج الناس لتوهم وليس لديهم اطفال.

ان ماشا ماكاروفا كانت اكثر الناس نزاهة في العالم، ولكن تعطشها في تقديم النصائح الحياتية اقوى منها.

واستاءت غالينا بيتروفنا كل الاستياء، وهي تسمع كلمات ماشا ماكاروفا بحيث انها لم تجد فورا ما ترد به عليها.

- عن اي شيء تتحدثين؟ الله يغفر لك!

وعندما نادوا عليها للمت، وهي تمشي تنورتها، وهرعت راكضة الى صالة العرض. وبعد دقيقة من ذلك، وجد بولينين الذي دخل الى البهو، ماشا ماكاروفا لوحدها، وهي كانت تدخن بشراهة، السيكارة الملفوفة، ومتألمة مما قالته قبل قليل. والان، وعندما لم يبق من تشاطره حكمة الحياة، وظلت لوحدها، فان هذه الكلمات بدت فظيعة في نظرها. وعندما رأت بولينين يدخل الى البهو، هرعت لملاقاته، واحست انها مذنبة امامه بعد ذلك الذي قالته من قبل.

- هل تريد ان ترى غالينا بيتروفنا؟- وجهت السؤال الى بولينين وهي تقفز نحوه بتنورتها العريضة الطويلة الى الارض. ونظر بولينين الى التنورة مندهشا، وهو لا يدرك معنى هذا الزي الغريب.

- قال بولينين - نعم. وقد عرفها بولينين، لأن ماشا كانت ايضا في الحفلة عندهم في الفوج. - وأضاف - اتمنى لو ارى غالينا بيتروفنا، والا فاني مضطر الى السفر.

- لقد نادوا عليها في الحال الى خشبة المسرح. وانها الان سوف تفرغ من ذلك سريعا.

ونظر بولينين في الساعة. وماكان يعرف ماذا سيحصل.

- ولكنك الى اين ستسافر؟ الى بعيد؟

- بعيدا. الى موسكو.

- انتظر... فعسى ان استطيع الان... سأجرب... ومن دون اضاعة للوقت في الشروح الطويلة، ركضت ماشا ماكاروفا الى قاعة العرض تاركة بولينين وحيدا في وسط البهو.

بعد دقيقة، اقبلت عليه غالينا بيتروفنا متقطعة الانفاس فقد كانت بحذاء عالي الكعب، وبمثل تلك التنورة الطويلة التي لدى زميلتها وبمنديل من الصوف ملفوف على كتفيها فوق البدلة العسكرية، وشدت اطرافه بقبضة يدها، تماما كما في الصورة المهداة الى بولينين.

- ماذا حدث؟- سألته وهي تترك أطراف المنديل،

وتأخذ بولينين فورا من يدية الاثنتين بيديها الباردتين ـ وأضافت ـ هل انت ستسافر؟ متى، ولماذا وهل لمدة طويلة؟

قال بولينين الذي ظلت هي متشبثة بيديه، والذي كان بسبب ذلك من الصعب عليه ان يقول بأنه سيسافر الى موسكو نهائيا كما يبدو، وانه سيخدم هناك، وانه سيغادر بقطار الليل في هذا اليوم.

لاذت غالينا بيتروفنا بالصمت. فقد اصابها الذهول من جراء النبأ المفاجىء، بحيث انها لم يتيسر لها ان تدرك، هل ان هذا حدث جيد ام سيء بالنسبة لها، ان بولينين سيخدم في موسكو وليس في مورمانسك. بيد انها صارت تعرف امرا واحدا فقط: وهو انها قد ضيعته. اما ماذا سيحصل في المستقبل فهذا في ضمير الغيب.

وارتجف كتفاها، وتركت احدى يدي بولينين لتمسح الدموع بسرعة، بطرف المنديل.

ـ ماذا دهاك يا غاليا ـ قال بولينين ذلك وهو يستعمل صيغة الفعل المفرد في المخاطبة فجأة، عندما شاهد بأنها ستبكى الان، ثم حرر يده الاخرى منها وطواها بين يديه متحسسا دف كتفيها بالمنديل الصوفي. ثم قال - تعالي الى موسكو عندما تنتهين هنا من سفرتك، واقبلي ان تكوني زوجة لي... اذا كنت لا ترفضين ذلك طبعا.

لم ترد عليه بأي شيء، بل اتكأت برأسها على صدره، وظلت ملتصقة به عدة دقائق، ووقفت وبكت على كلماته

الطيبة البسيطة. وطول ما كانت ضاغطة بوجهها المبلل بالدموع على صدره، فان ذاكرتها ظلت لا تبارحها كلمات ماشا الفظيعة: "غدا تتزوجين وبعد غد يقتلونه".

وفي الاخير نشجت تبكي بصوت عال، وانتزعت نفسها من بولينين، وراحت تفتش في جيب تنورتها المسرحية الطويلة واخرجت منها منديلا صغيرا ومسحت وجهها طويلا وهي تنشج من انفها متشكية، ورفعت عينها الى بولينين وقالت بمثل البساطة التي لديه، لأن في الجواب على عبارته يجب ان تقول هكذا فقط:

- حسنا، ساجيء. متى موعدك في القطار؟

- في الساعة الحادية والعشرين تماما

- ساجيء، والوقت كاف للحفلة.- وقالت وهي تفكر- سأرجو منهم تغيير مكان المشهد الذي اقدمه ليسعفني الوقت.

- يا بروكوفيفا، هيا الى المسرح! - صرخ مساعد المخرج بعد ان خرج من باب قاعة العرض متطلعا من حوله، وقال - الجميع ينتظرونك.

- قالت غالينا بيتروفنا - يجب ان اذهب فقد عطلوا التدريب من اجلي.

واستدارت وركضت، اما بولينين فانه نزل من البهو في الطابق الاول وهو يفكر، بانه قد تحقق كل شيء، وانه سيتزوج، وسيتزوج ليس في الوقت المناسب، بل في اوج احتدام الحرب، فكيف يحصل كل هذا...

-٧-

بقي على تحرك القطار سبع دقائق، وما زالت غالينا بيتروفنا لم تأت بعد. وان بولينين مع غريتسكو والقوميسار ليفيكين وعشرة طيارين آخرين جاؤا لتوديعه على متن سيارة شحن، قد وقفوا قرب عربة القطار. وبمناسبة توديع آمر الفوج فانهم كلهم قد شربوا. ولكن غريتسكو الذي لم يصادف من قبل ان اخذته الخمرة بسورتها، قد كان ثملا اكثر من الاخرين ولكن بحزن، بسبب كونه متأثرا اكثر منهم، كما لم يرفع من مزاجه باي مقدار كان، انه صار آمرا للفوج بعد ذهاب بولينين.

- خدم صديقان في فوج واحد- وراحا! .-كان غريتسكو- وراح غريتسكو .. أهكذا هي الحال اذن؟

ان غريتسكو لو لم يشرب كثيرا بهذا المقدار، لما كان قد تفوه بهذا الكلام، لأنه مناقض لطبيعته، ولكنه كان قد شرب وما اراد ان يتستر على ألمه.

ماذا كان ينبغي على بولينين ان يجيب؟ فانه الوحيد تقريبا من بين الجميع، لم يشرب بمناسبة العشاء الرفاقي الاخير، لانه تذكر بان غالينا بيتروفنا ستأتي لتوديعه، وانه لا يريد ان يثير لديها أي ألم. ولكنها الان عندما لم تصل بعد، ومن المحتمل انها لن تصل ايضا. فانه قد اسف لكونه لم يشرب مع الزملاء كما

ينبغي: ومن العبث انهم لم يلحوا عليه الى حد الزعل اثناء العشاء، ولو فعلوا ذلك لاستلقى على السرير المعلق حتى كاندالاكش. وكان الطيارون يسابقون بعضهم بعضا في التحدث اليه، اما هو فقد كان طول الوقت شاخصا بنظره في الظلام على طول رصيف المحطة.

- سأله غريتسكو فجأة - الى اين تتطلع؟ انها لن تأتي. واحدة بواحدة. انت نسيتنا، وهي نسيتك. واحدة بواحدة. ولكنه مهما كانت درجة سكره، فقد احس رغم ذلك، بان كلماته قاسية، ولهذا فقد وضع يده الثقيلة فوق كتف بولينين وقال - اني اليوم احمق. فلا تكترث بكلامي في هذا اليوم!

وقبل دقيقتين من تحرك القطار، وعندما كان بولينين يقف على الدرجة السفلى من سلم العربة، ويشد على ايدي الرفاق، جاءت ماشا ماكاروفا تركض نحو عربة القطار، من دون ان تزيل المساحيق، وبحاجبيها الاسودين المرسومين ووجهها اللامع، وقالت وهي تلهث من التعب:

- آه، فأنني على كل حال قد لحقت بك. لقد جرت هناك في البداية جلسة احتفالية. وبذلك أخرونا. وهي الان على المسرح. وقد تعذبت انا تماما من أجلها... خذ، هذه رسالة لك!. وناولت بولينين وريقة صغيرة مطوية.

- ثم انها طلبت مني ان أقبلك. ان هذا حسب رغبتها، اما انا فأقبلك!- ولفت بولينين بيديها وضغطت بشفتيها المصبوغتين على خده. - والتفتت الى الطيارين،

وهي تخرج من جيب معطف الفرو القصير، رسالة اخرى مع تتمة عبارة "كدت انسى"، ودستها في يد بولينين قائلة:
- لماذا تتضاحكون، لا تخافوا، فأنا لا اقبلكم.
وقالت لبولينين ان غاليا ترجوك القاء الرسالة في بريد موسكو. فهي لأحد المخرجين، وبخصوص العمل وينبغي ان تصل باسرع ما يمكن...
- قال خفير العربة، وهو يبعد مع حركة القطار، الأيدي الممتدة نحو بولينين - ايها الرفاق الآمرون... المعذرة ايها الرفاق الآمرون.
- ومن خلال رؤوس الطيارين صرخت ماشا ماكاروفا ببولينين - انها رجت ان تأخذ عنوانك لكي تكتب لك فيما بعد!
- وصرخ بولينين بعنوان والدته: بيكوفا، تورغينيفسكايا، سبعة، شقة اربعة.- ولكن ماشا ماكاروفا سمعته يقول كوسكوفا وليس بيكوفا، وكتبت ذلك مستعجلة بواسطة قلم زينة على ورق نص الدور الملفوف بشكل اسطوانة الذي سحبته من جيبها.
وبقيت ماشا والطيارون في الخلف، بينما ظل غريتسكو مستمرا في الركوب، وهو معلق على الدرجة السفلى لعربة القطار، وممسك بمقبض الصعود. انه لم يكن لديه اي شيء آخر يضيفه في الكلام الى بولينين، سوى انه لا يريد الفراق عنه. وهكذا تحرك الاثنان، واحدا مقابل الآخر، على درجات سلم عربة القطار، وهما يبتسمان لبعضهما

البعض، وابتسامة غريتسكو عريضة تملأ صفحة وجهه كلها. اما بولينين فابتسامته مشوبة بالحذر: انه كانت تقلقه سرعة القطار المتزايدة شيئا فشيئا.

- هيا أمسك!- قال غريتسكو أخيرا بصوت صاح، وفك يده اليمنى من المقبض وضغط على يد بولينين بقوة. ومن ثم استدار وأحنى رجليه وقفز بمهارة مع اتجاه سير القطار.

وظل بولينين يلاحظ قامته الطويلة مع يده المشرعة لعدة ثوان من خلال عواصف الثلج الهائج، ومن ثم اختفت حتى يده. ودخل بولينين في العربة وخلع المعطف الجلدي، واستند على يديه، وتسلق بخفة الى السرير المعلق، وخلع جزمة الفرو الطويلة ووضعها تحت رأسه، وتمدد بعد ان تغطى بالمعطف الجلدي.

انه وان كان قد تأثر من غالينا بيتروفنا، لأنها لم تأت حتى النهاية لوداعه، الا ان ذلك لم يحزنه: انها ما استطاعت المجيء بسبب العمل. وعلى الرغم من القلق الذي ظل يساوره من جراء كون غالينا بيتروفنا تعمل ممثلة، فانه من جهة اخرى معجب بها لان لديها عمل، وانها ليست مجرد امرأة جميلة فقط.

وبعد ان استلقى لعدة دقائق وعيناه مغمضتان، فتح الوريقة وقرأها على ضوء مصباح الزاوية الاصفر تحت السقف.

انها كانت قد قالت له وهي تودعه، مستعملة ضمير

المفـرد ولكنهـا كتبـت هـذه الـورقـة بصيغـة ضمـير الجمـع تقول فيها "اني لارجوكم كل الرجاء حول امر واحد فقط: هـو ان تحـافظـوا وتحـافظـوا وتحـافظـوا عـلى نفسكـم! لقـد وعدوا بـاننـا سنعـود الى مـوسكـو في الثـاني عشـر مـن كـانـون الاول ـ ديسمـبر. اتصـل بي فـورا بـالهـاتـف بنفـس هـذا اليـوم". ومـن بعـد ذلـك يـوجـد رقـم الهـاتـف. وهـو يبـدأ بـالحـرف "ك"ـ وانـه كـما يبـدو في منطقـة مـا مـن المـركـز.

طوى بـولينين الوريقة طوية ربـاعية ووضعهـا في جيب القمصلة العسكـرية، وبـاقصى زاوية فيه. وبعـد ذلـك تـذكـر الـرسـالـة الـتي دستهـا صـديقـة غـالينـا بيـتروفنـا في آخـر لحظة والتي ينبغي القاؤها في بـريـد مـوسكـو. وللتـأكـد مـن ذلك، قـرر ان ينقلهـا مـن جيـب المعطف الجلـدي الى جيـب القمصلة العسكـرية ايضـا. ويـوجـد على الـرسـالـة عنـوان: مـوسكـو، زقـاق بلـوتنيكـوف، دار ١١، شقـة ٤، الى فيكتـور فاسيليفيتـش بـالاكـيريف. مـن غ.ب.بـروكـوفيفا، مـورمانسك، فندق "آركتيكا".

والـرسـالـة كـانـت بـدون طـابـع بـريـد. "ينبغـي لصـق الطـابـع هنـاك في مـوسكـو قبـل القـائهـا في الـبريـد"ـ هكـذا فكـر، ثـم دس الـرسـالـة بعـد ان طـواهـا نصفـين، في نفـس ذلـك الجيـب الـذي فيـه ورقـة غـالينـا بيـتروفنـا.

خرج الضيوف قبل قليل فقط. وجلس فاسيلي فاسيليفيتش بالاكيريف وابنه فيتينكا واحدا مقابل الآخر، حول مائدة عيد الميلاد التي بقيت بعد الضيوف، واخذا يتجادلان. وكان فاسيلي فاسيليفيتش يتكلم بهدوء وتوءدة، وهو يشخب الشاي الكثيف من كأس موضوعة في حامل تذكاري ثقيل مطلي بالذهب، أهدي اليه من قبل الممثلين في احد الايام، بينما كان فيتينكا المتهيج من الفودكا التي شربها، يتكلم بسرعة وصوت عال.

ودار الجدل حول ما اذا كان مصادفة او غير مصادفة، ذهاب الفنان ليخاتشيف، صاحب لقب الجدارة في الجمهورية، الى منزله الريفي على طريق دميتروفسك بمنطقة جافارونيكا قبل يوم واحد من استيلاء الالمان عليها في اليوم التالي. وقد قال فاسيلي فاسيليفيتش، بأن الحادثة وقعت صدفة، بينما زعق فيتينكا بأنها متعمدة. وكان هذا الجدل قد جرى بحضور الضيوف،وان كلا منهما قد عبر عن رأيه، غير ان فاسيلي فاسيليفيتش قد قال آنذاك بحضور الضيوف، بان هذا لايمكن ان يحدث، لان ليخاتشيف هو رغم كل شيء، ومهما كان، انسان سوفييتي، اما فيتينكا فقال بان هذا من الممكن ان يحصل تماما، لان ليخاتشيف كان دائما شخصا معاديا للسوفييت.

والان وعندما بقيا لوحدهما بدون ضيوف، اتخذ الجدل بينهما لونا اخر. فقد قال فاسيلي فاسيليفيتش، بان

ليخاتشيف جبان، بحيث انه حتى لو اراد ان يقع بيد الالمان، فما كان ليجرأ ابدا في الذهاب الى ملاقاتهم في الجبهة والجلوس متواريا هناك في القبو الى ان تغادر جماعة منطقة جافارونيكا لتأتي أخرى بمكانها. ان ليخاتشيف ما ذهب الا لخوفه من ان يحرق الجنود المرابطون هناك منزله الريفي. اما ان الجبهة كانت على تلك المسافة القريبة، فانه لم يأخذ ذلك بنظر الاعتبار بسبب طبيعته الغبية كما يبدو.

اما فيتينكا فقد أكد بان ليخاتشيف رغم كونه جبانا في الواقع، فان هذا الجبن لا يحول دون ذهابه الى منزله الصيفي وانتظار الالمان هناك.

- وقال - كل جبان مستعد للدخول مرة في حياته بمقامرة.

- اعترض فاسيلي فاسيليفيتش، وهو يحرك اصابعه السمينة البيضاء، حركة معروفة للاعب الورق وقال - ولكن ماذا في المقامرة هذه، وانا لا ارى هذه المقامرة، وماذا وراء المال؟

- احتد فيتينكا وقال - مقامرة! ومن هو ليخاتشيف؟ انه حسود ومتوسط المؤهلات. ولو ان الالمان قد وصلوا موسكو وعثروا عليه هنا، فسوف لا يكون له شخصيا اي بريق من النجومية، ولهذا فانه قامر بالذهاب لهذا اللقاء،اثباتا منه لعلاقاته، وانك من بعد ذلك ستتفضل وترى، ان دخلوا موسكو، فسيكون بفضلهم، الشخصية

المسرحية الرئيسية!.

- سأل فاسيلي فاسيليفيتش وهو غارق بالتفكير- وهل انت تعتقد بانه كان يظن بانهم سيأتون؟

- ولماذا لا يظن بهذه الصورة؟ فان جافارونيكا ليست مينسك ولا سمولينسك، والمسافة منها حتى موسكو اثنان وستون كيلومترا..

وانتقل الجدل الى وجود او عدم وجود ما يؤكد الان ان الالمان سوف لن يدخلوا موسكو.

ان الوالد والولد، الجالسين احدهما مقابل الآخر، كانا في وقت واحد متشابهين وغير متشابهين ما بينهما. فقد كان فاسيلي فاسيليفيتش رجلا ضخما حسن الهندام مع كماشة في رباط العنق، وبازرار ذهبية باكمام القميص المنشاة البارزة من اردان السترة العالية النوعية. وكان لديه وجه جميل عريض لين وذا خدين ورديين هرمين، وجلد ناعم، ووجنتين اخذتا بالترهل. وكان رأسه المغمور بالشيب تماما، يسكب ذلك اللون الكريم من الشيب الذي ينجم عن الغسل بكمية صغيرة من مسحوق الازرقاق الذي يضاف الى الملابس البيضاء. ويداه كانتا كبيرتين بيضاوين مع خاتم زواج ضخم بارز في الاصبع. وكتفاه عريضتان ومستديرتان. والصديري الذي ازراره السفلى مفتوحة بلا عناية قد غطى كرشه الذي صار كبيرا، ولكنه ما زال يبدو غير فظيع بفضل طول قامته وقيافته.

وان لدى فيتينكا نفس هذه السمات تماما مثلما لدى والده: ومن المحتمل ان فاسيلي فاسيليفيتش كان في شبابه شبيها بفيتينكا تشابه قطرتي الماء، ولكن من الصعب الان التصور بان فيتينكا الاشقر، الذي يسرح شعره بمفرق مائل ايضا، والنحيف الفارع الطول، سيتحول في يوم ما، مع الايام، الى مثل هذا الانسان الاشيب البدين، الجامد من الراحة، مع كأس من الشاي في احدى يديه وغليون التبغ بدخانه في اليد الاخرى.

في هذا اليوم اكتملت السنة الخامسة والستون من عمر فاسيلي فاسيليفيتش. انه ابن رئيس جوقة مسرح روسي مشهور، وهو نفسه كان ايضا صاحب مسرح قبل الثورة، ومن بعد ذلك، في سنوات الخطة الاقتصادية الجديدة،* اصبح نصف صاحب جوقة، ونصف مدير مسرح، ثم في الاخير، صار مديرا تجاريا لمسارح مختلفة في موسكو. وفي نهاية الموسم المسرحي الماضي ترك واحدا من اكبر مسارح موسكو، لعدم انسجامه مع المدير الجديد الذي لم يكن معنيا بان يفهم ان فاسيلي فاسيليفيتش اعتاد ان يحس بنفسه سيدا في المسرح رغم ادواره الثانوية فيه. فلقد خرج وقرر العيش موسما واحدا

---

* خطة اقرها لينين لتشجيع القطاع الخاص والمختلط في ظل التطبيقات الاشتراكية العامة للدولة وذلك في سنة ١٩٢١.

بهدوء انتظارا لمكان جديد واكثر مناسبة له سيقترحونه عليه عاجلا ام آجلا.

انه وهو الانسان الذكي اللبق والمفتوح، الذي استطاع طول حياته، وحتى في اصعب الظروف خطورة، ان يحتفظ بشعور الهيبة الخاصة بصورة امينة تماما، كان في ذاكرة عدة اجيال مسرحية، يحظى بالاحترام حتى من قبل كل من كان في قرارة نفسه يفهم ان فاسيلي فاسيليفيتش ما كان قد عاش، وما كان باستطاعته كما تعود هو على ذلك ان يعيش، على راتبه وحده.

ان فاسيلي فاسيليفيتش يملك شقته الخاصة الكبيرة التعاونية ذات الغرف الخمس، التي بنيت منذ سنوات الخطة الاقتصادية الجديدة بأمواله الخاصة، وفيها احيا اليوم عيد ميلاده الخامس والستين. كما ان لديه منزلا صيفيا في جافارونيكا نفسها تلك التي ذهب اليها الممثل ليخاتشيف يوم السبت، اما عن قصد مسبق او من دون حسن تقدير، والذي دار حوله جدل مع ولده. وكان منزل فاسيلي فاسيليفيتش الصيفي قد اغلق منذ وقت بعيد، وجلبت منه الاشياء الثمينة الى الشقة في موسكو. اما شقة فاسيلي فاسيليفيتش فهي من حيث الحقيقة، الثمرة التي تحولت الى تحفة، لجهوده طول حياته.

لقد كانت عنده، حتى تلك الاشياء النفيسة من ذلك النوع الذي لا يعرض امام العيون. وقد اخفيت في صناديق

زوجته، ومناضد الكتابة والدواليب والجرارات. ولابد من ذكر ان هذه الاشياء التي اخفيت بها تلك الحاجات الاخرى، هي ايضا ليست قليلة القيمة. وكانت شقة فاسيلي فاسيليفيتش قد تجهزت خلال عدة عشرات من السنين باثاث من الانواع الممتازة جدا، المأخوذة من معارض بافلوف والكسندروف التي تبيع التحف الأثرية. وانها لعلى قيمة غير قليلة، مكتبة فاسيلي فاسيليفيتش التي تحتوي على اعداد كثيرة من الكتب الثمينة والمخطوطات. ولديه توجد لوحات باهرة، ورسوم تخطيطية ورسوم تحضيرية، مشتراة او مهداة له في اوقات مختلفة، وعنده رسائل ومخطوطات اعلام عالم المسرح، بل وعالم الفن عموما، وانه حتى الصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران، لممثلين مشهورين مع تواقيعهم الشخصية المأساوية كلها احيانا، أو المؤثرة، والموجهة الى فاسيلي فاسيليفيتش، تملك هي ايضا في نهاية المطاف قيمة عالية ليس بالنسبة لشقة خاصة فحسب، بل وبالنسبة لمتحف.

وحسبما يقدر فاسيلي فاسيليفيتش فانه لم يبق له من العمر في حياة رغيدة سوى خمس او ست سنوات - ولربما اكثر من ذلك - ولهذا فما كان لديه اي استعداد لان يغيرها باية جهة اخرى بتاتا. وعندما بدأ الالمان بشن غارات جوية على موسكو، فانه لم يظهر امامها اي فزع، وانه رغم الحاح مدير المساكن، وخفراء مقاومة

الطائرات، فقد بقي في اثناء الغارات، داخل شقته، بحيث انه لم يذهب حتى ولا مرة واحدة الى الملجأ. وكان من الممكن ان يغير اسلوبه، لو ان احدى القنابل سقطت على مدى قريب جدا من بيته، ولكن القنابل لم تسقط على ذلك المدى القريب منه، بحيث تفزعه، بل على مسافة كان يحرك معها اكتافه باستخفاف واضح، وهو يفكر بامكانية الموت وكأن لسان حاله يقول: ليس في اليد حيلة، فهو هنا قد عاش، وهنا سيموت في اسوأ الاحوال!.

ان التفكير بالهروع كل ليلة تقريبا، من شقته، والركض على عدد من السلالم الى الملجأ، والجلوس هناك في زاوية بين الاطفال والنساء، بدون نوم ولا راحة، بل وحتى بدون امكانية تدخين الغليون، فقد بدا له، ان لم يكن امرا فظيعا، فانه اكثر كراهية من التفكير بالموت. واذا كان يضحك ساخرا من ابنه الذي كان يركض هلعا الى تحت، مع كل صافرة انذار اذا ما صادف وجوده خلال ذلك في الشقة، فلربما ان هذا، بسبب انه قد بدأ الحياة لتوه، وان التفكير بالموت يبدو في نظره رهيبا من خلال ذلك، او من الممكن لانه بطبيعته كان اكثر جبنا من والده.

وعندما اصبح الالمان يواصلون اقترابهم نحو موسكو، فان فاسيلي فاسيليفيتش رد بالرفض على اقتراح اصدقائه القدامى عليه، بمساعدته في النزوح الى اي

مكان بظروف افضل نسبيا، أينما يمكن الحصول عليها.

- قال - لن أذهب، وانني لعاجز عن الحركة من المكان الأليف، ثم ان الالمان سوف لن يصلوا، وانا لا أثق بانهم سيصلون!.

ان العبارة الاولى صحيحة. اما الثانية فليست تماما. فهو مثل كثير من الناس الاخرين الذين ينظرون الى الاشياء مثل نظرته، افترض مع نفسه في ذلك الخريف الاول من الحرب، دون ان يعبر عن ذلك جهرا، ان باستطاعة الالمان احتلال موسكو، بل وانهم على العموم يستطيعون ان يربحوا الحرب. وانه ما كان يريد لا هذا ولا ذاك. وانه لم تكن عنده اية حسابات يريد تصفيتها مع السلطة السوفييتية. فهو في البداية، في سنوات حرب الشيوعية، قد جاع قليلا، ومن ثم في سنوات الخطة الاقتصادية الجديدة، تحول الى حال ليس هناك افضل منها، ومن ثم احس انه ليس في مكانه الصحيح، وفي الأخير تغير مرة اخرى الى نوعية جديدة، ولكنها مقبولة بالنسبة له ايضا. ولم يكن عنده اي شيء يبحث عنه لدى الالمان، ولا ينتظر منهم اي شيء في آخر العمر. وبالاضافة الى ذلك فانه لا يحبهم ابدا لا اكثر من ذلك ولا أقل، فهو لا يحب حسابهم الالماني الصافي على المائدة، ولا مصحاتهم الالمانية الكئيبة التي سبق له وحل بها عدة مرات قبل الثورة، ولم يحبهم بصورة خاصة، في عام ثمانية عشر

عندما اضطر ان يدير مسرحا في كييف خلال الاحتلال الالماني، وانه يتذكر جيدا الاذلال الذي عانى منه.

اما الان فيضاف الى هذا كله، الحرب الحالية الفظيعة معهم. وان ولده من صلبه لم يذهب الى الجبهة بفضل الانتداب الذي استحصله له. ان وطنية فاسيلي فاسيليفيتش لم تتمطط لتصل الى مثل هذا المستوى، بحيث انه يمنع ذلك الانتداب عن ابنه، ولكنه كان يقرأ بشعور ثقيل في الجرائد عن احتلال مدننا. وخاصة عن الوحشية الالمانية. وكان هو لا يصدق بكل ما كان يكتب، ولكنه اعتقد بانه لا دخان بلا نار، وان الالمان، وهم يقتلون في الاراضي المحتلة جميع اليهود بالتسلسل، فأنهم يرسلون الاخرين ايضا بالتأكيد الى العالم الآخر، من أولئك الذين لا يسايرونهم او في حالة وقوعهم بأقل حالات الخرق للنظام الالماني، ومن دون ادنى تمحيص. وهو لم يكن لديه شك في ذلك تقريبا لا سيما عندما يتذكر عام ثمانية عشر في اوكرايينا.

كلا، انه ما كان راغبا ابدا لا بدخول الالمان في موسكو وبانتصارهم، بل كان راغبا في ان يثق بعكس ذلك، غير ان دخولهم الى موسكو، كان يبدو له من يوم لآخر امرا ممكنا. ثم انه رغم كونه غير مستعد، مثل ليخاتشيف - اذا كان ليخاتشيف قد فعل ذلك عمدا - ان يهرب لملاقاة الالمان، فهو ماكان مستعدا ايضا للسفر من موسكو.

لقد جمع في محفظة تحت اليد، في الجرارة العلوية

من منضدة الكتابة، الوثائق التي يكون باستطاعتها ان تعرضه للشكوك بنظر الالمان، لو انهم وصلوا بحال من الاحوال. ففي هذه المحفظة، توجد مذكرتان من لونا تشارسكي* وعدد من تواقيع التهاني بالمناسبات التذكارية التي ذكرته فيها بانه شخصية بارزة في المسرح السوفييتي، وخمس او ست شهادات تقديرية من مجلس السوفييت الاعلى والجمهوريات ذات الحكم الذاتي على التنظيم النموذجي للجولات المسرحية، اضافة الى عشرين او ثلاثين من الرسائل التي يكون من المؤسف عدم الاحتفاظ بها في ظل السلطة السوفيتية، ومن الخطر الابقاء عليها مع الالمان. ان هذه كلها يمكن حرقها في خلال نصف ساعة اذا اقتضى الامر ذلك.

وفي ما عدا هذا، فانه لم يخطر على باله، كما بدا له، ما يخشاه من الالمان خشية خاصة. فهو لا يتهيأ لانتهاك النظام الالماني اذا ما اقيم لا سمح الله، وسوف لن يفكر بالعمل في اية دائرة من دوائرهم او مجالس الدوما** التي كتبوا عنها في الجرائد. غير انه اذا

---

* وزير الثقافة في الحكومة الشيوعية بعهد لينين خلال ثورة اكتوبر ١٩١٧.

** مجالس ادارة مدنية كانت شائعة في العهد القيصر في روسيا القيصرية.

ماحصل فجأة واقتضت الحاجة ان يجعلوا منه مديرا للمسرح الذي سيخرجون عليه في ظل الالمان مسرحية شيللر او غاوبتمان، فانه سيناقش هذه الفكرة مع نفسه في حينها.. ولو انه كان راغبا في ان لا يحدث مثل هذا على العموم بتاتا، وان لا يحتل الالمان موسكو، وانهم كلما ينهارون على العموم بصورة اسرع، يكون ذلك افضل.

لقد مال وهو يتحدث الان مع ولده، الى ان من غير المحتمل ان يستولي الالمان على موسكو، ولكن فيتينكا، الذي كان واقعا تحت تأثير الخمرة قال، ان الالمان، ما داموا قد احتلوا جافارونيكا فان بأمكانهم الان تماما الوصول الى ضواحي موسكو.

وفي الأخير سأل فاسيلي فاسيليفيتش بذهول وهو يرفع حاجبيه الأشيبين - فلماذا اشتبكت اذن بعمل مع مسرحكم هذا،اذا كنت تفترض بهذه البساطة ظهور الالمان الوشيك قريبا في الضواحي؟

ان فيتينكا ما كان راغبا من البداية، عندما شرع الالمان في قصف موسكو من الجو، ان ينزح عنها، رغم خوفه الشديد جدا من قصف القنابل، لانه كان يخشى النزوح نفسه، بعيدا عن والده اكثر من اي شيء آخر، اذ يمكن ان يؤدي ذلك الى الغاء انتدابه، ولكنه من بعد ذلك بقي في موسكو بعامل الاستمرارية: فالبقاء في البيت الى جانب الوالد كان غير مخيف. واعتياديا نوعا ما، بل واكثر شبعا بالمناسبة. وكان الوالد بسجيته المفتوحة،

كريما جدا، اذ أمر الوالدة ببيع الاشياء دون اسف، وبانفاق اي مبلغ من المال، شريطة ان لا يتغير النظام المطبق في البيت.

واتخذ فيتينكا لنفسه تدريجيا، وهو الذي لم يغادر موسكو مرة واحدة، هيئة الشخص الذي لا يأبه لشيء ولا يخشى من اي شيء. وان هذا كان اسهل عليه مع انتدابه في موسكو، ما دام ليس هناك ما يخيفه فعلا، غير الغارات الجوية الالمانية، التي ليست قوية جدا، والتي كان يطيل المكوث خلالها في الملجأ.

وان فيتينكا لم يغادر موسكو في السادس عشر من تشرين الاول - أكتوبر، لان والده قال له بهدوء "سنعيش ونرى، فاذا ذهبت بدوني فلا تلمني".

وعندما خمدت من بعد ذلك، الفوضى الاولى، فأن فيتينكا اعتقد فجأة ان الالمان سوف لن يدخلوا موسكو في الوقت الراهن. وبدأت تتحدث فيه سجية والده الادارية، فوجد نفسه فجأة، وان كان بلا موهبة، الشخص الاكثر ضرورة في الحياة، عندما بدأت تتشكل جوقة درامية جديدة من الممثلين الذين بقوا في موسكو بعد نزوح جميع المسارح الاخرى عنها. وقد استحوذ هذا النشاط على فيتينكا. وانه في اوج هذا النشاط، ارسل، مستغلا الفرصة، تلك الرسالة التي وعدت كثيرا وغالت الى حد ما، بأهميته الشخصية، والتي تسلمتها غالينا بيتروفنا في يوم مغادرة بولينين.

غير ان الالمان، عندما استأنفوا الهجوم من جديد على موسكو، خلال الايام الخمسة او الستة الاخيرة، بعد فترة من التوقف، بحيث أنهم قد اقتربوا في بعض الاماكن الى ستين او سبعين كيلومترا منها، فأن فيتينكا عاد اليه الهلع مرة اخرى. فماذا ستكون عليه الحال في المستقبل اذا اخذت المعارك تدور في ضواحي موسكو نفسها ؟ واذا زاد الطين بله، واندفع الالمان فجأة الى داخل موسكو؟ ان هذا قد افزعه فزعا شديدا، غير انه ليس في امكانه الان ان يجمع امره ويرحل ببساطة، لأنه ليس قادرا في الوقت الراهن على التخلي عن هذا المسرح الجديد، لان الانتداب الذي لديه الان بالذات للخدمة في هذا المسرح. اجل، وانه على العموم، مع من يستطيع، غير والده، ان يشرح له مخاوفه التي افصح عنها الى فاسيلي فاسيليفيتش جوابا عن سؤاله: لماذا اذن اشتبكت بالعمل مع هذا المسرح، اذا كنت ترى ان الالمان سيدخلون الى موسكو ؟.

بعدما سمع فاسيلي فاسيليفيتش جوابه الحائر، كور منديل المائدة باصابعه البيضاء ورماه بتقزز على المائدة وقال،

- انصحك بأن تقلل من التململ.

- ماذا؟

اقول ، تحرك ، ولكن قليلا، سواء سيصلون او لن يصلوا! اننا سنعيش ونرى. اما انك قد شرعت اخيرا

بالانغمار في هذا المسرح، بصفته قضيتك الاساسية، فأنه لامر جيد لو اصبحت على الاقل ولو مديرا له !. وكذلك فأنني كنت عازفا منذ مدة على ان اقول لك بأنك مخرج بائس، ولن يخرج منك ستانسلافسكي* بأي حال من الاحوال وحتى لو سخرت لك جهودي !

لقد قال كل ذلك بخشونة غير مألوفة لديه، شعورا منه انه ليس باستطاعته كبت ذلك الاحتقار الذي اثاره لديه جبن ولده الظاهر بافراط. وانه كان قد اعتاد ان ولده يحب التعالي، بل وحتى الكلام بزهو ووقاحة، ومن الطبيعي انه كان يصغي الى ذلك بسخرية غير مبالية- ان ذلك غير مهم، فأنه سيعود الى رشده!- ولكنه الان ومع احتقاره لولده، فقد شعر بكل قوة، افضليته عليه،ولم يشعر بحاجة الى الخجل من العبارات.

ان فاسيلي فاسيليفيتش، وهو يلتفت بعينيه نحو غرفة باب المكتب، لاحظ الان فقط انه غير مغلق باحكام.

- قال لولده ـ قم اغلق الباب، اذ لاداعي لأن يسمع الصبي كل هذا الكلام.

- القى فيتينكا نظرة من خلال باب غرفة المكتب غير المغلق تماما، ثم اغلقه، وعاد فجلس خلف المائدة وقال

- كلا، انه نائم مثل الطير.

---

* احد مشاهير رجال المسرح الروسي والعالمي.

- ٩ -

في غرفة مكتب فاسيلي فاسيليفيتش، وعلى اريكته الجلدية الكبيرة، استلقى واضعا رأسه على وسادة جلدية ذات لون اخضر غامق، الصبي الذي تذكره فاسيلي فاسيليفيتش فجأة، استلقى دون ان يغفو، وهو متهيج من اعماق الروح مما كان يسمعه بعد انصراف الضيوف، ومن ثم فهو قد صحا من جراء الصوت المرتفع لفيكتور فاسيليفيتش - (الاسم الكامل لفيتينكا - المترجم)، الذي كان قد صرخ حول مكان ما باسم جافارونيكا.

قبل خمسة ايام مضت، وفي مساء السادس عشر الذي لا ينسى بالنسبة الى موسكو من شهر تشرين الاول - اكتوبر، سمع في باب شقة بالاكيريف قرع مرتبك في البداية، ثم زاد شدة، والى ان صار في الاخير قرعا متهورا. وعندما وصلت اولغا فيودوروفنا، زوجة فاسيلي فاسيليفيتش الى الباب واخذت تفتح الاقفال الثلاثة كلها واحدا بعد الآخر، ومن دون ان تنزع السلسلة، فتحت الباب قليلا، فرأت من خلال فتحة الباب صبيا نحيفا رث الثياب، في الثانية عشرة من عمره كما تراءى لها انذاك من مظهره.

- سأل الصبي، بدل الجواب عن سؤال "لماذا انت تدق كالمجنون".

- هل هذه شقة بيت بالاكيريف؟
- نعم - قالت ذلك اولغا فيودوروفنا بشفقة. انها كانت امرأة طيبة، وفكرت متطلعة الى وجهه النحيف في هذه الدقيقة، انها لو تعطيه مايأكل. وبالامكان ان تقدم له عدا الخبز، عصيدة الحنطة السوداء المطبوخة منذ يوم امس التي هي موجودة في القدر بالمطبخ.
- سأله الصبي - هل انت الخالة اوليا (مصغر اولغا - المترجم).
ان صبيا واحدا فقط في الدنيا يستطيع ان يناديها بأسم الخالة اوليا. وادركت من خلال ذلك بأن الذي امامها هو ابن المرحومة اختها الصغرى يكاترينا فيودوروفنا. انه فالوديا الذي رأته اخر مرة منذ ان كانت اختها على قيد الحياة قبل خمس سنوات مضت. وانها لم تره منذ ذلك الحين، غير انها كانت تعلم عن اخباره من الرسائل النادرة التي يبعث بها ابوه الارمل الذي كان يعمل طبيبا بمدرسة زراعية
رفعت هي السلسلة من الباب وسحبت الصبي من يده الى المدخل واغلقت الباب مرة اخرى وقفلتها بكل الاقفال، ثم اتكأت على الجدار طويلا وهي تنظر بحزن اليه.
سألته من بعد ذلك:
- ولكن أين ابوك؟
- قال الصبي - ابي قتله الالمان.

غسلوا للصبي واطعموه وابقوه يعيش معهم. اي انهم فعلوا ذلك الذي كان سيفعله كل الناس غير الاشرار وغير البخلاء. غير ان كل واحد من سكان الشقة الاربعة كان يعامله معاملة مختلفة.

فاسيلي فاسيليفيتش قال لزوجته، ان تبيع ماليس به حاجة لتشتري للصبي مايحتاجه. لقد قال ذلك، ومسد على رأس الصبي ثم نسي وجوده.

واخذ فيكتور فاسيليفيتش، في اثناء اول غداء، يسأل الصبي، هل انه قد شاهد الالمان، وماهو منظرهم، وكيف يتصرفون. وانه استمر طويلا في استجواب الصبي الذي كان يتذكر بلا رغبة، والمصعوق بالألم الى درجة، بحيث ان فاسيلي فاسيليفيتش صفق اخيرا بانزعاج يده اللينة البيضاء على المائدة وسأل:

- الا يكفي هذا ؟

ومن بعد ذلك، عندما بقي فيكتورفاسيليفيتش لوحده، عاد الى استفساراته، ولم يتوقف عن الالحاح، الا بعدما فهم ان الصبي رأى الالمان عن بعد فقط، رغم سيره عدة ايام بعد موت والده في مناطق يسيطر الالمان عليها.

وكانت اولغا فيودوروفنا الذي يعتبر الصبي قريبا لها بالدم تعامله معاملة حسنة ومتساوية، واهتمت بأن تطعمه جيدا، وانها عندما كانت تتذكره فجأة وسط اشغال البيت، تنادي عليه وتضمه الى صدرها المليء وتقبل[illegible]ان في رأسه.

ولكن الساكن الرابع في الشقة فقط، خادمة المنزل آنا آكيموفنا التي كانت هي نفسها قد عاشت يوما ما في العهد القيصري بدار للايتام، هي وحدها التي شعرت بأهم شيء كان في نفس الصبي، وهو انه كان يتيما !. فهي لم تسأله عن الالمان، وبدلا من ذلك، كانت تحمله في كل مرة، وهي تتنهد مثل تنهده، على تكرار القصة عن والده، وكيف قام باجلاء تلاميذ المدرسة الزراعية، التي تحولت قبل هذا الوقت الى مستشفى عسكري، وكيف ابتلعت الارض، عندما بدأ القصف فجأة، الأب امام عين ولده، اثر انفجار قنبلة قريبا منه جدا، ولكنهم لما نبشوا التراب عنه اتضح: انه صار في عداد الاموات. ان الصبي ماعاد يبكي عندما يتحدث لها عن ذلك، اما هي فكانت لا تنفك تمسح في كل مرة عيونها بطرف مئزرها، وتقوم في كل مرة بمواساته بقصص عن مصيرها نفسها: بأنها مارأت ابدا لا امها ولا اباها، ورغم ذلك فأنها لم تضع في الحياة، حيث ان الله لم يتخل عنها، وان الناس لم يتركوها...

وفي الاسبوع الثاني من اقامة الصبي لدى بيت بالاكيريف، وشعورا من آنا آكيموفنا بأن قضيته الرئيسية هو انه يتيم، فأنها قد اعترضت على نوم الطفل فوق اريكة خشبية بغرفة الطعام عندما لا يكون في البيت ضيوف، ونومه على الاريكة المغلفة في غرفة المكتب عند وجود ضيوف.

- هل هذا عمل ؟ هل هو ياترى قطعة اثاث تنقل مرة هنا واخرى هناك ؟

وفرشت له سرير سفر متنقل، ودعته للعيش معها بصورة دائمة في غرفة صغيرة الى جانب المطبخ.

وعندما كانت اولغا فيودوروفنا الحنون تبدأ بأطعام فالوديا مرة من هذا واخرى من ذاك، فأن آنا آكيموفنا تقول:

- كفاك حشوا في فمه، فهو قد صار ناعما!.

كانت اولغا فيودوروفنا تريد دائما ان يرتاح الصبي وينام، بينما كانت آنا آكيموفنا على عكسها، تكلفه دائما بالاشتغال.

"هيا يافوفكا-(اسم التصغير من فالوديا- المترجم)، اخرج لجلب الخبز، وقف بالدور، فالقدمان لا تتيبسان" او : "خذ البن واطحنه" أو : "تعال افرم اللحم..."

لقد ادركت هي بعقلها السليم، أن حياة الصبي، ستكون اسهل عندما يكون مشغولا بعمل، وانها بصفتها انسان عمل، لم تجد سببا يستدعي الصبي ان يتسكع في الشقة بدون عمل. " مادام هو يأكل خبز صاحب الدار، فعليه ان يعمل". هكذا كانت قد فكرت، وهي تضعه في نفسها في كفة واحدة، في الوقت الذي تضع، بدون سابق تدبير، اصحاب الدار بالكفة المقابلة.

كانت المدارس في موسكو مقفلة كلها تقريبا او

مهجورة، ولا توجد دراسة في اي مكان، ولهذا فأن الصبي كان يركض من طابور الى آخر، ويدير آلة فرم اللحم، ومطحنة البن، ويسن السكاكين وينظفها، وينفذ مختلف الاعمال الصغيرة الاخرى، التي كانت تخلقها له دائما آنا آكيموفنا. كما وضعوا له صحن طعام على المائدة المشتركة، وحتى عندما كان يحل عندهم ضيوف، فأنهم صاروا ينادون عليه ليجلس معهم. ولكنه صار فيما بعد يضطر باستمرار، اما الى شرب الشاي في المطبخ مع آنا آكيموفنا في الصباح قبل اهل الدار، ليلحق في الذهاب بعد ذلك للوقوف بالدور، او أنه يتأخر عن الغداء، ثم يتغدى معها لوحدهما، بعد أن تكون هي قد غسلت الصحون وجلست في المطبخ تستمتع بلذة الجلوس.

لقد تعودوا على ذلك تدريجيا. وانهم اعتادوا على استلقائه مساءً في الفراش مبكرا، والقراءة على سرير السفر في غرفة آنا آكيموفنا، واحيانا الاصغاء الى الاحاديث التي تتبادلها في المطبخ الى جانبه، آنا اكيموفنا واولغا فيودوروفنا. انهما كلتاهما جاءتا في وقت واحد الى دار فاسيلي فاسيليفيتش قبل ثمان وعشرين سنة، وانهما عندما تبقيان لوحدهما تكونان اقرب الى مايشبه الصديقتين مما لسيدة وعاملة خدمة منزلية.

استعاد الصبي مظهره الخارجي بسرعة كبيرة، وصار يبدو بسن الرابعة عشرة مرة اخرى. ولكنه قد ظل في عينيه مرتسما، ذلك الشيء الذي لم يعد بالامكان

انتزاعه منها: وهي صورة والده ملقى على الارض، مع رأسه الاسود وعينيه الجاحظتين في محجريها، والالمان، والسيارات الالمانية على الطريق، والدروب الريفية مع الجثث على جوانبها، ومع دوي القصف المخيف في الليالي، مرة من الخلف واخرى من الامام، ومع الجنود المتراجعين المتسخين المتعبين الذين في البداية يسألون بخشونة، من انت، ومن اين اتيت، ومن ثم يدسون بيده قطعة سكر او خبز. وخلال طريقه الى موسكو اشار عليه مقاتلون مرتين ان يبقى معهم، غير انه ظل يمشي ويمشي متذكرا كلمات والده تلك التي قالها في اليوم الاخير عندما اصبح صوت اطلاق النار يسمع من بعيد.

- اذا حدث لي شيء ما، فأذهب الى خالتك في موسكو ولا تلتفت الى اي قول آخر!

وفي خلال خمسة اسابيع من مكوثه في بيت بالاكيريف تكونت لدى الصبي فكرة صامتة عن الناس الذين يعيش عندهم.

فأن فاسيلي فاسيليفيتش، الذي كان طول الوقت جالسا في البيت تقريبا، هو انسان طيب، ولكن قلب الطفل احس بكل عدم اكتراث هذه الطيبة. ورغم ان الصبي كان ممتنا من فاسيلي فاسيليفيتش، فأنه كان ممتنا نفس هذا الامتنان ايضا من حالة عدم الاكتراث تلك، ويعبر عن شكره له بأن يسعى الى التقليل فقط من ازعاجه له بالظهور لماما امام عينيه.

اما فيكتور فاسيليفيتش، فهو بعكس والده، كان قليل البقاء في البيت، وان هذا قد ساعد الصبي في اخفاء نفوره منه الذي يثور لديه عند اول استفسار يبديه. فأنه كان يسأل عن الالمان، بحيث ان الصبي احس من خلال ذلك: بأنه يخاف من الالمان كثيرا، ولهذا فهو ليس في الجبهة. اما من بعد ذلك، وعندما حضر ضيوف مرتين، فأن فيكتور فاسيليفيتش، قال بصدد الالمان، تحت تأثير الخمرة، وبصوته المرتفع المسموع في جميع الغرف، بأننا في وقت قادم ليس ابعد من السنة القادمة، سنصنع منهم لحما مهروسا، وان الشيطان نفسه ليس مخيفا فكيف مع ابنه!، اراد الصبي، عندما سمع منه هذا الكلام، ان يقول: "لاتكذب من فضلك، فأنت تخاف منهم!"، غير انه التزم الصمت طبعا، كما هو شأنه طول الوقت الذي كان يمضيه في السكن بهذا البيت.

وبعد ان تخلص الصبي من ذكريات الذعر الاولى، بدأ لوحده التفكير ذاتيا، حول موضوع كيف سيعيش فيما بعد. ولكنه عندما كان واقفا قبل مدة قريبة في الدور، لشراء الخبز، تحدث مع احد الفتيان الذي كان ايضا من مواليد عام الف وتسعمائة وسبعة وعشرين، فقال له ذاك هامسا بأذنه، بأنه يشتغل في ورشة ميكانيكية لصنع منظمات للالغام. وان من الممكن الذهاب الى هناك للعمل.

وفي هذا اليوم دعا فاسيلي فاسيليفيتش الصبي للجلوس على مائدة الحفلة. ولكن فيكتور فاسيليفيتش،

الذي لا يرغب بأن يكون الصبي موجودا لمدة طويلة وراء المائدة ويسمع الاحاديث العامة، قد ملأ له قدحا كبيرا من النبيذ، عند جلوسه الى جانبه، على الرغم من نظرة والده الزاجرة المعبرة عن عدم الارتياح. وكان النبيذ لذيذا، ولكنه احس بعد ذلك برغبة مفاجئة بالنوم، وانسحب الصبي بهدوء من وراء المائدة، ودلف الى المطبخ، ولكن سرير السفر في غرفة آنا آكيموفنا كان مطويا، ووقفت في مكانه منضدة اخرى،كانت آنا آكيموفنا تعالج عليها عجينة بالدهن. فعاد الى غرفة الطعام وهو غير راغب بذلك، فدعاه فاسيلي فاسيليفيتش باشارة من اصبعه اليه، وطوقه من كتفيه وسأله بأذنه: "تريد ان تنام كما يبدو ؟ "، فهز الصبي رأسه موافقا بصمت، فقال له فاسيلي فاسيليفيتش بنفس الصوت الخفيض، ان يذهب الى غرفة المكتب ويضطجع فيها حاليا على الاريكة هناك.

وعندما استيقظ الصبي على صراخ فيكتور فاسيليفيتش فهو لم يع بالبداية اين هو موجود، ولم يدرك الا فيما بعد، انه ينام في غرفة المكتب على الاريكة. وكان رأسه يؤلمه من الصداع، فما أراد أن يتحرك. وكان مسموعا من خلف الباب المفتوح كل ما يقال في غرفة الطعام تقريبا. ان هذا البيت كان بالنسبة اليه بيتا غريبا حتى من قبل ذلك، بل وان فاسيلي فاسيليفيتش وفيكتور فاسيليفيتش ليس فيهما شبه لا بوالده ولا باولئك الناس الاخرين الذين اعتاد ان يراهم من حوله. ولكنه ادرك الان

فجأة، ليس من كلامهم فحسب بل ومن تلك اللهجة التي يقال بها هذا الكلام، ان هؤلاء الناس الذين يعيش حاليا عندهم، لايقفون مثلما يقف كل الناس من موضوع: هل سيستولي الالمان على موسكو ام لا يستولون. انهم يخافون من هذا الموضوع، ولكن خوفهم بشكل اخر يختلف عن الجميع، وعن اولئك الناس الذين كان الصبي يسمع كلامهم احيانا في اثناء وقوفه بالطوابير. وانهم الان لا يطلقون على الالمان صفة الفاشست حتى ولا مرة واحدة. انهم لايكرهون الالمان ولكنهم يخافون منهم فقط.

رقد الصبي بعيون مفتوحة، ولا يدري ماذا يجب عليه ان يفعل: فأن والده قد رباه على ان استراق السمع عمل سيء. ولكنه هل يقوم ويخرج عليهم ليقول لهم، بأنه لم يكن غافيا وسمع كل شيء. ولكن هذا لا يجوز ايضا. انه كان يدرك ذلك، ولهذا فعندما تطلع فيتينكا من خلال الباب اليه، فأنه قد اغلق عينيه وتظاهر بالنوم. ومع ان الباب قد اغلق حاليا، فأنه رغم ذلك كان يسمع كل شيء. وانهم بدأوا الان يتحدثون حول واحدة من النساء.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش - مادامت اكبر منك سنا بخمس سنين، فأنها لاتناسبك زوجا في الحياة العائلية. ان عندنا الفرق مع والدتك خمس عشرة سنة، وهذا هو الحد المناسب تماما!

- انا اعرف ذلك شخصيا.

- ولكنك اذا كنت تعرف ذلك، فلماذا تقترح تعيينها

في المسرح ؟

- وهل ابخل بتقديم مساعدة ؟
- تريد ان تقدم تنازلا، ومن بعد ذلك تهز ذيلك ؟
- لنفترض هكذا !
- قال فاسيلي فاسيليفيتش - ولكنه اي افتراض يكون هذا ؟ وسمع الصبي، كيف اقترب هو بخطواته الثقيلة من باب غرفة المكتب، واستند عند العتبة واضاف قائلا - وكيف ستنظر الى ذلك عشيقتك الجديدة،اذ لابد ان تكونا كلتاهما في مسرح واحد ؟
- ضحك فيكتور فاسيليفيتش وقال - لا بأس، سأتفاهم.

ان هذا الحديث لم يمس وعي الصبي تقريبا. فأنه ظل مستمرا بالتفكير بالكلام الذي ادهشه من قبل، عن موضوع آخر، ولم يعلق بذهنه من هذا الكلام الا كلمة "عشيقة". فلقد فكر يقول - "ماهي العشيقة". ومن بعد ذلك توقفوا عن الكلام، ولربما ان ذلك يعود الى دخول اولغا فيودوروفنا وسؤالها فيما اذا تقدم لهما شايا ام لا.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش - لابد من ذلك وقويا جدا.
- وقال فيكتور فاسيليفيتش مقهقها - أما انا فأريد فودكا اخرى.
- قال فاسيلي فاسيليفيتش - كفاك ذلك. انتهت

الفودكا، بل وسواء انتهت ام لم تنته، فأنت اخذت كفايتك منها.

وخرجت اولغا فيودوروفنا، وأستانفا هما الكلام حول كوتس، احد الاطباء الذي كان عندهم في هذا اليوم.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش - انه لشجاع، كوتس هذا. انه مرابط في موسكو، ويعالج المرضى كالعادة، ولو ان الالمان وصلوا فجأة فأنهم سيشنقونه حتما. !

- قال فيكتور فاسيليفيتش وهو يضاحك نفسه - الرصاص يخشى الشجاع، والحراب لا تطعن الجريء!

- قال فاسيلي فاسيليفيتش - كلا، اني اشفق على كوتس لو حصل له ذلك. ومهما يكن، فأنه على مدى خمس وثلاثين سنة يعالج باستمرار في جمعية الممثلين.

- قاطعه فيكتور فاسيليفيتش قائلا - شفقة. ولكنه اذا وقعت الواقعة وصارت المسألة على المكشوف. انك سوف لن تخفيه مجرد اخفاء. وهل انت ستخفيه ؟

- قال فاسيلي فاسيليفيتش مترددا - بل من الممكن ان اخفيه.

- استمر فيكتور فاسيليفيتش بنفس اللهجة الوقحة يقول - أرأيت، فأنك لن تخفيه.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش- لا أدري - وصرخ فجأة - لماذا انت تستشرس؟ آه لو استطيع الغاء انتدابك يانتن، ولكن فات الاوان !.

ووصل الى سمع الصبي صوت جرس الباب في المدخل.

وسكت كل من فاسيلي فاسيليفيتش وفيكتور فاسيليفيتش، وبعد دقيقة اخرى دخلت اولغا فيودوروفنا الى غرفة المطعم وقالت !.

- فيتينكا ، جاءك ضيف!

-١٠-

رأى فيتينكا عندما ذهب الى المدخل، ضابطا طيارا غريبا برتبة مقدم. وقال، وهو يعتذر عن قبول دعوة اولغا فيودوروفنا بخلع معطفه وشرب كأس من الشاي، انه مر لدقيقة واحدة لايصال الرسالة.

- قالت اولغا فيودوروفنا بحسب طبيعتها المضيافة، وهي تمسك به من كمه، وكأنه سينتزعه ويهرب - يا فيتينكا، حاول انت ان تقنع الرفيق ولو بالجلوس، فانه قد جاء من مكان ناء، من مورمانسك حاملا رسالة، ولا يريد ان يحتسي ولو كأسا من الشاي.

- قال الطيار ماداً يده الى فيتينكا- مرحبا!، بولينين. وما دام قد صدر الأمر بخلع المعطف، فأنا أخلعه! والتفت الى اولغا فيودوروفنا، وقبل ان يخلع المعطف الجلدي، اخرج الرسالة من جيبه وسلمها الى فيتينكا.

وفي اثناء ماكان يخلع المعطف، القى فيتينكا نظرة على الرسالة، فعرف منها انها من غالينا بيتروفنا،

ومكتوب عليها عنوان الارسال: "مورمانسك. فندق "آركتيكا". وبعد ان خلع الطيار معطفه وقبعته، ظهر ان الصلع بدأ يغزو شعره الاشقر الجميل، وانه من حيث العمر في الخامسة والثلاثين. وعلى ضوء الاوسمة، فهو انسان مؤهل، ولهذا فأن فيتينكا، عندما رافقه الى غرفة الطعام، وعرفه على والده، استمر ينظر اليه مذهولا: اذا كان لدى غالينا بيتروفنا شيء ما مع هذا الطيار، فلأي غرض بعثت معه هذه الرسالة؟ واذا لا يوجد شيء بينهما، فلأي غرض اهتمت الى هذا الحد، بأن يوصل الرسالة الى الشقة بغض النظر عن الليل، بل والاكثر من ذلك، فأنه قد وصل في هذا اليوم الى موسكو كما يقول.

بعد ان تبادل بولينين التحية مع فاسيلي فاسيليفيتش وجلس وراء المائدة، انتظارا للشاي الموعود، نظر من طرف عينه الى فيتينكا. وكان فيتينكا قد اعتذر وجلس في هذه الاثناء منتحيا على الطرف الاخر من المائدة. واخذ يقرأ الرسالة.

ان مايتعلق بغالينا بيتروفنا، كونها رجت بالذات ان يلقي هذه الرسالة ببريد موسكو، فأن ذلك لم يخلف في نفس بولينين مكانا لأية شكوك مهما كان نوعها بخصوص الشخص المعنونة له. فالرسالة كانت مكتوبة الى مخرج بشأن عمل. ولهذا فأن بولينين لم يودع الرسالة في صندوق البريد، ليس من قبيل الفضول ابدا، ولكنه جلبها بنفسه، لأن وصوله من مورمانسك الى موسكو كان سيئا

بصورة نادرة الوقوع، اذ بدلا من ستة ايام في الطريق، امضى فيه سبعة وثلاثين يوما على متن السفينة ناقلة الخشب التي تورطت في الجليد الى مدخل دفينا الشمالي. فغضب من تأخره شخصيا، وتذكر عدة مرات هذه الرسالة التي ارسلوها معه لغرض وصولها بسرعة.

ان بولينين توجه فورا من القطار الى ادارة القوات الجوية الحربية. ورغم انه لم يجد الرئيس الذي ذهب لتقديم التقرير الليلي، الا انه عرف فورا من اصدقائه القدامى: انه صدر الأمر بتعيينه آمر فوج في فرقة مقاومة الطائرات، وفي مساء امس صدر ايضا أمر بمنحه لقب بطل الاتحاد السوفييتي. وبعد تبادل التهاني، والأخذ بالاحضان، قرروا ان يشربوا اليوم ليلا بهذه المناسبة، وفي مكان الادارة، هناك، حيث يعيش الان اصدقاء بولينين القدامى في ظروف الاقامة في الحاميات العسكرية.

وقام بولينين، بعد أن تركهم يهتمون بجمع النفقات الداخلية للمشروب، ووعده لهم بأنه سيعود خلال ساعة، بأخذ السيارة الخفر مع اذن ليلي، وذهب بها دفعا للخطيئة، ليسلم الرسالة مادام الوقت غير متأخر. وانطلقت به السيارة الى هناك عبر الشوارع الليلية الخالية في خلال عشر دقائق فقط، ولهذا فقد بقي لديه وقت زائد لشرب الشاي.

لقد جلس وهو يجيب باقتضاب عن اسئلة فاسيلي

فاسيليفيتش - حقا ان الاوضاع طبيعية تماما في مورمانسك، وان الالمان يغيرون فعلا على المدينة، غير اننا نضربهم بقوة - وفي نفس الوقت كان ينظر مندهشا الى فيتينكا. انه اذن هذا هو المخرج بالذات، وهو مايزال شابا، وياله من شاب !.

كان بولينين، البعيد عن حياة المسارح، يظن ان المخرج هو ذلك الذي يدير جميع الممثلين، وهذا يعني انه اكبرهم سنا على الارجح. كما انه في هذه اللحظة، وعندما رأى فاسيلي فاسيليفيتش بشيبته ومنظره الجليل، ظن بأنه قد حدث خطأ، وان الرسالة تعود له. غير أنه قد أتضح بأن الأمر ليس كذلك، فالرسالة بالذات كانت لهذا الانسان الشاب الذي هو الان يقرأها بمنتهى الانتباه.

وفي الواقع، فأن فيتينكا كان يقرأ رسالة غالينا بيتروفنا بانتباه وبنوع من الدهشة التي ماأراد ان يظهرها بصورة من الصور.

ولقد كتبت غالينا بيتروفنا رسالتها اليه بعد تردد كثير وان شعورها نحو بولينين منعها من ان تكتب هذه الرسالة بنفس اسلوب الرسالة الاخرى التي كتبتها له قبل اسبوعين مضيا. وكانت ثقيلة جدا عليها، ضرورة كتابة رسالة الى فيتينكا. ولكن عدم كتابة هذه الرسالة هو امر غير جائز ايضا، وذلك لأن المسرح يبقى لديها هو المسرح. وان فيتينكا كتب لها عن المكان

الذي خصصه لها، وعن الدور الذي وعدها به، ولهذا فمن غير الجائز، الاستخفاف بهذا الامل الذي يعدها بالعمل بالمسرح في موسكو، وبالاخص في الوقت الراهن، عندما اتفق ذلك ، ولحسن الحظ، مع انتقال بولينين الى موسكو. ومادام فيتينكا كان قد اعطى وعدا، فياليته يعمل ولو مرة واحدة في الحياة شيئا ما لاجلها عند الفراق. ولكنها اذا كانت مدركة نفسيا بانها سوف لن تعود بعد ذلك الى فيتينكا، وانها رغم ذلك تغلف نفسها، متجاوزة هذه المسألة في الرسالة، فأن فيتينكا لايستحق اكثر من هذا على العموم.

هكذا كانت غالينا بيتروفنا قد فكرت، عندما كتبت بعد التردد والمشاورة مع داشا ماكاروفا رسالتها المليئة بطوفان من الشكر الجزيل لقاء ضمها الى العمل المقبل، اما بصدد البقية الباقية كلها من الود غير المحدود، فهي، وان كانت لم تتطرق الى الماضي، فأنها لم تلزم نفسها بأي تعهد في المستقبل.

ولكنه مهما بلغ عدم اهمية هذه الرسالة بالنسبة لها، فأنها كانت ستمزقها بنفسها مئة مرة الى قطع صغيرة لو انها كان باستطاعتها ان تتصور حتى للحظة واحدة، بأن بولينين سوف لا يلقي الرسالة في صندوق البريد، بل سيذهب بها ويسلمها الى فيتينكا.

ان اجراء بولينين الذي قام به انطلاقا من القواعد التي صهرتها عنده سنوات عديدة من الثقة الرفاقية، قد

شوش الان كل شيء في الحياة. فالتحفظ في رسالة غالينا بيتروفنا الذي ماكان ليثير شكوك فيتينكا لو انه حدث بمصادفة اخرى، يبدو له الان مدهشا من جراء قدوم هذا الطيار. وبدت له غريبة ايضا نظرات الطيار المتطفلة، رغم ان بولينين، وهو ينظر اليه في كل مرة، انما كان يفكر في الواقع حوله فقط: "مايزال شابا بهذا العمر، وصار مخرجا. ان هذا مبكر عندهم !".

دس فيتينكا الرسالة بعد ان انتهى من قراءتها، في جيب السترة المعلقة على الكرسي. وفي هذه الاثناء بالذات، جلبت اولغا فيودوروفنا الشاي، وجلست بالقرب من زوجها، ثم بدأ الكلام الذي اخرج فيتينكا وبولينين من حالة التقييم المتبادل.

في الدقائق الاولى دار الكلام حول غالينا بيتروفنا. فقد سأل فيتينكا كيف هي صحتها، وكيف تلعب دورها، وكيف تحس بنفسها هناك في الشمال. اما بولينين، فبتحفظ الرجل وغير الراغب، والذي ليس من حقه ان يكشف لأي احد عن حبه، فقد كان يجيب بوتيرة واحدة، ان غالينا بيتروفنا بصحة جيدة، وتمثل جيدا، وتحس انها جيدة ايضا. وعندما انتقل الكلام الى الممثلين الاخرين الذين سافروا في فرقة واحدة للترفيه في الجبهة مع غالينا بيتروفنا، فأن بولينين التزم بنفس تلك التحفظات، وبأجوبة ليست كثيرة التنوع.

واخيرا بدأوا يتحدثون عن موسكو.

- سأل فاسيلي فاسيليفيتش- كيف وجدتم انتم موسكو؟ وكيف بدت للعين الجديدة كما يقال؟

- اجاب بولينين - انها فارغة. ولعل هذا غير سيء في وقت الحرب.

- قال فيتينكا - هذا غير سيء، ولكن السيء كان شيئا اخر. ولو تسنى لكم ان تروا ماحصل هنا في تشرين الاول - اكتوبر، عندما هرب من هنا بعض المواطنين المحترمين!. وواصل فيتينكا يصور ببلاغة وارتياح احداث السادس عشر من تشرين الاول - اكتوبر، مع تفاصيلها المكررة والمضحكة دون ان يرحم في كلامه بعضا من معارفه.

- قال بولينين فجأة وبلهجة تختلف تماما عن لهجة فيتينكا - لقد خاف الناس أن يأتي الالمان، ولهذا فأنهم أسرعوا بالنزوح - ولقد قال بولينين ذلك وهو يتذكر الرسالة التي تسلمها من والدته قبل مغادرته مورمانسك، وهي مرسلة من مكان قرب مدينة غوركي. "كتبت والدته في رسالتها تقول -لا تنزعج انت لأنني رحلت. فانهم عندما قالوا يجب التأهب، فقد اخذني الخوف: وقلت اذا لم اذهب مع الجميع، فكيف سألقاك فيما بعد؟ ".

وقال فيتينكا جوابا على كلام بولينين، ان القضية كلها تنحصر في ان هناك من خاف من الالمان، وهناك من لم يخف منهم، وان القضية كلها محصورة في ان هناك من

كان يثق، ومن كان لايثق في انهم سيدخلون موسكو. وهاهم، على سبيل المثال، هو وابوه، لم يخافا من الالمان ولهذا فلم نعتقد بأنهم سيدخلون موسكو، ولهذا لم نهرب مثل بعض الزملاء، وكذلك فأننا غير اسفين على بقائنا هنا!.

وبذل فيتينكا الجهد، وهو يروي كل هذا، لكي يشعر بأنه صادق في كلامه شخصيا. وحالما سيطرت عليه فكرة ان الالمان لن يحتلوا موسكو، وان الحرب ستكون في النهاية لصالحنا، فقد بدأ يتصور أن بقاءه، هذا الذي هو عليه الان في موسكو، وكأنه مأثرة. "انني بقيت في موسكو باشد ايامها صعوبة" - ان هذه العبارة الجاهزة، كانت عنده بمثابة ذخيرة يستخدمها في حالة ما اذا صار كل شيء على مايرام، كوسام منحه هو لنفسه. اما اذا استحالت الامور الى ما هو اسوأ، فليس هناك اي معنى لكل ما يقوله الان الى هذا الطيار، الذي اذا ماساءت الاحوال، فمن المؤكد انه سوف لايبقى في الحياة حتى ذلك الحين.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش، وهو يرشف الشاي ولكن باعتزاز مبهم - نعم موسكو، موسكو، ان موسكو هي... وهنا لم يكمل خبر "هي" لانه ارتشف جرعة اخرى من الشاي.

وانه اصيب بالغثيان من جراء لهاث فيتينكا: "انه دائما يلهث، ودائما يتدخل هنا وهناك. آه لو اقدر الان ان اصفعه على قفاه!".

وعند الكلمات المبهمة ذات المغزى، التي قالها فاسيلي فاسيليفيتش عن موسكو، انفتح بهدوء باب غرفة المكتب ، فشاهد بولينين الذي كان جالسا مقابل الباب، عينين تنظران اليه من هناك بانتباه، ومن ثم زادت فرجة الباب اكثر من الأول، ومر من خلال الغرفة بهدوء، صبي بعمر خمسة عشر عاما، وهو يسعى ان لا يثير حوله اي انتباه. ولم يلاحظه سوى فاسيلي فاسيليفيتش عندما اجتاز نحو الباب في المدخل.

- نادى عليه فاسيلي فاسيليفيتش - فالوديا، انتظر، الى اين انت ذاهب ؟

كان صوت فاسيلي فاسيليفيتش رخيما وحنونا، ولكن الصبي ارتجف عند الباب.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش - تعال هنا. واقترب الصبي منه ببطء.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش وهو يضع يده العريضة المهيبة على كتف فالوديا - هيا تعارفوا، الرفيق المقدم، وابن الاخت، يتيم. فقد امه وهو لما يزل طفلا، واستشهد والده اثر انفجار قنبلة فاشستية. ان لكل عائلة احزانها. ونحن كلنا نعيش بعناية الله، مع ان الكلام حول هذا الموضوع، لا يقال لك ولا لي بالطبع.

شد بولينين على يد الصبي الرطبة الباردة الذي احنى رأسه، وهو ينظر الى الأوسمة وليس اليه.

- سألته اولغا فيودوروفنا - اتشرب شايا؟

- قال الصبي بحنق - هل من الممكن ان اذهب؟

عندما كان قد فتح الباب، ورأى المقدم الطيار الذي جلس مع فاسيلي فاسيليفيتش وفيكتور فاسيليفيتش يحتسي الشاي معهم ويبتسم لهم، فقد أراد ان يعمل كل مايستطيع عمله، لغرض ان يفهم هذا الطيار، بأن هؤلاء الناس ليسوا بمثل مايتظاهرون به امامه ابدا. ولكنه عندما احتضنه فاسيلي فاسيليفيتش، وبدأ يتكلم كيف استشهد والده، وان لكل اسرة مأساتها الخاصة، فأن الصبي قد برد لديه الاشمئزاز نحو هذا الصوت الرقيق، ونحو تلك اليد الرحيمة التي تطويه من كتفيه.

" أية مأساة ؟ - فكر الصبي بالثقة التي يملكها انسان راشد عانى من كثير من الاشياء - اية مأساة هذه بالنسبة لكم. انكم ليست لديكم اية مأساة. لقد قتلوا ابي، ولكن هذا لم يشكل مأساة بالنسبة لكم، فلماذا تكذبون ".

لقد كاد ان يصرخ بهذه الكلمات، الا انه احجم عن ذلك وقال بدلا منه: "هل يمكن ان اذهب؟ " - وخرج دون ان ينتظر الجواب.

- قال فاسيلي فاسيليفيتش، وهو يرافق الصبي بعينيه - لقد قتل ابوه امام عينيه ولا يستطيع ان ينسى...

بعد عشر دقائق، سمع بولينين من ورائه، عندما كان ينزل السلم المظلم من الطابق الخامس، وقع خطوات

سريعة، ولحق به شخص، بل وحتى انه صدمه بقوة في جنبه.

- أيها الرفيق المقدم، هذا أنا، فأنت رأيتني في الشقة.هل لي أن اسألك؟-قال ذلك بصوت طفولي مضطرب.

- قال بولينين، وهو يظن ان السؤال سيكون بالتأكيد حول نفس الموضوع الدائم: "هل يمكن ان اكون طيارا"

ـ هيا اسأل.

- قال الصبي ـ لقد أردت ان اسألكم: ماذا يجب أن افعل ؟ فأنا لا اريد أن اعيش هنا عندهم، ولكن ليس عند أحد غيرهم في أي مكان اخر.

- ولكن لماذا تريد ذلك ؟

- كرر الصبي القول، دون الاجابة عن السؤال ـ لا اريد. ان شيئا ما قد امسك بلسانه عن الجواب. ولعل ذلك، هو انه يأكل خبز هؤلاء الناس على مدى شهر كامل على كل حال. واضاف يقول ـ لا شأن لي بهم، فأنا أريد ان اعمل.

- هذا صحيح تماما!، ولكن لماذا انت تسألني بهذا الموضوع؟

- قد يمكن ان يوجد عندكم عمل في المطار كتنظيف الثلج او اى عمل اخر ...

- قال بولينين، وهو يفكر مع نفسه، بأن الصبي ذكي تماما ـ لم يسأل كيف يصير طيارا مباشرة. ـ ان هذا غير ممكن. فعندنا جنود يقومون بهذا العمل. ولكن

لماذا تختار تنظيف الثلج؟ اذهب الى اللجنة المحلية للحزب وسيعطونك النصيحة. ثم هل انت كومسومولي*؟

- كلا. انهم رفضوا قبولي عضوا خلال الخريف، لأني اخذت درجتين اثنتين بدرس الهندسة.

ضحك بولينين في الظلام ساخراً: جاءت النتيجة قاسية وفق مقياس ماقبل الحرب - "درجتان اثنتان في درس الهندسة".

- قال بولينين - ومع ذلك، راجع هنا. وفي اللجنة المحلية سيقولون لك مايجب عليك ان تفعله.

- قال الصبي- لقد سألت احد الناس هنا في الطابور، فقد ذكر ان عندهم يقبلون في الانتاج، الناس من عمر اربعة عشر عاما، مع تقديم مكان للسكن. وانهم يقبلونهم بصفة متدربين، ولكنهم يحولونهم هناك فورا للعمل مثل الكبار في الدفاع.

- قال بولينين مؤيدا - لابأس في ذلك، فأنا كنت اشتغلت عندما كان عمري اربعة عشر عاما، في قسم للانتاج. ولكن يوم العمل كله كان انذاك عندنا، اربع ساعات فقط. ولكنني لا ادري كيف هو الان الحال في الحرب. ومن المشكوك فيه ان يكون باقيا على تلك الحال.

---

* الكومسومول هو اتحاد الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي.

ونـزل كـلاهمـا حـتى الـطـابـق الارضـي وتـوقـفـا.

وضحك بولينين. فقد رغب ان يقول للصبي ذلك الذي يجب أن يقال بالتأكيد: وهو انك رغم كل شيء، تشاور حول هذا كله ايضا مع ذويك، ولكن لسانه، ولسبب ما، لم يطاوعه، وبدلا من ان يوضح كيف يجب على الصغير ان يسمع كلام الاكبر منه، قال له من اعماق روحه كانسان بالغ:

- اذهب فقط، اذا كنت تريد أن تعمل - ومن بعد ذلك لا تتردد، ومهما كان الذي يريد أن يقنعك بالعدول. فما دمت قد ذهبت، فهذا يعني انه بلا رجعة! - ومد بولينين يده وقال: - خذ، والتزم!.

عندما صار بولينين على وشك الخروج من مدخل البناية، توقف، وقبل ان يفتح الباب المؤدي الى الشارع اصغى الى وقع اقدام الصبي على السلم وهو يصعد راجعا.

أن بولينين، عندما كان جالسا هناك فوق، عند هؤلاء الناس فأنه ليس لم يكره ذلك الانطباع الذي هم حاولوا ان يخلقوه لديه عن انفسهم فحسب، بل وانه كان مستعدا، على عكس ذلك، ان ينصاع له مسبقا، لأنه اراد مسبقا ان يكون الناس الذين حمل اليهم الرسالة من غالينا بيتروفنا طيبين وجذابين، كما هم في الصورة التي كانوا يظهرون بها تماما.

ولكنه كان هناك شيء غير واضح ومثير للذعر، من هروع الصبي من خلفه فجأة، وفي اعلانه عن رغبته في

الخروج من اقاربه هؤلاء، رغم انه لم يتكلم عنهم بأي سوء.

ولهذا بالذات توقف بولينين، واخذ يصغي: هل سيعود الصبي الان راجعا الى هذه الشقة ؟

لقد توقف وانصت الى ان اصطفق الباب هناك في الاعلى. "لقد عاد".

ولكن شعور الفزع غير الواضح لم ينحسر عنه بالرغم من ذلك. وفجأة فكر حول غالينا بيتروفنا، بنوع من شعور الخوف عليها، لا عهد به عنده من قبل، وكأنما يجب حمايتها من شيء ما. ولكن ممن الحماية، فهذا غير معروف...

وبعدما خرج بولينين الى الشارع، فتح باب السيارة "ايمكا" وضغط على بوقها من فوق كتف السائق الغافي وقبض السائق بذعر على مقعد السيارة، ومن بعد ذلك فقط التفت برأسه نحو بولينين.

- الى الدائرة ؟

- كلا - هيا اولا الى البرق المركزي - قال بولينين ذلك، وهو لأول مرة يتذكر نفسه خلال الساعة الاخيرة، بأنه قد أصبح منذ يوم امس حامل لقب - بطل الاتحاد السوفييتي -. وقال - يجب أن ارسل برقية الى الوالدة.

في اليوم الثلاثين من كانون الاول ديسمبر نهارا، خرجت غالينا بيتروفنا الى رصيف محطة قطار ياروسلافل، بعد ان كانت تأخرت في جبهة كاريلسك اكثر مما كان في تصورها. اما بقية افراد الفرقة الذين قضوا اربعة اشهر في جبهة كاريلسك، فقد وصلوا من قبل عشرة ايام مضت، ولكن غالينا بيتروفنا التي اصيبت في نهاية الرحلة بالتهاب رئوي، في البحر الابيض، قد رقدت هناك اسبوعين في المستشفى. وقرر الرفاق في الفرقة، أنه ينبغي لاحدهم ان يبقى معها في المستشفى، فاستجابت لهذه المهمة ماشا ماكاروفا بتفان، وانهما الان كلتاهما لم تصلا الا في اخر لحظة الى موسكو قبل رأس السنة الجديدة.

كانت الرحلة طويلة: اذ في البداية انقضى عليهما يومان في طريق فرعي جديد وحيد الخط للسكة الحديد، تم فتحه قبل قليل، واستدار حول جميع غابات البحر الابيض، ومن ثم، وبعد تغيير واسطة السفر، على بعد مئة كيلومتر الى الجنوب من آرخانغلسك، مرت ايضا أربعة ايام اخرى عبر مدينة فولوغدا الى موسكو. وقد زودت دائرة التوجيه السياسي في الجبهة، كلتا المرأتين بمؤونة جيدة من الزاد للطريق، ولكنهما لطيبتهما وعدم التزامهما بنظام معين، وبمساعدة الجيران ، فقد استهلكتا هذا الزاد قبل

ان تصلا الى موسكو، مما ادى بهما الى الصوم خلال اليومين الاخرين.

وبالمناسبة القول، انهما قد خجلتا ليس من الكلام فحسب، بل وحتى من التفكير حول ذلك، بعد المشهد الذي شاهدتاه قبل يومين من وصولهما الى موسكو، في محطة قطار فولوغدا، حيث يوجد هناك مركز تحويل للنازحين من النساء والاطفال من سكان مدينة لينينغراد...

أن الطريق المر في زمن الحرب، هو طريق تكدست محطاته بالناس، واكشاك متجمدة مع طوابير البشر طلبا للماء المغلي، وارصفة متجمدة، ومعوقون، وجرحى، ونساء باكيات مع الاطفال ينتظرن القطارات منذ ايام عديدة. وان هذا عندما يؤخذ كله معا، يبدو انه صار تلك المأساة المروعة التي لا احد يعرف متى سنتجرعها.

أن الشيء الوحيد الذي لطف الطريق، وما ارادت غالينا بيتروفنا مع ماشا ماكاروفا، والناس الاخرين الذين من حولهما، ان تفكرا بالكلام عن أي شيء غيره، هو وصول اخبار عسكرية جيدة. فابتداء من يوم الثاني عشر من شهر كانون الاول - ديسمبر، وبعد الخبر الاول عن بدء هجومنا في ضواحي موسكو، اخذت تظهر في البيانات كل يوم، اسماء المدن والقرى المنتزعة من الفاشست. ومن بعدما ظهرت في البداية تلك الانباء عن تحرير تيخفين قد استحوذ عليها مزاج جديد آخر. فأن الحرب قد جعلتهم يقلعون عن سذاجتهم. كما انه لم تلد بعد تلك الامال

الهائلة التي كانوا يوقدونها في اول ايام الحرب من كل خبر يسمع، عن اي نصر لنا من اي نوع. كما انه ليس هنا من ظل يفكر بأن الحرب ستكون قصيرة. زد على ذلك، انه لا يوجد اي واحد ايضا، يتصور الى متى ستطول الحرب. ولكن جنودنا مايزالون يطردون الالمان ويطردونهم في ضواحي موسكو، نحو الغرب. وقد شغل هذا، في نفس المرأتين الاثنتين اللتين تسافران الى موسكو، ذلك القدر الكبير من المساحة التي لم يشغلها على الارجح اي شيء اخر في السنوات الماضية من حياتهما. وإن هذا قد ملأ عليهما نفسيهما فاحستا انهما سعيدتان تقريبا، رغم ان حياتهما الخاصة خلال الاوقات الاخيرة كانت خالية من اي شيء جميل، وهو يبدو انه سوف لا يكون متوقعا بالنسبة لهما.

تسلمت ماشا ماكاروفا في مدينة بيلومورسك، نبأ استشهاد اخيها النقيب المدفعي في الجبهة. وان غالينا بيتروفنا التي كتبت عدة رسائل الى بولينين على ذلك العنوان المبهم الذي اعطته لها ماشا ماكاروفا، لم تتسلم اي سطر جوابا عليها خلال هذين الشهرين تقريبا اللذين لم يلتقيا خلالهما حتى الان.

وقبل مغادرة الفرقة من مورمانسك الى القواطع الاخرى من الجبهة - في كاندالاكش وبيلومورسك - رجت غالينا بيتروفنا من خفير فندق "آركتيكا"، اذا ماوصلت بأسمها أية رسالة،ان يبعث بها الى مدينة بيلومورسك،

على عنوان ادارة التوجيه السياسي للجبهة. وتسنى لها عندما كانت في كاندالاكش، قراءة اسم بولينين في جدول الابطال الجدد للاتحاد السوفييتي، ومن ثم ارسلت اليه في نفس ذلك المساء، رسالة كانت اقصر جميع الرسائل، والتي كما تصورت، انه لا يمكن الا ان يجيب عليها.

ولكنها بعدما وصلت الى مدينة بيلومورسك، فأنها بعكس جميع امالها، لم تجد حتى ولا رسالة واحدة، جوابا على رسائلها الست. وحتى فيما بعد، عندما مرضت ورقدت في المستشفى العسكري، فأنها لم تتسلم أي شيء وليس الا من قبيل العبث انها ارسلت ماشا ماكاروفا عدة مرات الى دائرة التوجيه السياسي قصد الاستعلام عن رسائل. وقبيل ان يحين موعد خروجها من المستشفى تماما، تجرأت وسألت عن بولينين احد الراقدين هناك في المستشفى، مصاب بكسر في ساقه، هو المقدم رئيس مقر قيادة جوية.

- قال المقدم قدر مايستطيع ان يهدىء من روع غالينا بيتروفنا - أنا لا اعرف على وجه الدقة ماذا يعمل، ولكني سمعت انه يحارب في ضواحي موسكو. وانه حي ولم يصب بمكروه. لقد سمعنا حول هذا وذاك، اما حول صاحبك، حول بولينين، لو انه استشهد لوصل ذلك الى علمنا هنا.

أن غالينا بيتروفنا، لا عندما شفيت، ولاعندما كانت مريضة، ولا الان عندما هي تسافر الى موسكو، لم تستطع ابدا التخلص من عبارة غريتسكو التي كانت قد اذهلتها،

بل وحتى ارعبتها، ليس فورا بل فيما بعد، والتي قال فيها: "لقد فكر عدة مرات، الا انه اعاد التفكير من بعد ذلك.." انها تعلم ان بولينين قد فكر، وانه نفسه قد افضى لها بذلك قبيل مغادرته هناك في مورمانسك في البهو البارد في المسرح. ولكنه هل هو الان قد اعاد التفكير ؟..

ان علاقتها مع بولينين التي ظهرت بسرعة، وانقطعت بسرعة اكثر من ذلك، تتراءى لها بالوان شتى بمختلف الدقائق: فمرة تؤمن بأنها قالت له الحقيقة التي لا شائبة فيها، بأنها تحبه، ومرة اخرى، تبدأ في تصور ان هذا كله ماهو الا ذلك الغرام المجرد الذي رغم كل ما به من قوة، فهو سرعان ما يأخذ بالذوبان مثل كرة الثلج، وانها لتعرف ذلك جيدا كيف يحصل مثل هذا عندها.

غير ان احساسا واحدا لم يفارقها طول هذا الوقت، وهي انها اصبح يثير الضجر لديها، ذلك الذي قليلا ما كان يثير ضجرها من قبل: وهي انها صارت تنفر من مغازلة الرجال لها، وكل الرجال باي شكل من الاشكال. فهي الان اخذت تقوم مكرهة بعمل ما كانت تقوم من قبل بدون اي اكراه. فهي كانت تقهقه متغنجة، لغرض ان يعطوها مع ماشا ماكاروفا، غرفة افضل، او انها تكحل عيونها عندما كان ينبغي لهما الحصول على الموافقة بصدد اي من امور الحياة البسيطة. وان هذا الشعور الجديد عندها كان ثابتا، بحيث انها كلما كانت معاناتها منه تصبح اكثر

شدة، فانها تزداد ثقة في تفكيرها بتلك اللحظات في انها تحب بولينين حبا حقيقيا.

اما الفكرة بشأن انه هو الذي اعاد التفكير، وليست هي، بل هو نفسه بالذات الذي اعاد التفكير، فانها تبدو لها اهانة فظيعة وغير عادلة. ولقد تصورت جيدا كيف ان حياتها، ستعود سريعا الى دوامتها، لو انه رجع عن الفكرة، وكيف سيرجع كل شيء الى ما كان عليه ايضا، اي انه سيكون فيتينكا، وسيكون غيره كثيرون ممن تعرف انها ستعود اليهم مكرهة حتما، لو ان بولينين رجع عن الفكرة...

كان على رصيف محطة القطار عدد قليل جدا من المستقبلين. وهذه هي العلامة الاولى على خلو الناس في شتاء عام واحد واربعين، التي تجرح بقوة كبيرة نظر جميع اؤلئك الذين غادروا موسكو صيفا او في بداية الخريف ولم يعودوا اليها الا الان.

كانت ماشا ماكاروفا، الوحيدة من القلائل الذين انتظرهم مستقبلون. فقد استقبلها والدها، وهو رجل طويل القامة متقدم في السن وبرتبة مقدم، حيث كان يعمل في وقت ما قبل الحرب بحامية موسكو، وهو شخص ذو هيئة حديدية غير اعتيادية، ووجه منحوت من الحجر، بحيث انه عندما ضم ابنته الى صدره وسالت دموعه من عينيه، بدا هذا الى غالينا بيتروفنا، انه شيء غير ممكن تقريبا، بل وحتى غريب. فلقد بكى وهو يحتضن ابنته الملتحفة

بمعطف الفرو القصير وقبعة الراس، وغير المحبوبة، بل وحتى المطرودة من البيت في بعض الاوقات. انه بكى بسبب انه كان قد قتل ولده الحبيب، وان هذه البنت قد ظلت عنده الوحيدة لديه، ثم انها كانت بالزي العسكري الذي لم يفكر ابدا من قبل بانه سيراها به.

ومن بعد ذلك، اخذت ماشا ماكاروفا بحضنها والدتها، وهي امرأة فطساء الانف، صغيرة الجسم، وتنشج من البكاء، وشبيهة شبه قطرات الماء، بماشا التي كبرت كثيرا. اما المقدم الذي انتهى من دموعه، فقد سأل غالينا بيتروفنا وهو يقدم لها نفسه بنوع من الجفاف، فيما اذا كان لديها اشياء اخرى غير هذه الحقيبة وكيس الظهر، والى اين ينبغي ايصالها من المحطة. وبعد ذلك ركبوا كلهم في السيارة، وساروا في البداية نحو شقة والد ماشا التي ما كانت تعيش فيها منذ مدة طويلة، ولكنها الان جاءت اليها للسكن بها. وترجلوا كلهم من السيارة ما عدا غالينا بيتروفنا التي بقيت مع السائق لوحدهما وتحركت بهما السيارة الى شقتها في شارع برونايا.

وتنفيذا لأوامر ضابطه المقدم، فقد رفع السائق كيس الظهر والحقيبة العائدين الى غالينا بيتروفنا وصعد بهما من خلفها الى الطابق الثالث. وكانت النافذة المستديرة التي تحت السقف مباشرة فوق حوض السلم نصف المظلم مكسورة، فتسرب الثلج من خلالها على السلم.

وضع سائق الحامية العسكرية، لوازم غالينا بيتروفنا على ارضية الطابق الثالث العلوي، وسألها كما يسأل رئيسه.

ـ هل استطيع الذهاب؟

شكرته هي، وادخلت المفتاح في القفل الانكليزي. ولكن الباب لم ينفتح: اذ كان مقفلا بقفل آخر لم يكن له وجود من قبل.

وظلت تقرع الباب مدة طويلة، بعد ان دب الاسف في نفسها لكونها صرفت السائق قبل الاوان.

وفي الاخير سمع وقع مشي لجزمة تضرب على الارض بقوة، وبعد ذلك فتحت الباب، كوزميتشيفا، جارة غالينا بيتروفنا، زوجة سائق قاطرة على طريق قازان. وهي بالاضافة الى ان وجهها لم يكن حتى من قبل جميلا ونضرا، فانه الان قد هزل تماما وبانت عليه الشيخوخة. وكانت المرأة تلبس جزمة ومعطفا رجاليا رسميا اسود. وفي يدها محفظة نقود صغيرة.

ـ مرحبا يا غاليا ـ قالت ذلك وكأنهما قد التقيتا منذ يوم امس ـ وأضافت ـ ان مفتاحك مخفي وراء عداد الكهرباء، ومن حسن الحظ انك وجدتني هنا، ولا لبقيت واقفة طول الليل، حيث لا يوجد احد الان في الشقة، وكذلك فاني سأبدا العمل في الوجبة الثانية. هيا فقد صرت اتأخر الان ان لم اذهب....

وقامت بتقبيل غالينا بيتروفنا من وجنتها خطفا

خفيفا من شفاهها، ومرت بمحاذاتها عبر الباب الذي كان ما يزال مفتوحا على مصراعيه، وبدأت تهبط درجات السلم، قبل ان يتسنى الوقت لغالينا بيتروفنا لتسألها عن اي شيء.

- وتوقفت فجأة في الحوض الاول من السلم، والتفتت نحو غالينا بيتروفنا وقالت وهي تنشج باكية - ان زوجي ذاك قد قتلته قنبلة. وبعد ذلك هبطت مسرعة وهي تضرب الارض ببسطالها.

بعد مثل هذه الكلمات التي فاهت بها، فان غالينا بيتروفنا، لم تجرأ على الصراخ باعقابها وتسأل، ألم يتصل هاتفيا بها في غيابها هنا شخص باسم بولينين.

" من المؤكد انه لم يتصل بالهاتف. فبما انه لم يكتب، فمعنى ذلك انه لم يتصل بالهاتف - هكذا فكرت مع نفسها وهي تغلق الباب من الداخل، بل وفكرت فجأة عن قناعة تقريبا بانه ما دامت الاحوال سيئة لدى جميع الناس، فلماذا ستكون جيدة عندي. فمن المؤكد انها سيئة عندي ".

وتناولت المفتاح من خلف عداد الكهرباء، وفتحت غرفتها. وكان كل شيء في الغرفة على نفس الحال الذي تركته بها. وبعدما وضعت غالينا بيتروفنا لوازمها على ارضية الغرفة، طوت كتفيها مثل المقرورة، وجلست على طرف التخت الذي يقف عند الباب. وكان البرد في الغرفة مثلما هو في الشارع تقريبا، باستثناء عدم وجود تيار

الريح. ما هي الحال التي كانت عليها الان هذه الغرفة، غير المضيئة، التي عاشت فيها غالينا بيتروفنا جميع السنوات الأخيرة. انها غرفة طويلة وضيقة مثل التابوت، بعرض ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر، وطول خمسة امتار بالتمام، وذات نافذة ضيقة تطل على فناء البيت مباشرة على جدار اصم. وهي كانت غرفة للخدم في شقة ارستقراطية كبيرة في عهد ما قبل الثورة.

وفي هذا الظرف، وبهذه الغرفة المتجمدة من البرد، بدا الى غالينا بيتروفنا كم هي بائسة الى حد الدموع، جميع المحاولات السابقة، من قبل الحرب، لخلق منظر مبهج للنفس هنا. فان السجادة الصغيرة فوق التخت، وبعضا من تصاويرها الفوتوغرافية في ادوار التمثيل، والمرآة الثلاثية الاجزاء مع قناني العطور الفارغة، والثريا الممزقة الغطاء والمعلقة على سلك واحد تحت السقف من عهد كانت معجبة بها، والورق المشمع الملون ولكنه حال لونه الان، والدولاب الصغير الذي توجد فيه الاحذية الممزقة وغيرها من الاشياء التي انتفت الحاجة اليها، ولكنها لم تقذف بها بعيدا، والخشبة الطويلة التي نخرها الزمن والمثبتة تحت السقف مباشرة، مع الستارة المثقلة بالغبار المشدودة اليها، وهي محاولة تافهة لجعل هذه الغرفة غرفتين، ان هذا كله بقدر ما كان حزينا وبائسا، فانه كان يؤشر كامل ابعاد وحدتها، بحيث انها شعرت بالاسف لحظة، انها لم توافق على دعوة ماشا

ماكاروفا لها عندما همست بأذنها على رصيف المحطة: "أيمكن ان تأتي معنا؟".

ولكنه كلا، اذ لا يجوز الاسف على ذلك! فان ماشا ليست الان في مسكنها، بل عند والدها، وانهم الثلاثة، هي، والاب، والام، يتحدثون عن الاخ المتوفي، اما هي، الغريبة عنهم، فليس هناك اي مبرر، مهما كان، لوجودها عندهم الثلاثة، وحتى ولو عند ماشا.

كان الوقت رماديا يبدو من خلف النافذة، حيث بدأ الظلام بالانتشار. ونهضت غالينا بيتروفنا، وفتحت زر الكهرباء، واذا بالمصباح لا يضيء. وفكرت هي "لربما لا يوجد نور البتة"، وخرجت الى الدهليز، فرأت النور مضيئا فيه من مصباح صغير مثبت تحت السقف. ولما رأت غالينا بيتروفنا جهاز الهاتف المعلق على الجدار، حيث كان معلقا دائما من قبل، قالت في نفسها: "لعله لا يعمل".

- وعندما رفعت غالينا بيتروفنا سماعة الهاتف، سمعت صوت عاملة البدالة الآتي من بعيد يقول-البدالة.

وامسكت غالينا بيتروفنا بسماعة الهاتف بيدها ثم علقتها مرة اخرى على حاملها. أجل، ان الهاتف ليس عاطلا، ولكن بولينين لم يتصل عن طريقه، ولسبب ما فانها كانت الان واثقة من ذلك.

واسندت ظهرها الى الجدار قرب جهاز الهاتف، وهي لما تزل لم تبدل ملابسها، - ولكنها لماذا تبدل ملابسها

عندما يكون الجو باردا بهذه الشدة - وبقيت عدة دقائق واقفة بتلك الحالة، وهي تفكر، لماذا استعجلت كل هذا الاستعجال للوصول الى موسكو، بحيث انها عندما اطال القطار وقوفه ساعتين في اخر محطة توقف له، بدا لها انها على استعداد لان تذهب مشيا على الاقدام. ولكنها لماذا استعجلت؟ فها هي قد وصلت، وها هي في البيت، ولكن ما هي النتيجة؟ واحست بانها لا تستطيع ببساطة، البقاء هنا لوحدها الان في هذه الشقة بهذا اليوم، وبانها يجب عليها ان تقوم باي عمل، وان تقوم بذلك الان بالذات! ثم اخذت سماعة الهاتف مرة ثانية واتصلت باثنين من الرفاق في فرقة الجبهة الترفيهية. من الذين تحفظ ارقام هواتفهم عن ظهر قلب. ولم يرد عليها جهاز الهاتف الاول، اما الهاتف الثاني فقد جاء خلاله صوت نسائي يقول، بأن فالنتين بيتروفيتش غير موجود: انه ذهب لاحياء حفلات في الجبهة.

- ولكن من الذي يسأل عنه؟- وكان هناك خيط من الغيرة، مسموع في الصوت النسائي.

"حمقاء فعلا"- وعلقت غالينا بيتروفنا سماعة الهاتف على حاملها دون ان تجيب، متذكرة كيف ان فالنتين بيتروفيتش هذا، قال عن زوجته انها "نمرتي".

وبعدما سمعت ان فالنتين بيتروفيتش قد سافر الى الجبهة لاحياء الحفلات، تذكرت رسالتها التي لابد وانها قد وصلت الى فيتينكا.

ولكن بولينين، دعه انه لا يجيب على رسالتها ولا يتصل بها بالهاتف، فان باستطاعته ان يكتب رسالة ويلقيها في صندوق البريد مهما كان الحال، تنفيذا لوعده الذي ذكره بالكتابة امام ماشا ماكاروفا؟.

ولم يكن لدى غالينا بيتروفنا الرغبة بالاتصال بالهاتف مع فيتينكا في الدار، ولكنها لا تعرف كيف تتصل به على هاتف المسرح.واستنادا الى اللمحتين الصحفيتين اللتين قرأتهما منذ ان كانت في المستشفى، فان هذا المسرح كان قد بدأ بالعمل، ولكنه أين يعمل، وباية بناية، وكيف الاتصال بالهاتف به هناك، ومع من يكون الاتصال، وماذا ينبغي القول في هذه الحال، فانها ليس لديها ادراك لذلك. وبالاضافة الى هذا فانه لا غنى هنا عن المساعدة المنتظرة من فيتينكا، بل وانها كانت قد فكرت في الوقت المناسب، بمساعدته هذه، عندما كتبت له رسالتها.

صحيح انها فكرت آنذاك، بانه حال الوصول، واللقاء مع بولينين وعندما ستكون معه، فان خطورة هذه المساعدة من فيتينكا، ستكون بظروف اخرى غير مخيفة بالنسبة لها.

ولكنها ها هي الان قد وصلت، وكانت وحيدة. وكذلك فانه لابد من الاتصال هاتفيا على كل حال. اذن فليس امامها ما تفعله الا هذا.

وتناولت سماعة الهاتف وطلبت رقم هاتف شقة فيتينكا.

- نعم - تكلمت اولغا فيودورفنا والدة فيتينكا بصوت رخيم في الهاتف.
- مرحبا. انا غالينا بيتروفنا أتكلم. هل فيتينكا موجود.
- ها... غالينا بيتروفنا، انت رجعت أذن... بالمناسبة فاننا قبل قليل كنا نتحدث عنك - قالت ذلك اولغا فيودوروفنا وأضافت - ان فيتينكا غير موجود. فهو في المسرح. انهم يعرضون حاليا المسرحيات، ابتداء من الساعة الثانية وبعد العرض التدريبي مباشرة، وذلك بسبب الغارات الجوية، وهو سوف لن يكون في البيت الا في الثامنة تقريبا.
- سألت غالينا بيتروفنا - وكيف اتصل هاتفيا بالمسرح هناك؟
- لا أعرف يا حبيبتي، ولكنك يمكنك ان تذهبي انت اليه الى هناك، وانه سيكون سعيدا برؤيتك...- واوضحت اولغا فيودورفنا الى غالينا بيتروفنا، جوابا على سؤالها، كيف تصل الى المبنى الذي يؤدي المسرح به عمله.

ان هذه اللهجة المستعجلة الرقيقة التي تكلمت بها اولغا فيودوروفنا مع غالينا بيتروفنا- اعادت للذاكرة الزيارات الماضيات الى بيت بالاكيريف، وعلى الاخص، تلك الفطورات الصباحية، عندما كانت بعد المبيت مع فيتينكا تشرب معه الشاي صباحا ومع اولغا فيودوروفنا.

وكانت اولغا فيودورفنا تتعامل معها وكأنها نصف قريبة ونصف غريبة، وانها مقبولة في بيتهم تماما مادام هذا يلائم فيتينكا، وغير مقبولة لاي احد، حالما ان هذا سوف لا يلائمه.

خيم الحزن الى حد الغثيان على غالينا بيتروفنا من جراء هذه الذكريات، ولكنها بعد ان امض بها الكمد، قررت الذهاب بالحال الى المسرح، وان ترى فيتينكا من كل ولابد، هناك بالذات في المسرح. وقد حاولت ان توحى لنفسها بالثقة نهائيا في ما لم تكن واثقة به من قبل تماما: وهو انها حالما ستصل الى المسرح فان فيتينكا سينفذ ببساطة كل شيء حسب الوعد الذي وعدها به. اما اكثر من ذلك، فانه سوف لن يكون عندهم اي شيء، مثلما كان بينهما من قبل، بل وانه لا يجب ان يكون.

وبعد تردد للحظة واحدة بصدد ما يجب ان تفعله مع الباب الذي لم تترك لها جارتها مفتاحه الثاني للقفل الداخلي، فان غالينا بيتروفنا حركت يدها علامة عدم اكتراث بما يعني: من هو بحاجة في الواقع الى ما في هذه الشقة الخالية، وماذا بها؟ - ثم صفقت الباب على القفل الانكليزي وذهبت.

-١٢-

لم تصل الى المسرح الا بعد حلول الظلام. ومن قبل

حوالي مئة خطوة حتى المسرح، وقفت عند رصيف الشارع من الجانبين، سيارات نقل عسكرية مكشوفة. ان الفصل الاخير من المسرحية كان يوشك على الانتهاء. وعندما قالت غالينا بيتروفنا الى مراقبة قاعة العرض الواقفة في مدخل هذه القاعة بمعطف وجزمة لبادية، بانها ممثلة، وجاءت الى الرفيق بالاكيريف، فان المفتشة قالت لها، بانه يجلس الان في القاعة، ومن ثم فتحت الباب بهدوء، وسمحت لها بالدخول، بعد ان دفعت لها من خلفها بكرسي للجلوس.

كان الجو شديد البرد في القاعة، وهو وان لم يكن شديدا مثلما هو في البهو، الا انه بارد جدا. وان المشاهدين، وهم بغالبيتهم عسكريون تقريبا، قد جلسوا بدون قبعات، ولكن بالمعاطف العسكرية، ومعاطف الفرو القصيرة، وارتفع فوق صفوف الجالسين، البخار المنطلق من الانفاس. وجرى على المسرح عرض مسرحية "فتاة بلا مهر" بحيث ان غالينا بيتروفنا، عندما نظرت الى لاريسا بفستانها الابيض والاكمام الشفافة، والتي لمعت اكتافها العارية من خلالها، قد تكورت كالقنفذ تماما وطوت نفسها بيديها من كتفيها. ويبدو ان الجو فوق المسرح بارد جدا مثلما هو بارد في الطريق. ولكن ما معنى هذه الايدي العارية، وهذه الاصابع المحتقنة، وضرورة التمثيل، مع تجاهل الشعور بالبرد، وان تدفع أولئك المشاهدين الجالسين في القاعة بمعاطف الفرو

القصيرة والمعاطف العسكرية، على هذا التجاهل، ان هذا كله لا تستطيعه الا الممثلة وحدها. وان غالينا بيتروفنا بالذات قد ادركت ذلك تماما، وحتى انها فكرت باعجاب مشوب بالحسد، بهذه الممثلة ، لاريسا، المتحركة على المسرح، التي لم تكن معجبة بها من قبل ابدا، بينما الان في هذه القاعة، هنا، تبدو جيدة الى حد يستدر الدموع بهذه المسرحية.

كانت القاعة تصغي بصمت وتوتر. وان هذه المأساة الانثوية الروحية البعيدة التي كان يفصلها اكثر من نصف قرن من الزمن، والحادث الذي يستحيل اصلاحه، والموت المحتم، ان هذه كلها كانت قد أثرت تأثيرا صادقا وبقوة هائلة مدهشة على هؤلاء الناس الجالسين في القاعة الباردة، بمعاطف الفرو القصيرة والمعاطف العسكرية في شتاء عام واحد واربعين.

وعندما انتهى العرض، وطلع الممثلون من خلف الستارة ينحنون متماسكين بالايدي، وقفت القاعة طويلا وصفقت لهم، بلا استعجال لارتداء المعاطف، لأنه لا توجد حاجة الى ما يلبس. ويبدو، انه الان فقط، عندما انتهى عرض المسرحية، ادرك الناس الموجودون في القاعة اخيرا، كم كان الجو باردا على الممثلين اثناء ادائهم لادوارهم، ولهذا فانهم قد شكروهم الى جانب ذلك كله، على هذا ايضا.

وظلت غالينا بيتروفنا واقفة وتصفق كثيرا، الى ان

اوجعتها يداها. وعندما اسدلت الستارة للمرة الاخيرة، وشرع المتفرجون بالتفرق، رأت هي فيتينكا. وكان فيتينكا في سروال خيالة، وقمصلة من نسيج الحرير الصناعي الرمادي الفاتح وبدون ياقة، وفوقها يرتدي فروة قصيرة بلا اكمام. وسار يمشي وهو يتأبط يد جنرال صغير، ذي شاربين كثين اسودين. وانهما كانا من المحتم ان يمرا بمحاذاة غالينا بيتروفنا، ولهذا فهي قد وقفت منتظرة. والتفت فيتينكا عندما صار بالقرب منها تماما، وتحرك بخفة نحوها من جانب الجنرال، وقبل يدها، ثم عاد بنفس الخفة نحو الجنرال، ولوح لها بيده، وصاح ان تنتظره هنا بالذات عند باب الخروج من القاعة فانه سيعود حالا.

خرج فيتينكا مع الجنرال الى البهو، اما غالينا بيتروفنا، فقد ظلت واقفة قرب الباب وقتا طويلا، مدة عشر دقائق، الى ان خرج جميع المشاهدين تقريبا.

- انسان من ذهب - قال فيتينكا بصوت بشوش، بعد ان عاد اخيرا من حيث راح، وقبل يدها ثانية. وهنا فهمت غالينا بيتروفنا بالذات، ان عبارة الاطراء هذه، موجهة الى الجنرال الذي امسك به من يده. واضاف يقول - انه من ادارة جبهة المؤخرة، ووعدنا بان يعطينا ولو قليلا من الفحم. وها انت ترين اي صقيع-الفنانون تصطك اسنانهم من البرد - انني اعتني بكم دائما!- وابتسم فيتينكا وقال - اذن قد رجعت اخيرا...

- هل تسلمت انت رسالتي؟

- ابتسم فيتينكا ابتسامة ذات معنى وقال - نعم ومع ايصال الى البيت.

وارادت غالينا بيتروفنا ان تسأل ماذا يعني بعبارة، مع ايصالها الى البيت، ولكنها احجمت عن ذلك.

-وقال فيتينكا ايضا وهو ينظر بارتياح اليها من اخمص قدميها حتى قمة رأسها دون ان يقمع ابتسامته - ها نحن الاثنين قد صرنا جنودا...

- وهل يا ترى انت... ولم تستطع غالينا بيتروفنا اكمال عبارتها بكلمة "في الجيش" اذ قاطعها فيتينكا قائلا:

- انهم لم يجندوني لحد الان، فانهم بحاجة الي هنا. ولكن هذه الملابس في زمن الحرب تكون اكثر ملائمة. وانني قد تعودت عليها.. - قال ذلك وهو ينظر الى نفسه بنفس الصورة من الارتياح التي كان ينظر بها، من قبل ذلك، الى غالينا بيتروفنا. واضاف يقول - الا يلائمني ذلك؟

- يلائمك.

- هيا اذن نمر قبل كل شيء على المدير الفني. وانت متى وصلت؟

- في هذا اليوم.

- هيا نذهب والا فسيختفي. لقد هيأت لك كل شيء، وتستطيعين الان التأكد من ذلك بنفسك.

واجتاز الاثنان البهو، ودخلا في غرفة صغيرة قرب غرفة المدير. وهناك كان يجلس رجل نحيف طويل، بدون قبعة رأس، وبفروة مرفوعة الياقة، ويلوح ظاهرا من تحتها معطف قصير ملبد بالقطن مثل الذي عند فيتينكا، وبكومة من شعر الرأس الابيض، وهو يفرك يديه مقرورا ومنحنيا فوق مدفأة كهربائية.

- قال عندما قدم فيتينكا اليه غالينا بيتروفنا - ان المشاهدين يتدفأون عندما يصفقون، اما انا فمتجمد كما ترون... يا ليتني كنت قد صفقت غير انه لم تكن عندي رغبة بذلك، لان كارانداشييف ولاريسا قد مثلا دورهما اليوم اسوأ مما في المسرحيات السابقة.

اعترضت غالينا بيتروفنا وقالت: على العكس، فقد بدا لها ان الممثلين جميعهم قد ادوا ادوراهم اداء جيدا بلا استثناء.

- اذن هكذا؟ - قال المدير الفني بعد ان حدجها بنظرة وهو مستمر في فرك يديه فوق المدفأة الكهربائية.

- يعني هل هم يمثلون بشكل ممتاز؟ ... وابتسم هو، فتراقصت على وجهه الحيوي المضحك تجاعيد بشوشة، وقال - انك تشفقين عليهم، وتدركين كم هو الجو بارد عليهم وتشفقين ... ثم التفت الى فيتينكا وسأله - ماذا بشأن الفحم هل هم اعطونا وعدا؟

- وعدونا.

- قال المدير الفني - ان هذا شيء جيد، فانهم

ينسون كل شيء على المسرح! وعندما يعودون بعد ذلك الى بيوتهم يمرضون. ومن ثم بعد ذلك نهارا، يمثلون رغم كل شيء! ولكن كيف يمكن ان يكون الامر بصورة اخرى؟ ولأي غرض نحن هنا؟ اجل وكيف يمكن ان يكون بصورة اخرى عندما تكون القاعة بهذه الحالة! ووجه المدير الفني سؤالا مفاجئا الى غالينا بيتروفنا - هل رأيت انت القاعة في هذا اليوم؟

- رأيتها.

- يأتي الجنود من الجيوش العاملة مباشرة الى كل مسرحية، بعدد يملأ ثلث القاعة احيانا بل ونصفها احيانا اخرى. ولكن من غير المعروف كيف يجب ان يكون التمثيل امامهم. انه ممتاز بلا شك. وعلى كل حال، ينبغي عند التمثيل، التحلي بالاحساس بضرورة ان يكون الاداء ممتازا. ولقد اطلقت احدى ممثلاتنا، صليات رشاش، كلامها على بعد المسرحية تقول: "حسب رأيي اني مثلت اليوم تمثيلا خارقا!" ولكنني لم اضحك من ذلك، لأنني ادركت ان من المحتمل انها قد قرأت ذلك من على خشبة المسرح، في عيون اؤلئك الذين ذهبوا بعد المسرحية عائدين الى الجبهة، وان ذلك يعني انها مثلت فعلا تمثيلا خارقا في نظر البعض من بين هؤلاء، وحتى لو كان ذلك البعض شخصا واحدا على سبيل الفرض. ولكننا على العموم ما نزال ورغم كل هذا نمثل تمثيلا متوسط المستوى. واضاف المدير الفني بنفس اسلوبه الساخر يقول ثانية - اننا مثل

الذي عندما يسمع صوته العالي المهزوز ويخجل منه.اما الخارق الذكاء ما بيننا فهو فيكتور فاسيليفيتش... وربت المدير الفني على كتف فيتينكا وقال - اننا لولاه لضعنا. فانه يحصل لنا على كل شيء ويعمل كل شيء! بل وان سحبه بعيدا عن العمل الفني تماما سيسبب انقباضا في القلب...

وشع في عيون المدير الفني لمعان بريق ساخر وقال:

- ولهذا فان الباقين جميعهم، يبدعون بفضل انه هو المدير النابغة عندنا!. وتكور المدير الفني تحت فروته مثل القنفذ والتفت الى فيتينكا سائلا - هل ستكون هناك سيارة تنقلك الى البيت؟

- قال فيتينكا - توجد سيارة، واعتبارا من الاول في كانون الثاني - يناير، سيخصصون لنا سيارة دائمية واحدة.

- قال المدير الفني بفرح مرة ثانية وهو يفرك يديه فوق المدفأة - انظروا، فقد قلت، انه عبقري، اجل عبقري طبيعي. وسأل غالينا بيتروفنا،ولكنه في الحقيقة لم يوجه سؤالا، بل وكأنما صاغ قرارا على ماضيها وحاضرها ومستقبلها حيث قال- اذن انت كنت في الجبهة الكاريلية، ورجعت الى موسكو وتريدين ان تعملي معنا ممثلة؟

اضطربت غالينا بيتروفنا وهي تجيب، بانها ستكون سعيدة بالتمثيل عندهم بالمسرح، بل وانها جاءت من اجل هذا العمل.

- ان هذا جيد جدا- قال المدير الفني ذلك بسرعة، وعادت سحنته الثعلبية الساخرة بوجهه الصغير تحت كومة الشعر الابيض الى التجعد الماكر مرة ثانية، واضاف - تولي شكرا الى فيكتور فاسيليفيتش،فانه هو الذي اسندك كالجبل هنا بالمراسلة! وبعد رأس السنة نبدأ بالتدريب فورا، بل نستأنف... وذكر اسم المسرحية التي اثارت ضجة قبل الحرب - ستتدربين على دور البطولة، ولكن في التشكيل الثاني، انك سوف لن تكوني في موقف اعتراض.

اجابت غالينا بيتروفنا بصدق انها لا تجرأ ان تفكر باي شيء آخر، وهي ترى ان هذا الكلام كله وكأنه حلم سعيد بالنسبة لها.

- تمرني انت، فان المسرحية، في خلال ثمانية - عشرة ايام ستمثلونها، وسوف لن تبدأ قبل ذلك! وكذلك فانكم تعرفون ان الممثلين الذين يؤدون العروض الاولى في المسرحية هم كائنات متحمسة، وخاصة عندما يكون الشباب قد مال عن جانبهم. وانحنى المدير الفني انحناءة ساخرة الى غالينا بيتروفنا، داعيا اياها ان تفهم، بانه ولو كان لا يتكلم معها بجد كامل، الا انه يقدر مظهرها حق التقدير، ثم قال اخيرا وهو يرفع يده من فوق المدفأة - انا اغادر، واذا وجدت سيارة فهذا بفضل صلواتكم...

- سأل فيتينكا - هل انت ذاهب الى البيت مباشرة؟

- اجل، ولكن لماذا تسأل.

- قال فيتينكا وهو يحني رأسه نحو غالينا بيتروفنا- اذا لا يكون صعبا، فأبعث بالسيارة لتعود الينا.

- قال المدير الفني، وهو يأخذ بيديه الحارتين من المدفأة، يد غالينا بيتروفنا، وضغطها على شفتيه برقة

- سأعيدها في خلال عشر دقائق. الى اللقاء في العام الجديد!

لقد ذهب المدير الفني، اما فيتينكا فقد استأذن من غالينا بيتروفنا ان تنتظره مدة عشر دقائق اخرى هنا، وركض لينجز بعض الاعمال المسرحية الضرورية العائدة له. وظلت غالينا بيتروفنا واقفة لوحدها في الغرفة الصغيرة تدفىء يديها فوق المدفأة الكهربائية، مثلما كان المدير الفني يدفيء يديه قبل ذلك الوقت بدقيقة واحدة، وهي تفكر كيف ستكون الحال في الوقت الراهن. كيف ستذهب للتدريب اول مرة، ومن سيمثل ايضا، وكيف ستسير الامور معها في هذا المسرح. فلعلها ستكون اخيرا جيدة، لا كما في السابق! وقد فتح باب الغرفة مرتين أو ثلاث مرات، اناس لا تعرفهم، وبعد ان يلقوا نظرة ولا يرون احدا غيرها هنا، يواربون الباب مرة اخرى.

وفكرت هي مع نفسها "ولكنني الى اين ساذهب الان؟ هل اذهب الى البيت ؟ ولكنه لم يبق عندها هناك في الحقيبة اي شيء يؤكل. فانها مع ماشا ماكاروفا، وبتلك

المحطة التي هي قبل موسكو تماما، حيث كانا قد توقفا مدة ساعتين، قد قضمتا اخر قطعة من الخبز الجاف. ام لعل من الممكن ان ترجو من فيتينكا ان يوصلها الى ماشا؟

هكذا فكرت مع نفسها، وهي تتوقع في نفس الوقت، ان فيتينكا سيدعوها الان للذهاب معه الى البيت، وانها ليس في نيتها ان ترفض. وبالاضافة الى ذلك فانها سوف لن تستطيع، وليس بالامكان ان تشرح له، لماذا ترفض الان فجأة الذهاب معه الى بيته، بعد ما نفذ لها كل ما وعدها به. وفكرت غير واثقة - "سأذهب معه، ولكنني ساروح منه حتما، سأروح".

وبعد ان عاد فيتينكا، ارتدى مسرعا معطف الفرو القصير المعلق على الجدار، والقبعة، واقترح عليها، كما توقعت، الذهاب معه الى البيت. وانها هزت رأسها بصمت اشارة الى الموافقة بالذات.

-١٣-

تمتمت آنا أكيموفنا وهي تفتح لهما الباب، بكلمة

"مرحبا" جافة الى غالينا بيتروفنا، وعادت الى مكانها. انها ما كانت تميل الى غالينا بيتروفنا بسبب وضعها غير المحدد في بيت بالاكيريف. وقد قالت بحضور غالينا بيتروفنا وهزت كتفيها بامتعاض: "لا هي زوجة، ولا هي ضيفة مقبولة" حيث انها لا تحب الغموض.

ان فاسيلي فاسيليفيتش واولغا فيودوروفنا لم يكونا موجودين في الشقة. وبقي على مائدة الغداء دورق زجاجي من الفودكا وقنينة نبيذ علامة "ثلاث سبعات" وزوجان من الصحون. ومن الواضح للعيان، ان فيتينكا استطاع في زحام اشغاله المسرحية ان يخبر بالهاتف، بأنه سيأتي الى البيت ليس وحده.

- قال فيتينكا، وهو يخلع معطف الفرو القصير عن غالينا بيتروفنا وينظر اليها من رأسها الى قدميها بتوءدة وارتياح - للاسف ان ماما وبابا لم يستطيعا استقبالك، فقد ذهبا الى حفلة عيد ميلاد عند كوتس. أتعرفينة، طبيب الاذن والحنجرة والانف؟ ولابد انهما سيعودان متأخرين. وكان قبل هذا قد عاش عندنا ابن خالتي، ولكنه انتقل، ولله الحمد، للعيش في قسم داخلي للسكن. وبهذا فاننا لوحدنا بصورة عملية. فهل آمل ان هذا سوف لن يزعجك؟

هزت غالينا بيتروفنا كتفيها، فهي كانت سعيدة بالدفء المقبول الذي كان في البيت، لا كما في غرفتها هناك. وانها قد فكرت بذلك الان بالذات.

- ما هذا الذي استغرقك بالتفكير؟
- كلا، لاشيء...
وجلسا حول المائدة. وجلبت آنا آكيموفنا سمكا مملحا وقدرا صغيرا به بطاطا ساخنة والقت بهما وسط شرشف المائدة، ثم استدارت وخرجت.
- قال فيتينكا- انه نبيذ جنرالي. وانا لا أعرف لماذا الجنرال، حالما يريد ان يستضيف سيدة، فلا بد ان يقدم لها من هذه "السبعات الثلاث". ألم تلاحظي ذلك.
- قالت غالينا بيتروفنا - كلا، لم ألاحظ. وفي الشمال هناك لم يقدموا سوى اسبيرت وفودكا.
- لربما تريدين فودكا
- لا فرق.
- وسألها فيتينكا، بعدما شرب كل منهما كأسا من الفودكا- اسمعي، من هو هذا الطيار الذي جلب الي الرسالة منك؟
- أي طيار؟- سألت غالينا بيتروفنا، رافعة عينيها نحوه، وهي ما تزال تأمل بتجاهل، ان يكون الذي حمل الرسالة ليس بولينين نفسه، بل واحد من الرفاق، رجا منه ان يقوم بذلك.
- المقدم..نسيت اسمه، لكنه متوسط القامة ووسيم جدا وعنده أوسمة كثيرة.
- تذكرت، نعم... قالت غالينا بيتروفنا، وهي تتمالك نفسها بصعوبة كبيرة. واضافت تقول - لقد سافر

عدد منهم فورا، ورجوت منهم جميعا القاء الرسالة بصندوق البريد في موسكو. وانني لم اطلب ايصال هذه الرسالة باليد. وان هذا هو آمر فوجهم. - انها لا تدري ما هو الذي امسك بلسانها كي لا تذكر اسم بولينين.

- قال فيتينكا- انه وسيم وجذاب، باستثناء انه بدأ بالصلع مبكرا، وهو الشيء الوحيد الذي يشوهه.

وظل فيتينكا ينظر بانتباه الى غالينا بيتروفنا، بيد انها كانت ملتزمة بالحذر، بحيث ان وجهها لم يعبر عن اي شيء.

- وفكر فيتينكا "من الممكن فعلا ان ليس بينها وبين هذا الطيار اي شيء، كما ان من الممكن ان شيئا ما قد حصل بينهما". وبالرغم من عدم اظهار وجه غالينا بيتروفنا لاي رد فعل معين، الا انه قدر بأن كلا من هذين الاحتمالين ممكن الحصول.

- وأضاف بصوت مسموع - وهكذا انا فكرت، بأن هذا التعارف في الجبهة ليس بذي بال بالنسبة لك. وكذلك فانه لو ابدى فجأة الرغبة بأن يراك ويراني ويشرب كأسا من الفودكا، لقلت له تفضل من دون ان احرج امامه! انني اتمنى لو اشكره لقاء ايصاله الرسالة، فان هذا منتهى الذوق من جانبه على كل حال.

لو ان فيتينكا عرف حقيقة علاقة غالينا بيتروفنا ببولينين، واستطاع ان يتصور كل ثقل الضربة التي ينزلها بها بفريته، لانزل بها هذه الضربة حتما، لا بسبب

انه كان غيورا عليها، بل لشعوره بحرية اوسع عندما يقيد المرأة بنوع من الذكريات الثقيلة عليها. غير انه الان، وكما لا يحدث له مثل هذا الا نادرا، قد كذب بدون قصد تقريبا، الا ليذكرها من حين لاخر، بانه يعول على الماضي، لغرض حملها على البقاء معه حتى الصباح. وقام في هذا الوقت، وهو يتجاهل الافتراء، بملء الكأس الثانية بالفودكا، وحتى دون ان ينظر الى غالينا بيتروفنا، ولم يلاحظ كيف هي قد ارتجفت وامتقع لونها.

" ها قد انتهى كل شيء مع بولينين - فكرت بذلك غالينا بيتروفنا، وهي تحدق امامها بعينين غائمتين، وترى يدي فيتينكا اللتين تتحركان خطفا وتسكبان الفودكا، ومن بعد ذلك تضعان له ولها في الصحن قطعا من السمك المملح والبطاطا، وكررت مع نفسها - ها ان كل شيء قد انتهى". وواصلت التفكير مدركة بان هذا بالذات هو ما يحصل مع شخص مثل بولينين، ولا يمكن ان يكون بشكل آخر، بعد ان قامت وبعثت، بصورة حمقاء، هذه الرسالة معه. ولكنه لماذا هو قد جاء الى هنا بنفسه، وقام فيتينكا عن ارتياب او من الممكن عن عدم ارتياب، بل لمجرد ان غرور الرجال قد دفعه الى الاستعجال بافهامه، انه ليس فقط كان يعيش معها فحسب، بل وانه سيعيش معها في المستقبل ايضا.

لقد صار السؤال الذي لم يسعفها الوقت لتوجيهه الى جارتها: هل اتصل بها شخص بالهاتف يدعى بولينين، صار

هذا السؤال الان بلا معنى. فانه من الطبيعي لم يتصل بها بالهاتف، اذ كيف باستطاعته الاتصال بها بالهاتف بعد كل هذا! انه لم يتصل بالهاتف ولن يتصل بها ابدا. وكذلك فان كلماته هناك في سورمانسك: "تعالي واقبلي بي زوجا لك" كانت الكلمات الاخيرة التي سمعتها منه وستظل تسمعها. وانه الان سوف لن يكلمها باي شيء اكثر من ذلك ابدا، حتى اذا ما التقت به صدفة.. بل وحتى انها اختضت من تصورها امكانية الالتقاء مع بولينين الان. كلا، ان من الافضل عدم اللقاء!.

- سأل فيتينكا رافعا رأسه وناظرا كيف ان غالينا بيتروفنا قد تشنجت - ماذا بك؟

- قالت غالينا بيتروفنا - ان الجو بارد على العموم، بل وحتى انه هنا بارد ايضا.

- حالا- وقفز فيتينكا من خلف المائدة ودخل بسرعة في غرفة مكتب والده، وجلب من هناك سترة والقاها على كتفي غالينا بيتروفنا. وكانت تلك، سترة كبيرة عريضة لفاسيلي فاسيليفيتش، وتدلى من جيبها الجانبي منديل من نسيج بطانة يتضوع عطرا.

- انني فعلت حسنا ان لم اجبن في تشرين الاول ـاكتوبر. - قال فيتينكا ذلك، وهو يملأ لنفسه الكأس الثالثة من الفودكا، وعلى ثقة كاملة الان، بأن غالينا بيتروفنا ستبقى معه، ولهذا فهو الان مشغول بنفسه اكثر مما هو مشغول بها. واضاف يقول - ها انذا اساعد في

تطوير المسرح الذي ما يزال الوحيد في موسكو. اما بخصوص النبوغ، فمن الطبيعي ان هذه نكتة، ولكنهم بدوني سيصيرون وكأنهم بلا أيد، فانما هذه هي الحقيقة.

لقد كان راضيا عن نفسه تمام الرضى، وبالاخص، من انه قد هيأ الى غالينا بيتروفنا كل ما وعدها به، وهو ما كان ليتسنى ان يفعله في الماضي بين حين وآخر.

وعندما كان قد قال لغالينا بيتروفنا حول موضوع كيف انه فعل حسنا ان لم يجبن، وبقي في موسكو، فانه الان وفي هذه الدقيقة قد قال الحقيقة تقريبا. وكذلك، فمن بعد ان طردوا الالمان عن موسكو، وارتفاع شهرة اعماله الخاصة نتيجة بقائه في موسكو بالذات، فانه صار دائما يؤكد بفرح، ليس للاخرين فحسب، بل ولنفسه ايضا، فطنته وشجاعته الخاصتين.

لقد كان يتحدث هو امام غالينا بيتروفنا، وهي تسمعه ببلاهة وتأكل بلا شهية، وعندما تقرع معه الكأس بين الفينة والفينة، وعندما كان يملأ لها القدح، فانها كانت في كل مرة من هذه، تشرب الفودكا بتذمر وبلا مبالاة وكأنها دواء.

وجلبت آنا آكيموفنا لكل منهما كوبا من القهوة. وخرجت مرة اخرى، ولعله خروج نهائي في هذه المرة.

- قال فيتينكا وهو في حالة استرخاء على الكرسي - وماذا سنفعل الان؟. انه كان يعرف ماذا ينبغي عليهما ان يفعلا الان، غير انه لا يرغب ان يظهر امامها مستعجلا اكثر

مما ينبغي.

- انني استطيع الذهاب الى بيتي - قالت غالينا بيتروفنا ذلك بفتور لانها ما كانت تريد الان الذهاب الى البيت ولا ترغب بالبقاء هنا. وعلى العموم، فانها ليس لديها رغبة بأي شيء، وشعرت بتلك التعاسة العميقة التي لا ترى مثلها تعاسة في الحياة ابدا.

- قال فيتينكا مبتهجا - أنك اصبت بالجنون فعلا، اين بيتك، ولماذا البيت، ومن ثم كيف تصلين الى البيت؟ فانت ليس لديك اي اذن بالتجول. ولذلك فانت لن تصلي الى بيتك باية صورة.

واطلقت هي حسرة، ونظرت اليه بنفس نظرة التذمر التي تبديها عندما كانت تحتسي الفودكا من قبل هذا.

-١٤-

المسافة من البيت، حيث يسكن آل بالاكيريف، الى البيت حيث تسكن غالينا بيتروفنا، كانت نصف ساعة مشيا على القدم. ففي الساعة الثامنة صباحا، عندما مشت غالينا بيتروفنا نحو منزلها، كان الظلام ما يزال يخيم على الشوارع في فصل الشتاء. وفي موقف لنقل الركاب، عند بوابة نيكيتسكي فاروتا، وقفت جموع من الناس المتوجهين الى حي كراسني بريسني، تنتظر حافلات الترام، وبين الذاهبين الى العمل كان هناك الكثير من النساء

والاحداث بصورة خاصة. وفي هذا المكان على الرصيف والشارع، راح الاحداث الذين هرسهم البرد، وهم ينتظرون عربات الترام، يتبارون بالقفز على رجل واحدة. وبدفع بعضهم بعضا على كثبان الثلج غير المكسوحة.

وفي وسط جميع هذه الحياة الصباحية، مشت غالينا بيتروفنا مثل الميت صماء، لا تسمع اجراس حافلات الترام، ولا الاحاديث ولا الصراخ، بل وانها حتى لم تلاحظ كيف كان يدفعها الناس الذين يسبقونها او الذين يركضون مستعجلين باتجاهها، للذهاب الى العمل. انها كانت قد نهضت في الصباح، بعد ان ظلت الليل بطوله دون ان تغمض لها عين، نهضت بمنتهى الهدوء لغرض ان لا يسمعها احد، تاركة فيتينكا يغط في نومه، ثم خرجت مبكرة جدا لكي لا يتسنى الوقت لأي احد ايضا، النهوض في بيت بالاكيريف، ولكي لا تواجه ضرورة تبادل التحية والكلام مع اي كان منهم. ولكنه رغم ذلك التبكير في نهوضها، فان آنا أكيموفنا كانت في المطبخ، اذ قد استيقظت قبلها.

وعندما ارتدت غالينا بيتروفنا ملابسها، حتى من دون استحمام، وخرجت على اطراف اصابعها من غرفة فيتينكا الى المدخل، فانها قد تناهى الى اذنها غمغمة عالية مسموعة من المطبخ.

كانت آنا آكيموفنا، تحب كل صباح، عندما يكون الجميع نياما، الكلام مع نفسها حول كل مالم ينل رضاها

في عشية ذلك اليوم.

- قالت آنا أكيموفنا، في خلال ما تناولت غالينا بيتروفنا من المشجب في المدخل، معطفها القصير من الفرو، وارتدته على عجل وهي تتخبط باردانه، حذرا من ان تسمع الان كلاما، من الافضل ان لاتسمعه - ترى هل هذا عمل، وهل هذا لائق؟ انهم ياتون وينامون الليل، اليوم تلك وغدا هذه، فبمن يليق ذلك، وأين مكتوب مثل هذا وباي كتاب...

ومن دون ان تعي بنفسها، خطفت غالينا بيتروفنا قبعتها بيدها، وقبل ان يسعها الوقت لتضعها فوق رأسها، فتحت القفل وركضت نحو فسحة السلم.

وها هي الان عندما سارت في المدينة، كان في اذانها ما تزال تضج باستمرار "يأتون وينامون الليل...". وهذا الضجيج ليس نابعا من تصورها كما لو ان فيتينكا يعيش حياته بشكل آخر مخالف لما هو عليه في حقيقة الامر، بل لانها ببساطة، صارت من جراء كلمات آنا آكيموفنا هذه، تكره نفسها بنفسها. وان ما فكرت به مساء امس بانه حتما وهين، ومن ثم بدا لها ليلا بصورة مفاجئة، الى اي مدى واسع، كان تصرفا غبيا وزائدا، فهو الان في الصباح قد صار يبدو مخجلا ومفزعا.

يا للمفاجأة. فان تلك الحياة التي لاحت امامها هناك في الشمال، كالبرق الخاطف، تبدو لها الان، وكأنها ما راحت ولن تروح. ولكن تلك الحياة، اذا كانت ما راحت

ولن تروح، فلماذا يجب اذن، ان تكون هذه الحياة هنا بديلا لها؟ الا يجوز ان تكون مجرد حياة واحدة ولو في وقت من الاوقات؟ ومن ذاتها؟

والان في الصباح، عندما كان الناس يسرعون من حولها الى العمل، وان المدينة تغص بالوقائع القاسية، فان تلك الحياة قد بدت في نظرها بانها ممكنة تماما! ممكنة وضرورية!.

كانت تفكر هكذا وهي متوجهة في الصباح للذهاب الى بيتها. ولكنها بماذا ستفكر هناك عندها في البيت وليس في الصباح، بل في المساء ووسط اربعة جدران، ولوحدها، وبدون ام ولا اب، وبدون اطفال، وبدون زوج، وبدون التزامات امام اي احد مهما كان، لصيانة نفسها وفاء لشيء ما او لشخص ما، بل هي مجرد امرأة ليس هناك من يحتاجها عموما الا القليل، ووحيدة مع حزنها الليلي، وبغرفة وحيدة وخالية وباردة؟

وعندما صعدت غالينا بيتروفنا الى بيتها في الطابق الثالث، ادارت المفتاح طويلا وبلا نتيجة في القفل: فالباب كان مغلقا مرة اخرى بالقفل الثاني الداخلي ايضا. ومهما ستطرق الباب غالينا بيتروفنا، فان الباب سوف لن يفتحه احد. فمن المحتمل ان كوزميتشيفا قد عادت من العمل، وذهبت الى احد المخازن. ولا يوجد من يفتح الباب غيرها، اذ ان جميع الجيران الاخرين قد ذهبوا الى المهجر منذ مدة طويلة. ولأن غالينا بيتروفنا لا تعرف

ماذا تفعل والى اين تتوجه الان، فقد وقفت قرب الباب مدة نصف ساعة منتظرة، ومن ثم جلست على الدرجة العليا من السلم، واسندت رأسها الى يدها وغفت من ألتعب بصورة لم تتوقعها.

واستيقظت هي من جراء ان جارتها كوزميتشنيفا، وهي تمسك محفظة النقود الجلدية مع الخبز بيد كانت تهزها من كتفها بالاخرى.

- لماذا انت جالسة على الحجر، فهل يجوز ياترى للنساء الجلوس في البرد على الحجر؟... واضافت تقول - في الطريق تذكرت انني لم اعط لك المفتاح الثاني. وفكرت اني سأركض بسرعة واعود، غير انه كان هناك طابور طويل من الناس...

ونهضت غالينا بيتروفنا، ودخلت الى الشقة من وراء كوزميتشيفا.

- قالت كوزميتشيفا وهي تسحب من على رأسها المنديل وتخلع عن جسمها المعطف الرجالي - لا يوقدون التدفئة ابدا، نعم لا يوقدون التدفئة نهائيا. وانني كلما اذهب لشراء الخبز، اترك الموقد النفطي مشتعلا بفتيل واحد، والا ستخافين من تبديل الملابس. وأقول لك ان موقدك النفطي موجود عندي، اذ اخذته من المطبخ وسأعطيه لك الان... وعليك ان تدفئي غرفتك، والا فمن الممكن ان تبقي عندي وسنتدفأ بموقدين من النفط.

وعندما كانت تتكلم عن كل هذا، فانها كانت تقوم

بعمل ما، من دون فترة توقف: فهي قد فتحت باب غرفتها، وحملت الى داخلها محفظة النقود مع الخبز ونقلت الموقد النفطي الى مقدمة الغرفة ومن ثم المقعد.

- انت خذي المقعد، وضعي الموقد النفطي فوقه، والا فستتلفين المنضدة.

- قالت غالينا بيتروفنا - شكرا، وراحت الى غرفتها، ومن ثم حضرت في اثرها كوزميتشيفا مع الموقد النفطي والمقعد.

- واصلت كوزميتشيفا كلامها - تفقدي انت الغرفة اولا. وانني استطيع ان اعطي اليك نفطا، اذ ما يزال عندي شيء منه، فقد تريدين ان تبقي لوحدك. اما اذا لا تريدين ذلك، فتعالي عندي وانا لا أعارض ذلك.

ومن دون ان تسأل غالينا بيتروفنا عن اي شيء، احست من مظهرها احساسا صحيحا بان حدثا سيئا قد وقع لها، فقامت ووضعت الموقد النفطي على المقعد واشعلت الفتيلتين به: اشعلتهما في البداية عاليا لكي يطير السخام، ومن بعد ذلك خفضت اللهب فيهما، وبدأت بعد ذلك بتدفئة يديها الباردتين واحدة بعد اخرى، فوق الموقد النفطي وجلست على طرف التخت الى جانب غالينا بيتروفنا.

لماذا تصمتين، هل انت غير سعيدة بالرجوع؟

- كلا، فانا سعيدة يا عمتي دوسيا- (اسم التصغير لجارتها كوزميتشيفا- المترجم)- ردت عليها غالينا

بيتروفنا، رغم ان هذه السعادة الان ليست بسبب رجوعها الى موسكو، بل بسبب مجيئها الى هنا، وبسبب ان هذه المرأة التي تناديها بصيغة "المفرد"، وباسم التصغير، غاليا، والتي هي بدورها تناديها، ومنذ مدة ثماني سنوات، وهي المدة التي عاشتها هنا، بصيغة "الجمع" والعمة دوسيا، قد دعتها بكل بساطة للعيش والتدفئة معها.

وقامت هي وقبلت جارتها في وجنتها المتجعدة، واستدارت لكي لا تبكي، وحشرت يديها ما بين ركبتيها، وجلست مدة طويلة بدون ان تتحرك، وهي تتطلع الى اللهب الصغير من خلال الشبكة اللامعة من حول فتيلتي الموقد النفطي الملتهبتين.

وبعدما جلست كوزميتشيفا صامتة معها، كررت ما سبق وقالته لها من قبل، مساء امس - لقد قتل لي فاسيل بيتروفيتش. وقتلته قنبلة في موسكو الثانية، داخل حضيرة للبضائع، وقتل معه مساعده. ونجا سالما لوحده، الوقاد فاسيليف كولكا، الذي انت تعرفينه، فهو ذلك الذي كان قد سكر في شهر ايار- مايو وحطم جميع الصحون في المطبخ. هل تتذكرين؟- لقد نطقت بكلمة "تتذكرين" متسائلة بنوع من الرقة، على الرغم من ان كولكا فاسيليف، سكر فعلا وحطم الصحون، ولكن هذا كله كان قد حدث في يوم ما قبل الحرب، عندما كان كل شيء على ما يرام، وكان فاسيلي بيتروفيتش ما يزال على قيد

الحياة. واضافت تقول مكررة بعد برهة صمت - انه الوحيد الذي نجا. ولكنها اية نجاة. فقد قطعوا له احدى ساقيه.

ونشجت باكية قليلا، ثم سكتت، وبسطت فوق ركبتيها، يديها المجهدتين، بنفس الحالة التي عليها غالينا بيتروفنا، واخذت تحدق، دون ان يرف لها جفن الى اللهب في الموقد النفطي.

لقد جلست كلتاهما صامتتين هكذا لبضع دقائق، حتى رن جرس الهاتف. وخرجت كوزميتشيفا الى الدهليز دون ان توصد الباب، وقالت في الهاتف، بصوتها المعهود جيدا الى غالينا بيتروفنا: "هالو، هالو، من المتكلم...؟"

- وبعد فترة صمت قالت - لقد رجعت، وسأنادي عليها حالا. ونادت على غالينا بيتروفنا - تعالي ان طيارك يتكلم! ان هذا هو اليوم العاشر الذي يسأل فيه عنك صباح كل يوم في هذا الوقت.

وقفزت غالينا بيتروفنا، ولوحت بيديها بوهن، وكأنها ترغب بالقول، بانه فات الاوان، وانه لايجوز بعد ذلك، ولا ينبغي مناداتها للهاتف، وانه يجب القول انها غير موجودة، وانها لم تصل بعد، وسوف لن تعود ابدا. ولكن قدميها خرجتا لوحدهما من الغرفة واوصلتاها الى الهاتف.

- اخذت سماعة الهاتف وقالت - نعم، بصوت ضعيف، معبرة فيه عن الالم، وكذلك عن التعاسة التي حصلت لها، وثم من السعادة التي جلبها لها هذا الهاتف على رغم

جميع ما وقع لها.
- غاليا، هل هذه انت يا غاليا - قال بولينين في الهاتف بصوت عال ينم عن الفرح، وكأنه كان الى جانبها تماما، ثم سألها- متى وصلت؟
- قالت غالينا بيتروفنا، بنفس وتيرة الصوت السابقة، وهي تحاول استجماع قواها، لأن تقول له ما ينبغي ان يقال - لا بأس.
- ولكن لماذا انا اسألك؟- قال بولينين ذلك دون أن يعير الانتباه الى صوتها الخامد، بنفس نبرة صوته العالية التي تنم عن الفرح. واضاف يقول - سأقوم الان بعمل مناظرة مع تشكيل للطيران، وانجز بعض الاعمال، ومن ثم في الساعة الثالثة عشرة، سأكون عندك. ما هو عنوانك؟

لقد ارادت ان تقول له: "كلا، كلا، لا تأت، أنك لا ينبغي لك المجيء الي!"، لقد ارادت ان تقول ذلك، ولكنها لم تستطع، اذ قد ادهشها صوت بولينين الصادح، وتناقض هذا الصوت مع كل ما حصل لها من فظاعة وسخف يوم امس، من جراء عدم سماعها هذا الصوت يوم امس، لا غير!

- قالت له العنوان - برونايا، سبعة، شقة اثنتا عشرة.
- برونايا، سبعة ، شقة اثنتا عشرة، حاضر - قال بولينين ذلك، وهو ما زال لم يلاحظ بعد لهجتها الغريبة،

فاضاف معتذرا: - ارجو منك فقط ان لا تنزعجي لكوني سوف لا اطيل البقاء! فأنا أدور مثل الكرة، وينبغي ان اعود الى مكاني! انه رأس السنة الجديدة، وهو يعني ان نحرس بعيون مفتوحة! الى اللقاء!

انه من جانبه قد وضع سماعة الهاتف في مكانها منذ مدة طويلة، اما هي فقد ظلت ممسكة بها بيدها مدة نصف دقيقة اخرى بحيث انها عندما علقتها بمكانها على العتلة، فقد ظلت مستمرة بالامساك بها، وكأنما تخشى عليها من السقوط.

- قالت كوزميتشيفا، وهي تشعر بالارتياح - لقد اتصل بالهاتف على كل حال. وانه كان قد اتصل يوم العشرين: وقال انك وعدت ان تصلي يوم العشرين. وقد قلت له، انها لم تصل، فقال، ان هذا غير ممكن، وانني سأتصل بها غدا بالهاتف. وهكذا ظل كل يوم يتصل بالهاتف وكأنه ساعة. وقد كنت يوم امس على عجلة من امري، ولكني تذكرت فيما بعد، عندما صرت في الشارع، باني لم أخبرك عن ذلك، فاردت الرجوع، ولكني رأيت بعد ذلك، بانه سوف لا يتصل بالهاتف حتى الصباح، لذا فانني سأخبرك في الصباح عندما اعود، وهذا نفس الشيء بالنسبة لك، ولكنك لم تبيتي هنا! فأين قضيت هذا الليل؟

- قالت غالينا بيتروفنا - عند واحدة من صديقاتي.

- قالت كوزميتشيفا - طبيعي ان الجلوس مع الناس اكثر مسرة. فاذا تجلسين هنا لوحدك، فكأنما تجلسين في

تابوت، وتحاورين نفسك بنفسك. ولكن ما تفكرين به وما راح ، لا تسترجعينه. وبعد ان توقفت كوزميتشيفا قليلا عن الكلام، كررت تقول بارتياح عن الطيار - ماروع دقته، فهو كالساعة. فهل سيأتي اليك؟

- سيأتي - قالت غالينا بيتروفنا بذهول، وتأملت فجأة بما كان يجب ان تتأمله منذ البداية نفسها: "ولكنه لماذا هو يتصل بي بالهاتف؟ انه لا ينبغي ان يتصل بي بالهاتف!".

ومع هذا التساؤل بينها وبين نفسها حول هذا الموضوع ادركت برعب وامل، بان فيتينكا كان قد كذب عليها يوم امس، وانه عندما التقى مع بولينين لم يتحدث له بأي شيء عنها، اي ان نتيجة الحساب واحدة، ولا بأس في ذلك. ولو كان الامر عكس ذلك لما اتصل بها بولينين بالهاتف بتاتا، لان هذا ببساطة لا يمكن ان يكون.

"اجل انه هكذا بالذات".

ثم انها لو عرفت عن ذلك، يوم امس، ولو استطاعت ان تتكهن به، لما حدث لها كل ذلك الذي يملأ الان روحها بالكراهية لنفسها بالذات.

- كيف انك لم تقولي لي يوم امس، انه قد اتصل بي بالهاتف!- التفتت غالينا بيتروفنا الى كوزميتشيفا، التي تقف الى جانبها عند جهاز الهاتف وهي تبتسم بارتياح. واضافت قائلة متأوهة - كيف حصل انك لم

تخبريني ... كيف أنك لم تقولي !..، وكررت غالينا بيتروفنا ذلك بلهجة اللوم.

- قالت كوزميتشيفا باسطة يديها- انت اعذريني من فضلك. وقد صار وجهها يعكس سيماء الذنب. فهي وان لم تفهم ماذا حدث، ولكنها احست بانه حدث ما هو سيء جدا.

- قالت غالينا بيتروفنا - لا عليك، فأنك غير مذنبة. انني انا نفسي المسؤولة في الذنب عن كل شيء.

ومن ثم، وهي تتطلع الى جهاز الهاتف، كما لو ان باستطاعته ان يضيف كلاما اخر يقوله لها، سارت ودخلت غرفتها.

انه بهذه الصورة او تلك يجب ان يأتي الى هنا في خلال ثلاث ساعات .

-١٥-

بدأت هي تنظف غرفتها بشكل محموم. ومن بعد ذلك فتحت الدولاب، بعدما القت في وسط الغرفة بالمكنسة والخرقة، وتناولت منه فساتينها الثلاثة كلها المعلقة فيه على حمالاتها، والتي لم يكن اي منها مناسبا لارتدائه، وجلست على التخت ممسكة بها فوق ركبتيها، وراحت تتطلع بها طويلا، وكأنما هي تراها لاول مرة.

ومن ثم عادت فعلقت الفساتين في مكانها مرة ثانية، واستأنفت التنظيف بالمكنسة والخرقة، فغسلت ارضية

الغرفة جيدا، ونشفتها، ومسحت الغبار عن الاشياء، ونظفت من الزوايا التي استطاعت الوصول اليها، بيوت العنكبوت هناك. وبعدما نظفت الغرفة جلست تفكر مع نفسها: ماذا ينبغي لها الان ان تقول، وماذا ستفعل؟

فمرة كان يراودها ان ترتدي ملابسها وتخرج قبل ان يصل بولينين، تخرج ولا تراه من بعد ذلك مرة اخرى ابدا. ويبدو لها مرة اخرى، انه ينبغي عليها ان تتحدث له عن كل ما جرى لها، حالما يصل وفورا، وحتى من قبل ان تسمح له بان يقبلها .

وحاولت ان تخدع نفسها بالقول " وماذا جرى ؟ فأي شيء لم يحدث " ولكنها لم تستطع ذلك. فقد كانت تدرك بأن مثل هذا لايجوز. لأنه قد حدث حادث، وسوف لايجوز الكلام عن ذلك الى بولينين . وهذا يعني ، أنه يجب الكذب عليه اليوم، ومن ثم الكذب عليه دائما.

وتأملت هي مع نفسها، بأنها اذا كانت قد أحبت بولينين فعلا، فما كان ينبغي لها ان تعطي له تلك الرسالة الى فيتينكا. وعلى افتراض انها حتى لو لم تفكر ابدا، بأنه سيقوم بنفسه بايصال رسالتها، فما كان ينبغي لها، رغم ذلك، ان تبعث معه رسالة الى الشخص الذي لا يعرف عنه الحقيقة كلها. ولو كانت تحب بولينين، فأنها ماكان يجوز لها في جميع الاحوال، أن تذهب مساء امس، الى هناك والى تلك الشقة. بل وحتى لو انها كانت تقدر عن ثقة تامة بأنها سوف لن يجري معها اي شيء، فما

كان مسموحا لها ان تذهب الى هناك بتاتا !. ولكم كان أمرا لا يطاق بالنسبة لها، الذهاب الى تلك الشقة !.

وهكذا استمرت في تقريع نفسها، وهي تواصل ترتيب الغرفة، دون ان تصل الى قرار، كيف ستكون عليها الامور فيما بعد على كل حال. فكيف ستستقبله اذا بقيت، وكيف ستجد في نفسها القوة للخروج اذا قررت الخروج.

وبدا لها ان فكرة اللجوء الى الكذب عليه هي فكرة قبيحة، اما الفكرة بصدد الجرأة على مصارحته بالحقيقة فهو أمر غير ممكن. وكذلك فأنه هل سينتظرها حتى يستمع منها هذه الحقيقة الى النهاية ؟ كلا على الارجح.

بدأت سماعة الاذاعة المنزلية تذيع أخر الانباء بصوت عال متفرقع. والبداية كانت بالانباء الصباحية خلال يوم ٣١ كانون الاول - ديسمبر، حول قيام قواتنا بخوض معارك ضد العدو على كافة الجبهات. ومن بعد ذلك جاءت انباء "الساعة الاخيرة" وهي عن اندحار الجنرال غوديريان في اثناء تحرير مدينة كالوغا. وقد اصغت هي الى كل ذلك حتى النهاية، ثم خطت ونزعت سلك مفتاح التوصيل في السماعة، لأن ذلك الذي تحدث عنه صوت المذياع، والذي كان سيحملها على الفرح في أية دقيقة غير هذه الدقيقة، قد ملأ روحها الان ببلبلة جديدة فقط. فانها لسبب ما، كانت تشعر بالخجل من هذا الصوت، وتخجل من كل مايدور حولها في الحياة، وتخجل من الجارة كوزميتشينا، وتخجل من النسوة اللواتي ذهبن صباحا الى العمل، وتخجل من

بولينين، الذي هو في مكانه هناك في المطار، يجري الان مشاورات مع طياريه...

"ياليته اليوم لا يأتي، ليتسع الوقت لي لاتخاذ أي قرار" - هكذا هي فكرت وكأن من المقرر أن يأتي هو في هذه الدقيقة.

وبعدما نظفت الغرفة، اوصدتها بالمفتاح، واستلقت، من دون ان تخلع ملابسها ماعدا الجزمة اللبادية، فوق التخت، وهي ترتجف كأن بها قشعريرة، طاوية تحتها، رجليها مع رأسها، ومتدثرة بالبطانية ومعطف الفرو القصير.

لقد استلقت وقتا طويلا، يناهز ساعة كاملة كما يبدو، من دون أن تتحرك او ترد على طرقات كوزميتشيفا التي نادت عليها مرتين ان ترد على نداء بالهاتف. ومن بعد ذلك ضج صوت قرع على الباب الخارجي ، ثم سمعت صوت فيتينكا الذي كان يتحدث مع كوزميتشيفا في الدهليز.

- سأل فيتينكا - هل هي اذن - في البيت أم لا ؟

- في البيت - اجابته كوزميتشيفا بصوت نافر وقالت - لقد سبق وقلت لك بالهاتف بأنها في البيت ولكنها لا تجاوب.

خطا فيتينكا نحو الباب، وشرع ينقر عليه في البداية نقرا خفيفا، ومن ثم صار يقرعه بشدة. ولكن غالينا بيتروفنا ظلت راقدة ومنطوية على نفسها مثل

الكرة ولم تنبس بجواب. وبعد ذلك سمعت فيتينكا كيف اشعل عود ثقاب لكي يرى من ثقب القفل هل ان المفتاح موجود فيه.

- وصاح بصوت عال عندما رأى ان الباب مقفل من الداخل بالمفتاح - ياغاليا، ماهذه الحماقة ؟ فأنا قد جئت من اجلك..

وظلت غالينا بيتروفنا مستلقية وصامتة.

- امتعض فيتينكا وقال - ماهذه النكتة الغبية ؟ انهضي، والا سأحطم الباب، قسما بالله.

انه لم يحطم الباب، ولكنه عاد ثانية يطرق عليه عدة مرات قائلا، بأنها خرجت اليوم صباحا بصورة غير مؤدبة، وانه ليس هناك من احد يقترف مثل هذا ! ولأنه اتصل بها بالهاتف مرتين، اذن يجب عليها ان تنهض وتخرج، وترد عليه كانسان، اذا كانت لاتريد ان تراه في هذا اليوم لأي سبب من الاسباب. وانه في نهاية المطاف ليس صبيا كي يتسكع بهذه الصورة عند الباب!. وظل يدق الباب ويتكلم بأنه يكره النوبات الهستيرية، ثم انها اذا كانت ليلا بحالة ونهارا باخرى، واذا قد عدلت الان عن رأيها، وقررت عدم الذهاب معه في عيد رأس السنة، فكان باستطاعتها ان تأتي وتقول ذلك بالهاتف، لا ان تتصرف مثل الشاة المسعورة.

"فكرت مع نفسها تقول - انه على حق. انه من حيث الجوهر على حق. انني سأنهض حالا وافتح له الباب،

وسيكون كل شيء مثلما كان، ومن ثم ليكن مايكون..".
ولكنها في الواقع ماكان باستطاعتها ان تفتح له الباب الان كي يعود كل شيء الى ماكان، ولاتستطيع ذلك ولا تريده، ولهذا فقد استمرت راقدة بصمت، وهي منطوية على نفسها تحت البطانية ومعطف الفرو القصير.
وفي الاخير سئم فيتينكا من الطرق على الباب ومن الاسترضاء، فقال بخشونة:
- اذهبي الى الشيطان ! مجنونة انت ! ثم صفق الباب الخارجي بعنف وذهب.
ومن ذلك الحنق الذي لفظ به عبارة "اذهبي الى الشيطان" ومن دوى اصطفاق الباب، ادركت بأنها يجب أن تركض من خلفه الان، وترجو منه الصفح. والا فأنه سيفعل مايحول دون وجودها في المسرح. انه سيسعى بالتأكيد لهذا الغرض، اذا لم تعتذر منه او تمتنع عن معاشرته.
"الشاة المسعورة" - انها تذكرت ماقاله عنها من كلمات، وفكرت بقسوة مع نفسها: " سأكون كذلك، سأكون شاة مسعورة، ولكنني رغم ذلك، لن اعاشره بعد. وعلى رغم هذا كله، سأذهب غدا الى المسرح واقول لهذا المدير الفني، بأنني أريد ان اعمل عندهم، وانه قد وعدني شخصيا بذلك، ولهذا يجب عليه ان يقبلني بالعمل في المسرح... اما اذا فيتينكا يضع العراقيل في طريقي فأنني سأكافح بكل السبل. وفكرت ايضا بقرار غير مألوف بالنسبة لها - وسيكون هناك من يساعدني في هذا السبيل.

نهناك قد تجمع اناس طيبون جدا ! ثم ياترى، هل بالامكان ان يكون مثل هذا المسرح بمثل هذه الظروف بدون اناس طيبين ؟ ".

- اقتربت كوزميتشيفا من الباب، وسألت وهي مذعورة ـ غاليا، ماذا حدث لك ؟.

- قالت غالينا بيتروفنا ـ كلا، لا شيء. انا ببساطة لا اريد الكلام معه.

والقت عنها البطانية جانبا، وكذلك معطف الفرو القصير، وجلست على التخت، واخذت تمسد شعرها.

بعد نصف ساعة يكون من المحتم أن يأتي بولينين.

وامعنت غالينا بيتروفنا فجأة التفكير بهدوء اليائس ـ "انه سيأتي، اما أنا فسأخرج، وسوف لن أراه ابدا... ابدا". "الان سأكتب له ورقة، وبعد ذلك اخرج.. ولكنه اذا قرأ الورقة وبقي ينتظرني ؟". فكرت هي بذلك نجأة، مع اشتعال بصيص من امل. غير ان هذه المحاولة من خداع النفس استمرت فقط لثانية واحدة. "كلا، انه سوف لن ينتظر. فأنا سأكتب له ما لايدعه ينتظر. يجب ان اكتب له، بصورة تجبره على عدم الانتظار، لأنني اذا استطعت ان اقوم بكل ماجرى يوم أمس، فأية زوجة سأكون له انا ؟". هكذا نظرت الى نفسها، مندددة بها تنديدا ذاتيا، بتلك القوة الاخلاقية التي لم تعد تذكر انها قادرة عليها منذ مدة طويلة.

ولبست بهدوء، ومشطت شعرها، وارتدت معطف الفرو

القصير والجزمة اللبادية، وبدأت على منضدة المرأة الثلاثية الاجزاء، تكتب على ورقة مقطوعة من دفتر دور مسرحية قديم، رسالة الى بولينين، بخط بطيء قوي غير مألوف بالنسبة لها.

"انني لم احدثك بالحقيقة كلها عن نفسي. ومن الممكن انني كنت استطيع ذلك من قبل، غير أني لم اتجرأ على ذلك. اما الان فأن ذلك يخجلني، ولا فائدة منه. لقد فكرت انا كثيرا بشأنك، وادركت بأنك سوف لن تثق بذلك الذي تصرف وخدعك مرة واحدة. وان هذه هي حقيقة . وان من الافضل بالنسبة لك ان لا تتزوجني. وداعا".

وقرأت هي الورقة ثانية وتوقفت عند كلمة "الخجل" ولكنها لم تشطبها، بل شطبت بدلا منها كلمة "وداعا" وكتبت مضيفة: "ان من المحتمل انني ما ازال قادرة الان على ان اخدعك ولكنني لا أريد ذلك، ولهذا فأنني لا أشعر بالخجل أمامك. وداعا".

وشرعت مرة اخرى تبحث في جرارات المرآة الثلاثية الاجزاء، فعثرت على حزمة غير مفتوحة من الظروف البريدية الصغيرة ذات اللون الليلكي. وكانت هذه الحزمة قد وصلتها هدية من فيتينكا، في عيد اول ايار - مايو قبل الحرب. ورمت جانبا هذه الظروف من يدها، واخذت تطوي الورقة المكتوبة طيا بسيطا على شكل مثلث، ولكنها عدلت عن ذلك فيما بعد.

" ولكنه ليس هناك الان اي فرق ".

واخذت ظرفا من الظروف ووضعت بداخله الورقة ولصقته ووضعته في جيب معطف الفرو القصير دون أن تكتب عليه أي شيء.

- غاليا - نادت عليها من خلف الباب، كوزميتشيفا.

- حاضرة. الان...

ونهضت غالينا بيتروفنا، وبعد أن زررت مشابك معطف الفرو القصير، خرجت من الغرفة.

- الى اين انت خارجة - سألتها كوزميتشيفا باستغراب.

- أنا خارجة.

- وكيف مع طيارك فأنه سيأتي ؟

- لا بأس، سيأتي وسيروح. هل ستبقين في البيت ؟

- نعم، فأنا اعمل غدا في الوجبة الصباحية.

- قالت غالينا بيتروفنا - سأعود فيما بعد، وسنجلس معا ونشرب الشاي... انه عيد رأس السنة على كل حال.

- قالت كوزميتشيفا وهي تتنهد - دعك من هذا، فأي عام جديد هناك... ولكن ماذا سأقول له عندما يأتي ؟

- أعطي له هذه الورقة.

واخرجت غالينا بيتروفنا من الجيب، الظرف، ودسته في يد كوزميتشيفا، وعندما احست بانها ستنفجر الان، خرجت مسرعة من الشقة.

عندما تردد بعد ربع ساعة من خروج غالينا بيتروفنا طرق حازم على الباب، خرجت كوزميتشيفا لفتحه، وهي حزينة النفس. فخروج غالينا بيتروفنا المفاجيء كان غير مفهوم بالنسبة لها، وخاصة بعدما جاء فيتينكا، وقرع عليها الباب، ولكنها عاندت ولم تفتحه له، بل ولم ترد عليه حتى بكلمة واحدة. وفي الصباح كذبت بقولها انها باتت عند صديقة لها، فأنها كانت عنده، ويبدو انه قد أنهار بينهما كل شيء...

لقد فرحت كوزميتشيفا كل الفرح بغالينا بيتروفنا، لكونها رغم الالحاح، لم تسمح لفيتينكا ان يدخل عليها. فأنها كرهت فيتينكا كره الموت، بينما الطيار على العكس من ذلك، قد راق لها بأصراره واحاديثه بالهاتف، ولهذا فأنها، بعد المجيء الخائب لفيتينكا، تمنت لو ان كل شيء ينتهي بالنسبة لغالينا بيتروفنا. الى نتيجة مشرفة مع هذا الطيار.

ولكن خروج غالينا بيتروفنا، وهذه الورقة الموجودة عندها في جيب السترة، قد أربكت كوزميتشيفا، وشتت كل افكارها. من يعرف ماذا هو مكتوب بهذه الورقة. فعلى ضوء مايعكسه وجه غالينا بيتروفنا، عندما خرجت، فأنه من المشكوك فيه ان يكون من وراء ذلك شيء حسن.

وعندما فتحت كوزميتشيفا الباب، شاهدت شابا نحيفا،

وزيادة على ذلك، فأنه طيار بمعطف عسكري رمادي جديد بكامل القيافة. وكان لدى الطيار وجه مشرق متورد من الصقيع، وتأبط تحت ذراعه صندوقا صغيرا من الفانيرا. وانه حالما دخل وضع الصندوق على الارض قرب الباب.

- قال - اريد غالينا بيتروفنا.

اغلقت كوزميتشيفا الباب من وراء ظهره، لمنع تيار الهواء البارد من السلم، وقالت، وكأنها هي المذنبة، ان غالينا بيتروفنا غير موجودة في البيت. ونزع الطيار تبعته مندهشا، ونظر اليها نظرة ارتياب، ومن ثم مسد قذاله مثل الاطفال. وعاد فسألها، لربما انه قد اخطأ بالشقة.

- قالت كوزميتشيفا - انك لم تخطىء. ووصلت الى العنوان الصحيح. ولكنها غير موجودة. انها خرجت.

- ولكنها متى ستعود ؟

- لا ادري.

- وهل خرجت منذ مدة طويلة ؟.

- قبل ربع ساعة.

- اليس من الممكن انها ستعود عما قريب ؟

كان وجهه قد تكدر الى درجة بحيث ان كوزميتشيفا لم تجرأ حتى في هذه اللحظة ان تسلمه الورقة، بل انها ظلت تقبض عليها في جيب السترة، وتواصل تلمس الظرف باصابعها، وكأنها تتأكد منها انها ماتزال بمكانها. ليت ان هذه الورقة غير موجودة، وليتها لا ينبغي ان

اسلمها له !.

سأل بولينين - ولكنها الى اين ذهبت ؟ هل من الممكن انهم استدعوها في العمل ؟.

هزت كوزميتشيفا كتفيها وقالت:

- ومن يعلم بها...

- هل من الممكن ان انتظرها ؟ فأنا عندي ساعتان من الوقت تقريبا.

هزت كوزميتشيفا كتفيها مرة اخرى. ووقف الطيار مترددا.

وبعد ذلك القى نظرة على الصندوق الذي هو مطروح عند قدميه، وقال بأنه جلب بعض الاشياء الى غالينا بيتروفنا وهل من الممكن ان يبقيها هناك ؟

- لا بأس بذلك، فما دمت قد جلبتها فاتركها - قالت كوزميتشيفا ذلك مستخدمة صيغة "المفرد" وذلك بسبب ان الطيار كان شابا، وبسبب انها تشعر بالشفقة والعطف عليه. واضافت قائلة - ان باب غرفتها مفتوح، فخذ الصندوق وضعه هناك.

وانحنى بولينين، الذي كان مايزال لا يتوقع أي شيء سيء، باستثناء انه كان مشوشا من احتمال عدم رؤية غالينا بيتروفنا في هذا اليوم، وتناول الصندوق، ومشى في اثر كوزميتشيفا وقال:

- اين اضع الصندوق؟- سأل ذلك وهو يتطلع الى الغرفة.

- ضعه أينما تشاء.

في البداية اراد ان يضع الصندوق على التخت، ولكنه عندما رأى بطانية عليه، وضع الصندوق الى جانب التخت على الارض. ومن ثم اعتدل بقامته، وهو مايزال لم يقرر، فيما اذا كان عليه ان يذهب ام يجرب الانتظار على كل حال، فأخذ يتطلع بعينيه في ارجاء الغرفة.

كلا، انه لم يتصور ان حياة الممثلات بهذه الحالة، عندما كان ينظر اليهن وهن على المسرح، اذ يراهن متأنقات، يرتدين هذا الفستان الجميل مرة، وذاك في الاخرى، ومع الابتسامات عندما يخرجن وينحنين في اثناء ماتقف القاعة كلها تصفق لهن. ومع أنه لم يخطر بباله ابدا من قبل، هذا الموضوع بالذات، لكنه كان يتصور، بأنهن، بعد انتهاء المسرحية، يرجعن الى البيت حيث هناك كل شيء انيق وجميل بلا شك، مثلما هو هنا على المسرح، ولكنه يقف في غرفة مظلمة طويلة ضيقة تشبه الدهليز، ولم تعرف الترميم منذ فترة طويلة، ومع منضدة وكرسيين ودولاب قديم ملأته الخدوش، ومتكأ متهرىء الوسط حائل اللون. وكانت الغرفة باردة، وعلى المقعد يتقد الموقد النفطي.

ان الصورة التي كانت ماتزال مستمرة في التعكير عليه حول ان غالينا بيتروفنا، وبالرغم من قراره الزواج منها، تعيش نوعا اخر خاصا من الحياة، لا عهد له بها، قد تغيرت فجأة. فبعد أن شاهد غرفتها، ادرك

بأنها تحيا حياة عملية فقيرة مليئة بالحرمان. انها الحياة التي عرفها جيدا منذ عهد الطفولة، وليس لها اية صلة بذلك الفستان الاسود الخيالي المطعم باللمعان الفضي، الذي مثلت به في الحفلة عندما رأها لأول مرة. انها في الواقع كانت حتى من قبل ذلك، قد تحدثت له بنفسها عن سنوات صباها، وكيف انها كانت قاسية بالنسبة لها. ولكن كلامها عما جرى لها في يوم ما من قبل عشرة او خمسة عشر عاما مضت، هو جانب واحد،اما الجانب الاخر فهو هذه غرفتها. فهل باستطاعته ان يجلب امه الان الى هذه الغرفة، ويعرفها على غالينا بيتروفنا، ويقول لها بأنه يريد الزواج منها. ثم ان كل هذا الذي يدور هنا في هذه الغرفة، الا يمكن ان يثير استغراب والدته وفزعها.

اما كوزميتشيفا، التي ظلت واقفة الى جانب بولينين فأنها ماتزال لا تجرأ على اعطائه الرسالة التي تتحسسها باصابعها. فلقد فكرت بغالينا بيتروفنا بما معناه، ان مايكتب بالحبر لا يقطع بالطبر: فالرسالة اذا اعطيت، فأنها لا تسترد من بعد ذلك. " من الممكن انها ستأسف جدا من بعد ذلك، ولكنه لات حين اسف".

- سأل بولينين مرة اخرى وهو يحيط الغرفة بنظره، هل انتما في شقة واحدة منذ عهد قديم.

- قالت كوزميتشيفا - انني منذ عام تسعة عشر من بعد ما حشروا البرجوازيين في السكن. اما هي فمنذ

ثماني سنوات. وهي قد تسلمتها بأمر من المسرح. وكان قد عاش من قبلها هنا المحاسب كابيلين. وبعد ان مات تسلمتها هي.

- حسنا - انا ذاهب - قال بولينين في الاخير بحزم مستخلصا مع نفسه، ان غالينا بيتروفنا، جاءها طلب عاجل من العمل، وماذا يمكن ان يكون غير هذا ؟ واضاف قائلا - اخبريها بأنني سأتصل بها بالهاتف غدا صباحا وفورا حالما اعود من التحليق.

تلمست كوزميتشيفا بيدها مرة اخرى الرسالة في جيبها وقررت بالاخير ان تسلمها له. وخرج الاثنان الى الدهليز وقالت له - خذ - ومدت له الظرف - انها قد تركت لك هنا ورقة. واعطته الظرف واخذت تنظر، وهي تعقد ذراعيها على صدرها وتسند جسمها الى الجدار، كيف يقرأ الطيار الورقة بعد أن فض الظرف.

الحاجبان عنده تقطبا والشفتان تقلصتا. ان الرسالة حتما، ماكانت في الواقع رسالة خير.

- هكذا - قال ذلك وهو يضع الورقة في جيبه. وسأل فجأة وهو ينظر الى كوزميتشيفا - هل هي متزوجة ام ماذا ؟.

- أنها وحيدة - اجابت كوزميتشيفا بشكل محاذر، لأنها لا تعرف ماذا كتبت غالينا بيتروفنا في رسالتها الى هذا الطيار، وكذلك فأنها ماكانت ترغب بأن تحمل نفسها وزر الكذب ايضا. فأنهما رغم عيشهما سويا في هذه

الشقة مدة سبعة اعوام، وأنها قد احبت غالينا بيتروفنا واشفقت عليها، بل انها اشفقت عليها اكثر مما احبتها. ولكن هذا الطيار الذي تراه لأول مرة، كان من حيث لا تدري اقرب من غالينا بيتروفنا الى نفسها.

- سأل بولينين بحرص - ماذا تعنين انها وحيدة ؟

- اعني أنها وحيدة. انها امرأة جيدة ولكنها سيئة الحظ.

- وسأل الطيار مرة اخرى بحرص وبانفعال - ماذا تعنين انها سيئة الحظ ؟

- ان عليك ان تسألها هي، فلماذا انت تسألني ؟

- لقد فاتني وقت السؤال - قال ذلك بولينين بحزن، وفجأة، وبعدما انسحق تحت وطأة هذا الحزن الذي غلبه، وشعورا منه بالثقة بهذه المرأة التي تقف الى جانبه وتشاركه ألمه، اخرج الرسالة من جيبه واعطاها لها قائلا

- خذي واقرأي !.

اخذت كوزميتشيفا الورقة وقرأتها، متهجية المقاطع، وهي خجلة من مستوى تعليمها الواطيء. وبدا لها أن الورقة مشوشة كالتشويش الذي يسود حياة غالينا بيتروفنا كلها خلال هذه السنوات السبع التي مرت امام عينيها، ولكنه كان فيها، اي في هذه الورقة، شيء غير مفهوم ببساطة: وهو انه بعد ما جاء بالاكيريف في هذا اليوم، وبعد ان اخذ يصرخ في الاخير هنا في الدهليز امام باب غرفة غالينا بيتروفنا، فأن كوزميتشيفا ادركت

بأن غالينا بيتروفنا لاتريد خداع هذا الطيار. اما في رسالتها فأنها قد كتبت عن حدوث هذا الخداع.

- خذ - قالت هي متنهدة ومدت بالورقة الى بولينين.

لقد انتظر الطيار، حسبما تدل عليه تعابير وجهه، ان تقول له شيئا ما. وبما انه ينتظر منها ذلك فلا بأس من ان تقول

- كان هنا عندها واحد. ولكنه الان غير موجود. لقد جاء اليوم اليها وتوسل بها من خلف الباب، ولكنها لم تسمح له بالدخول، بل وانها لم تقل له حتى ولا كلمة واحدة.

لقد لاحظت وهي تتحدث له بهذه الصورة انها تصنع جميلا بكلماتها هذه الى غالينا بيتروفنا، دون ان تحمل نفسها اثم الكذب.

- هل هو من المسرح ؟ - افلت السؤال من بولينين قبل أن يتسنى له الامساك عن ذلك.

واطرقت كوزميتشيفا برأسها، بعدما سمعت سؤاله، وقد رأت وهي مطرقة الرأس، وجهه الممتقع.

- سألته هي - ولكنك انت غير متزوج ؟

- غير متزوج.

- ولم تكن متزوجا من قبل ؟

- لم اكن.

وتنفست الصعداء، حتى من دون ان تفكر بأهمية اسئلتها واجوبتها عليها، بل شعورا منها ببساطة، بأن

كل شيء لن يكون بينهما على مايرام.

- قال بولينين وهو يتطلع في وجه كوزميتشيفا - أردت ان اتزوج منها - قال ذلك كما لو انه يقول ذلك لأمه. قال ذلك ولبس القبعة ومد لها يده قائلا - اتمنى لك الصحة !.

ومن بعد ذلك، وهي تشد على يده لم يكن بوسعها ان تسأله هل هناك من جواب الى غالينا بيتروفنا، لأنها ادركت: بانه سوف لن يكون اي جواب. انه ذهاب ولا بعده من اياب. وهذا لك كل الجواب.

- وتذكرت فجأة عندما صار بولينين في الباب - الا تأخذ الصندوق ؟. ولكنه لم يفعل اكثر من انه لوح بيده وخرج.

-١٧-

عندما ركضت غالينا بيتروفنا من بيتها مسرعة، وخشية من انها لو تأخرت، فمن الممكن ان تلتقي مع بولينين على السلم، فأنها لم تفكر في البداية الى اين ستذهب، بل خرجت مجرد خروج الى الشارع، وهي تمد يديها عميقا في جيوب معطف الفرو القصير، وتحرك كتفيها من تحته لاجل التخلص من القشعريرة التي توخز جلدها.

ولكنها من بعد ذلك، وعندما اجتازت بلا هدف، ثلاثة تقاطعات للشوارع، ثارت لديها رغبة بالرجوع لرؤية

بولينين. ورجعت دون ان تخدع نفسها بامل لقاء صدفة معه وجها لوجه، اذ عند ذاك سينتهي كل شيء بعكس ماكان قد انتهى. انها ارادت ان تراه مجرد رؤية.

وعبرت الشارع منحرفة عن موقع بيتها، واستدارت مسرعة في الزقاق، واخذت تتطلع من وراء زاوية.

لقد وقفت عند مدخل بيتها سيارة "ايمكا" مصبوغة بلون ابيض، وهذا يعني ان بولينين قد وصل. وانه الان عندها فوق. وتصورت كيف ان كوزميتشيفا قد فتحت له الباب وسلمته الرسالة، وكيف هو يقرأها. وتصورت لسبب ما انه سيقرأ الرسالة ليس هناك عندهم في الشقة، بل عندما يخرج الى السلم فيما بعد.

وفجأة تذكرت من بعد ذلك، بأن المدخل عندهم مظلم تقريبا، وانه سوف لن يستطيع قراءة رسالتها هناك، بل من المحتمل انه سيخرج وسيقرأها وهو واقف عند المدخل.

واخذها الفزع، وهي بهذه الافكار، من انها ستنهار لو رأته الان كيف سيخرج ويقرأ رسالتها. لقد ارتعبت، ولكنها لم تبرح المكان، بل واصلت النظر الى مدخل بيتها الذي تقف السيارة بالقرب منه.

ونزل السائق من السيارة وهو بمعطف فرو قصير، ودار دورة حول السيارة، ورفس الاطارات بالجزمة اللبادية، وبعد ذلك اتكأ على السيارة، وسحب سيكارة من جيبه وراح يدخن.

ولكن بولينين مايزال غير موجود.

"ماذا يفعل هو هناك ؟ لماذا تأخر طويلا هناك ؟ - هكذا فكرت، وظنت - ترى، هل بقي هناك ينتظرني ؟ "

ان الشهامة لم تفارقها بعد. ومع انها لاتعرف ماذا سيجري لها من بعد ذلك، الا انها لاتريده الان ان ينتظرها.

واخذت تحس بالبرد من الوقوف مستندة الى الحائط البارد. ومر من جانبها ثلاثة من المشاة، وان ثلاثتهم قد التفتوا صوبها.

واجهز السائق على سيكارته، وقام مرة اخرى يدور حول السيارة "ايمكا" ويرفس العجلات، ثم دخل في السيارة.

وفي هذه اللحظة خرج بولينين من البيت. خرج مسرعا ويخطى مندفعة لا رجعة فيها، ودون ان يتوقف او يلتفت الى بيتها، اتجه نحو السيارة، وفتح بابها وجلس وراح.

لقد كان على بعد عشرين خطوة منها فقط، ولكنها لم تصرخ عليه ولم تستوقفه.

" هذا كل شيء " - هكذا فكرت وهي تواكب السيارة بعينيها. ومن بعد ان وصلت الى مدخل بيتها، اخذت ترتقي السلم بتوءدة. وكان كل شيء كما هو عليه بالامس، عندما وصلت عائدة: نفس النافذة المكسورة، فوق حوض السلم نصف المظلم، ونفس الثلج على درجات السلم.

* * *

اينوزيمتسيف و ريندين

هذا هو ماكتبه لابوتين في يومياته، من بعد حين، في طريق عودته بالقطار من مورمانسك الى موسكو.

"انني قليلا ما فكرت كثيرا بحياتي مثلما انا عليه في هذا الليل. فالاستعدادات قد انتهت، وعناصر الاستطلاع الذين اصطفوا على رصيف الميناء قاموا للمرة الاخيرة بفحص معداتهم، اما المخابر، فقد اختبر جهازه اللاسلكي على المسموع. وصأصأت اشارات الجهاز ضعيفة في الضباب الثلجي. ومن بعد ذلك اخذت اردية التمويه البيضاء تسقط واحدة بعد الاخرى من جدار رصيف الميناء كالسقوط في الجحيم. ففي الاسفل كان الزورق البحري الحربي يخفق بهدوء على الامواج الصغيرة. وانني مع اينوزيمتسيف وريندين قد هبطنا مثلهم في الاخير. واقلع الزورق البحري الحربي متحركا نحو المخرج من خليج كولسك. وقد اشتدت الامواج بعض الشيء. ونزل عناصر الاستطلاع مع اينوزيمتسيف الى تحت في عنبر الزورق، وبقيت انا وريندين على ظهر الزورق.

- في الحقيقة، ماهو ذلك الشعور العجيب الذي يظهر عندما تعطي البطاقة الحزبية للحفظ قبل العملية؟ - هذا السؤال وجهه لي ريندين فجأة وبثقة من يعتبرني شيوعيا مثله. وكدت لا احير جوابا. واضطررت ان اجاهد نفسي

لأخبره بأنني غير حزبي.

ولقد اصيب هو بدهشة لا اعرف مصدرها.

- وماذا يهم فانت هكذا ! - قال ذلك وهو يغمغم بصراحته المعهودة. واضاف متسائلا - هل ان المنحدر الطبقي هو الذي قادك الى ذلك ؟

واخبرته بأن المنحدر الطبقي ليس هو الذي اثر علي، بل ان القضية انتهت بطبيعتها الى هذه النتيجة: في فترة الشباب لم اقدم طلبا للانتماء، ومن ثم تعودت مع الايام على كوني غير حزبي.

- قال من بعد فترة صمت - يبدو ان جوكم الادبي هو الذي اثر عليك. ولكنك صرت الان عسكريا مثلنا، وهنا الشبان هم جماعتك ! ومن المؤسف انني على وشك السفر.

على مايبدو، فأنه قد كذب فيما عبر عنه من اسف شديد لكونه سيسافر، اذ هو بالعكس من ذلك، قد ملأ اليوم اذان الجميع بالطنين منذ الصباح، بأن طلبه قد حظي بالموافقة، وانه سيغادر بالطائرة بعد غد للقتال في ضواحي موسكو، ضمن قوات المشاة البحرية.

انه ليس الوحيد الذي يرجو الذهاب الى ضواحي موسكو، ولكنه الوحيد الذي حصل على الموافقة، وذلك اما لكونه من سكان موسكو اصلا، وهو ماأكده في تقريره، او انه مجرد حسن حظ كان الى جانبه.

- ولكن الطقس في هذا اليوم اسوأ مما كان عليه يوم امس، حسب رأيي- قلت ذلك من بعد ماكدت اطير من

على متن الزورق عندما رفعت يدي عن المسند، لامسح وجهي المبلل. واردت ان اعرف لماذا لم يسمحوا لنا كل مساء على مدى اربعة ايام بالابحار، وفي اللحظة الاخيرة، متذرعين بالطقس، ولكنهم يسمحون لنا اليوم بذلك فجأة. ففي كل صباح، من بعدما أسلم وثائقي الشخصية في الخزانة، اعود مساء فاسترجعها ثانية، بحيث ان هذه الاستعدادات اليومية قد أنهكت اعصابي انهاكا شديدا.

- ابتسم ريندين وقال - وهل تتصور ان القضية محصورة بالطقس ؟ انهم انهكوك بهذه الصورة خدمة للتعليمات، لأنهم ليس لا يعطون "البركة" بسبب الطقس، بل لأن مصادر المعلومات لم تؤكد تبديل الحامية العسكرية. ولكنها قد أكدت اليوم هذا التبديل. فلديهم هناك في اللسان البحري، بطارية مدافع وسرية اسناد. وكانت مصادر المعلومات قد نقلت الينا بأن الجميع قد خرجوا يوم امس مساء ماعدا الحراس. وبهذه الصورة، نغتنم الفرصة مادام البديل لم يأت بعد. فأننا اما ان نواجه هناك مئة شخص او خمسة عشر، وان في هذا لفرقا كبيرا.

" فكرت قائلا - لعنة الشيطان عليكم، كان عليكم اما أن تأخذونا او تقولوا الحقيقة كما هي منذ البداية !".

ولكن ريندين احس بعذابي رغم التزامي الصمت. فهو انسان غريب الاطوار على العموم، فأما ان تراه لوحا من الخشب أو طبلا فائق الحساسية.

- قال لي، وهو يقرب مني وجهه السمين المبلل بالماء، ويمسح منه القطرات بكف مستديرة مثل كف الهر - لماذا نتعب رأس الشخص بالكلام عن الطقس، فدعوه يدخل في صلب الموضوع. وقد أثرت ضجة حولك أمام الرئيس، ولكنه هل يصغي الى ذلك ياترى ؟

دار هذا الكلام عن رئيس الاستطلاع البحري النقيب درجة اولى، سيدورين، الانسان الذي على مستوى عال من الهدوء والتهذيب، وعلى ارفع مستوى في تطبيق جميع نقاط تعليمات القواعد البحرية، بحيث ان اي صخب في حضرته يشبه تماما الصراخ في كنيسة بل وحتى ريندين يخفف من صعلكته في اثناء وجوده، ويتكلم بنصف صوته، اي انه يصبح شأنه شأن الناس الاخرين.

- وصرخ ريندين في اذني تماما ليتغلب صوته على ضجيج الريح الشديد وقال - انه شخصيا يقوم عندنا في الليل بوضع الاختام ! وانت تريد منه ان يطلعنا مقدما على جميع الظروف ! زد على ذلك انك غير حزبي. ان ريندين ماأراد تجريحي، بل مجرد اثارتي حيث اضاف قائلا - ولكنك لماذا انت لست حزبيا ؟. فهل يمكنني، على كل حال، الكلام، شرط عدم وجود نكات ادبية، لاننا على العموم ذاهبون في عملية تخريبية !

- غضبت منه وقلت له- مامعنى هذا الالحاح منك علي؟ انني عندما احتاج لأن تكتب عني توصية، فسأخبرك بذلك. قهقه ضاحكا. انه كان يرتاح عندما يواجه من يوقفه

عند حده.

- وصرخت به - انني ارى انك في مزاج حسن، وماهذا الا بسبب انك مغادر الى موسكو. اليس كذلك ؟.

- في مزاج رائع ! - صاح بذلك في فرح، وحاول حتى ان يترنم عاليا بواحدة من نبرات صوته المتصنعة، ولكن موجة قذفت في فمه المفتوح مباشرة، وفي الوقت المناسب، نصف لتر من الماء المالح، فتركته مدة طويلة يبصق ويسعل ويلعن.

وانحنى من بعد ذلك الى نصفين فوق الحاجز وقال لي بصوت ابح لايكاد يسمع:

- اذهب الى العنبر، فسيحصل الان منظر قبيح ! لم افهم فورا وترددت في مكاني.

- اذهب عني الى الشيطان. اليس لديك ضمير ؟! - قال ذلك بصراخ، وانحنى مرة ثانية الى نصفين فوق الحاجز وتقيأ.

نزلت انا الى العنبر المزدحم بالناس، فالزورق البحري الحربي هو سفينة صغيرة ضيقة، وانه عندما ينحشر فيه عشرون شخصا اكثر مما يستوعب من العدد الكامل، فاينما تريد ان تكدسهم سوف لن تجد موطيء قدم.

جلس اينوزيمتسيف عند نهاية المنضدة، يلاعب نفسه بالشطرنج، على لوحة شطرنجية تستخدم اثناء الجولات، مع انصابها ذات المخارز للتثبيت. ومهما تفحصت بنظري اينوزيمتسيف، فلم استطع ابدا ان اجعل وجهه مألوفا

عندي. فقبل شهر مضى اصابوا أنفه باطلاقة في اثناء تلاحم بالسلاح الابيض. وقد أخترقت الرصاصة جانبي الانف، فتركت لـه نـدبتـين مستـديـرتـين سـوداويـن جـافتـين في انفـه مـن الجانبين.

ضيق الاستطلاعيون على انفسهم ونظفوا لي مكانا الى جانب النقيب البحري.

- قل لي كيف حال الرائد مسؤول الخدمة الساحلية ؟

- سألني اينوزيمتسيف وهو يرفع نحوي عينيه العميقتين العابستين. واضاف - هل تقيأ ام انها تمر بسلام ؟ - كان صوته خاليا من التعاطف. وهو على العموم ماكان يحس بالارتياح الى ريندين، ثم أنه قد غضب عليه اليوم اضافة الى ذلك، بسبب الحاحه على الذهاب في هذه العملية مهما كلف الأمر، بعدما وضع قدما في موسكو.

ومع أن ريندين كان يحب الكلام عن نفسه بأنه بحار، فهو لم يكن في اي يوم من الايام منتميا الى تشكيل بحري، وقد خاف جدا عندما ناداه اينوزيمتسيف مشددا على جميع مقاطع التسمية بكامل الصفة الرسمية: "الرفيق الرائد للخدمة الساحلية ".

وبعكس هذا فأن اينوزيمتسيف قد أمضى حياته كلها في البحر، ولكنه لم ينتقل الى الاستطلاع الا قبل ثلاثة اشهر فقط. فقد ألقوا على غواصتهم قنابل الاعماق في أول أيام الحرب. وقد كان هو الوحيد الذي عاد من ذلك العالم من بين أفراد طاقم الغواصة كلهم. ويقال بأنه

رقد شهرا في المستشفى مزرقا كالميت. وبعد ذلك خرج من المستشفى وعاد الى الجبهة. ولكنهم لم يعطوا له غواصة جديدة لانه لا توجد غواصة. فدخل في الاستطلاع البحري، وتخصص في العمليات التخريبية ونفذها واحدة بعد اخرى بقسوة نادرة حتى في وسط الاستطلاعيين. وفي واحدة من هذه العمليات اصطدم مع ريندين بسبب موقف قاس مثل هذا، وهو هل يأخذون معهم اسرى أم لا يأخذون. وكان اينوزيمتسيف انذاك قائدا للقوة التخريبية، أما ريندين فكان النائب لرئيس الاستطلاع مما جعل كلمة القرار الاخيرة بيده. ولهذا فأن اينوزيمتسيف كره منذ ذلك الحين الخروج معه في عملية. ان هذا على الاقل هو ماحدثوني به وانه كان شبيها بالواقع.

- سألته - ايمكن أن نلعب دور شطرنج ؟

- قال - لا اريد ذلك. انه الملل. وانك ستفوز على كل حال. (لقد كنت قد فزت عليه عدة مرات متوالية في أول يوم من تعارفنا).

- اقدم لك وضعا به تسهيلات.

- أنا لا أقبل تسهيلات حتى من الاله نفسه - قال ذلك وسألني ان كنت أشعر بالغثيان ام لا.

- لحد الان، كلا.

واردت ان اقول له بأنني قد ابحرت كثيرا، ومن ضمن ذلك في الشمال، الا انني احجمت عن الكلام.

قال هو - ولكن ريندين يتقيأ كالمرأة، في كل مرة

يكون الموج بقوة اكثر من ثلاث درجات. ولو كنت في مكانه لما صبرت على ذلك وانتقلت منذ زمن بعيد الى المشاة.

- ومن الممكن انه لهذا السبب و... - بدأت انظر فجأة الى تقرير ريندين لأول مرة من هذا الجانب.

ولكن اينوزيمتسيف قاطعني قائلا:

- كلا، ليس لهذا السبب.

ويبدو انه كان عادلا. والعدالة تبدأ من تثمين اولئك الذين لا تحبهم.

- ولكنك لماذا انت قررت المجيء معنا فجأة ؟ - وجه لي هذا السؤال، بعد ان كانت موجة قد طوحت بزورقنا بصورة جعلتنا نتساقط على بعضنا مرتين هنا وهناك، وان ريندين افرحه ان صحفيا يذهب معه في عملية، اما هو، فعلى العكس فقد افزعه ذلك.

- هكذا أمرني رئيس التحرير.

- اذن هذه قضية اخرى - قال ذلك، وادركت بدوري من هذا القول بأنه سيبدأ منذ هذه اللحظة، يعاملني معاملة افضل.

- كم هو طول الطريق؟

- بمثل هذا المستوى من الامواج، ثلاث ساعات ونصف حتى المكان المقصود. قال ذلك بفكر مشغول واضاف - ولكننا سنقوم بالانزال بعد خمسة عشر كيلومترا أبعد من هدفنا، لأنه لا يجوز النزول تحت أنف العدو مباشرة. وبناء على ذلك، احسب اربع ساعات.

من المحتمل انه فكر كيف سأقطع انا هذه الكيلومترات الخمسة عشر، دون أن اقع عبئا عليهم، لأنه سألني كم سنة عمري.

قلت له خمس واربعون سنة. وعند ذاك قال، بأنه في أيلول - سبتمبر ذهب معهم في احدى العمليات، نقيب من الجريدة في ريعان الشباب.

ان هذه الملاحظة ينبغي فهمها بالصورة التالية، وهي أنهم كان بأمكانهم ان يبعثوا بواحد أكثر شبابا مني.

واجبته بان النقيب كان من جريدة اخرى، اما من جريدتنا فأنا هنا وحدي. وقد استراح من هذا الكلام مرة اخرى.

وقلت له أني اعرف كيف أطلق النار عند الضرورة.

- ولكن كيف حالك مع القنابل اليدوية ؟

كان ريندين قد سلمني قبل الانطلاق قنبلتين يدويتين من طراز الليمون.

واعترفت بأن قواعد استعمال القنابل اليدوية اعرفها نظريا فقط.

- نظريا تعرف، ان هذا غير كاف ! - قال اينوزيمتسيف ذلك بدون تهكم، ثم هز فتى اشقر من كتفه كان مستكنا على ارضية الزورق، هو رئيس العرفاء البحري الذي كان يتنفس بعمق تنفس النائم، من شفتينورديتين طفوليتين، وقال له - تشيخونين !، خذ من الرفيق ضابط الادارة من الدرجة الثانية، قنبلتين

يدويتين.

لقد تبسمت بسري وفكرت حول اينوزيمتسيف: " فعلا، ان هذا يعرف كل شيء: انه يعرف انني غير حزبي، وانني لهذا السبب قوميسار فوج، بل بالذات ضابط اداري من الدرجة الثانية، وانني سعيد بالتخلص من القنبلتين اليدويتين اللتين معي، وان السؤال عن موافقتي بشأن ذلك هو كلام لا حاجة له."

اخذ تشيخونين القنبلتين اليدويتين من يدي الى يده دون أن ينهض من مكانه، وربطهما من عروتيهما في حزامه الى جانب أربع اخريات معلقات هناك. وبعد أن عدل من جلسته على أرضية الزورق بما يخلق راحة اكثر له، مال برأسه على ركبتي وغفا فورا مرة ثانية. وطاحت القبعة من على رأسه، فوجدت نفسي بلا أرادة مني، معجبا بشعره الذهبي الأجعد الذي يشبه شعر يسينين*. وان هذا الفتى بعينيه الزرقاوين، كان على العموم شبيها الى حد ما بيسينين، ولكن ليس على ماكان عليه قبل نهايته الاخيرة، بل على ماكان عليه عندما رأيته يوم ان جاء الى موسكو في السنة العشرين لأول مرة.

انني لحد الان، لم يصادفني في الحرب، ان فكرت

---

* شاعر روسي مشهور انتحر وهو في ريعان الشباب خلال حكم ستالين.

بعمري، اما الان فقد صرت فجأة افكر بذلك. ان عمر هذا الفتى المتكىء على ركبتي لا يزيد عن اثنتين وعشرين سنة، ولكنه عندما غفا صار يبدو اصغر من ذلك. ولو أنني بكرت بالزواج، على خلاف ماانا عليه، لكان عندي الان ولد مثله . وبصورة عامة فأنا ماازال شابا ، وكذلك، فأنه رغم المظهر الخارجي عندي الذي لا يوحي بالثقة للنقيب البحري اينوزيمتسيف، فأنني املك، قياسا باقراني بالعمر، صحة ديك معمر قوي.

- كم عمرك - ثلاثون عاما ؟ - سألت اينوزيمتسيف فاجاب مؤيدا بأيماءة من رأسه.

- وعندك ولدان أليس كذلك ؟ سألته هكذا انطلاقا من حبي في بعض الاحيان أن اسأل بمثل هذه الثقة، وكثيرا مايصيب ظني.

- نعم اثنان - قال بأجابة متضجرة، واضاف - مابالك، تريد أن تملأ الاستمارة كلها، ام ستقتصر على الحالة الزوجية؟

- أتريد الان ان املأ لك ؟

- لنفترض الأمر هكذا - قال ذلك ونهض - انا ذاهب لأرى الطقس. ياتشيخونين افسح لي الطريق !.

وتوجه نحو المرقاة متخطيا من فوق الجنود النيام، ثم اختفى، اما تشيخونين الذي نهض ليسمح له بالمرور، نأنه بعد أن طلب الاذن مني جلس في مكانه الى جانبي.

- قال تشيخونين لي - ايها الرفيق الرائد، لا تسأل

النقيب البحري عن اطفاله مرة اخرى.

- ولكن ماذا جرى لهما، هل هما قد ماتا ؟ وجهت له السؤال وانا افكر بأني قد جلبت لنفسي ألما، اذ بدون أية ضرورة، وبكل بساطة، قمت ونكأت جروح الاخرين.

- كلا، انهما في سيبيريا، حيث ان زوجته قد ارسلتهما الى والدتها هناك طول المدة التي رقد خلالها في المستشفى. اما هي فقد بقيت معه: اذ طلبت ان تتعين ممرضة في المستشفى. ولكنه الان يحثها على الذهاب الى الاطفال، ولكنها تمتنع عن الذهاب، اذ تريد البقاء هنا وان تكون الى جانبه. وانها في كل مرة نعود بعدها من عملية، تنتظر النقيب البحري على رصيف الميناء. انها تنتظره، اما هو فيقول لها :" هل انت مازلت لم تسافري؟..". ومن ثم يمر من جانبها متجاوزا اياها... انه لا يستطيع ان يغفر لها عدم رجوعها الى الاطفال. انها طبيعة ضد طبيعة. وعندما سنعود من العملية سترى بنفسك.

- هل هي حسناء ؟

- قال تشيخونين مجيبا بصرامة - لا ادري، لم انظر اليها.

وبعد ساعة ناداني ريندين ان اصعد الى فوق، اذ القمر قد بزغ وهدأ الموج بصورة ملحوظة.

- من دعاه للبزوغ، ولأجل ماذا قد ظهر ؟ - عندما رآني ريندين قال ذلك مشير برأسه الى ناحية القمر: ان

من وراء هذه الطرفة، يوجد احساس بخطر ان يعرقل الليل المضيء نجاح العملية.

كان الليل مضيئا، الى درجة كنت اشاهد فيه بوضوح جيد، وجه كل من ريندين واينوزيمتسيف كليهما. ومما لا شك فيه ان ريندين قد تقيأ نهائيا كل ما بجوفه. وصار وجهه السمين على درجة من الابيضاض، بحيث ان حاجبيه الكثين الناميين، صارا يبدوان وكأنهما مرسومين رسما. وكان اينوزيمتسيف يدخن الغليون متجهما وضاغطا عليه براحة يده، لغرض ان لا تقع عليه قطرات ماء.

يبدو انهما قد تصارحا قبل مجيىء اليهما.

- قال ريندين وهو يشير اليه - انظر الى هذا الغريب الاطوار، فأنه الح علي ان اظل اتسكع على الزورق البحري الحربي في البحر، في اثناء مايقوم هو بتنفيذ العملية وذلك لاغراض التغطية بالنسبة له.

- والتفت الى اينوزيمتسيف وقال - أية تغطية انا لك؟ فما عندي سوى مدفع واحد في الزورق، ولايوجد اخر في جيبي !.

وصمت اينوزيمتسيف بعناد، وهو غير موافق بوضوح، على قيام ريندين بادخال شخص غريب ثالث في حديثهما.

ولكن ريندين انثنى متملقا:

- هل لديك ضمير في واقع الأمر، ان تقترح علي مايدعك انت تقاتل، اما أنا فأقف متفرجا على المعركة؟

- لقد اوجزت لك رأيي - قال اينوزيمتسيف دون ان

يعير اكتراثا لنبرة الاستعطاف الرفاقية. واضاف - ان مهمتك هي التغطية !.

- وماذا اغطي ايضا ؟ ان ما قد قلته هو الذي سيكون!- قال ريندين ذلك بصرامة.

- قال اينوزيمتسيف بجفاء - اننا سنصل قريبا. هل تسمح لي بالذهاب لاعداد الرجال.

- اذهب.

وبقيت انا وريندين لوحدنا. وقد قال فجأة بصورة مفتوحة.

- أرأيت كيف هو من انسان ؟ فياليته يدرك، بأني اذهب في آخر عملية لي، وليته لايعكر مزاجي !.

وبصق ريندين خلف الحاجز تعبيرا عن الانزعاج، ثم أنه أراد ان يتوقف، ولكنه لم يستطع ذلك كما يبدو.

- واضاف يقول - .أنه يرى نفسه استطلاعيا بالولادة، اما انا فأذا احارب، بدون حنطة الصيام السوداء، ومع الضحك والغناء باعلى الاصوات، فهذا يعني عنده، انني لست عنصر استطلاع، وانني مابقيت سالما الا لحسن الحظ!. ولكني اقول للعلم، بأنني قمت معه بما يقارب اثنتي عشرة عملية. ولديه اليوم العدد المشؤوم، كما هو عندي ايضا.

انني قد تعودت على اعتداده بنفسه، غير أن القلب عندي قد انقبض اليوم، ولذلك فأنني من اجل تشتيت هذا الشعور قلت متقصدا أغاضته، ان الرقم "ثلاثة عشر" هو

علامة سعد بالمناسبة.

- وابتسم ريندين واضاف يقول - ولكني لا افكر بذلك ابدا، وان من الحماقة التفكير بأن هناك رقما سعيدا بأي حال من الاحوال. ان الانسان السعيد هو قضية اخرى... خذ مثلا، انت نفسك، تعتبر انسانا سعيدا. فها انت اليوم هنا في المحيط المنجمد، بينما كنت قبل ثلاثة ايام في أوديسا على البحر الاسود !.

ورددت على مسامعه بان رؤية الجلاء عن اوديسا ماكانت بالنسبة لي سعادة بأية صورة من الصور.

- ولكن الجلاء جرى هناك بصورة جيدة جدا ! وذلك استنادا على الاقل، على احصائياتكم، ام انكم قد كذبتم بذلك ؟

قلت له يجب عليه ان يكون اكثر تساهلا في التحول من موضوع لاخر. وسكت هو، اما انا، فأن ذلك الذي ماكتبت عنه في مقالتي الصغيرة قد مر متجليا من جديد امام عيني وكأنه يقطعني.

.... في الساعة الخامسة صباحا، وفي نصف الساعة الاخيرة قبيل اقلاع الزوارق الحربية البحرية الاخيرة. الالمان قد تأخروا في قصف المرفأ الفارغ. ومستودعات البضائع تحترق. ويجري تحميل الزوارق البحرية الحربية على ضوء الحرائق المشوب بالدخان. ومدير المحطة البحرية وهو بحار طويل القامة بارد الطبع، يشبه سيدورين الذي هنا، يقترب بخطى غير مستعجلة وهو يقرع

الارض بكعب الحذاء على الرصيف الاسمنتي للميناء، من الجنرال يفيموف الذي كان يراقب ساخرا القصف الاهوج للقنابل، ويرفع يده بالتحية بلا مبالاة.

- ايها الرفيق القائد، اسمح لي ان ادعوك لتناول الفطور..

- هيا بنا - قال يفيموف ذلك، واخذ مادا ذراعيه على سعتهما جميع من كان واقفا الى جانبه.

ودخلنا نقطة القيادة التي كانت بيتا صغيرا خاليا، يقف هنا على رصيف الميناء. ولم يكن في داخله شيء موجود تماما، سوى منضدة مغطاة بشرشف ابيض كلون الثلج، وفوقه القناني والطعام. ان هذه المائدة تقف وكأنها تحد للمصير وللالمان. ودون أن نجلس شرب كل واحد منا كأسا، واكلنا ونحن نتطلع في النوافذ الحمراء من الحريق. ولقد كان كل من يفيموف والبحار، يعرفان ان هذا الافطار الاخير على رصيف الميناء، انما هو تباه بل وحتى طيش ولكنه بالنسبة لهم في نفس الوقت، الصفعة الاخيرة الصامتة للعدو الذي يقترب بحذر الان من اطراف المدينة المقفرة، متأخرا مدة يوم واحد. ومن بعد ذلك سنضعد عبر المرقاة الى الزورق البحري الحربي الذي كان يتأرجح تحت ارجلنا. ان لدى يفيموف عينين ثقيلتين رصاصيتين متعبتين. وتلاشى منهما لمعان المشاكسة. وفي الامام سيفاستوبول، وفي الخلف شهران من دماء المعارك حتى الركب. ومع ذلك ورغم كل هذه الدماء فأن اوديسا

المتروكة...

- هكذا ايها الرفيق الصحفي - قال يفيموف وهو ينظر بقنوط في عيني مباشرة بعينيه الرصاصيتين. وانني قد رأيت في رصاصهما الذي تحول لحظة الى دم، كيف يمر انعكاس ضياء الحريق...

ولعلني كنت قد لذت بالصمت طويلا، ولهذا فأن ريندين، ظنا منه أني قد أنزعجت منه، وضع يده على كتفي وقال بأنه كان يمزح بصدد الكذب، رغم ان هذا قد يضطر له اي واحد، بل وحتى عنصر الاستطلاع يكذب احيانا كالحصان الرمادي المخصي، وكذلك فأن الكاتب قد يكذب.

واطرقت برأسي موافقا، ثم تحدثت له، لماذا كنت صامتا وحول اي شيء كنت افكر.

واصغى لي بانتباه ناسيا يده الثقيلة فوق كتفي، وانني عندما انتهيت من كلامي، تنهد عميقا وقال:

اسفا على الاولاد ! - انه يسمي كل الطيبين اولادا حسب رأيه - ابتداء من الجندي وانتهاء بالجنرال. كيف حالهم الان في سيفاستوبول ؟ انهم يخرجون من حصار فيقعون بآخر !. وانك كنت قد رأيتهم علاوة على ذلك... ها انذا - وتنهد مرة اخرى - رجوت شخصيا الانتقال الى ضواحي موسكو، ولكنني اقف طول الطريق اتابع وافكر من على جانب الزورق: وداعا يازاباليارنيا - (المنطقة القطبية - المترجم)، وداعا ايها الاصدقاء الاستطلاعيون، وداعا ايتها الغواصة الحادة المزاج اي النقيب البحري

اينوزيمتسيف، انه تشاجر مع الجميع، ولكنه مشفق عليهم كلهم ! ومن ثم فأن اي مكتب انباء سوف لن يقول متى سأراك مرة اخرى. فالجبهة وماادراك ماالجبهة ! انها عملاقة !. وفجأة صرخ وهو يزيح اخيرا يديه عن كتفي، ويمدهما على طولها الواسع، ويقول، الجبهة من هنا الى سيفاستوبول. والناس الذين عليها لايحصى لهم عدد، ويموت كل يوم منها فيها الاف عديدة... اما نحن هنا، فمثل الحجر الرملي، نزحف في الاستطلاع، من اجل احد الجسور الصغيرة، أو ثلاثة مدافع غير كبيرة، ثم نفرح وكأننا حملنا البيضة الذهبية... اننا لسنا الذين نختار من سيموت غدا، وكذلك من سيموت في اليوم الاخير تماما، ولكن من سيعيش حتى النهايةُ، فأنه من اولئك الناس الاذكياء ! اليس كذلك ايها الرفيق لابوتين ؟

لقده سأل كما لو انه قد استحى من جيشان عواطفه، فصرخ بأعلى صوته على القمر.

- وانت مالك تلتصق مباشرة في العين مثل مصباح سيارة!.

ان البحر والسماء الان تحت نور القمر، كانا تقريبا بلون رمادي واحد متساوي الكثافة، باستثناء ماكان عند الافق، حيث تلاصقت لوحتاهما الرماديتان وبرز سواد ارقش هناك لايكاد يلوح للعين الا قليلا.

- اشرت الى ريندين على ذلك قائلا - ماهذا ؟

- ان هذا هو مانحن ذاهبون اليه - النرويج.

وعلى ضوء كل ماحولنا، فأن ساعة الانزال قد اقتربت. وامتلأ متن الزورق بالاجسام البيضاء لعناصر الاستطلاع.

" الان سيحل كل شيء بسرعة" - هكذا انا ادركت، اما الفكرة بانني في خلال خمس عشرة او عشرين دقيقة سأنزل الى الارض، حيث لا يوجد فيها ابناؤنا، بل الالمان فقط، فأنها قد أربكتني بسبب عدم التعود.

وصعد اينوزيمتسيف الى ظهر الزورق آخر من صعد، واتجه مباشرة الى ريندين. وبعد ان انتحيا جانبا، تحدثا عن شيء ما، ثم دعاني اليه ريندين وقال:

- هل من الممكن ان تبقى على متن الزورق البحري الحربي لأن الليل مضيء جدا ؟

وقد أردت ان اقول "نعم" ولكنني قلت "كلا" ثم ادركت فورا ان ريندين لم يكن ينتظر اي جواب مني غير هذا ولكنه وجه سؤاله هذا لي بناء على الحاح من اينوزيمتسيف.

- هل رأيت ماقلت لك ؟ - قال ذلك وهو يبتعد عني نحو اينوزيمتسيف يتحدث بذلك النوع من الهمس المسموع الصارخ الذي باستطاعة كل واحد ان يسمعه الا الاصم.

كانت المنطقة عند الساحل ضحلة وصخرية، فلم يستطع الزورق البحري الحربي، من الدنو بالقرب من الجرف تماما. وكذلك فأن المرقاة لم تكن كافية الطول فالحقت بها لوحات اخرى لمد طولها، الى جانب ذلك انزل اثنان من جنود الاسطول الاحمر في القوة، الى الماء البارد حد

الانجماد، لتدارك عدم سقوط عناصر الاستطلاع الراكضين فوق الالواح الخشبية، كي يصلوا الى الشاطيء دون ان يتبللوا بالماء. ولكنني رغم هذه الاحتياطات فقد تمايلت حتى انزلقت الى الماء فردة الجزمة اللبادية ونصف رداء التمويه. وسرعان ماتجمد الرداء وصار يصدر ضجيجا في السير مثل علبة الصفيح.

واني كنت قد كتبت عن كل ماجرى في اثناء النزول هناك على الشاطيء، موضوعا وارسلته الى جريدة "كراسنايازفيوزدا". صحيح انه قد انبغى غض النظر فيه عن كثير من التفاصيل المهمة جدا، والى تبديل الاسماء، واجراء بعض العمليات الجراحية بالمقال، بناء على طلب البحارة الذين كانوا قد قرأوه، ولكنه على العموم كان بالاساس بتلك الصورة التي جرى العمل خلالها في الواقع، واني لا اجد عندي رغبة للكتابة عن ذلك مرة اخرى، لأن هذا سيكون تكرارا مني للحروف مرة ثانية.

ولما رجعنا فأن لهيب الحرائق التي اشعلناها هناك في المستودعات في اللسان البحري، وانفجارات مخازن العتاد قد رافقتنا مدة ساعة كاملة. ومن بعد ذلك هدأ كل شيء. وعند الصباح صرنا في مياهنا الاقليمية، مستديرين حول شمال شبه جزيرة ريباتشي. كما خمد موج البحر تماما. وكان ريندين يبدو مستريحا جدا، حيث لم يصبه الغثيان بعد ذلك، غير انه كان سيء المزاج، من جراء انزعاجه من اخر عملية تخريبية يشارك فيها، انها

مرت بهذه الصورة السلمية من دون معارك مع الالمان.
- قال لي ريندين وهو يقترب مني - ارأيت كيف أننا ضحكنا من العدد المشؤوم، ولكنه عند الاختبار العملي، كان قد انتهى الى هذه الصورة وهي انه بصق ثم مسح.
وبصق ريندين بعد ذلك بانزعاج عبر الحاجز.
- ترى هل انني حلمت بذلك عندما خرجت ؟
واليوم، عندما نحن في طريق العودة سائرين، بدأ عندي ايضا التصور، بأنني ماكنت احلم بهذا. وعندما تجاوزنا الخطر، شعرنا بالاسف لهروب الحراس الالمان الى مخابيء في الجبال حتى من قبل اقترابنا، بل ومن دون ان يجربوا خوض معركة ضدنا، الامر الذي لم يترك امامنا الا ان نحرق وندمر كل ماكان لدى الالمان في اللسان البحري. وانني في تاريخ سابق كنت ارغب ان يكون كل ماتركناه من خلفنا، اكثر خطرا ومجازفة مما حصل في حقيقة الامر.
- سألت ريندين - ولكنه ألم يقع لكم ابدا مثل هذا من قبل ؟
- قال ريندين - وقع ذلك مرة واحدة ولكن اسوأ من هذا. فبعد أن نزلنا ليس بنفس المكان المعين، كنسنا القراد، كما يقال، مدة ساعتين، في مستودعات خالية، ثم عدنا الى البيت. ولكن هذا حصل منذ زمان، اما في الوقت الراهن فأنه حفلة وداع، وجاءت خائبة بهذه الصورة !.
- لماذا تحسبها خائبة ؟ - قال ذلك اينوزيمتسيف سائلا. انه مازال واقفا الى جانبنا منحنيا على الحاجز،

وهو يتطلع في الماء، ولكنه كان صامتا بدرجة يكاد يبدو وكأنه سيصمت حتى بوليارني نفسها.

- قال ريندين - لم اقاتل كما يجب في العملية الاخيرة.

- قال اينوزيمتسيف - ان الواجب قد تم تنفيذه تماما وبدون خسائر. وانني شخصيا على عكسك، اعتبرها عملية ناجحة.

- انها بالنسبة لك ناجحة، وبالنسبة لي خائبة - قال ريندين ذلك وتنهد. وانه يجب ان يكون قد تذكر ماتكلم حوله معي عندما خرجنا من العملية، اذ سألني: - هل ستبقى مدة طويلة اخرى عندنا في الاسطول ؟.

وقلت له ان هذا متعلق برئاسة التحرير.

- ستخرج معنا في المستقبل، واننا نكفل لك توصية قبول الانتماء الى الحزب - قال ريندين ذلك وكأنما هو ناس انه سيغادر بعد غد.

انني لم استطع ان امسك نفسي، فذكرته بذلك. ولكن هذا التذكير لم يربكه.

- انني سأرحل، وان اينوزيمتسيف سيكتب لك التوصية - قال ريندين ذلك بكرم، ودون تضييع وقت في التفكير كما هو شأنه دائما. واضاف متوجها الى اينوزيمتسيف - هل ستكتب انت التوصية للصحفي ؟

- قال اينوزيمتسيف - اذا كنا قد خدمنا في هذه المنطقة، المدة المقررة، فأني اكتب له التوصية.

- سأل رينديـن - وكـم هـي المـدة المقـررة ؟.
- رد عليه اينوزيمتسيف - كيف تسأل، ألست تعرف ؟
- انني لا اعلم والله. لقد كنت اعرف ونسيت. هل هي شهر في قطعة واحدة ام غير ذلك ؟ وكذلك فأنني الان في المشاة، ولذا فانا الان لا اخدم معك...

وبعد ذلك ابتعد عنا، وهو يصفر على ظهر الزورق.

- سألت اينوزيمتسيف - وانت ألم تقدم طلبا للانتقال الى ضواحي موسكو" ؟.
- قال - كلا، فأنا أحارب حيث يأمرون.
- سألته - الا تفكر بالرجوع الى اسطول الغواصات ؟
- لست انا الذي يفكر بذلك - تكلم بذلك النوع من الضجر الذي فهمت من خلاله : بأنه يفكّر طول الوقت بهذا الموضوع، وان سؤالي حول ذلك كان عبثا.
- قلت له - هاانت ترى كم كان بلا فائدة، حرصك علي، وعدم رغبتك بالسماح لي بالنزول من متن الزورق. لقد مر كل شيء حتى بدون اطلاق رصاصة واحدة...
- قال اينوزيمتسيف - انا لم احرص عليك. انه مجرد خوف ان تتعب فنضطر اما الى ان نتأخر من اجلك او ان نترك معك نفرا من الرجال. انني ماكنت اعرف بأنك تجيد السير في الجبال. اما بصدد مايتعلق بموضوع عدم اطلاق النار، فأنني لماذا يجب علي أن افكر بشأنك بالذات ؟ ولماذا توجد عندك مثل هذه الفكرة عن نفسك مادام عليك البزة العسكرية مثلما هي علي ؟

انني لم اجبه بشيء. اجل وبماذا كنت ارد على ذلك ؟ وفكرت بشأنه وقلت بأنه انسان مستقيم، وانه عند التقدم للانتماء للحزب، فيجب الحصول على توصية لهذا الغرض من اولئك الذين هم مثله، وليس من ذلك الذي هو مستعد لأن يعطيها الى اي كان...

سكت انا وسكت هو ايضا .ومن بعد ذلك،ولعله حسب انه قد وضعني في مكاني المناسب، فقال لي بلهجة ودية:

- مع اطلاق نار وبدون اطلاق نار، فأن هذا لا يتكرر مرة وراء اخرى. ان ريندين يرى انه اذا خرجت انت معه مرة واحدة في عملية، فأنه يكاد يشعر وكأنه مذنب امامك اذا لم تنشب معركة. ولكن الناس فرحون ان المهمة قد تم تنفيذها وحتى بدون اطلاق النار. إنهم يريدون ان يعيشوا، فأن لديهم مايكفيهم في حياتهم كلها.

ونزلت في بوليارني من الزورق البحري الحربي قبل الجميع، دون أن انتظر اينوزيمتسيف وريندين، فان لديهما هناك على الزورق قضاياهم الاخرى.

ولقد توادعت انا مع ريندين.

- قال - هل يمكن ان التقي بك في الجبهة الغربية ؟ وعند الوداع قبلنا بعضنا ثلاث مرات وبمبادرة منه.

واتفقت مع اينوزيمتسيف ان ازوره في الاستطلاع البحري، عندما سأكتب التحقيق الصحفي لأجل ان يلقي نظرة عليه.

- سألني قائلا - متى ستأتي ؟

قلت له - ان ذلك سيكون خلال ثلاثة أو اربعة أيام.

ولاذ بالصمت، وحسب في ذهنه شيئا خاصا به وقال:

- اذا أتيت بعد أربعة أيام فستجدني.

انـني لم اتـوادع معـه. وانـه لم تكـن عنـده في الادارة مثل هذه العادة. فقد قال كلمة "ستجدني" ورفع يده الى القبعة تحية لي، ثم صاح، وهو يستدير عني نحو تشيخونين:

- تشيخونين ! صف الرجال.

وعندما كنت مازال اسير على رصيف الميناء، تذكرت حديثي هناك على الزورق مع تشيخونين حول زوجة اينوزيمتسيف.

أنها جاءت تمشي على رصيف الميناء متماهلة باتجاهي، وهي بجزمة ومعطف فرو قصير، اما وجهها فكان جميلا لا اباليا وحزينا. انه وجه متجمد بصورة ما، ولكنه لو ميعوه فلا يكون معروفا، ماسينجم عنه، اذ من الممكن ان يظهر انه كله من دموع.

لقد مشت المرأة على رصيف الميناء باتجاهي متماهلة متثاقلة، وكأنما تخشى من الوصول قبل الاوان كثيرا نحو تلك النهاية الاخرى من الرصيف، حيث رسا زورقنا.

وبعد أن شرعت انا بالصعود الى فوق بواسطة السلم اللولبي العريض الذي يعرفه جيدا كل من حل في بوليارني، فأني لم اصطبر والتفت ناظرا اليها.

وعلى رصيف الميناء، من تحت، سار عناصر الاستطلاع

مصطفين في نسق، اما على القطعة الخالية من رصيف الميناء التي تركوها خلفهم فقد وقفت المرأة لوحدها تماما. لقد وقفت وحيدة بحيث انني لا ادري لماذا لم استطع ان ارفع نظري عنها مدة دقيقة كاملة. لقد وقفت انا وقوف الاحمق، انظر اليها وافكر بكل سوء الحظ في حياتي الخاصة. ومن ثم رأيت اينوزيمتسيف وهو يصعد الى رصيف الميناء. وتحركت المرأة تخطو نحوه، ثم اخرجت يديها من جيوبها منتظرة، كما بدا لي ذلك. ولكنه لم يأخذها بحضنه، بل توقف ويداه ممدودتان الى جانبيه، وكأنه واقف امام الاصطفاف، ثم قال شيئا ما ومشى من امامها على الرصيف. وظلت هي منتظرة بضع ثوان، ومن دون ان تلتفت في وقفتها ووجهها نحو البحر. ومن بعد ذلك استدارت ووضعت يديها في جيوب معطف الفرو القصير، ولحقت به ومشت معه الى جانبه. لقد سارا هناك في الاسفل نحوي مباشرة، وقد رأيت بصورة جيدة على منظر البحر، كيف انهما سارا دون ان يمس كتف احدهما الاخر...

في مركز الاتصالات كانت تنتظرني برقية من رئيس التحرير، يطلب فيها ان اكتب قبل كل شيء، عن طياري المقاتلات المطاردة الذين حموا مورمانسك من الغارات الجوية. ومن الواضح ان هذا الموضوع يستدعيه فورا الموقف في ضواحي موسكو. وقد أدى ذلك الى ان اضطر الى كتابة تقريري عن عناصر الاستطلاع البحري، ليس في بوليارني، بل في مورمانسك، وفي وقت واحد مع رسالة

صحفية عن الطيارين.

ان طياري المقاتلات الذين يحرسون مورمانسك كانوا شبانا رائعين، غير انه من الصعب ان تحشر نفسك في الطائرة من وراء ظهورهم لتراهم كيف يقاتلون، وكذلك فأن الكتابة صعبة دائما عن لسان الاخرين. انني كتبت عنهم خلال يوم واحد، كلما استطعت ان اكتبه، وبعثت به برقيا، ومن بعد ذلك فقط، عدت الى بوليارني، وذهبت الى الاستطلاع البحري لأكمل كتابة التحقيق الصحفي.

فتحت باب الغرفة التي كنت قد رأيت اينوزيمتسيف بها مرتين. وشعرت بالدهشة عندما لم اشاهد فيها اينوزيمتسيف بل رأيت ريندين. وهو ماكان يجلس وراء المنضدة بل فوقها وفي الزاوية جثم رجل ذو افخاذ سمينة يتصفح بكفه كلها، وهو يدخن سيكارة لف يدوية، صفحة بعد اخرى، وبخشخشة، واحدة من المجلات المصورة. وهو كما يبدو، امريكي جاء مع قافلة السفن التي وصلت قبل قليل. وكان دخان التبغ الرديء يتلبد فوقه حتى السقف.

- خذ وانظر اية قضايا عندنا. قال ريندين ذلك عندما رآني ونزل من فوق المنضدة. وكرر كلامه مرة اخرى - أنظر اية قضايا - ودون ان يصافحني، بل جذبني قليلا، وترك يدي وهو يتنشق من انفه بدهاء لم اعهده به. وبعد ذلك اجتاز الغرفة، وطوى من على المنضدة مجلة ودسها في يدي وقال - انظر ! ثم انه من اين جاء هؤلاء الشياطين ليأخذوا مثل هذا العدد من النساء الجميلات ؟ انهن على

الخصوص يوافقن على التقاط صور لهن بهذه الحالة.. ثم رمى المجلة واخذ يذرع الغرفة ذهابا وايابا مرة اخرى.
من الظاهر انه لم يكن مسيطرا على نفسه، فأن كل ماكان قد حلم به قد تبدد فجأة كما هو واضح. فالقيادة قد ألغت موافقتها على نقله الى مشاة البحرية في ضواحي موسكو، ولذلك فهو الان في حالة المسعور. وقد اشفقت عليه ولم أعد اسأله، بل دعه هو يتكلم اذا كان يريد الكلام.
- سألته - اين اينوزيمتسيف ؟
والتفت نحوي التفاتة حادة بكل جسمه الضخم بحيث ان الارض قد صرت تحته.
- هل انك لا تعلم شيئا عن احوالنا ؟
ولما رأى من تعابير وجهي أنني لا اعرف شيئا عنهم قال:
- لقد اطلقوا النار على اينوزيمتسيف. وهانحن قد جئنا لتونا عائدين من التأبين. وانني لم ازل دون نوم وغير حليق...
وكما لو أنه اراد ان يقدم الدليل بأنه مايزال غير حليق، مسح بيده المشعرة السمينة احد خديه ثم الخد الآخر وقال:
- انظر...
وبعد ذلك جلس مرة اخرى فوق المنضدة وحدثني كيف وقع ذلك.

وقد ظهر انهم قد اخروه شخصيا مدة ثلاثة ايام لكي يدرب البديل على العمل. اما اينوزيمتسيف، فقد ذهب في خلال هذا الوقت، على متن زورق الى النرويج في منطقة معينة، كي ينقل على متنه اثنين من افرادنا، صار لهما شهر موجودين هناك. ولكنهما لم يخرجا في الوقت المحدد. وكان يجب ، بحسب القواعد، ان يقلع عائدا، ولكنه انتظر وقتا آخر. وقد وقع في هذا الوقت على سفوح الجبال بمسافة كيلومترين عن الجبهة تبادل لاطلاق النار. فقام اينوزيمتسيف بالمجازفة عندما سمع بذلك: اذ اخذ معه قوة ونزل عميقا في الساحل لمواجهة اطلاق النار. ولقد أنقذوا الرجلين الاستطلاعيين المنسحبين نحو الشاطيء، وصدوا الحراس الالمان الذين كانوا يطاردونهما، ولكن اينوزيمتسيف كان قد قتل في هذه الرماية المتبادلة.

- في هذا المكان اصابته الطلقة - قال ريندين ذلك وغرز اصبعه في قصبة الانف بين الحاجبين. واضاف - طبيعي ان الجثة لم يتركوها، بل نقلوها. ولا تنسَ فأن تشيخونين كان معه... وكذلك فأن العريف البحري اندرييف قد قتل ايضا. وجلبوا جثمانه كذلك. والتفت نحوي فجأة وقال - نعم انت تعرفه.

ونظرت اليه في محاولة لأتذكر هذا الاسم.

- قال مكررا - انت تعرفه. فأننا عندما سرنا معك، تذكر انت كيف هويت على السفح بشدة، فنزل عليك بحار من الاسطول الاحمر، ومشى الى جانبك وساعدك على الصعود مرة

ثانية. الا تذكر ذلك ؟

- قلت - تذكرت ذلك.

- ان هذا هو اندريف. وهو الذي قتل. وان اينوزيمتسيف قد أمره منذ البداية بأن يهتم بك. وقد اهتم بك فعلا. واضاف ريندين بعد أن سكت قليلا، ونزل مرة اخرى من فوق المنضدة، وتوجه نحوي- شربنا كثيرا وتناولنا المرحوم باللوم عندما سكرنا.

- وسألته - ولأي سبب ؟

- لسبب موته.... فالتعليمات صارمة، لأنها تقول، مادام الرجال لم يخرجوا في الوقت المعين، فعليك ان تبحر عائدا ! ولكنه خرق القاعدة وغامر، فقتل !.

قلت له، بعد ان سمعت منه هذا الكلام، ان اينوزيمتسيف ماكان يبدو لي في اول تعارفي معه، انه ذلك الانسان المستعد للمجازفة بخرق التعليمات. ان ريندين، نعم اما اينوزيمتسيف فلا. ومن ثم فيما بعد...

ولكن ريندين قاطعني، حائلا دون مواصلتي الكلام:

- ان هذا هراء. فأنه، اذا كنت تريد ان تعرف، كان اكثر مني حبا للمجازفة. ولكن باختلاف واحد، وهو انني احب الثرثرة حول ذلك، اما هو فلا يحب ذلك ابدا. وبعدما حدجني بعينين مجهدتين ومخمورتين ايضا اضاف يقول: - اكتب كل هذا، اكتب عنا... اكتب كل مايتبادر الى العقل اولا. اما كيف هو الذي منا، فذاك ماسوف لن تعرفه..:

وواصل المشي في الغرفة من بعد ذلك، ومن ثم، وهو

ينظر ليس نحوي، بل مابين قدميه، قال:

- يبدو ان زوجته كانت متوقعة حصول ذلك... فأنها ماكانت تريد أن تبتعد عنه بأي حال من الاحوال. انها تحبه حبا عارما. لقد حرر لها ثلاثة بيانات، بل وحتى قاطعها بالكلام. ورغم ذلك ظلت تنتظر... وفي الجلسة التأبينية لم تذرف ولو دمعة واحدة. انني افهم ذلك. انه الحزن. انني لا اثق بدموع النساء.

- قلت له - انها ستذهب الان الى الاطفال بالتأكيد.

- لا أدري ولم اسأل - قال ريندين ذلك وهو ينظر كالسابق مابين قدميه.

- سألته - وانت متى ستسافر ؟

- أنني لن اسافر. فلقد سحبت طلبي. اما مكاني فقد صار مشغولا، اذ عينوا بديلا عني - واشار برأسه الى المنضدة - ولماذا انت اتيت ؟

وشرحت له بأنني كنت قد أتفقت مع اينوزيمتسيف لاطلعه على التحقيق الذي كتبته.

- اعطني اياه - قال لي ريندين وهو يمد ذراعه. ولكنني عندما اخرجت التحقيق من حقيبة الميدان ومددت يدي به اليه هز هو رأسه وقال:

- انني لا يعتمد علي في هذا المجال، اذا كان مكتوبا بفصاحة لأنه سيشرد ذهني حتما، فيفوتني اي واحد من الاسرار العسكرية دون ان الاحظه. وكانت قد جاءتني عقوبة من "الاسطول الاحمر" من جراء مقالة واحدة. هيا

بنا مباشرة الى سيدورين، فأنه عبر نظارته لايفوت عليه أي شيء...

ودس في جيب سرواله البحري الاسود المحشور بالجزمة كيس التبغ، وبعد ذلك ذهبنا الى الطابق الثاني نحو النقيب البحري الاول سيدورين.

* * *

الزوجة وصلت

لم يكن لدى لابوتين، خلال حياته الصحفية كلها، مثل هذه الايام المسعورة بالعمل، كما في شهر كانون الاول ـ ديسمبر هذا ، في ضواحي موسكو.

وعندما ظهرت قامة لابوتين غير المتماسكة، بمعطف طويل من الفرو غطاه مثل النساء، في دهليز رئاسة التحرير مساء، فأن الزملاء العاملين قد هرعوا من غرفهم لاستقباله، والتعبير عن الفرح لرجوعه سالما مرة اخرى، واقترحوا عليه ان يسخنوا له الشاي او يقاسموه حصصهم من الفودكا، ووجهوا له سيلا سريعا من الاسئلة: "قل لنا، كيف الحال هناك في الجبهة ؟ هل تقدموا بعيدا وراء ماجايسك ؟ هل اصاب كالينين تدمير كبير ؟ هل رأيت كثيرا من الدبابات والسيارات التي تركها الالمان على الطرق ؟". وبعد ذلك دخل في مكتب رئيس التحرير وايقظه ان كان ذلك نائما ليخبره عن الرحلة. اما بعد خمس عشرة دقيقة، فقد اخذ يخطو في مكتب الالات الكاتبة تاركا على ارضيته بقعا مائية من الجزمة اللبادية التي اخذت تذوب. انه لم يجرأ على الاملاء وهو واقف خشية ان يغلبه النوم.

وبعد أن انتظر ثلاثة ايام قرب فولوكولومسك الى ان تم تحرير المدينة، وكتب تحقيقا آخر، طار لابوتين الى

القاطع الجنوبي من الجبهة نحو اوديفا. وفي اثناء طيرانه الى هناك، كانت هذه المدينة قد تم استرجاعها، وكانت تمر بالمدينة مؤخرة قوات فرقة الفرسان التي احتلتها.

لقد تحطمت في الطائرة عند هبوطها عكازة الهبوط، ولابد من استبدالها باخرى. وقد اضطر الى المبيت في اودويفا شاء ذلك أم ابى.

كانت المدينة قد تعرضت لدمار شديد، بسبب الغارات الجوية المتوالية من جانبنا ومن الالمان. وكذلك فأن الالمان احرقوا ثلث المدينة عند انسحابهم. وفي جميع البيوت وحتى السالمة منها، كان الزجاج كله محطما فيها. وسار الناس متماهلين في الشوارع المغمورة بالثلوج، ويتوقفون عند البيوت التي كانت سواء لهم او لغيرهم، ويتطلعون الى داخلها من خلال النوافذ الزجاجية المهشمة، ثم يهزون اكتافهم بألم، وان قسما منهم تمسح من عيونهم الدموع. ولاحت هنا وهناك لافتات، تبدو غير مألوفة، لدوائر وحلاقين من القطاع الخاص، وهي بكتابات باللغتين الروسية والالمانية. واخيرا وصل لابوتين الى مبنى اللجنة التنفيذية المحلية، التي صار لرئيسها نصف يوم منذ ان رجع الى هنا مع القطعات العسكرية الاولى التي دخلت المدينة.

وكان هذا انبانا كبير السن، يرتدي ملابس خفيفة غير شتائية، وغارقا بالقضايا، ومسيطرا وذا صوت رنان،

وفي نفس الوقت، كان مكروبا من حالة الكارثة التي اصابت مدينته. وكانت الغرفة شبه مظلمة. وتم وضع الواح الفانيرا بدلا من الزجاج المهشم. واحدى النساء اكملت غسل الارضية، واخرى اشعلت الموقد. وماعدا المنضدة والكرسي في الغرفة، لا يوجد هناك اي شيء اخر. ولكن في الغرفة المجاورة لا يوجد حتى مثل هذا، عدا ان بعض الزوار قد تكدسوا فيها بين واقف وجالس على دكات النوافذ.

- قال رئيس اللجنة التنفيذية المحلية، وهو يعيد الى لابوتين هويته - من المؤسف انك لم تصل قبل هذا الحين. فقد كان هنا اناس طيبون، وهم السكرتير الثالث للجنة المحلية مع اثنين من الرفاق اللذين ابقيناهما هنا.

- واين هم الان ؟

- لقد ذهبوا الى مقر قيادة الفيلق، لتقديم معلومات عن الالمان.

- مع مزيد الاسف - هكذا عبر لابوتين عن تذمره، واضاف بأن من المحتمل ان يجد، على كل حال، من يتحدث اليه، ففي الغرفة المجاورة، يوجد عدد من الناس ينتظرون المقابلة.

- ناس، نعم ، ولكنهم ليسوا اولئك الناس ! - رد رئيس اللجنة التنفيذية المحلية، وهو يضرب المنضدة منزعجا بيده، بهذه العبارة الغريبة، التي لم يصبح

مغزاها مفهوما، الا بعدما دخل الغرفة اول واحد من هؤلاء الذين كانوا ينتظرون المقابلة. انه كان مهندس البلدية في المدينة، الذي اتضح لي من خلال الحديث اللاحق، انه قام في اثناء وجود الالمان، باصلاح شبكة اسالة الماء التي تعرضت للتلف في المدينة. وانه بعكس جميع الاخرين المنتظرين، قد جاء بنفسه، وليس باستدعاء، وهو محافظ على الهدوء، ادراكا منه كما يبدو، انه غير مذنب عن خطأ خاص. واستقبله رئيس اللجنة التنفيذية المحلية بصورة مستعجلة. واستمع اليه، تاركا اياه واقفا دون دعوته للجلوس وقال بنفور: " حسنا، اذهب وسنتفاهم معك فيما بعد ". واطلق سراحه.

- وجه لابوتين سؤالا بعدما خرج المهندس - ولكن ماذا تريد ان تفهم من بعد ؟.

- كيف تسأل، حول ماذا - رفع رئيس اللجنة التنفيذية المحلية عينه بدهشة نحو لابوتين واضاف - انه عمل لحساب الالمان واعترف هو بذلك شخصيا !.

- ولكن شبكة اسالة الماء هذه، ليس وحدهم الذين هم بحاجة اليها بالتأكيد، بل والمدينة كذلك ؟ - اعترض لابوتين عليه بهذا القول.

ونظر اليه رئيس اللجنة التنفيذية المحلية نظرة غاضبة، ولكنها خالية من القناعة. فقد كان مكتوبا على

وجهه "مالك انت لاتتركني ؟ هل تظن بانني ملك أو اله، او انك تظن بأنني اعرف تمام المعرفة دائما، من هو البريء هنا ومن هو المذنب ؟. اما كان لك ان تكون في مكاني لانظر اليك كيف ستتصرف".

- واضاف يقول بصوت مسموع - لقد سبق وقلت بأننا سنفهم ايضا، ماذا ولأي سبب. وقد قال ذلك بصورة غير محدودة، وبصوت عال، ثم نادى على الشخص المنتظر التالي، وهو مدير مخبز المدينة. ان هذا كان يصنع الخبز في اثناء وجود الالمان، وكان انطباع لابوتين الاول عنه انه وغد.

وفي اثره مر عبر غرفة رئيس اللجنة التنفيذية المحلية ثلاثة اخرون من الناس، كانوا قد بقوا في المدينة باماكن عملهم لمدة الشهر الكامل الذي احتل الالمان خلاله مدينة اودويفا، وهم الكهربائي في محطة توليد الطاقة الكهربائية، وطبيب في مستشفى المدينة، وكذلك واحدة من النساء، تعمل في مكتب للبطاقات، وتتحدث بنواح وبكاء، ان لديها طفلا رضيعا وهي أم لآخر معوق.

- قالت المرأة وهي تواصل البكاء - ماذا سأعمل الان؟ ليتهم يعطونني الان بطاقة، والا فما العمل ؟

- اذهبي وساعدى النساء في غسل الغرف الاخرى ، والا فأن اللجنة التنفيذية المحلية ستظل كلها غارقة بفضلات الحيوانات، كما لو ان ماماي* قد جاء الى هنا. وبعد ان

سكت رئيس اللجنة التنفيذية المحلية، وفكر قليلا، قال مضيفا نفس تلك العبارة التي ينتهي بها كلامه: سنفهم فيما بعد !.

- قال لابوتين، بعد أن عاد في وقت متأخر من الليل بعد جولة قام بها في المدينة، الى اللجنة التنفيذية المحلية، وتهيأ للنوم الى جانب رئيس اللجنة في مكتبه على مرتبتين متروكتين ـ اسمعني، انك دائم القول "سنفهم فيما بعد، سنفهم فيما بعد"، ولكننا كيف سنفهم فيما بعد ؟

- وماذا ستفهم ؟ ـ سأل رئيس اللجنة التنفيذية المحلية بصوت متعب في الظلام.

- قال لابوتين ـ خذ ، ولو هذه، مدينة اودويفا، فأن قسما من سكانها، كما ترى، قد بقي هنا...

- قاطعه رئيس اللجنة التنفيذية المحلية قائلا ـ اعتقد ان نصف عددهم قد بقوا هنا. ثم كرر تلقائيا العبارة التي صارت عادة عنده خلال يوم واحد ـ سنفهم فيما بعد العدد الدقيق.

-قلت له- لنفترض، النصف،وهذا يعني عدة الاف من الناس. وكان الالمان قد بقوا مدة شهر. انك تدرك ان

---

* ماماي، هو امير تاتاري غزا دولة الروس في سنة ١٣٨٠ وانتصر على القائد الروسي دميتر دونسكوي بمعركة كوليكوفسك.

هذه ليست قرية، حيث يوجد، كما تعرف، خزين مخفي، او مطمور من المواد الغذائية. فأن هذه مدينة على كل حال. والخبز هنا يخبزونه في الافران ويبيعونه في محلات بيع الخبز. والمواد الغذائية يوزعونها بموجب بطاقات التموين، والماء يأخذونه من الحنفيات، والنور يتسلمونه من محطة توليد الكهرباء... ولهذا فلا يجوز ان تتصوروا بأن الالمان اذا ما جاؤا اليوم، فأن الناس غدا سوف لايكونون بحاجة لا للماء ولا للخبز ولا للنور ولا لأي شيء.

- قال رئيس اللجنة التنفيذية المحلية مقاطعا لابوتين - ان مايتعلق بالنور، فهذا لغو كلام! لان محطة توليد الطاقة الكهربائية هي هدف حربي. وكان بامكانهم الجلوس على ضوء القمر! ولكن الكهربائي في المحطة هو مجرد جبان!. لقد توفرت لديه فرصة نسفها، ولكنه جبن من التنفيذ.

- وهل كنت انت ستنسفها ؟

- بلا تردد.

قال رئيس اللجنة التنفيذية ذلك ببساطة حملت لابوتين على تصديقه.

- قال لابوتين - ولكن ، خذ هذه المرأة من مكتب البطاقات ؟ فأنها، ولو كانت حصتها من الخبز تافهة، فقد بقيت بالرغم من ذلك في اثناء وجود الالمان لأنها

تجد قسطا من الخبز هنا ؟...

- اعترض رئيس اللجنة - انها، كانت !.

- وعن ذاك الذي بشبكة اسالة الماء.. فمثلا أقول، انني لو وقعت هنا في حالة هذا المهندس، فأنا سوف لا اعرف ببساطة مايجب ان افعله شخصيا. وانني اقول لك هذا بصدق !.

-ولكنك هل تظن بأني اعرف كل شيء؟- وتنهد رئيس اللجنة التنفيذية وقال - انني انا ايضا لست لوحا من الخشب. لقد كنت قد لاحظتك كيف تنظر الي، عندما قلت بأننا - سنفهم فيما بعد... ولكن ماذا بالامكان ان تفعل غير هذا ؟ فأن عندي توجيها باعتقال كل اعوان المحتلين الفاشست بدون استثناء. وها انني اقوم بالتنفيذ، فكن مطمئنا. فأنا املك ضمير. وانني سوف لن ازدرد طعام ولن انام، بل أنفذ الأوامر !

- قال لابوتين - انني افهم هذا، ولكن من هو الذي تعتبره متعاونا ؟ ان هذا هو السؤال الذي يجب ان نفهمه!.

- ها انك ترى، كيف استوعبت انت القضية. فحتى انت نفسك انتقلت فورا الى الكلام بلغتي، وهي: يجب ان نفهم! ولكننا متى سنفهم، هل في الوقت الحالي ام فيما بعد ؟

واحس لابوتين كيف ان رئيس اللجنة التنفيذية المحلية قد ضحك بسره في الظلام.

- بعد فترة صمت قال لابوتين - لا ادري. انني اعرف

امرا واحدا فقط: وهو اني ارفض ان يختلط الفزع بالفرح !. لقد كنت في خلال هذه الايام، في كثير من المناطق، ورأيت لدى الناس الذين يستقبلون القوات العسكرية، الفرح في عيونهم دائما، ولكنه حدث ان خرج منك عدة اشخاص والفزع في عيونهم...

- قال رئيس اللجنة بصرامة - ويجب ان يكون لدى البعض فزع في العيون.

- لدى البعض - نعم ! - اجاب لابوتين بنفس الصرامة وهو يشدد على كلمة " لدى البعض ".

- قال رئيس اللجنة التنفيذية بحزن بعد صمت طويل - هكذا اكتب في جريدتك، هذا الذي قلته لي.

- وسأكتب حقا - اجاب لابوتين وهو يقبل التحدي.

واستلقيا كلاهما عدة دقائق صامتين وتاركين النقاش جانبا، ومع ذلك فلم يستطيعا ان يناما. وبعد ذلك غمغم رئيس اللجنة وتنهد وقال:

- انظر، فأنك مارست الحاحا بالكلام معي حول هذه المرأة... اما الان فانا اسألك: هل تحصل، حسب رأيك ام لا تحصل، تناقضات، لا حل لها ؟.

- حسب رأيي، انها تحصل.

- فكيف انت تحلها ؟.

- ماذا تعني، بكيف ؟

- هي هكذا، قضية لا حل لها. ولكنه يجب عليك ان تحلها. فكيف ستفعل ذلك ؟

ان لابوتين لا يعرف كيف سيحلها انذاك، وسكت دون ان يعطي جوابا عن هذا السؤال، واستمر مستلقيا وبعيون مفتوحة في الظلام.

وبعدما عاد لابوتين في اليوم التالي من اودويفا، وقبل ان يواجه رئيس التحرير، خشية ان يقطع عليه سلسلة افكاره، انفرد بنفسه فأنجز حتى المساء كتابة تحقيق صحفي بعنوان "في المدينة المحررة". وقد اهتم فيه ان يتناول افكاره التي خطرت له مساء امس، ولو بشكل خفيف ، عن الفرح والفزع، وان الفزع هو بلا سبب، لأن مما لاشك فيه بعد أعادة الحياة الطبيعية في كل مدينة محررة، سنستطيع نحن بسرعة وبصورة صحيحة أن نعين الفروق بين المتعاونين الفعليين مع الفاشست، وبين الناس الذين كانوا مضطرين للبقاء في اعمالهم، لما هو به فائدة للسكان. وقد قام لابوتين عدة مرات، وهو منزعج من نفسه، بتعديل وتخفيف كل مابدا له من تعبير حاد، بصورة من الصور، وذلك تحاشيا لامكانية ان تهدد اي من مثل هذه العبارات، التحقيق الصحفي كله بالالغاء.

- قال رئيس التحرير، عندما دخل عليه لابوتين في مكتبه، وفي يده التحقيق الصحفي - انني صرت على علم برجوعك، ولكنني طلبت عدم صرف انتباهك عن العمل. وان لدينا خبرا هاما بالنسبة لك. ولكن هيا نبدأ بالقراءة اولا .

اهمل لابوتين العبارة بصدد الخبر وراء اذنه - لقد

ظن انها سفرة اخرى كما يبدو، يعتبرها رئيس التحرير، مهمة بصورة خاصة - واخذ يتابع، بعد أن وقف من وراء كتف رئيس التحرير، كيف يقرأ التحقيق. ووضع رئيس التحرير في البداية "طيرا" واحدا على الكتابة، ومن ثم طيرا ثانيا فثالثا سمينا مقابل كلمة "الفزع". انه وضع تلك الاشارة والتفت الى لابوتين وكأنه راغب في سؤاله: مامعنى هذا ؟ ولكنه عدل عن السؤال، ومضى بسرعة ومن دون رسم اي "طيور" يقرأ التحقيق الصحفي حتى نهايته.

- نظرية جيدة - قال ذلك وهو يضع التحقيق الصحفي على المنضدة واخذ يمشي بخطوات سريعة في الغرفة - واضاف - هدية كبيرة للالمان كنت ستقدمها لو تنشر ابداعك هذا...

- سأل لابوتين - لماذا تحسب ذلك هدية ؟

- لماذا ؟ - اعاد رئيس التحرير السؤال، بعد ان توقف امام لابوتين، وعلق يديه في النطاق وقال - اذن هيا نستدع ايا من الاخرين ليقرأوا، فلربما من الممكن، ان عقلي قد طار كله مرة واحدة... ومشى نحو المنضدة ليدق الجرس، ولكنه استثنى عن ذلك في آخر لحظة وقال - كلا، فأنني الان اشفق عليك - قال ذلك وهو يطوي التحقيق الصحفي طية رباعية وناوله الى لابوتين وقال - كذلك اطرد ذلك من رأسك، واطرده بشكل عام...

- سأل لابوتين بعناد ودون ان يتسلم التحقيق الصحفي - ولماذا على العموم.

- قال رئيس التحرير - وذلك لأن الالمان سيأخذون تحقيقك الصحفي، ويعيدون طبعه في جميع صحف الاحتلال العفنة ليقولوا به: ايها المواطنون الاعزاء في المناطق المحتلة، لاتخافوا، ونرجوا التفضل بالخدمة عندنا. وحتى اذا وقعتم فيما بعد بيد السلطة السوفيتية، فأنكم على الرغم من ذلك سوف لن تتعرضوا للمحاسبة...

- ولكنهم لايعيدون طبعه حسب ظني. وماهي الفائدة التي يتوخونها من وراء اعادة الطبع ؟ وانني ارى العكس، فأنهم يرون فائدة اكثر بالايحاء للناس، بأننا حالما سنعود، فأن جميع الذين بقوا في وقت الالمان بأي عمل او خدمة، سواء كان ذلك عن رغبة او اضطرار، فأنهم كلهم سيعتقلون بلا استثناء...

- قال رئيس التحرير وهو لايجد مايعترض به - ان هذا من حيث وجهة نظرك. ولكن قل لي من فضلك، ان قسما مذنبون والاخر، غير مذنبين، وقسم ثالث يكادون يستحقون الشكر العلني لانهم خدموا لدى الالمان !...، أرجوك ان تفكر فقط، الى ماذا تدعو انت جوهريا في مقالتك...

- ادعو الى ان لا نأخذ الجميع بمقياس واحد، وهذا كل مافي الامر.

- ان هذا المقياس لا يمكن ان يكون الا واحدا، وهو: هل خدم مع الالمان ام لم يخدم !. ومادام هذا الوقت وقت حرب، فيجب ان تضع جانبا كل عبارات "من هذه الناحية او من الناحية الاخرى" حتى النصر على الاقل.

- قال لابوتين بعناد ـ لنفترض ذلك، ولكن كيف يجب مع ذلك، ان نعامل هذا المهندس في البلدية الذي كتبت انا عنه ؟

- قال رئيس التحرير بتلفظ متقطع الحروف ـ لا اعرف. كان يجب عليه ان لا يبقى، او انه كان ينبغي منه ان لايذهب الى العمل... وبصورة عامة، كان عليه ان يفكر كيف يجب ان يتصرف. ومادام قد بقي فدعه الان يحل هو الامور المعقدة...

وفجأة نسي لابوتين تماما كيف انه اجتهد في نحت تحقيقه الصحفي، لاجل ان يسير كل شيء فيه في مجراه الطبيعي، ونسي كيف انه قرر مسبقا عدم الاشتباك في محاولات عقيمة، فهاج من كلمة رئيس التحرير عندما قال "دعه الان يحل هو الامور المعقدة".

- اسمع ياماتفيتي "اسم التصغير لرئيس التحرير-المترجم "، قال لابوتين متوجها الى رئيس التحرير بخلاف العادة، مثلما كان يتوجه اليه كجندي الى جندي، عندما لم يعمل عنده، وكانا متصادقين على قدم المساواة.

-اسمع، انك لا تخجل! اذ ماهو معنى كلامك "دعه يحل هو الامور المعقدة "؟. وهل أصبح هؤلاء الناس مذنبين حقا في نهاية المطاف، لأننا قد تراجعنا حتى موسكو تقريبا؟. اننا تقهقرنا، اما هم فعليهم ان يحلوا الامور المعقدة؟

- قاطعه رئيس التحرير وهو حانق من ادراكه عدم

صحة كلامه، وقال - كان يجب عليهم الانسحاب مع الجيش.
- ماتفيي.
- وماذا تريد من ماتفيي ؟...
- اما لديك خمسة مراسلين صحفيين قد تخلفوا في الحصار ولم يتمكنوا من الخروج، ولكنك تريد من هذه المرأة المرضعة والأم لمعوق آخر، ان تغادر مع القوات العسكرية ؟! انت تريد من الجميع على طول المسافة من الحدود حتى موسكو ان يلحقوا بالذهاب الى الشرق، في الوقت الذي كان فيه الالمان يقطعون بالدبابات صيفا اربعين كيلومترا في اليوم ؟... لمن انت تقول ذلك ؟ وانك بالذات وانا كذلك، قد رأينا ذلك بأم عيوننا !. والان "دعهم يحلوا الامور المعقدة "، نعم ؟ ولماذا انت كالاحمق، تتلوى امامي. ارجو المعذرة !
- استطيع ان اعذرك عن كلمة "احمق" غير ان مايتعلق بمزاجك، فأنه لو كان احد غيري في مكاني، لما سامحك على ذلك - قال رئيس التحرير ذلك وهو يقف امام لابوتين متطلعا في عينيه مباشرة، واضاف يقول - وكذلك فأنني لم اكن لاسامحك، لو كان ما بعلمي اسوأ مما بعلمك قليلا.
- لا تسامحني انت...
- لا تعثر في الكلام ! اي انه عليك ان تفهم، بأنك تلمح الى اننا نضم الى الالمان خسائر اضافية، وتدعو واعظا بالغفران...قصر لسانك والا فستندم !.
- ولكنني اعرف مع من اتكلم - قال لابوتين ذلك وهو

ينظر ايضا في عيون رئيس التحرير مباشرة. واضاف ـ انني معك اتكلم وليس مع كودرين...

كان كودرين احد العاملين في هيئة التحرير، وهو ذلك الذي تجلت لديه فجأة منذ بداية الحرب، النزعة القليلة الاحترام، في نقل احاديث المراسلين الصحفيين الى الرئاسة. وكان لديه امل من وراء ذلك، ان يتعين في الجهاز، لكنه لم يدرك اخلاق رئيس التحرير، فطار كالطلقة الى الجبهة.

- قال رئيس التحرير مستديرا بظهره نحو لابوتين وماشيا يذرع الغرفة مرة إخرى ـ شكرا على هذا ايضا. ثم عاد من زاوية الغرفة وقال ـ ولكنك اذا كنت تريد معرفة رأيي الشخصي، فأني اقول لك، ان رأيك ليس في وقته. فأنك قد رأيت خمس مدن محررة واكتفيت، ولكننا بالمناسبة، لم نحتل برلين، بل مازلنا نرابط في ضواحي موسكو، اذا كنت لا تخشى من النظر للحقيقة. ان الوقت مازال مبكرا لكي تنفجر بالبكاء ! واننا بدون يد فولاذية في الوقت الراهن، فلن نستعيد ماعطيناه، بل وان مااسترجعناه سيتسرب من خلال اصابعنا. من المؤسف ان ستالين لا يسمعك، والا فأنه لقسم مخك نصفين !.

- قال لابوتين ـ لا أدري، وغير متأكد...

- هل انت لا تدري ـ سأله رئيس التحرير بلهجة عنيفة، ولاحت على وجهه تلك التعابير التي اوحت الى لابوتين، ان رئيس التحرير يعرف ما لايعرفه هو نفسه.

واضاف رئيس التحرير قائلا - هذا يكفي بوجه عام، وينبغي ان يكون لديك ضمير !. وانت تعرف متى تجده عندي !. اما ما يطالني من ورائك، فأن عنقي وحده هو الذي يعرفه !. وصفق رئيس التحرير عنقه بحزن وقال - لملم تحقيقك الصحفي واذهب به الى الشيطان، وخذ بنظر الاعتبار ان مثل هذا الكلام ماكان قد دار ابدا مابيننا.
وخطف رئيس التحرير، التحقيق الصحفي من فوق المنضدة ثانية، ثم كوره في هذه المرة كالكرة ودسه في يد لابوتين وقال - خذ واذهب واستلق للنوم، فغدا ستذهب الى ضواحي مدينة كالوغا. وعندما صار لابوتين عند الباب صاح به رئيس التحرير - انتظر !. اتصل بالهاتف بالبيت. فقد وصلت اليك زوجتك، وان ذلك قد طار من ذهني تماما.
- هالو ! - رن في سماعة الهاتف صوت غيليا الأجش عندما أدار لابوتين الرقم المعروف.
- قال لابوتين - مرحبا، هل كيسنيا في البيت ؟
لقد نطق اسم زوجته سونيا بهذه الكنية القططية التي ماكان يطيقها حتى من قبل، رغم كل الالحاح الدائم من قبلها عليه، والتي بدت له بعد الفراق، ان النطق بهذه الكنية غير مناسب تماما.
- قالت غيليا - سأناديها الان. ان سونيا راحت تغسل شعرها مباشرة من الطريق.
انتظر لابوتين حوالي ثلاث دقائق مع سماعة الهاتف الى ان دوى فيها صوت زوجته.

- اين اختفيت. هيا بسرعة الى البيت - قالت ذلك بالهاتف بانفعال متغنج، وبلهجة وكأنه تأخر في الذهاب الى السوق.

- سأجيء حالا - قال لابوتين ذلك، وهو يتنهد في سماعة الهاتف، رغم انزعاجه من لهجة زوجته، كما هو شأنه دائما، ومن صوتها في نبرته الواطئة الا ان رغبة قد سيطرت عليه في ان يسرع لرؤيتها.

تحرك متماهلا بالسيارة في ليل موسكو، وانوار العسس تستوقفه عند كل تقاطع للطرق، وفكر بالفوضى القديمة التي تسود حياته العائلية. فالزوجة قد نزحت للمهجر. بعد أول غارة جوية على موسكو مباشرة، وذلك في شهر تموز - يوليو، وانه في هذا الفراق احس بغربتهما المتبادلة، بصورة اكثر شدة مما كان يحاول اقناع نفسه بأن الحرب، كما يبدو، هي التي فرقت بينهما نهائيا، وان زوجته قد ادركت ذلك ايضا ولله الحمد، ولهذا فهي لا تكتب له رسائل. ولكنها هاهي، ومن غير المعروف، كيف ولماذا، قد عادت فجأة الى موسكو، وقالوا له انها تغسل شعرها، وانه سمع صوتها المعروف، من شقة السكن المعروفة، وهاهو جاهز ينجذب اليها ثانية مثل جذع شجرة في تيار الماء.

ماذا كان يجب ان يفعل معها، عندما كان مايزال شابا وسيما واحمق، ومع نفسه عندما امسى غير شاب، وغير وسيم، وذكيا، بل وعلى العموم، احمق ايضا بلا شك، لأنه

ليس لم يتزوج منها فحسب، بل وعاش معها خمس عشرة سنة.

واخيرا تجاوزت السيارة نقطة الحراسة الاخيرة، ووصل لابوتين الى بيته. واستقبلته زوجته عند الباب، بنفس الصورة التي توقع ان يراها بها تماما: اي في منشفة الحمام (برنس) وبشعر ندي منفوش على المتنين وقطرات العرق الدقيقة على جبينها الابيض البارز بدون اية تجاعيد.

- ليس عبر عتبة الباب، ليس عبر العتبة والا فسنتشاجر - قالت ذلك عندما ضمها اليه بيديه، فسحبته نحوها وهي تتراجع خطوة الى الوراء، بحيث شعر فورا بكل دفء بدنها وقوته.

وشربا الشاي في هزيع متأخر من الليل مع غيليا. وقبل هذا انفرد لابوتين مع زوجته مدة ساعتين. وكان يلوح على كسينيا سيماء الشخص الذي رضى بطيبة عن نفسه، وانجز المهمة المكلف بها تماما، سيماء الواثق بأنها ليست بحاجة الان الا لشيء واحد هو شعور الامتنان نحوها. وان هذه الحماقة التامة هي التي كانت قريبة من الحقيقة!. منذ اسبوعين استأنفوا التدفئة في البيت، وجلس لابوتين وراء المنضدة بالبجامة التي لم يلبسها منذ بداية الحرب وبخف على اقدام عارية. لقد جلس مشدوها زائغ البصر وغير قادر حتى على معابثاته المألوفة مع غيليا.

لماذا وصل الى علم لابوتين،ان زوجته صارت خلال فراقهما مديرة القسم الفني. لا اكثر من ذلك ولا أقل، في احد مسارح موسكو النازحة الى قازان. لقد حصل مثل هذا في حياتهما، ان سونيا تقوم من وقت لآخر بالحصول على عمل في مكان ما، بواسطة شهادة الدبلوم القديمة التي حصلت عليها باحدى المعجزات من معهد الفلسفة والادب والتاريخ، ولكنها في كل مرة كانت تقوم بذلك، كانت ترى فيه تشفيا من زوجها.

- قالت - انني افهم انك لا تشعر نفسيا بالراحة، ولكنني ليس من حقي ان اكون لك وحدك، وانسى انني انسان ايضا!

انه بالعكس، كان راضيا تمام الرضى عندما كانت تعمل: فعند ذاك كان لا يتبقى لديها الا القليل من الوقت الخالي، ويكون الكلام في البيت اقل سخافة من المعتاد. ومن بعد ذلك بنصف سنة يضجرها العمل، فتبدأ بسرد روايات متهورة طويلة، حول عدم تثمينهم وفهمهم لها، وعند ذاك يتوقع لابوتين بانه سوف لا يمر سوى شهر واحد حتى تترك العمل، فيصبر هو نفسه مرة اخرى، ذلك الشخص الذي لا يفهمها ولا يثمنها.

ان كون سونيا قد اشتغلت لم يكن ليدهش لابوتين، ولكن لماذا بمنصب المدير الفني؟. "من هذا الذي عينها مديرا للقسم الفني، ثم لماذا؟". هكذا فكر لابوتين وهو ينظر مرتابا الى زوجته. ولكنه لربما انه غير مصيب في

شكوكه، اذ من الممكن انها تركت على احدهم نفس الانطباعات التي كانت، وياللغرابة، قد أثرت بها عليه بالذات قبل خمسة عشر عاما، بكونها امرأة، وان كانت ثرثارة، ولكنها تتفجر حيوية، وغير غبية؟

" على كل حال ان عندها وجها مدهش الجمال"- فكر لابوتين وهو يفرك وجنته بيده، وينظر الى زوجته عبر المنضدة وتذكر كيف انه في السنتين او الثلاث الاولى من زواجهما كان يبذل كل جهد من اجل ان يطابق ثرثرة كسينيا على تعابير لغز جمال وجهها الملهم الذي يحمل هذا الهراء.

وبعدما تذكر كل هذه التوافه، فكر بحزن، بابنته التي وصلت منها رسالة طفولية قصيرة متأخرة، من منطقة قرب مدينة غوركي على عنوان رئاسة التحرير، وذلك قبل سفره بالذات الى مدينة اودويفا. ولابد من الاشارة الى ان الرسالة كانت تتضمن فهما عاليا واعيا للحرب بحيث انها لم تطلب من ابيها ان يذهب اليها.

تذكر لابوتين بألم كبير ابنته بوجهها الطويل، ذى الانف الذي يشبه انف لابوتين غير الجميل. ان هذه البنت قد ترعرعت، كما يحدث كثيرا في اشد العوائل تعاسة، منطوية ومنعزلة ليس فقط عن امها، التي - اي البنت -، وهي في الرابعة عشرة من عمرها لديها رأيها الخاص بها عنها كما يبدو، بل وعن والدها الذي احبته بتحفظ، وخفية، كما لو انها مندهشة دائما منه، لماذا يكون

بدون امها شيئا وبحضورها شيئا آخر غير شبيه به.

"ولكنها تشبهني"- فكر لابوتين مع نفسه، وحاول بحرقة ان يتصور ماذا يعتمل في نفس البنت التي تدري ان والدها في الحرب، وانه لا يستطيع ان يكون معها حتى ولو ارادت ذلك، ولكن امها تستطيع ان تكون معها، ولكنها لسبب غير معروف لا تريد ذلك. وما كاد يصل الى ما فكر به حتى تكلمت زوجته نفسها عن ابنته.

- غدا يجب ان نكتب لها رسالة حتما- وعندما قالت زوجته كلمة "حتما" فان هذا لا يعني ابدا انها ستفعل ذلك. وقالت ايضا - انني ساكتب لها كل شيء عن مسرحنا. ان هذا سيفرحها، فما هو رأيك؟

غمغم لابوتين غمغمة غير معينة.

وفي هذه الاثناء قررت غيليا التي ضجرت من السكوت، ولسوء حظها، ان تشارك في الحديث.

- قالت - في رأيي ان سونيا على حق تماما.

"بالتأكيد "- فكر لابوتين، بانه منذ ذلك اليوم الذي يتذكر فيه غيليا، فان سونيا لم تكن حتى ولو مرة واحدة على غير حق.

- وكررت غيليا بصوتها الاجش وبكلام متعجرف ، انها على حق كامل عندما ارسلت نينيتشكا (اسم التصغير لأبنتها نينا- المترجم) مع المدرسة. فان الاطفال في مثل هذا الوقت المملوء تماما بالمصائب كما هو عليه الان، يجب ان يتعودوا مبدئيا على حياة الاستقلالية.

- قال لابوتين بتريث وخشونة - أسمعي، انك وقواق مبدئي: فماذا تفهمين انت في ما ينبغي للاطفال وما لا ينبغي لهم؟ كان يجب ان تسكتي على اقل تقدير.

- قالت سونيا- انك تهين غيليا مرة اخرى. فمتى ستكف عن ذلك؟ فهل من الجائز وجوب تجريح كرامة انسان، اذا لم يكن ناجحا في حياته الشخصية.

- تمتم لابوتين قائلا - ان حياتنا انا وانت لم تكن موفقة. ثم التفت نحو غيليا مشيرا بالقول - وليس بدون مساهمة منك في ذلك.

ولكن هذا لم يكن صحيحا، لان غيليا ظهرت في حياتها عندما اضحت حياتها فاشلة على كل حال.

قرعت غيليا قدح الشاي فوق صحنه بغضب وخرجت من الغرفة. وان سونيا ما كانت لتسمح بمثل هذا لزوجها في وقت آخر، ولكنها الان تحس بالرغبة تعذبها كثيرا لتروي له كل ما عرفته عن مسرحها، بحيث انها بعد خروج غيليا، واصلت الطنين بكلامها، كما لو انه لم يحدث اي شيء، الى ان بدأ لابوتين الذي ارهقه عدم النوم اياما عديدة ينقر برأسه من النعاس.

- هكذا دائما انت، فعندما ابدأ بالكلام ليس عن شؤونك، بل عن شؤوني، تشعر بالميل الى النوم - قالت ذلك منفجرة بغضب، ولكنها غيرت فجأة الغضب الى استعطاف، واضافت - ولكن لربما تريد انت ان تنام فعلا. فانك تعبان كما يبدو؟ انها الان فقط ادركت هذه الفكرة

البسيطة.

نهض لابوتين في الصباح مبكرا كما هي عادته دائما. وفي يوم امس كان البيت يبدو له دافئا، ولكن مدافىء التسخين كانت منذ الصباح باردة كالثلج. وسار حافيا في الدهليز وادخل قدميه في الجزمة اللبادية ولبس الفروة فوق البجامة، وتوجه بهذه الهيئة الى غرفة المكتب. انه منذ يومين متتاليين لم يدون يومياته على خلاف عادته المألوفة. وبعد ان انتزع القلم من الدفتر المجلد بالقماش المشمع لسهولة حمله والمقصوص طوليا كما في الحروف الابجدية، بدأ يكتب باختصار، حديث يوم امس مع رئيس التحرير. ولكن سونيا بعد خمس دقائق من ذلك قطعته عن العمل.

- ما اكثر الغبار!- قالت ذلك وبصوت من يبصق متذمرا، وصفقت بيدها على التخت وصرخت بصوت عال يوحي وكأن لابوتين نسي مسح هذا الغبار قبل وصولها، واضافت قائلة - بدأت انت تكتب! ألا يجوز ولو مرة واحدة في الحياة ان تسترخي صباحا في الفراش مثل جميع الناس الاسوياء!.

غمغم لابوتين، بان الناس الاسوياء كلهم، هم بالذات الذين لا يسترخون بالفراش في الصباح، ومن ثم وبعد ان قطب جبينه، لكي لا يفلت من ذهنه خيط فكرة مهمة بالنسبة له، كتب مسرعا عدة عبارات تحت طنين كلام سونيا، التي ما كانت ملتفتة لا الى كتابته ولا الى تعابير وجهه.

وبعد ان شبكت يديها على ركبتيها، وهي تهز بنفسها فوق التخت، واصلت حديث يوم امس عن مسرحها، فظهر انها قد طارت الى هنا ليس لوحدها بل مع يفغيني اليكسييفيتش.

ان يفغيني اليكسييفيتش، كما فهم لابوتين اخيرا، كان مديرا لمسرحهم، وانه قد طار الى موسكو لنقل بعض مستلزمات التمثيل التي نسيت اثناء الاستعجال، والتي اقتضت لها الان حاجة ماسة جدا. وطارت معه سونيا لغرض ان تجلب من موسكو مسرحيات جديدة، وهي ايضا ضرورية للغاية على حد زعمها، وان واحدة من هذه المسرحيات، سبق وعرضت للمرة الاولى هنا، في المسرح الوحيد الذي بقي في موسكو، ويقولون بانها مسرحية جيدة، وان الذي كتبها مراسل صحفي حربي، ولكن اسمه قد طار من ذاكرة سونيا لسوء حظها.

- قالت سونيا - انهم يقولون بانه شاب جذاب وذو شاربين. انك تعرفه بلا شك! فانه عندكم ايضا. واضافت وهي تلح على زوجها- فكيف هو. وهل هو وسيم فعلا، وهل يمكن الكلام معه؟

- ممكن - قال لابوتين متجهما وهو يواصل الكتابة، ويشد على اعصابه، لكي لا تتشتت سلسلة افكاره، ومتذكرا زميله الشاب الانيق في العمل. واضاف - أنه شاب متأنق بعض الشيء. وعلى العموم لا بأس به قالت سونيا بعتب - ليتك تعطي يوما ما رأيا حسنا عن اي واحد.

- ولكن لماذا يجب ان اعطي عنه رأيا حسنا! وابتسم

لابوتين ساخرا وواصل الكتابة. ثم قال - انه شاب ووسيم. اما انا فعجوز واصلع. اذهبي اليه من اجل المسرحية، ثم تولعي ايضا بما هو جيد!.

- الحماقات في مخك دائما موجودة. كف عن الكتابة الان.

- ها انا ذا قد كففت..

- اسمع. قد يمكن انك نفسك تكتب لنا مسرحية؟ ولماذا لا تكون انت الذي تكتب لنا مسرحية. ها - وقفزت سونيا فوق التخت من الفكرة التي هزتها فجأة. وقالت - انك ملزم ببساطة ان تكتب لنا مسرحية!.

- لمن ملزم انا، ولماذا انا ملزم؟ - سأل لابوتين بانزعاج واضاف - قولي لي، لماذا انا ملزم ان اكتب لكم مسرحية؟

- قالت سونيا - أنك لا يجوز لك ان تكون انانيا، لانك متمكن تمام التمكن من كتابة مسرحية. وهذا يعني انه من واجبك! ولا يشفع لك انك لا تريد ذلك!

- انني منذ ولادتي لم اكتب مسرحيات!

- قالت سونيا بلهجة المنتصر- انا لم اكن ايضا مديرة قسم فني. ولم يكن بالامكان الاعتراض على هذا الدليل، فلوح لابوتين بيده للتخلص من هذا الموقف وقال.

- حسنا، سأفكر...

- لا مجال للتفكير! ما عليك الا ان تطلب اجازة من

رئيس تحريرك، ثم تطير معنا الى قازان، وفي خلال شهر واحد ستكتب المسرحية هناك. وان هذا احسن بكثير من جميع تحقيقاتك الصحفية! فهذه التحقيقات ستصل على كل حال الينا عندما سنستمع اليها بواسطة الراديو.

لسبب ما اثارت هذه العبارة الاخيرة من زوجته غضبا فظيعا لديه: فقد عاد الى ذاكرته حديث يوم امس مع رئيس التحرير، واستشهاد لوسيف في الاسبوع الماضي، ومدى هول الصعوبات التي يعانيها في اعداد كل تحقيق صحفي.

- قال هو - سوف لن اطلب اية اجازة، ولن اذهب معك الى اي مكان!.

- قالت سونيا- هذه فظاظة.

وتنهد لابوتين، ثم تذكر ان عليه ان يذهب صباح هذا اليوم الى رئيس التحرير ليسافر الى كالوغا اما بالطائرة او بالسيارة.

- وسألها قائلا - هل ستمكثين هنا مدة طويلة؟

- قالت سونيا - لا أدري كيف ستمشي اعمال يفغيني اليكسييفيتش. فأنني سأعود معه بالطائرة.

- ولكنني ينبغي ان اسافر اليوم لمدة يومين...

- الى اين ستسافر؟.

- الى الجبهة.

- قالت سونيا - هذه حماقة!.

- هذه ليست حماقة، بل أمر من رئيس التحرير.

- ان هذا غير ممكن! فأنه كان يوم امس رقيقا جدا معي، عندما تكلمت معه بالهاتف، وكذلك فهو يعرف جيدا بانني قد جئت من اجلك...

- لنفترض انك ما اتيت من اجلي.

- دعك انت تفترض ما تشاء، اما انا فاستطيع ببساطة ان اتناول سماعة الهاتف واتصل به، لأجل ان لا يبعثك الى اي مكان ما دمت انا هنا.

ان هذا التهديد كان سخافة وغير منطقي.

- قال لابوتين مقاطعا الكلام بحزم - الان نشرب الشاي ومن بعد ذلك سأغادر.

- قالت سونيا - حسنا. انني الان مقتنعة بانه قد ظهرت لديك احداهن في غيابي.

- قال لابوتين بغضب - ان الحرب قد ظهرت عندي في غيابك. الحرب، ألا تفهمين؟

لقد كان هو الان في منظر مضحك جدا، فهو بالبجامة والجزمة اللبادية والفروة، ولكن سونيا كانت تعرف حق المعرفة، بانه رغم هذا المنظر المضحك الذي هو عليه، ولقراره الذي لا رجعة فيه، فانها رأت ان من المفيد ان تمارس ما كانت تمارسه معه في مثل هذه الحالات وهو ان تبكي. ولكنها على العموم لم تكن لديها الرغبة التامة جدا في ان يبقى، انها فقط رجت منه ذلك، اما هو فقد رفض البقاء. وان كرامتها قد اهينت من جراء ذلك، ولهذا فان دموعها كانت صادقة في بعض النواحي. وعلى

كل حال، فانها كانت تبكي دائما بلا تكلف وبصورة سهلة وجميلة.

وشربوا الشاي بصمت عميق. وكان لابوتين يجلس في جانب من المائدة، وسونيا وغيليا في الجانب الاخر المقابل له. والى ان انجز حلاقة وجهه وارتداء ملابسه، فان سونيا وغيليا تسنى لهما الوقت لتبادل الرأي ببضع كلمات، وانهما الان كونتا ضده جبهة موحدة بصفتهما مستاءتين ومتألمتين من قرارهما بعدم تبادل الحديث معه حول المائدة.

- حسنا. الى اللقاء!- صرخ لابوتين، وهو يرتدي القبعة واقفا في الدهليز.

هرعت سونيا من مكانها وركضت نحوه وقبلته بتقطع وتعطش من فمه وهي تهمس قائلة:

- بسبب انك ذاهب الى الجبهة فقط والا لما كنت قد لمستك.

وحالما راح لابوتين ينزل على السلم، تذكر بانه من جراء مثل هذه الثرثرة، انشغل ولم يتكلم مع زوجته حول اهم شيء من كل ما اراد ان يتحدث معها عنه، وهو الكلام عن ابنته. "حسنا، عندما اعود سأتحدث معها عن ذلك - وفكر مع نفسه - انها سوف لن تغادر في الواقع خلال هذين اليومين".

صدرت الجريدة متأخرة: فرئيس التحرير استيقظ لتوه وجلس وراء مكتبه وهو يبدو عليه الهرم وبجفون متورمة

من قلة النوم.

- قال رئيس التحرير متوجها الى لابوتين - باستطاعتك ان لا تسافر الان. وسأبعث غورسكي بدلا منك. وانه يرجو ذلك منذ وقت طويل. وعليك ان تجلس في مكانه هنا للتصحيح، وان تكتب افتتاحية واحدة او اثنتين. وانني يوم امس لم انتبه، بسبب الانفعال، فان زوجتك ما دامت قد وصلت فلابد ان نعطي الانسان امكانية البقاء في موسكو.

- قال لابوتين دون رغبة في تغيير قراره - ان هذا لا اهمية له، فهي ستبقى هنا مدة اخرى، اما انا فسأسافر واعود.

- فكر مثلما تريد. ولكنه يجب عليك ان لا تتأخر اكثر من يومين او ثلاثة، وبعد ذلك تعود- قال ذلك رئيس التحرير معتقدا بأن لابوتين يريد السفر لأجل تسوية سوء تفاهم يوم امس، ولهذا فهو يحس بالارتياح الداخلي من ذلك. واضاف قائلا- هل ستسافر الان فورا؟.

هز لابوتين رأسه مؤيدا.

- اذن مر على قسم التصوير الفوتوغرافي. فقد ذهب الى هناك بموافقتي، المحرر العسكري فاسيليف، ليأخذ كماشات لجريدته، فهو سيأخذك معه حتى مدينة تولا. اما في تولا فتوجد سيارتنا "ايمكا".

عرج لابوتين على قسم التصوير الفوتوغرافي ووجد هناك فعلا حزمة ثخينة من الكماشات، موضوعة في حقيبة

ميدان لقوميسار فوج، نحيف البنية في معطف معكوف رديء الخياطة. وكان وجه قوميسار الفوج مكفهرا اصفر اللون.

وعندما رجا لابوتين من قوميسار الفوج ان ينقله معه، قطب وجهه وقال بأنه سيسافر الى مدينة تولا فقط في الساعة الرابعة عشرة اي بعد ثلاث ساعات.

- قال لابوتين - حسنا. واين سأجدكم بعد ثلاث ساعات؟.

تردد قوميسار الفوج لسبب في نفسه، عدة ثوان، وسأل فجأة ان كان لابوتين يعرف اين يقع مكان مقبرة نوفوديفيتشي.

- اعرف طبعا - أجاب لابوتين دون ان يفكر.

- اذا ستكون هناك عند البوابة في الساعة الرابعة عشرة تماما فسأنقلك معي.

وحزم قوميسار الفوج حقيبة الميدان، وصعر خده وهو ينظر الى لابوتين، وارتدى القبعة وخرج دون كلمة وداع.

ان العودة الى البيت ما كانت لتؤدي لا الى هذا ولا الى ذاك، ولهذا فقد قتل لابوتين ساعتين من الوقت في رئاسة التحرير يلعب الشطرنج، حيث ربح سبع او ثماني جولات متوالية مع كل من وقع تحت يده.

ومن بعد ذلك توجه نحو موقف عربة الترام، معلقا بكتفه كيس متاع غير مملوء الى النصف، وبعد تغيير في خطوط النقل مرتين، وصل الى مقبرة نوفوديفيتشي في الساعة الرابعة عشرة تماما، وتوقفت عند بوابة المقبرة

سيارة عسكرية وحيدة مصبوغة كيفما اتفق، بلون التمويه الابيض، من طراز "ايمكا" وذات سلاسل حديدية على العجلتين الخلفيتين. وكانت السيارة "ايمكا" مقفلة الابواب، ولم يكن واقفا بالقرب منها اي احد، ويبدو ان السائق ذهب الى جهة ما، واخذ لابوتين يخطو قرب السيارة، بعد ما نزع الكيس عن كتفه وركنه على مرقاة السيارة.

كان كل شيء من حوله فارغا.وبعد ذلك مرت من امام لابوتين نحو البوابة، زحافة يجرها حصان هزيل، وعلى الزحافة يوجد تابوت مصنوع من الالواح المعكوفة وبفتحات كبيرة. وعلى التابوت جلست امرأة متجمدة من البرد، تتغطى بمنديل شدته فوق قبعة تعتمر بها على رأسها. وبعدما وصلت الزحافة، وصل رجل كهل حسن الهندام، انفاسه الثقيلة تخرج بصفير، وهو يسحب من ورائه بحبل، زحافة وعليها تابوت لطفل. وبعد ذلك بعشر دقائق لم يدخل احد عبر بوابة المقبرة ولم يخرج منها احد.

وفي نهاية الامر خرج من البوابة قوميسار الفوج، وفتاة باكية بعمر ثمانية عشر عاما، تشبهه من حيث نحافتها ومثله حتى في ازرقاق الوجه، وسائق السيارة، الطويل القامة الذي صعد بلا كلام فورا الى السيارة، بعد ان قذف بقدمه كيس لابوتين جانبا.

افهم قوميسار الفوج، بالاشارة للابوتين، ان يجلس في مقدمة السيارة، اما هو فقد جلس مع ابنته في

المقعد الخلفي. وفهم لابوتين بصورة واضحة، بعدما رأى الفتاة الدامعة العيون، لماذا عينوا له اللقاء في هذا المكان الكئيب، وهو انه قد مات لهم واحد من اقربائهم.

- قال قوميسار الفوج للسائق - توجه في البداية الى ادارة المؤخرة.

وسارت السيارة في شوارع نصف خالية بموسكو. وكان لابوتين الذي يجلس في المقدمة يفكر بأن الناس ما يزالون كالعادة يموتون هكذا طبيعيا دون ان يكونوا في الحرب. انه كان قد نسى ذلك خلال الاشهر الاخيرة. وجلس من خلفه، الأب وابنته يتبادلان الكلام بينهما بصوت خافت.

- قال الاب - اذا كانوا لا يشغلون التدفئة مستقبلا فاذهبي الى العمة نينا.

- اجابت البنت - لا أريد ذلك، فهي لم تأت الى والدتي حتى ولو مرة واحدة.

- ولكنك تعرفين جيدا انها مريضة.

- اجابت البنت مكررة بعناد- لا أريد ذلك. انها ستعد علي كل قطعة خبز اتناولها.

- قال الوالد - ان الخبز سيكون خبزك، وانني سانقل لكم كالسابق كل حصة التموين، وستكون هي غير محقة في محاسبتك.

- ومع ذلك فلا أريد ! - هكذا أجابت البنت مكررة قولها بعناد.

- وافق الاب فجأة بقوله - ليكن كما تريدين.

ومن بعد ذلك، اخذا يتبادلان الكلام همسا، بحيث ان لابوتين ما كان يسمع اي شيء احيانا. ومن ثم شهقت البنت باكية بمرارة وقالت:

- أليس حقا ان امي قد استلقت وسيمة في التابوت وكأنها لم تكن مريضة؟

خيمت وراء ظهر لابوتين حالة صمت، وتناهى الى سمعه صوت مبحوح تحول الى سعال. ان الاب هناك يغالب دموعه.

- لا داعي لذلك يا أبي، كفى، أرجوك ان تكف عن ذلك... - قالت البنت بصوت متضرع، ومن ثم هدأ من وراء ظهر لابوتين صوت السعال.

" فكر لابوتين بالجالسين خلف ظهره - ان هؤلاء عندهم مصيبة، اما نحن مع كسينيا فعندنا حياة وخيمة... وانهم لو قتلوني فانها ستبكي ايضا ".

توقفت السيارة في شارع غوركي، عند مبنى متحف الثورة الذي كانت نوافذه مسدودة بالالواح الخشبية.

- الان اعبري الشارع الى تلك الجهة - قال الاب ذلك، وهو يوضح لابنته وكأنها طفلة ، وفتح باب السيارة وأضاف - وهناك تدخلين في ذلك المدخل، مدخل مكتب اذونات الدخول، ومن هناك اتصلي بالهاتف مع فيليبوف على رقم سبعة وعشرين، وقولي له من انت. وهو سيطلب باعطائك اذن دخول. وانني كنت قد اعطيته علما بذلك.

- قالت البنت - واذا هو لم يوافق على قبولي؟

- انه يقبلك، فقد وعد بذلك. وهو نفسه قال يوم

امس بانهم بحاجة الى عاملتين على الآلة الكاتبة.

- سألت البنت مرة ثانية - واذا لم يقبلني؟

- اذا لم يقبلك في العمل، اكتبي عند ذاك - قال الاب بجفاف، وانه دون ان ينزل من السيارة اخذها بيده وقبلها وقال - اذهبي هيا اذهبي...

خرجت البنت من السيارة، وظل هو لاصقا وجهه بالزجاج يتابعها الى ان عبرت الشارع، وتوارت في مدخل ادارة المؤخرة.

- قال هو - هيا نتحرك الان.

واجتازت السيارة، الساحة الحمراء، المطمورة بالثلوج وغير المكنوسة. وعبرت السيارة جسر موسكفوريتسكي، واستدارت في شارع النهر نحو بوليانكا، ومن هناك خرجت الى الطريق العام. وجلس قوميسار الفوج في المقعد الخلفي وظل ساكتا باصرار. واراد لابوتين ان يقترح عليه تبديل مكانه بالجلوس بالمقدمة، بصفته صاحب السيارة، ولكنه لم يجرأ على التحرش به: دعه يسافر كما يحب.

ومن بعد مدينة بودولسك غلى الماء في جهاز تبريد السيارة، فاوقف السائق السيارة، وفتح الباب، وصعد الى المقعد الخلفي، وسحب من هناك سطلا يقرقع بيده، وركض يبحث عن ماء. وعلى مدى ما كان يسكب الماء، انطلقت من جهاز التبريد اعمدة البخار تتلوى تحت وطأة خفقات الريح الثلجية المتقطعة، مندفعة الى كل جانب.

وبعدما اغلق السائق غطاء فتحة جهاز التبريد وصعد الى السيارة عقد لابوتين عزمه، والتفت الى رفيقه في السفر:

- هل يمكن ان تنتقل لتجلس في المقدمة ايها الرفيق فاسيليف؟

- لا حاجة بذلك - قال القوميسار، وهو يحرك يده حركة ضعيفة واضاف - اذا كنت ترغب، فانتقل انت واجلس في المقعد الخلفي، فسيكون اكثر دفئا في السفر.

وتحرك القوميسار على المقعد جانبا، وجلس لابوتين الى جانبه، في ذات المكان الذي جلست به ابنته قبل قليل. ثم تحركت السيارة ثانية.

- قال فاسيليف فجأة بلا داع من اي شيء - اناس كلاب، ونهابون فعلا، من اولئك الذين يسلبون في ميدان القتال. انهم لو كانوا في الجبهة لأطلقت انا عليهم النار بيدي هذه.

- قال السائق وهو يلتفت - لقد صرمت اذن واحد منهم عندما ذهبتم الى أمام.

- قال فاسيليف - ولكن ما الفائدة؟ فأنهم كانوا نهابين على كل حال، وسيبقون هكذا...

- ما الامر، وما هي القضية؟ - سأل لابوتين، وهو يشعر بان الوقت قد حان للمشاركة بالحديث.

- قال فاسيليف - انهم لقاء كل شيء يقولون هات!. لقاء المكان يقولون هات. ولقاء حفر القبر، - هات،

ولقاء ان يكون الدفن في هذا اليوم وليس غدا- هات، وحتى لقاء اهالة التراب على التابوت يقولون هات، وكأن من الممكن عدم اهالة التراب. اما اذا لا تعطيهم فتوقع منهم كل شيء. فانهم قد لا يسدون القبر! ويخرجون التابوت من التربة ويلقون به جانبا، ويدفنون جثة اخرى في هذا المكان، ثم يقولون مرة اخرى، هات !، هات خبزا، هات سكرا، هات تبغا، هات، هات، هات ، هات !.

- قال لابوتين - واذا رفضت ان تعطي لهم ؟

ابتسم فاسيليف ابتسامة حزينة غاضبة وقال :

- هل لم تدخل من قبل الى مقبرة؟

- كلا.

- اذن، فعلت حسنا. ان التوابيت تبقى مطروحة فوق الثلج مدة اسبوع تقريبا كما في الطابور، تنتظر الدور، وتقول انت، من هو الأخير، وانا من ورائك! ان هذا هو ما يواجهه ذلك الذي لا يدفع. وانه لا يدفع، لأنه لا يملك ما يدفعه. ومن هو الذي يبخل بالدفع اذا كان لديه ما يدفعه؟. انهم الكلاب يستغلون حتى هذه الحالة. ولو كنت انا حاكما عسكريا لموسكو- صمت قليلا واضاف يقول - لقلصت عدد الحراس، وعينت دورية من الجنود في المقابر لحفر القبور. وان مثل هذا ما كان ليكلف شيئا!. اما بهذه الحال، فقد تجمعت زمرة متآلفة من المعوقين والمستهترين، مستفيدين من الحالة القائمة، فعثروا لأنفسهم على مكان دافىء هو المقبرة.

ان هيـاجـه حـتى لمـدة دقيقـة واحـدة قـد جعلـه، كـما يبدو، ينسى مصيبته.

- قال بعد فترة صمت - ان زوجتي كانت قلقة بشأني، ولكنهـا لم يكـن مـن قسمتهـا ان تـواريني التراب. فـالى ان اخبروني، والى ان وصلت، فلم يبق امامي ما افعله سوى ان ادفنها. واني لاشكرهم ايضا لسماحهم لي بالوصول تحت ذريعة انجاز مهمة، والا لكانت جنازتها قد بقيت مطروحة هناك في الطابور. وبعد ان اصابه تشنج من كلماته هذه قـال - ان عنـدي ابنـتي هـذه الـتي رأيتهـا، فـانهـا غـير شاطرة. وحتى لو انها لم تكن كذلك، فستسبل يديها على كل حال. اننا في مصيبة، اما هم فهات وهات وهات! انهم كـالعجائز الشريرات، فـاذا حفروا يطلبون شيئا واذا اهـالـوا التراب يطلبون شيئا وبلا ادنى حياء وبلا ضمير، ولا يهمهم غير ان يشربوا ويملأوا كروشهم! ثم سكت مرة اخرى وقتا طويلا.

وفكر لابوتين بحزن ثاقب، ان الحرب هي الحرب. اما الحيـاة والمـوت فـأنهما يـأخـذان سبيلهما المعتـاد، وكـذلـك فـان مـن بـين النـاس مـن يخطف لنفسه بجشع كسرة الخبز، سـواء للحيـاة وللمـوت. وفكـر مع نفسه قـائلا- " دفـانـو الموتى"- ومع ذلك، فهناك ما هوا اسوأ من ذلك. انهم اؤلئك الذين يرتـزقون حول المستشفيات العسكرية، وحول نقـاط الحـراسـة، ويعتـاشـون في محطات السكك الحديد على شـراء تـذاكـر السفر وبيعها، وفي المطاعم لقاء صحن حساء

متروك تماما، بحيث من غير المعروف ماذا يجدون فيه لفائدتهم، ومع ذلك فانهم يلحسونه حتى بالماء.

وهل ان هذا لم يكن موجودا من قبل الحرب؟. او انه كان اعمى يمشي ولا يرى؟ او ان كل هذا الذي يبدو لا مكان له في زمن الحرب ابدا، قد صار، بالعكس، اكثر من قبل؟ او أنّ مصائب الحرب قد حركت ورفعت الى الاعلى كثيرا جدا من الاشياء القوية النظيفة، بحيث ان الاشياء غير النظيفة صارت تضرب بالعين فورا مثل اللطخة في الثلج؟ فأين الحقيقة هنا؟ وكيف سيكون هذا بعد الحرب، وهل، يا ترى، سيبقى على هذا الحال.

وفي الامام امتد طريق رمادي ابيض مغطى بالجليد والمزالق وآثار الحركة. وعلى جانبيه تلوح وتختفي القرى في الكثبان الثلجية. وعلى بعد اربعين كيلومترا من مدينة تولا توقف السائق: فبالقرب من الطريق نفسه، توقفت دبابتان مصابتان، كانتا تبدوان بوضوح كامل تحت ضوء القمر، اضافة الى عربات نقل وسيارات مقلوبة.

ـ قال فاسيليف متوجها الى لابوتين، بعد ان خرج من ذهوله ـ انظر، الى اين وصلت دبابات غودريان قبل وقت قريب؟ اما الان فنحن قد وصلنا الى ضواحي مدينة كالوغا. بل ومن المحتمل اننا قد اخذناها. فانني عندما سافرت يوم امس الى موسكو، كانت المعارك تدور في الضواحي.

وبعد مرور ساعة اخرى وصلت السيارة "ايمكا" الى تولا.

لقد كان لابوتين اكثر من مرة هنا في وقت ما من قبل الحرب. ولكنه الان من الصعب عليه ان يعرف المدينة، لانها كانت كلها مقطوعة بالمتاريس والحواجز ذات الممرات الضيقة التي تركت لمرور السيارات وان كثيرا من المتاريس اقيمت من قضبان الحديد المقطعة، وكتل المعادن وانابيب الغاز القديمة، وجلاخة المعادن المكبوسة، ومن كل ما وقعت عليه الايدي الماهرة في افنية المصانع القديمة.

انزل فاسيليف في طرف المدينة لابوتين، وذلك قرب بضعة بيوت صغيرة متشابهة، مؤلفة من طابق واحد، حيث كان يوجد المقر.

وفي غرفة الاستقبال الضيقة لمدير مقر الجيش، فحص المرافق ذو النظارات، باحترام من خلال نظارته، الهوية التي قدمها اليه لابوتين، ولكنه امتنع عن تبليغ القائد، بقوله انه مشغول، وهيهات ان يستقبله الان لانه سيغادر عما قريب الى المجلس الحربي.

- حاولوا ان تخبروه بصورة من الصور - قال لابوتين بصوت رنت به ثقة غير مألوفة بالنسبة للمرافق.

وحرك المرافق كتفيه، وخرج وبيده هوية لابوتين.

- تفضلوا بالدخول - قال المرافق وهو يعود بعد نصف دقيقة.

دخل لابوتين في الغرفة الثانية التي هي ضيقة كذلك، وحارة من شدة التدفئة الى درجة ان الاذن تطن من

الحرارة.

وقد جاءت توقعاته في مكانها، حيث ان مدير مقر قيادة الجيش، الجنرال بوستنيكوف، كان نفسه، ذلك المتجهم ابدا، الذي لم يرفض بتاتا تقديم المساعدة للصحفيين، عندما كان برتبة مقدم، وحل عليه لابوتين في خيمته على جبل خامارداب، بعد يوم من نشوب معارك خالخين - غول.

رد عليه بوستنيكوف التحية باشارة من رأسه، دون ان ينقطع عن الهاتف. وهو نفسه كان واقفا فوق جهاز الهاتف، وقد أحنى عليه رأسه الكبير الاشيب، ونظر اليه بصرامة، وكأنه يوجه توبيخا الى واحد ليس بعيدا على الطرف الاخر من السلك، بل الى جهاز الهاتف نفسه:

- وما هو الغريب في ذلك، ان تثبتوا عندكم حركة كتيبتين اثنتين لا اكثر للعدو؟ فهناك يوجد بالتأكيد فوج صغير حيث توجد الكتيبتان!، فلا تنتظروا حياة سهلة. واتخذوا الاستعدادات، وكأن الفوج الصغير كله سيتحرك ضدكم، وثبتوا ايضا التحركات!. مع السلامة!. والتفت الى لابوتين، بعد ان وضع سماعة الهاتف وصافحة مصافحة قصيرة وهو واقف، ثم سأله هل سيمكث مدة طويلة معهم.

- الى ان تستولوا على مدينة كالوغا.

- اذن، ليس لمدة طويلة. كما انه ليس عندي الان وقت لأبلغك بالاخبار، مع العلم انني كنت قبل ساعة من الزمن قد ابلغت كل شيء الى زميلكم تيخوميرنوف. وانه

بامكانه ان يوجز لكم ذلك بأسلوبه. واذا كنت راغبا بالذهاب بالطائرة الى ضواحي كالوغا، فانني قد اعطيته ورقة توصية باستخدام طائرة أو-٢. فهل هذا يبعث لديكم الارتياح؟- وجه بوستنيكوف سؤاله، وهو قد وضع عن بعد نظر، كل ما كان يمكن ان يدور من حديث عنده مع لابوتين، في هذه العبارة.

ولم يبق امام لابوتين سوى ان يؤكد بأنه مكتف بذلك كل الاكتفاء.

- يعني انك لا تأتي الا لسبب! انك عندما ستعود من كالوغا مر علي هنا. اما انا فأغادر الان الى المجلس الحربي.

ووضع نظارته في صندوقها الملقى على المكتب ثم انزلها في جيب بنطلون الخيالة. وبعد ذلك سد بصوت عال زر المحفظة السوداء التي تحمل عبارة "للتقرير" وخرج قبلنا من الغرفة.

قال المرافق للابوتين - ان قوميسار الفوج تيخوميرنوف ينزل في شقة قريبة، بعد ثلاث بيوت، خلف مركز الاتصالات مباشرة.

وخرج تيخوميرنوف الى طنف البيت الصغير النظيف بالملابس المنزلية، وجزمة لبادية وبدون حزام.

- استقبل تيخوميرنوف بفرح لابوتين وقال - انني انتظرت وانتظرت الى ان تناولت الغداء. ومع ذلك فان حساء البورش* مازال ساخنا. وكذلك سأوفر لك مئة غرام

حساء البورش* مازال ساخنا. وكذلك سأوفر لك مئة غرام من الفودكا. واني استغرب عندما افكر بأننا لم نلتق مع بعض، منذ الحرب الفلندية.

والى ان احتسى لابوتين حساء البورش الذي كان حسب ذوقه لذيذا جدا، جلس تيخوميرنوف في جهة مقابلة له، وسط منظر سجادة، يظهر بركة ماء وطيور بجع، بعد ان خلع الجزمة اللبادية، وتربع حسب راحته بجلسة تركية، وجوارب من الصوف، وطفق ينظر نظرة ودودة الى لابوتين من عينيه السوداوين الجذابتين. ان ابن القس هذا، الذي كان قد التحق من بيت ابيه، بالكومسومول (منظمة الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي - المترجم)، واصيب في الثلاثينات من قبل الحرب باول طلقة في اثناء عمليات نزع ملكية الكولاك (اغنياء المزارعين - المترجم)، كانت لديه سيماء مخاتلة لشخص رقيق كسول، بينما هو في الواقع، كان من ناحية ثانية انسانا، رغم انه بشوش وقادر على تهيئة الحياة الهنيئة له في اي ظرف من الظروف، فلا يعرف التعب في العمل ولا يرحم نفسه ولا الاخرين معه. وان رئيس التحرير لا شغل له الا ان يضعه في كل اجتماع صباحي سريع مقياسا للمراسلين

---

* حساء روسي من كل انواع الخضراوات وبالذات الشوندر الذي يعطيه لونا ارجوانيا.

الصحفيين الآخرين.

اتى لابوتين على حساء البورش كله، والتفت يحك من المقلاة طبيخ الدخن مع البصل المقلي. وابتسم عندما التقت عيناه بعيني تيخوميرنوف.

- انك بعيشة راضية يا اليوشا بوبوفيتش (اسم التصغير لالكسندر اسم تيخوميرنوف - المترجم). حدثني، كيف هي امورك. هل انت ما تزال تحير بمنظرك الهادىء جماعة الكتيبة الآخرين، ثم تشعل من بعد ذلك فتيل الانفجار، ام أنك قد تغيرت؟

- كلا، على العموم - وهنا بدأ تيخوميرنوف يروي وهو يضحك، كيف ان المراسلين الصحفيين من الجرائد ووكالة تاس للانباء، والاذاعة، المتجمعين في تولا يخشون حيويته، ويتابعونه خطوة بخطوة.

ان هذه كانت حياته الصحفية في معارك خولخين - غول، والحرب الفلندية، وخلال هذه الحرب التي صارت اعتيادية بالنسبة له خلال نصف سنة. وضحك لابوتين من كل قلبه وهو يسمع كلام تيخوميرنوف، ومن ثم، وبعد ان مسح طبيخ الدخن، واشعل سيكارة، سأل عما هو جدي من الامر: كيف الحال مع كالوغا؟

انزل تيخوميرنوف رجليه من السرير، وسحب من اللوحة الطوبوغرافية خريطة وشرع في توضيح الموقف:

- الان وقبل ان يحل الليل، يجب ان يعود من ضواحي كالوغا، ضابط الاتصالات النقيب ارابوف، من قسم

العمليات، وهو هنا يطير لوحده. اما الاخرون فانهم يخافون، او يحترقون او يتيهون. ولكن هذا يطير كل يوم، ويعود وكأنه ضد النار. اضطجع انت لتنام، فانا سأذهب الان الى بوستنيكوف لأعرف منه. وغدا صباحا ساذهب انا وانت بالطائرة اذا كان الموقف يسمح بذلك.

ومنذ الصباح كان الجو عاصفا بالثلوج على عكس توقعات الانواء الجوية. وقد حلقت ست طائرات مرة واحدة من طراز أو-٢، من على الغطاء الثلجي المتواصل للمطار. وان اربعا منها حلقت مع ضباط اتصالات، الى القواطع الامامية، واثنتين مع المراسلين الصحفيين.

في البداية وعلى مدى نصف الساعة الاولى من الطيران، كانت مرئية لنا من خلال غلالة الثلج في الجو، هيئة طائرتين من طراز أو-٢، ولكنهما اختفتا فيما بعد. وحلقت طائرتنا اكثر من ساعة، اي انها بموجب حساب الزمن، قد حان لها ان تكون في مكان قريب من كالوغا، ولكنه لم يكن هناك شيء مرئي كالعادة، بسبب تهاطل الثلوج. وكانت الطائرة تتأرجح انحرافا وميلانا، مرة فوق غابة، واخرى فوق ارض ثلجية خالية، وثالثة فوق قرى محروقة، وهي كلها كانت فارغة ولا يلاحظ فيها سكان او قطعات عسكرية.

واخذ يظهر لدى لابوتين بالتدريج، شعور مزعج، وهو ان الطيار نفسه لم يعد يعرف الى اين يطير. وفي الاخير وبعد ان تخبط في الجو مدة خمس عشرة دقيقة اخرى، فوق

غابة كبيرة، هبط بطائرته فوق فسحة ارض خالية طويلة بيضاء غير بعيد عن طرف الغابة. ومن طرف الغابة هذا، كانت تلاحظ من بعيد سقوف بيوت القرية. ان الطيار، لم يكن عنده، وكما توقع ذلك لابوتين، تصور من موقع مكان هبوطه، اي هل انه هبط عند جماعته او عند الالمان. انه هبط لمجرد انه رأى ان التخبط اكثر من ذلك صار بلا جدوى، ولانه لم يبق من البنزين كمية كبيرة.

- قال تيخوميرنوف هذا بعد ان هبطوا - حسنا، سأذهب انا للاستطلاع في القرية واعرف منهم. والتفت بهدوء غاضب الى الطيار وقال - اذا ما صرت على علم باسم القرية، فهل سيكون هذا كافيا لتتخذ الاتجاه الصحيح ولو بطريق العودة الى تولا؟

- قال الطيار الحائر - يكفي هذا.

- ليكن بعلمك - انك اذا هبطت مرة اخرى، فستذهب بنفسك لمعرفة الاتجاه.

- اقترح لابوتين - هيا نذهب نحن الاثنين.

- وما الفائد من ذلك؟- سأل تيخوميرنوف، وتضيقت بقسوة عيناه السوداوان الانثويتان وقال - اذا كان من اجل المعرفة فانا اذهب وحدي لأعرف. اما اذا وقعنا على الالمان نحن الاثنين معا، فسنروح كلانا هدرا. وانني لوحدي أكون اسرع بالهروب على كل حال. انظر، اذا تريد ام لا تريد، فانا اصغر منك عمرا مدة خمسة عشر عاما.

وضيق الحزام اكثر على معطف الفرو القصير، واخذ من

كابينة الطائرة بندقية اوتوماتيكية وقال:
- اذا لم ارجع خلال ساعتين، حلقا انتما بالطائرة ولا تنتظراني، لان هذا يعني ان الالمان قد اصطادوني. واذا ستواصلون الانتظار فانهم سيصلون اليكم ايضا.
وابتسم بتكلف كما بدا ذلك الى لابوتين، ومشى يتوغل في الثلج العميق معلقا البندقية الاوتوماتيكية في رقبته.
عاد تيخوميرنوف بعد ساعة ونصف الساعة. وكانت القرية التي شوهدت من بعيد تدعى بودغورنايا. وقد عثر الطيار عليها في الخريطة فورا. وان المسافة منها الى تولا سبعون كيلومترا، والبنزين يكفي لهذه المسافة تماما. وقد حدثه سكان القرية، انه في صباح هذا اليوم، قد اجتاز القرية فصيل من مئة الماني ايضا. وان نصفهم مصابون بتجمد الاطراف من البرد.
قال تيخوميرنوف - لقد افلحنا نسبيا - اذ كان بالامكان ان نهبط في مكان اسوأ من هذا، ولا حيلة لنا بعد الان الا ان نعود الى تولا. ثم اضاف دون اكتراث بان يسمعه الطيار او لايسمعه:- انا لا أحب المغفلين. فان من الممكن لنا ان نجرب الوصول حتى كالوغا، ولكنني اخاف مع هذا الطيار.
وكان في نظره ونظر لابوتين، ان الاخفاق كله في هذا اليوم قد انتهى، ولكن عقبة اخرى قد ظهرت امامهم. فالطائرة واقفة على ارجلها التي هي الواح تزلج، وامتد على ارض الفسحة الغابية ثلج عميق. وان الطيار كلما

حاول ان يضغط على المحرك لتقلع الطائرة من مكانها فانها تغوص اكثر بالثلج ولا تتحرك. وزيادة في التعقيد فانه لم يكن هناك اي احد من حولنا لتقديم المساعدة. ولام تيخوميرنوف نفسه، لعدم اصطحابه اولادا من القرية رجوا منه ان يأتوا معه لمشاهدة الطائرة. وبعد شديد عناء لمدة عشر دقائق قرروا الخروج من هذا الموقف بأية صورة من الصور: فقد بقي الطيار في الكابينة. اما لابوتين وتيخوميرنوف، فقد نزلا في الثلج وشرعا يهزان الطائرة من الجناحين. وفي نهاية المطاف تحركت الطائرة من مكانها، ولكن بسرعة كبيرة جدا، بحيث لم يكن في وسعهما القفز الى داخلها وهي في حالة تلك الحركة السريعة. وسار الطيار مسافة خمسين مترا واستدار بالطائرة وتوقف. وتكررت الحالة الاولى بنفس الصورة مرة بعد اخرى: فالطيار اذا بدأ الحركة من مكانه ببطء فان الطائرة تتوقف وتغوص بالثلج، واذا بدأ الحركة من مكانه بسرعة، فان لابوتين وتيخوميرنوف لا يلحقان بالقفز الى داخل الطائرة.

- قال تيخوميرنوف - هيا نخلع معاطف الفرو، فعسى ان يكون ذلك اخف لنا بالقفز الى داخل الطائرة.

والقيا عنهما بمعطفي الفرو في كابينة الطائرة، واسندا ظهريهما الى الجناحين وشرعا في هزها. وعندما تحركت الطائرة في هذه المرة فانهما استطاعا اللحاق بها والقفز على اجنحتها، وبعد ذلك، عندما اقلعت بهم

من على الارض انـزلقـا الى داخـل الكـابينـة. وقـد سـال العرق مطرا من لابوتين. ولم تستقر انفاسه اللاهثة الا في تـولا نفسهـا، عنـدمـا هبطـوا بـالقـرب منهـا وسـط الظـلام الـدامـس، بحيث كـادت الطـائـرة ان تصطـدم عنـد الهبـوط باسلاك الهاتف.

وبعـد ان عـادا الى تـولا، ذهبـا مبـاشـرة الى المقـر، حيث علما هناك ان من بين الطائرات الست التي اقلعت صباحا، كـانت طائرتنا هي الاولى التي نعود بسلام. فواحدة من هذه الطائرات سقطت في غابة، غير بعيد عن المطار، واصيب الطيار وضابط الاتصال اصابات شديدة،وهبطت هبوطا اضطـراريـا، الطـائـرة الثـانيـة الـتي مـع المـراسلـين الصحفيـين، وان المـراسلـين الصحفيـين، اتصلـوا هـاتفيـا، بـانهم سيعودون راجعين بـأية واسطة بـرية، وليست هنـاك بعد، اية معلومـات عن الطـائـرات البـاقيـة الاخـرى. ومـن الواضح انها ضلت الطريق خلال تهاطل الثلوج، فهبطت كـل واحـدة منهـا في مكـان. والى ان علم تيخوميرنوف عن هذا كله، من مرافق بوستنيكوف، دخل في الغرفة مسرعا، انسان صغير الجسم، بمعطف فـرو قصير تكدس عليه ثلج كثير. وكـان وجهه محمرا، وحـاجبـاه قـد غطاهما الثلج. وبسبب انبهـار عينيـه من الضـوء السـاطـع، فـانـه قـد فـركهما بيـده القرمزية المتجمدة.

ـ هل كنت؟ـ وقف مـرافق بـوستنيكوف على كـرسيه الاستشاري سائلا.

- كنت! - اجاب الشخص بمعطف الفرو الصغير بفرح واضاف- المعارك في الشوارع. واني نزلت في طرف المدينة مباشرة.

- وهذا يعني ان اهنئك بوسام الراية الحمراء!. ان القائد كلمته واحدة، وما دمت قد كنت هناك، فهذا يعني ان كل شيء على ما يرام.

- هل مدير المقر بمكانه؟- سأل الشخص بمعطف الفرو القصير دون ان يرد على المرافق.

- موجود بمكانه، ادخل - اجاب المرافق.

واختفى الشخص بمعطف الفرو القصير، وهو ينقل الخطى بصعوبة بالجزمة اللبادية المتحولة الى جليد، متواريا خلف باب مكتب المقر.

ان هذا بالذات هو نفس ذلك الشخص المضاد للنار، النقيب ارابوف، الذي عاد بسلام من جديد مرة اخرى من كالوغا نفسها.

- اشار تيخوميرنوف الى لابوتين قائلا - اذهب انت لتستريح اما انا فمضطر الى الانتظار. فانني يجب ان أبعث الى رئاسة التحرير برقية ولربما سأخبرهم فيها بشيء مهم. انظر الى الشيطان فانه قد وصل رغم كل شيء.

ورجع لابوتين لوحده الى غرفة تيخوميرنوف. وما ان استلقى على السرير حتى احس فورا بانه ليس في وسعه لا الانحناء بقامته ولا الاعتدال بها. ويبدو انه قد انهك نفسه وهو يؤرجح الطائرة. وكان عنده ألم في بطنه من

الشدة بحيث انه كان يحس بامعائه تتقطع واحدة بعد اخرى بسكين مثلمة الحد.

" لا بأس بها لك من سفرة!"- فكر لابوتين بأسى، وندم فجاة على عدم بقائه في منوسكو. فانه لحد الان، عندما يتذكر زوجته فلا يفكر بندم على مغادرته، ويقول ليكن ما يكون. اما في هذا الوقت فقد بدا له مرة اخرى عدم جدوى اجراء اصلاح ممكن، رغم انه نفسه لا يملك الاجابة عماذا يصلح. وكيف يصلح، ثم هل يستحق شيئا هذا الاصلاح بالاساس. وانه ببساطة مجردة، اراد، بسبب تهافت روحه ان يرى زوجته، ان هذا هو كل ما في الامر.

عاد تيخوميرنوف بعد ساعة، مع غورسكي الذي وصل بصورة غير متوقعة من موسكو. ان هذا الاشقر المتلعثم الذي يعيش في ادارة التحرير حياة الأقامة العسكرية الدائمة وقت الحرب، يسكن بغرفة واحدة مع لابوتين، وانه رغم كونه غير عسكري، بل منتدب للخدمة في دائرة عسكرية، فانه يطالب من حين لآخر من رئيس التحرير بارساله الى الجبهة. وعلى كل حال فانه حصل على هذه الموافقة اذن بالمجيء الى هنا، الى ضواحي كالوغا.

- قال غورسكي من عتبة الباب، وهو يمسح بمنديل، نظارته السميكة - و - وصلت بصفة احتياطي للقائد العام. و- وسأكون معك في الاستيلاء على كالوغا.

- لماذا معي؟

- لـ لأن رئيس التحرير يستدعيك اليه. وكما هو

دائما، فورا وبلا ابطاء وبركضة حصان يحمل ثلاثة صلبان!.

- ولكن لماذا ؟

- لـ - لا أعرف ! فقد اردت ان أ- اضعه في الفريق بحالة "الاستعداد" وان أسأل، ولكني تذكرت فيما بعد انه قـ - قوميسار فرقة، اما انا فـ - فجندي بسيط غـ - غير مسلح، فغيرت رأيي.

- توجه يتخوميرنوف بسؤال الى لابوتين - هل ستسافر في هذا اليوم؟ ثم التفت برأسه الى غورسكي واضاف - فاذا كنت ستسافر بسيارته فهي الان في المرآب، وستكون جاهزة في خلال ساعتين.

- قال غورسكي - انه يكذب، فقد أ- ارسل سيارتي الى جهة ما، من اجل ط - طعام وفودكا. انني اعرفه...

- قال تيخوميرنوف دون تأكيد او نفي لكلمات غورسكي - انكم هكذا كلكم شياطين ارستقراطيون. وأضاف قائلا وهو يتوجه في وقت واحد الى لابوتين وغورسكي - عندما نحتل اية قرية مثل بوشوكينو، فاننا مراسلون دائمون، لأجل مثل هذا، اما اذا مثل كالوغا فانهم يبعثون المراسلين واحد بعد اخر مثل الجوقات الاحتفالية.

- قال غورسكي- ولكنك انت لـ - لا تتذمر. فان عندك في تولا اولا، وبحسب معلوماتي، توجد امرأة جميلة..

- الافتراض غير مدعوم بالحقائق الفعلية!

- ولماذا انت تنكر ذلك. أنك اعزب! وعلى العموم فأنك تعيش في بحبوحة في كل مكان.

- قال تيخوميرنوف - انني سوف لن اعطيك فودكا، وعند ذاك ستعرف كيف تتحدث معي.
- انت لست جديرا بهذه أ- النذالة أ- الكبيرة.
- قاطعها لابوتين - اذن في خلال ساعتين ستكون السيارة جاهزة؟
- قال تيخوميرنوف - ستصل انت في الساعة الثالثة ليلاً والا فيمكنك المكوث هنا حتى الصباح؟
- قال لابوتين، وفكره دار ثانية حول زوجته - مادام يجب ان اسافر، فسأسافر اليوم.

وبعد ساعة من الزمن، عندما قلت لهم العجوز ربة البيت طبقا سميكا من البيض القروي، وقام تيخوميرنوف، عكس ما هدد به، بوضع قنينة خمر على المائدة، دخل في الغرفة ايضا، اثنان آخران من المراسلين الصحفيين، هما أولئك اللذان هبطا هبوطا اضطراريا، ثم رجعا بواسطة نقل برية. وان احدهما هو المصور الفوتوغرافي خليبينكوف من جريدة "برافدا" وكان صموتا الى درجة لا تطاق، على النقيض من جميع المصورين الفوتوغرافيين الآخرين. اما الآخر فهو الملقب توليكوف، وانه شخص وسيم ضخم الجسم كث الحاجبين، واختصاصي بكتابة المقالات الافتتاحية. وقد ظل جالسا في موسكو طول ايام الدفاع عنها دون ان يفارقها، ولكنه لم يتوجه للجبهة عن رئاسة تحرير جريدته بموسكو الا للمرة الثانية كما يبدو. وكذلك فهو على العكس من حالة منظر خليبنيكوف، حيث

انه تخنقه الرغبة علنا في ان يكتب بسرعة عن جميع احداث اليوم الجاري. وكان في نفس الوقت متغطرسا، وسليم القلب، ثم انه عندما تطرق الحديث حول المائدة الى الكلام عن اؤلئك الذين نزحوا في الجلاء عن موسكو وعن الذين بقوا فيها، فان غورسكي الذي لا يرحم ابدا مثل هؤلاء الناس شانه في ذلك شأن توليكوف قد امسك به من خلال نظارته فورا وبصورة ساخرة.

ان توليكوف الذي سكر في مكان غير هذا، في الطريق، بعد الهبوط الاضطراري، ثم حالما وصل الى تيخوميرنوف، اختطف قدح شاي من الخمرة الرديئة الممزوجة بالماء ومتحها بصورة كارتونية، وبدأ يشرح بمبضع اسلوبه المنمق، من وراء المائدة، كل من هرب من موسكو في السادس عشر من تشرين الاول - اكتوبر. وزيادة عن طبيعته الحادة وصفاء سريرته، امتزج معهما الان حافزان اخران هما السكر والمعاناة السابقة. وقد سمى جميع الذين غادروا موسكو بلقب "كويبيشيفيين" و "طشقنديين" (نسبة الى مدينة كويبيشيف ومدينة طشقند اللتين هاجر اليهما النازحون من موسكو - المترجم)، وشرع يتحدث عن يوم السادس عشر من تشرين الاول - اكتوبر، وكأن هذا اليوم قد صار خطا تاريخيا عالميا فاصلا بين جميع الذين هاجروا وبين جميع الذين بقوا.

- قال وهو يعبث بيده في شعر حاجبيه الأشقرين الكثين الكبيرين بصورة غير طبيعية - اننا سوف لن نغفر

لهم ذلك، ولو انهم عندما سيعودون بسلام سيطالبون بالتأكيد، ان يعود كل شيء الى ماكان عليه من قبل. انهم الان يحتمون، ولكنهم سيطالبون فيما بعد بالحلول في مناصب اولئك الذين سيقضون نحبهم منا، ومن ثم سيرتقون بالمناصب على حساب عظامنا.

- وتقدم غورسكي فجأة بطرح هذا السؤال - ماهو ف - في رأيكم لو ان نضع في مكان من يستشهد منا ابراجا عاجية ولوحات تذكارية ؟ وكأننا نقول لهم فيها هاانتم م - متم، ووضعوا لـ - لوحة تذكارية في مكان منضدة ع - عملكم في غرفة التحرير ؟ وانه ليسرني كيف انتم تـ - تتصورون ذلك ؟.

- قال توليكوف محتدا ودون أن يلتفت الى سخرية غورسكي - انني ارى ان توضع وصمة عار ، مدى الحياة، على كل واحد من اولئك الذين هربوا من موسكو في هذه الايام الحاسمة.

- سأل غورسكي - و - واين توضع ؟ أين بالذات ؟

- قال تيخوميرنوف - انتظر ياهذا، فأنت تشوش عليه، اما ترى انه انسان يتفرقع...

- انا لا اشوش عليه، ولكنني يهمني ببساطة أن أ- أرى عـ - عمليا، اين ينوي ان يضع وصمته: فأذا كان سيضعها على الجبين، فأن هذا سيشوه بـ - بعض أ - القريبين لي، ومن بـ - بينهم نساء بالذات. واذا كان سيـ - سيضعها تـ - تحت أ - الفقرات أ - القطنية قـ -

قليلا فأن هذا المكان عـ عملي بـ - بمستوى كبير، واني على استعداد لـ - لتأييده في عدد من الحالات !.

- زعق توليكوف بعدما أدرك السخرية بالاخير - كفاك انت من التنكيت ! انت تهرج بينما انا اتكلم كلاما جديا !.

- أ - اذا كان هذا جديا فأنا اتأسف !. لأني لحد الان اعتبر من السذاجة انكم تتحدثون حديثا جديا. اما اذا أردتم الجد... فانتظروا !. وبعد أن امسك غورسكي بالقلم، اخذ يدق به على المنضدة وقال - اذن انتم رجوتم الان: بالجد ! اذن ا - اسمعوا الان. من تكون انت ياتوليكوف اذا اردنا الكلام جديا ؟. هل من الممكن انك طلال خان او غاستيللو ؟ او قد تكون انت قاصف الدبابات، او جندي مو- مو- مو... اراد ان يلفظ كلمة مشاة، ولكن التأتأة أمسكت بلسانه اكثر من المعتاد، فلوح بيده علامة العجز وقال - جندي على العموم ؟ ومن تكون انت، ثم ماذا حصل بالذات من وراء انك بقيت في موسكو ولم ترحل عنها ؟. لقد بقي في موسكو عشرة أ - الاف بـ - بواب: وان تسعة ا - الاف منهم بقوا، لـ - لأنهم لم يتسلموا أ - أمرا بالمغادرة، وان تـ - تسعمئة بقوا لـ - لأجل سرقة الشقق الخالية. اما العشرات المعدودة الباقية فانهم بـ - بسبب عـ - عدم وجود أ - أي شيء عندهم، كأفتراض مق - مقبول، ضد دخول الالمان. فبأي شيء انت تمتاز على هؤلاء البوابين ؟

- قال تـوليكـوف ـ عليك أن تفهـم بـأن هـذا الكـلام يستحق اللطم على الوجه.

- اعذرني رجاء، فأنت لم تفهمني ـ قال غورسكي ذلك بهدوء واضاف ـ انني اتكلم عن اولئك أ ـ المحترمين تـ ـ تماما، الذين هم مثلك، لم يهاجروا بـ ـ بسبب انهم لم يصدر لهم امر بالاخلاء. هكذا هو الأمر، فبأي شيء انت افضل منهم ؟ و ـ ولماذا هم لا يجلسون و ـ ويلقون مثل هذه الخطابات امام كـأس الفودكا، التي هم لا يملكونها بـالمناسبة، لان اللتر منها في موسكو يساوي ثمنمئة روبل، اما انت فتجلس وتلقي مثل هذه الخطب ؟ فماذا جرى ؟ لقد امروك فجلست تـ ـ تكتب ا ـ افتتاحياتك. أ ـ اما الاخرون فقد صدر لهم الامر بالمغادرة فغادروا. ولكن هناك نوعية ثالثة لم يـ ـ يصدر لهم الامر بالرحيل ورغم ذلك فأنهم قد رحلوا... وطبيعي ان هذا امر محزن، ولكن مثل هذا ليس قليل الحدوث حتى في الجبهة ايضا، حيث ليس الجميع قد انسحبوا بموجب أ ـ الاوامر فـ ـ فقط. اما انت فـ ـ فحاول ان تـ ـ تتصور كيف يشعر كـ ـ كل واحد من اولئك الذين بقوا في سمولينسك على سبيل المثال.

- قال توليكوف بحماسة ـ انني لم اعتقد ابدا بأنهم سيحتلون موسكو.

- ومن الممكن ا - انهم ايضا لم يعـ ـ يعتقدوا حتـ ـ حتى اخر دقيقة بأن الالمان سيـ ـ سيحتلون سمولينسك ـ

قال غورسكي ذلك وتنهد.

وكذلك فأن لابوتين، وهو يسمع الحسرة الحزينة لهذا الانسان الجدي، قد تذكر فجأة تصوراته الشخصية القريبة من هذه الافكار، وذلك عندما كان ليلا في اودويفا في اللجنة التنفيذية المحلية...

- سأل توليكوف بذهول - وماذا انت تريد في نهاية الأمر ؟

- انني اريد شيئا بـ - بسيطا جدا، هو ان تفكر أ - أكبر قليلا من هذا الكرسي او المنضدة - وطرق غورسكي المنضدة بالقلم عندما قال هذه العبارة.

- حسنا، أنني لأبصق على جميع هذه النكات منك، وليأخذك الشيطان اريدك ان تجيبني مباشرة عن هذا السؤال: لماذ انت مثلا لم تغادر ؟

- هز غورسكي كتفيه وقال - لـ - لا ادري. واولا، ان رئيس التحرير قال لي بصورة غير واضحة جدا: " بامكانك انت ايضا السفر الى كويبيشيف ؟". ولكنني لا أ - احب عندما يقولون لـ - لي " بـ - بأمكانك ". وثانيا، فأنت تعرف بأنني متفق معك في هذه النقطة، وهي انني لم اعتقد أ - أيضا بأن الالمان سيحتلون موسكو...

- هذا هو الصحيح. اما الآخرون فلم يكن عندهم مثل هذا الاعتقاد فهربوا. والكلام يدور حول هذه النقطة بالذات.

- قال غورسكي - ولكنني لا اعرف بـ - بالمناسبة، لـ

- لماذا ماكنت اعتقد بذلك. انه مـ - مجرد عدم اعتقاد لا اكثر !، مع انه في السادس عشر من تشرين الاول - اكتوبر كان يـ - يمكن ان اعتقد بذلك كل الاعتقاد. وكذلك فأني لا ادين أ - الناس الذين اعـ - اعتقدوا بهذا...

- قال توليكوف - هراء. فأن الذي لم يكن يثق في اننا لن نسلم موسكو، فأن هذا لا يؤمن بالنصر.

- عفوا، ان في هذا لا يوجد اي تشابه.

- هل أنت تفترض باننا لو كنا قد سلمنا موسكو، فأننا سننتصر رغم ذلك ؟

- تماما. وانني أ - أستطيع حتى ...

- فقط بدون امثال تاريخية مشابهة - قال ذلك لابوتين، وهو مايزال مستلقيا على السرير، ويعرف ان غورسكي اختصاصي بالتاريخ، ويحب ان يتألق بمعلوماته.

- حـ - حسنا ! - قال ذلك وعقلت لسانه التأتأة، فأبتسم ابتسامة قصيرة ورفع كلتا يديه عاليا.

- آه، الى اي حد انتم اذكياء ! قال توليكوف ذلك، وهو يتطلع من حوله، لانه ادرك ان من جادله لم يكن غير غورسكي، الا ان الميول لم تكن الى جانبه، فاضاف يقول - ولكنني سوف لن اسامح حتى يدخلوني بالتابوت، كل من هرب في تشرين الاول - اكتوبر. انني لن اسامح. وهذا كل شيء هنا !.

رفع غورسكي كتفيه وهو صامت.

- قال لابوتين - يالها من تفاهة ! لن انسى، لن اسامح ! انك بحسب طبيعتنا الروسية المتسامحة، ستنسى وستسامح حتى ذلك الذي لا يجب ان تسامحه !.

ودخل في الغرفة سائق رئاسة التحرير، وفي يديه كيس من الاشياء.

- أين اضع الكيس ايها الرفيق قوميسار الفوج ؟ قال السائق متوجها الى تيخوميرنوف. واضاف بأن حصة الطعام تم تسلمها كاملة باستثناء طحين المزج.

أن غورسكي كان على حق دائما. فهذا تيخوميرنوف قد أرسل فعلا السيارة من اجل حصة الطعام. وبعد خمس دقائق نهض لابوتين من السرير وهو يتأوه، وتوادع مع الرفاق، وارتدى لباسه وخرج متجها للسيارة.

- اسمع ياصـ - صديقي - قال غورسكي بجد وهدوء، وهو بمعطف فرو قصير ملقى على كتفيه، وخرج ليودعه حتى السيارة - ارجو ان لا تنزعج لاني جـ - جئت بدلا مـ - منك. فـ - ففي الحقيقة اني قد رجوت هذا من قبل، ولكنه رفض طلبي أ - آنذاك. اما أ - الآن، فأنه استدعاني بنفسه فجأة وقال: "سا- سافر لـ - لتستبدل لابوتين!". وانني بـ - بحسب علمي، فأن ز - زوجتك جلست عنده في أ- الليل يوم أ - أمس ساعة كاملة وبللت بدموعها الجلد الاخضر كله فوق المنضدة. فعلى كل وحسب ر - رأيي ان عندك هناك بالأسرة حالة سيئة. ولهذا فهو قد أعاد اللعبة: أ - أنا هنا، واما أ - انت ففي مـ - مكاني.

وحتـ - وحتى انه طلب ان أ - أخبرك بأن باستطاعتك ان لا تـأتي الى أدارة التحـريـر أ - اليوم لـ - ليلا، وان تـذهـب مـ - مباشـرة الى البيت، الى زوجتك، وان لا تـذهـب أ - اليـه الا غـدا فقـط. وهـذا أ - السلوك كـان غـ - غـريبـا منه، بحيث انني أـ اضطربت أـ أيضـا. اعـذرني أنت لـ - لكـوني متشـائـما، ولكـني لا اريـد ان تـصـل اليهـا في أ - البيت في حـالـة التجرد العـام التـام من السـلاح... أرجـو المعـذرة. ولكـنـني في الصـداقـة انسـان ثقيـل...

- والخفاف بالصداقة موجودون بوفرة - قال لابوتين ذلك، وشد بقوة شاكرا، على يد غورسكي، على الرغم من ان امعاءه كنت تنشر في قلبه.

ونام لابوتين طول الطريق الى موسكو مطروحا على المقعـد الخلفـي للسيـارة. وصـار الألم في بطنـه امـا ضعيفـا او انه تعوّد عليه.

"يبدو انه لا يوجد شيء خطر بشكل خاص، وسأستلقي للراحة يوما واحدا وبعده سيزول كل شيء". - هكذا فكر مطمئنـا نفسـه ، وهـو يـرتقـي درجـات السلـم الى شقتـه في الطابق الخامس.

وفتحت الباب غيليا التي كـانت تـرتـدي رداء كسينيا وفوقه معطف قطني قصير، وفي اسنانها سيكارة لف من ورق الجرائد يتصاعد منها الدخان.

- اين كسينيا، هل هي نائمة ؟

- لقد ذهبت بالطائرة - قالت غيليا ذلك بصوت خال

من الفرح، رغم كل شعورها العدائي نحو لابوتين.

- والى بئس المصير! - صرخ لابوتين بصوت مبحوح نوجيء به، والقى في الزاوية كيس المتاع، ودخل الغرفة، ثم جلس دون ان يخلع ملابسه، باستثناء زرين اثنين فكهما من معطف الفرو القصير.

اسبلت غيليا يديها امامه وظلت تواصل التدخين من سيكارة اللف اليدوية، - انتظارا منها للتحقيق.

- وجه لابوتين سؤالا متحديا الى غيليا - لماذا تنظرين الي يا انغلينا سرغيفنا؟ هل تظنين انني منزعج؟

- انها خانتك من قبل، وتخونك الان اما انت... - قالت غيليا كلامها بصوت هادىء لا يشبه صوتها، وهي تولي بوجهها عن لابوتين لتنظر الى شيء في الزاوية.

- وانا اعرف ذلك ليس بأقل مما تعرفين - قال لابوتين ذلك وهو يكذب عفويا وفورا ليتحاشى الدخول بالتفاصيل. فأنه ماكان يعرف ذلك، او انه لم يكن متأكدا على العموم، ولكنه ظهر له الان انه يعرف. وان هذا كله ليس له الان ذلك المعنى الذي كان له يوم امس. وعلى الاقل فأنه صار يبدو له هكذا في هذه اللحظة.

- وقال لها - سخني لي شايا. وانه اذا يكون سريعا وكذلك قويا، فاعدك بانني لن ازعجك في هذا اليوم. وهذا وعد شرف.

نهضت غيليا طائعة وخرجت من الغرفة، اما هو وبدون ان يقف امتد نحو الهاتف وطلب رقم رئيس التحرير.

ظل رئيس التحرير مدة طويلة لا يأتي الى الهاتف كما ان السكرتيرة استمرت عدة مرات تكرر عبارة: " الان انتظروا دقيقة اخرى !". ويبدو انه يجري توقيع الاعمدة الاخيرة من قبل رئاسة التحرير. وفي الاخير جاء في سماعة الهاتف الصوت الجاف لرئيس التحرير.

- ولكنك لماذا لا ترقد للنوم ؟ هل اضجرتك الحياة العائلية ؟ ان باستطاعتي ان استدعيك !.

- استدعني - قال لابوتين، وبصوته قد اهتز كما يبدو شيء ما رغم ارادته، وان رئيس التحرير قد أدرك ذلك. وهل لديك سيارة ؟

- كلا. لقد صرفتها .

- سأرسل اليك سيارة حالا - قال رئيس التحرير ذلك وعلق سماعة الهاتف.

- ناول لابوتين الى غيليا، علبة سكائر "بيلومور" عندما عادت، وبعد أن ملأت لكل منهما كوبا من الشاي، وجلست مرة اخرى قبالته، وقال لها - خذي دخني.

- شكرا، فأني قد صرت متعودة على سيكارة اللف.

- اجيبيني ولكن فقط اجابة صادقة. لماذا انت قلت لي ذلك فجأة الان ؟ فهل انت قد تشاجرت معها ؟ - سألها لابوتين وهو سعيد لكونه يمثل حالة الهدوء بنجاح كبير جدا.

- ليس باقل مما في كل مرة قبل هذا الوقت.
- فلماذا اذن ؟
- قالت - لا ادري، ولكن لربما انه مجرد الملل من الاطلاع على كل هذا، عبر هذا العدد من السنين. وكذلك نأنني قد نظرت اليوم الى وجهي في المرآة فجأة، وتذكرت بأني من حيث الحقيقة ، مازال امرأة شابه، ومن عمرك. الا ترى ذلك ؟ - ورفعت عن جبينها، شعرها الملبد المصبوغ وعرضت جذوره البيضاء.
- ولكن ماعلاقة هذا بذاك ؟
- لا ادري. يبدو انه توجد علاقة. - وبعد صمت قليل اضافت تقول - انه شيء جيد انني لم اذكر لك اي شيء جديد.

وسمع لابوتين من خلف زجاج النافذة بوق سيارة نهض.

- ماذا بك. هل ستسافر مرة اخرى الى الجبهة؟
- لا بد من ذلك. ولكن لماذا السؤال ؟
- اذا كنت سأترككم فسأحمل المفتاح اليكم في رئاسة التحرير.
- ولأجل ماذا تغادريننا؟
- من المحتمل ان اشتغل ممرضة في مستشفى عسكري. كما انك غير مستعد لأن ترسل لي بطاقتك التموينية؟
- غير مستعد لذلك.
- وليس هناك من هو مستعد لذلك. وانا يجب ان

احصل على لقمة العيش. وبالاضافة الى ذلك فأحس بأنني لازمة ليس فقط لسيدتنا، سيدتي انا وسيدتك انت!.

ان لابوتين يسمع لأول مرة حسبما يذكر، ان غيليا تتحدث بهذه الصورة عن كسينيا.

" بالتأكيد، انهما تشاجرتا شجارا عنيفا - فكر لابوتين وقال - انها لمدة اشهر ثلاثة. ولكنه على كل حال قد يمكن ان تمتد فجأة الى قطيعة نهائية ؟ ان في الحياة يحصل حتى مثل هذا ".

- اترك لي علبتك من سكائر "بيلومور" ولا تبخل بها - تكلمت غيليا وهي تسعل سعالا عميقا، وذلك عندما مد لابوتين يده لتناول العلبة، وهو ينهض من وراء المائدة. واضافت قائلة - والا فانا قد تحولت مع سكاير اللف اليدوي هذه، الى رجل فلاح. لقد سألتني لماذا اخبرتك بذلك ؟ من الممكن ان ذلك بسبب الحرب، وان كل هذا في زمن الحرب مثل ذلك... ولم تكمل جملتها. ثم قالت - اذا خرجت منكم فسأنظف هنا كل شيء واغلق الباب. فلا تقلق.

- انا لا اقلق.

ولبس لابوتين القبعة وزرر معطف الفرو القصير وخرج معها الى الدهليز.

- هل أنت قادرة ان توضحي لي، لماذا هي ذهبت يوم امس الى رئيس التحرير تستعطفه من اجل ان اعود انا؟ ولأجل ماذا كانت هذه المهزلة ؟ سأل لابوتين وهو يمسك

بيده مقبض الباب. وقد احس وهو يتكلم عن ذلك بجيشان الغضب من فكرة حدوث توضيح اخر قادم مع رئيس التحرير.

- وهل انك صرت الان فقط على علم بمزاجها المتقلب من ساعة لأخرى ؟ - اجابته غيليا اجابة حاقدة بسؤال على سؤال وقالت - اما بصدد أنني حمقاء، فأنك كثيرا مافهمتني بذلك. واما بصدد كونها حمقاء فأنك لم تلاحظ ذلك على مدى خمسة عشر عاما ؟

احنى لابوتين رأسه لها موافقا وخرج. اما هي فقد ظلت تنظر اليه من ورائه، دون ان تغلق الباب، وسحبت من جيب الرداء الرسالة المعنونة اليه من سيونينا (اسم التصغير لاسم كسينيا - المترجم) المليئة بالكذب والعواطف المبتذلة، وقطعتها مزقا صغيرة بأصابعها المصفرة من دخان التبغ.

وعندما دخل لابوتين في مكتب رئيس التحرير كانت جميع اعمدة الجريدة جاهزة، ونزل العدد الى ماكنة الطباعة، ولكن رئيس التحرير لما يزل غير مستلق للنوم بحسب عادة الجرائد القديمة، وذلك انتظارا منه للموزع حتى يجلب له الرزمة الاولى من الجرائد العابقة برائحة الحبر. ويتندرون في رئاسة التحرير ان رئيس التحرير لا يضطجع للنوم الا بعد ان يشم رائحة الجريدة. وتندروا زيادة على ذلك بمسحة من الاحترام : اذ قالوا ان رئيس التحرير عرف قضيته اما الناس فأنهم يقدرون ذلك في الرئاسات الثقيلة.

- قال رئيس التحرير عندما دخل وهو يرى لابوتين ممددا بكامل جسمه من التعب فوق الكرسي - هل وصلت ؟ اجلس فالان سيقدمون لنا الشاي. ثم كيف سمحت لك زوجتك بالخروج الان...

- قال لابوتين وهو جالس - انها سافرت بالطائرة.

وصفر رئيس التحرير واراد ان يجيب بكلام جارح - انه ليس من عادته البحث في الجيوب عن كلمة - الا انه في هذه الدقيقة إرتدع عن الكلام، لأن السكرتيرة قد دخلت وهي تجلب الشاي. والى ان وضعت المناديل على المنضدة وفوقها الشاي والبسكويت الجاف، نظر الى لابوتين، وتذكر كيف ان زوجته قد جلست يوم امس في الليل وبهذا الوقت بالذات في نفس هذا المكان.

انه كان حتى مساء امس لا يعرف زوجة لابوتين، فهي لم تكن مشتركة لا في عملهم ولا في صداقتهم. وهو لم يكن يعرف اكثر من ان لابوتين عنده زوجة حسناء واصغر منه عمرا بكثير. ان هذا هو كل ماكان يعرفه. وكانت مقابلة يوم امس قد تركت في ذاكرته انطباعا طويلا من التشويش. وانه فكر انذاك، وحتى من قبل هذا، وبصورة مفاجئة، بأنه يوجد لدى هذه المرأة الحسناء السهلة الدموع، جانب جذاب بالتأكيد لزوجها، ولكن الحديث معها يبعث على السأم. انها بكت وتكلمت عن العديد من العوائل التي دمرتها الحرب امام عينيها، وتوسلت به ان يستدعي زوجها الى موسكو حتى ولو ليوم واحد، لأجل ان لا

يحدث لهما ماحدث لتلك العوائل - ولكنها الان وعندما استدعينا زوجها فأنها - بلا مرحبا - قد طارت دون ان تنتظر لابوتين:

- سأل رئيس التحرير بعدما خرجت السكرتيرة - ماذا ستصنع الان ؟

- سأنتقل عائدا الى حياة الجندي القديم - لقد عرف لابوتين معرفة صلبة، ان تلك الحياة، بما كانت عليه، لم يعد لها وجود، دون ان يقلل ذلك او يضاعف من عذابه، ودون ان يعرف كيف ستكون حياته في الوقت الراهن. ان شعور اللاعودة قد قتل فيه الألم.

- ولكنه يمكن ان اعطيك اجازة فتطير اليها بنفسك لأيام... - واراد رئيس التحرير ان يتكرم ويقول لثلاثة ايام، ولكن طبيعته غلبت عليه فقال: ليومين اثنين ؟

- قال لابوتين - شكرا . لا اريد ذلك.

- سأله رئيس التحرير - ولكنها لماذا مرت علي هي، على العموم، فهل تتمكن انت ان تشرح لي ذلك ؟

- لا استطيع - تكلم لابوتين بتجهم. فقد صار الان يحس بالخجل من كل شيء، بالخجل من استدعائه ومن مرورها على هذا الانسان المشغول جدا والمنهوك جدا، وسرقة وقته على حديث سخيف ومع امرأة سخيفة. واضاف قائلا وهو ينهض من الكرسي - اما بصدد الاجازة، فأنك ان كنت ترى هذا ممكنا لمدة يومين او ثلاثة فاعطني انت هذه الاجازة.

- لماذا ؟

- حتى اطير الى ابنتي، فهي الآن مع المدرسة في قرية قرب مدينة غوركي.

واستغرق رئيس التحرير في التفكير. فهو لديه في روحه القوية وتر ضعيف، وهو ان ولده الوحيد سينهي بعد اسبوع، دورة الضباط برتبة ملازم ثان، وان رئيس التحرير، يتصارع كل يوم تقريبا مع الرغبة المخجلة، في أن يتناول سماعة الهاتف ويتصل برفيقه القديم في ادارة المؤخرة، لكي ينسب مصير ولده، ولو في بداية الأمر، في مكان تكون فيه الخشية قليلة على حياته. وانه سعى ان يقنع نفسه بنفسه، بأنه لم يتراجع شخصيا في اي يوم من الايام ، امام الأخطار، بل بالعكس، فهو قد كان يبحث عنها. وبناء على ذلك، افلا يحصل هو لنفسه على حق التفكير بولده ؟ ولكن سماعة الهاتف تستلقي في اللحظة الاخيرة صامتة كل مرة على النابض، ويظل الرقم غير مزول.

ان رجاء لابوتين قد جعل رئيس التحرير مجردا روحيا من السلاح.

- قال رئيس التحرير - حسنا خذ طائرة الى هناك. وباستطاعتك ان تطير حتى بعد غد، اذا استطعت ان تنجز غدا افتتاحية رأس السنة قبل المساء. وكذلك يوجد هنا أيضا شيء ما بقي من غورسكي، فأقتل الوقت بتصليحه حتى موعد الطيران. وبعد ذلك قدم رئيس التحرير حزمة كاملة

من مواد التصحيح، وراح مرة اخرى يختبر نفسه فكريـ. أليس هو يقدم تساهلا الى لابوتين، فكرر القول عليه: ـ سافر بالطائرة!. انه احب لابوتين حسب ذوقه، وما اخفى صداقته معه. ولكنه لهذا السبب بالذات كان يسوقه الى الامام والخلف وبلا رحمة اكثر من جميع المراسلين الصحفيين الآخرين، لغرض ان لا يستطيع احد أن يؤاخذهما. اجل ان اجازة لمدة ثلاثة ايام، بعد نصف سنة من العمل في الجبهة هي من العبث ان يسعى المتصيدون للعثور فيها على موضع للانتقاد... ولكنه مع ذلك لم يستطع صبرا فقال مايحث لابوتين على بذل الجهد لكي يجلب معه من غوركي بعض المواد المتعلقة بجبهة المؤخرة للجريدة.

ونظر اليه لابوتين نظرة عتاب تقول: ولكن لماذا مثل هذا البخل ؟

- اجلب مثل هذه المواد وخذ بنظر الاعتبار علاقتنا: لغرض ان تكون بعوضة تعض الانوف....

هز لابوتين رأسه موافقا وقال.

- حسنا، لغرض ان تكون بعوضة للانف...

وتوقف لابوتين عن مراعاة موقفه ونفسه فأتخذ وجهه تعابير حزينة.

- يمكن انك تريد ان تشرب ؟ ان عندي قليلا من الفودكا ـ سأل رئيس التحرير ذلك، ومثل هذا الاقتراح غير اعتيادي في فمه. وقد فهم لابوتين قصده.

- قال لابوتين - شكرا فأني لا اشرب على ألم. وسأذهب للنوم. وخرج وهو يتفاوت عند الباب مع الموزع الذي حمل حزمة من الجرائد الجديدة.

وبعد أن دخل في غرفة ادارة التحرير العائدة له خلع لابوتين الجزمة اللبادية واستلقى على السرير طاويا يديه من خلف رأسه.

وعلى سرير غورسكي، كان مرميا ومفتوحا وكعبه الى الاعلى، جزء من كتاب "نابليون" للكاتب تاريل، ومن تحت الوسادة برزت اردان قميص- اخفي على عجل هناك وطرف ربطة عنق.

" ومن المحتمل انه الان ينهض هناك مع تيخوميرنوف للطيران الى ضواحي كالوغا " . - تذكر لابوتين ذلك، وهو ينظر الى عقارب ساعة الحائط وهي تقترب من الساعة السادسة.

وبعد ذلك شرع يفكر بابنته. ان القرار بالطيران اليها قد افرحه بصورة مفاجئة، ولكنه الان صار يبدو له ضروريا. وجرب ان يتصور لقاءه معها. ومن الطبيعي انها ستكون سعيدة وفخورة بعض الشيء، لأن الاباء ليس كثيرا ما يجيئون اليهم هنا من الجبهة.

ولكن ماذا بعد ذلك؟ هل يخبرها بما حدث ؟ اجل ، ويجب ان يخبرها. ولكن كيف . ان البنت هي بدون ذلك ليست سعيدة سعادة كافية. وهو لم يشعر بنفسه مذنبا امام ابنته بصدد قراره تطع العلاقة مع امها. واذا ظهر

انني كنت المذنب، فأنما ذلك على الارجح لانني لم انفذ هذا القرار منذ مدة طويلة قبل هذا الحين، عندما ذهبت لوحدي الى الشرق الاقصى لمدة عام كامل. فانذاك كان بالامكان تماما ان اصطحب البنت معي ، وان كسينيا سوف لا تستطيع بالتأكيد الرحيل عبر كل هذه المسافات الطويلة لتأخذها، لأنها سوف لن تكفيها مؤونة البارود !.

" انني الان اصحح هذا الوضع - فكر لابوتين بدون وعي منه، ومن ثم سأل نفسه بصرامة، وهو يثور فجأة تقريبا على سذاجته: كيف ومتى ؟ "

وقطع عليه افكاره رنين جرس الهاتف.

- قالت السكرتيرة بصوت غاف - ايها الرفيق لابوتين، ان رئيس التحرير يطلبكم ان تذهبوا اليه.

كان رئيس التحرير الذي فر منه التعب كله، قد وقف مع سماعة الهاتف بيده، وهو يضع على الكرسي، رجله بجزمة نظيفة جدا من جلد الكروم اللماع، ويتلاسن بفرح عبر جهاز الهاتف.

-لابأس مع عريف الاتصالات! ولكنك انزل واحدا من مراسليك الاثنين، وضع مكانه الشخص العائد لي. كلا، اريد هذا غدا بالذات، او بصورة ادق في هذا اليوم!، وذلك لكي يكون في هذا اليوم نهارا في نوفورسيسك على الاقل. هل اقنعتهم ؟ اذن شكرا - واتمنى لك ليلة سعيدة!

ووضع السماعة بسرعة على نابض الهاتف.

- بدأت قواتنا اليوم انزالا في كيرتش وفيودوسيا،

فتصور انت ذلك !. فبمن سأبعث الان الى هناك، ها ؟ -
والتفت بوجهه بسرعة نحو لابوتين وقال - ان الطائرة
ستقلع في خلال ساعتين، اي في الساعة الثامنة من مطار
عريف المواصلات. وانني سمعت لتوي بانهم انزلوا احد
المراسلين ! كيف ان هذا لايدفع على الاغراء ؟ القرم !
ها ؟

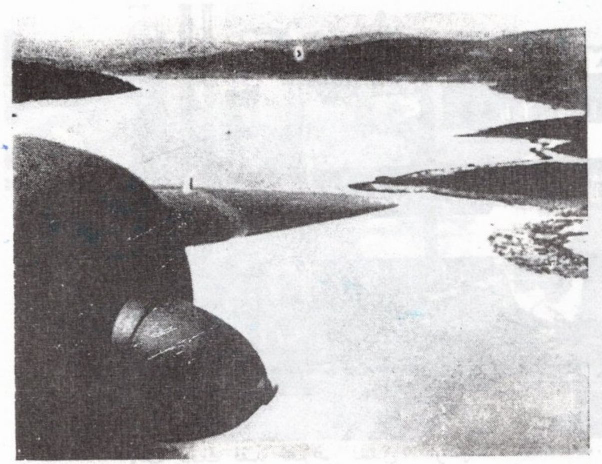
أن رئيس التحرير كان قد اتخذ مع نفسه القرار
بأنه سيبعث لابوتين على كل حال. فالموضوع يدور حول اسم
الجريدة، وهو في مثل هذه الحالات لا يرجم اي واحد، غير
انه رغب الى جانب ذلك، ان لابوتين سيستجيب من ذاته
للذهاب جوا الى هناك.

ولكن لابوتين استمر في صمته ولم يبد الاستجابة
المنتظرة.

- ولكنك ستذهب الى ابنتك حالما تعود. وهذا كلام
ثقة اعطيه لك. تكلم لماذا انت ساكت ؟

-انني اجرب صبرك، وكم دقيقة خصصت انت لاقناعي -
وابتسم لابوتين وقال - اصدر امرا بأيقاظ اي شخص عنده
جزمة قياس واحد واربعين ، واجبره على اعطائها لي.
فأنني ليس عندي هنا سوى الجزمة اللبادية. واما في
القرم فهناك ايضا المطر غزير...

١٩٥٦-١٩٦٣



الطائرة حلقت فوق البحر، وبعد ذلك، فوق الرحاب الواسعة، لجزيرة كولسك الخالية من الناس.

ضواحي مدينة مورمانسك التي احرقتها القنابل.

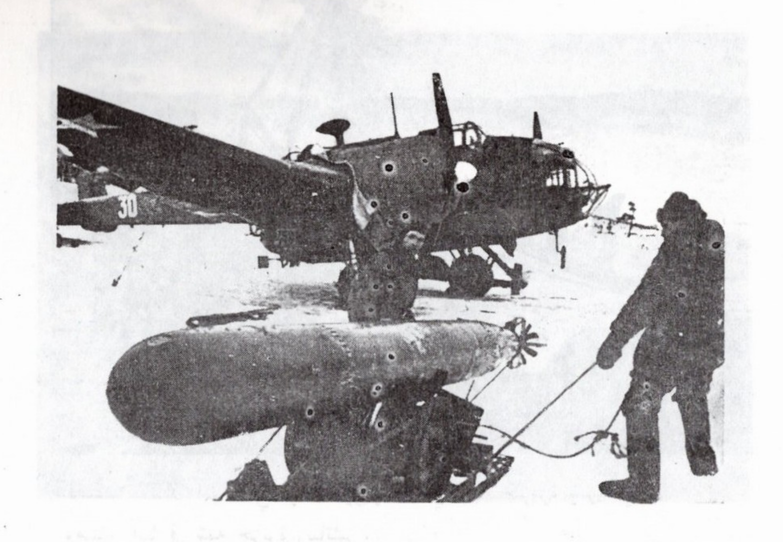




ومع ذلك فقد تعرض فندق "اركتيكا" للقصف. فيما بعد.

بعض الانكليز يلعبون كرة قدم وسط ساحة ثلجية.

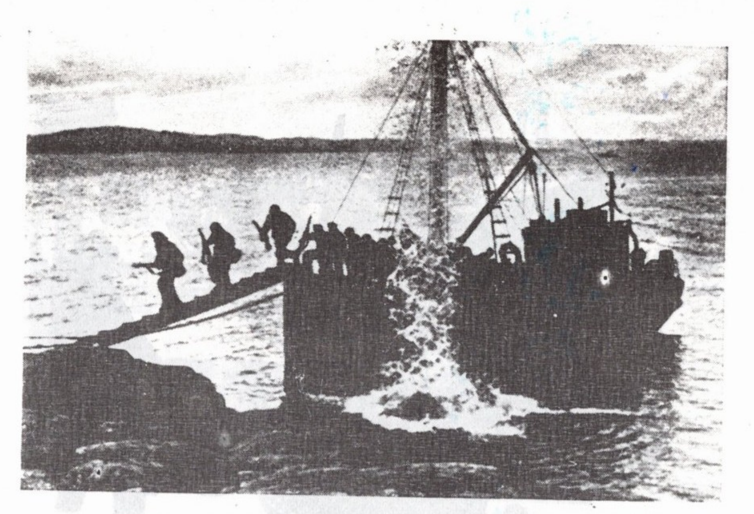




ذهبنا الى سربنا الجوي الذي يرابط غير بعيد من هنا.

الملازم الاول كوفالينكو، كتبت عنه فيما بعد تحقيقا صحفيا بعنوان "مطارد المطاردين".

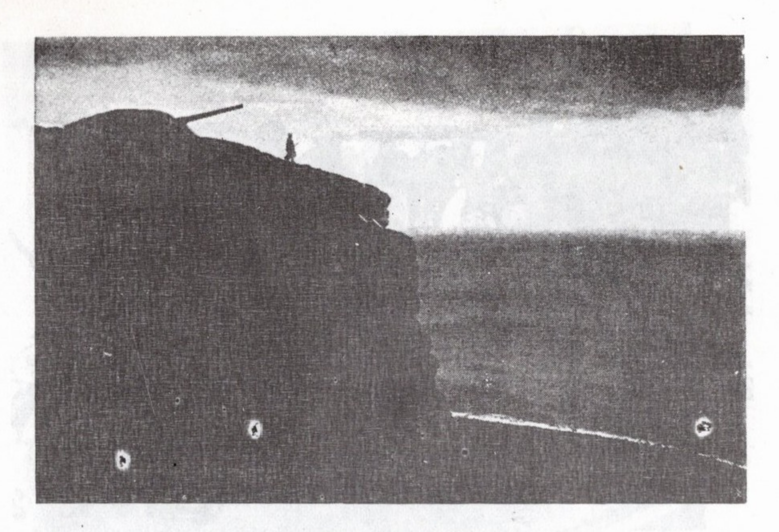




قصف الالمان الوحشي لميناء اوزيرسك في شبه جزيرة سريدني،
وميناء آينا في شبه جزيرة ريباتشي.

معركة جوية فوق رؤوسنا في ريباتشي، ثم انسحبت بعد ذلك الى
ما وراء الغيوم.





عندما تنظر الى الصخور، يصعب الادراك، كيف استطاع رجال المدفعية، سحب المدافع الثقيلة.

خط الجبهة يمتد عند سلسلة جبال موستا-تونتوري حيث تم هناك وقف زحف الالمان.

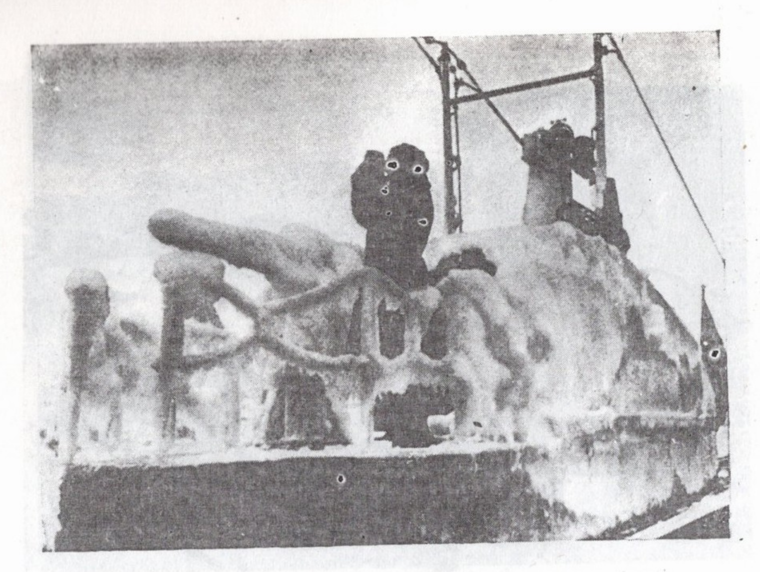




تحتم علينا ترك السيارة والانتظار حتى يعطونا حصانا وزحافة.

مقر قيادة فصيل الطوربيد، موجود الآن في واحد من هذه البيوت الفلندية.





بحر بارينتسفو يطالب ان يتعاملوا معه بصيغة "ضمير الجمع".

مر اليوم الثاني كله في احاديث مع جنود هذا الفصيل من الحرس.





كان يوما اعتياديا، وتراشق النيران نادرا.

ليس من المناسب سؤال هؤلاء الرجال، مادمت انا لم اجرب حتى
ولو مرة واحدة بنفسي معاناتهم التي يتجرعونها.





افراد من قواتنا كانوا دائما موجودين في مؤخرة الالمان.

البحارة استعدوا للذهاب في العملية.





الزوارق البحرية الحربية استدارت مبحرة للخروج من خليج كولسك.



سرنا فوق الجرف مباشرة على سفح صخري شديد الانحدار فوق الساحل.



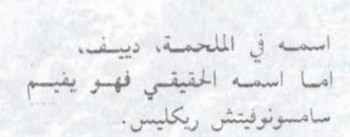
بعد مناورة استمرت ساعة، اصطففنا خلف محطمة الجليد.



دميتري ايفانوفيتش يريمين،
قوميسار فوج، خرج الى التقاعد.



ياكوف دميتر ييفيتش سكروبوف
ما يزال حتى الان يخدم في
الجيش برتبة فريق.



اسمه في الملحمة، دييف،
اما اسمه الحقيقي فهو يفيم
سامسونوفيتش ريكليس.

ايفان ايوستينوفيتش كالينيكوف،
امر سرية الحرس، استوطن في
مولدافيا بعد الاحالة على التقاعد.



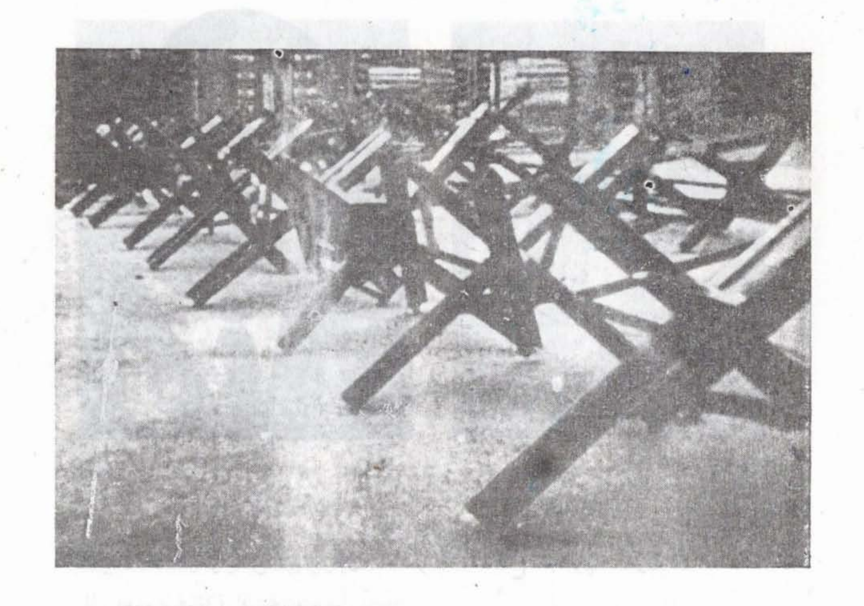




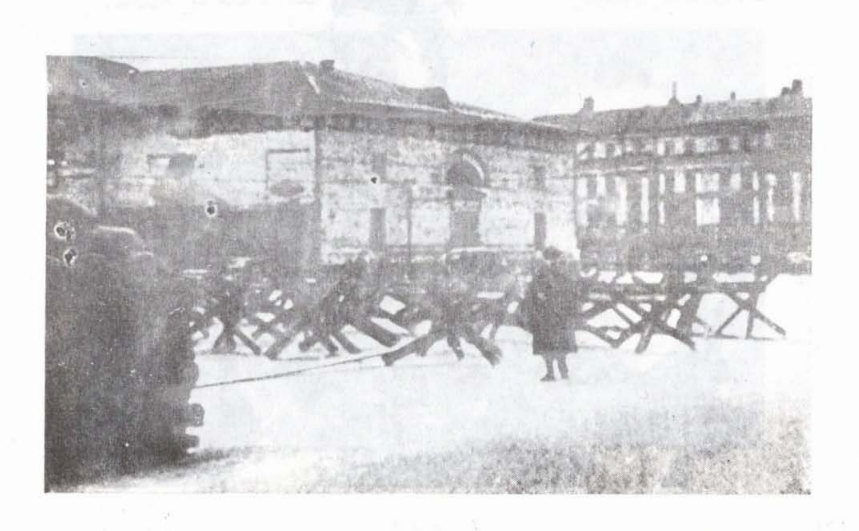
"ابن المدفعي" هو ايفان الكسيفيتش
لوسكوتوف، يعيش معافى
ويخدم في المدفعية الساحلية.

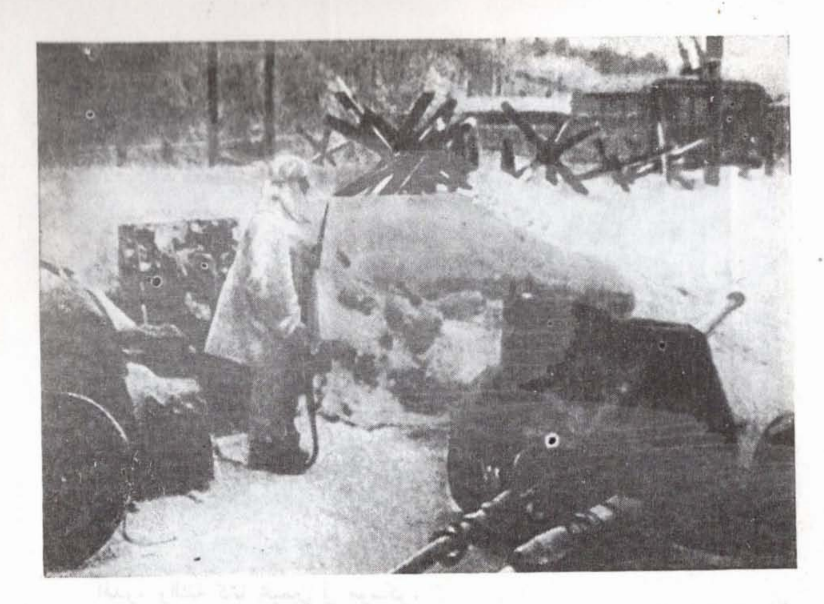
ستيبان ماكسيموفيتش موتوفيلين، عنصر الاستطلاع البحري، تحول
الى مصور فوتوغرافي محترف.



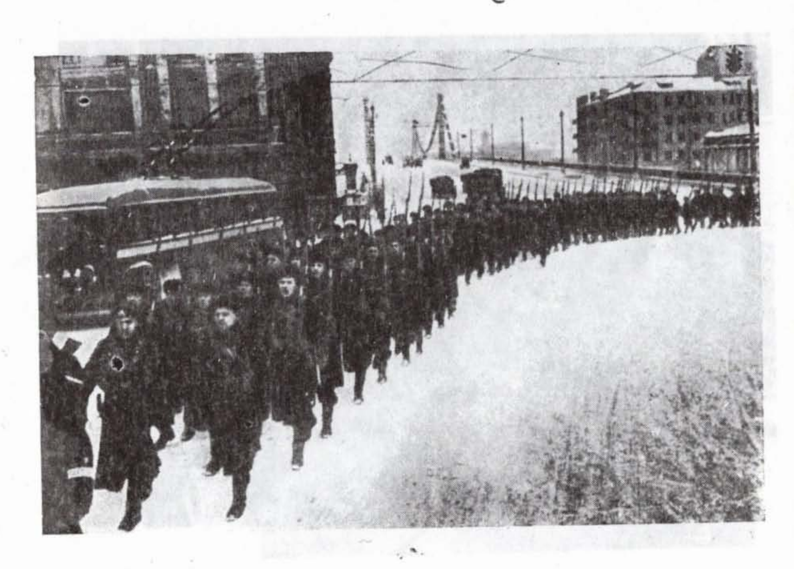


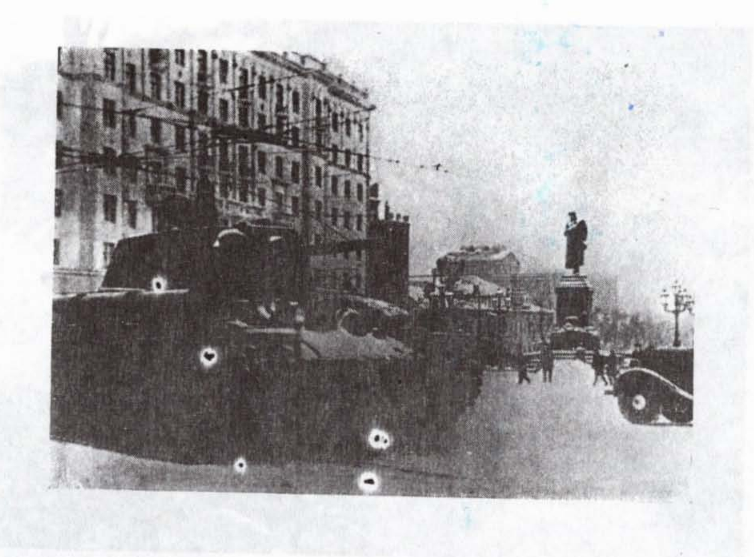
موسكو في هذه الايام.





كلما كنا ابعد عنها كان الفزع اشد.





الهدوء والثقة كانا مخيمين في موسكو.



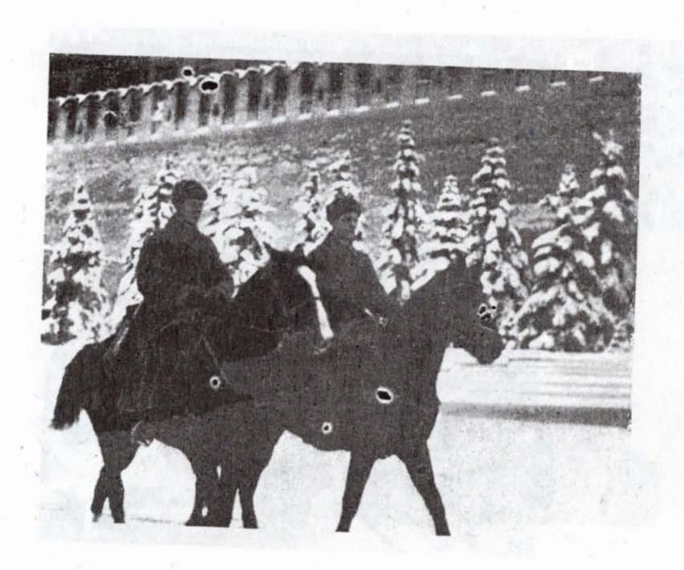


الشعور العام الموجود هو انه لن يسلموا موسكو.





المشاعر مشدودة حتى الحد الاقصى للنابض الحديدي ...





بحيث لا يمكن ان نضغط اكثر من ذلك. بل ان من الممكن فقط اطلاقه والضرب.





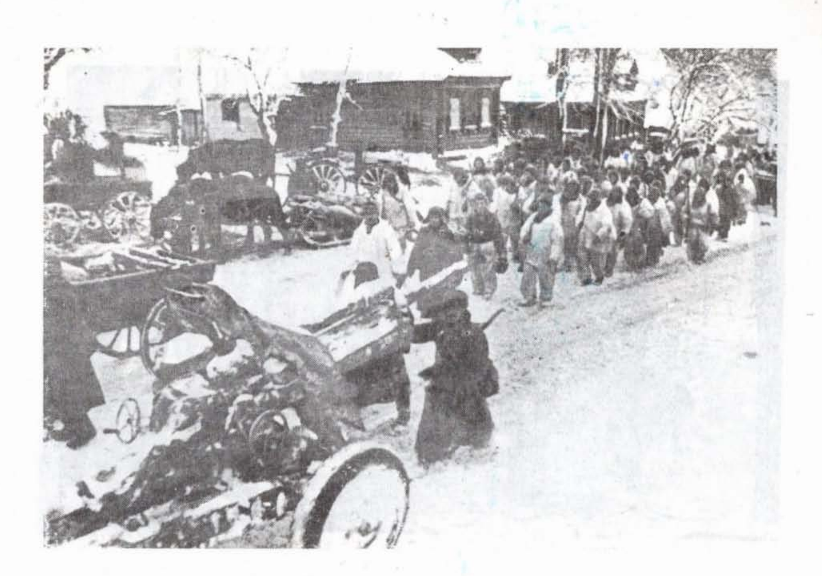
ان تلك الايام من كانون الاول-ديسمبر بموسكو، احس انا بخصوصياتها حتى اليوم. فالجبهة كانت على درجة من القرب، بحيث انه كان من الممكن خلال كل خمس عشرة دقيقة، ارسال سيارة يستدعوننا بها..



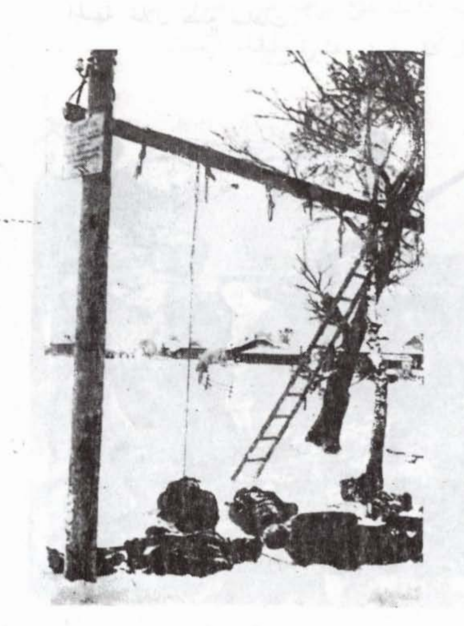


وبعد ارتداء معطف الفرو القصير يكون بالمستطاع الوصول الى الجبهة خلال بضع ساعات.





سرنا نحن في طريق شتوي على اثر الجيش المهاجم.



في القرى انتصبت المشانق التي انزلوا منها قبل بضع ساعات، الناس الذين اعدمهم الالمان.



كان من الصعب معرفة تولا، اذ ان المدينة كلها كانت مقطوعة بالمتاريس.

يتحدث السكان عن افظع مشاجرات عنيفة نشبت بين الالمان المتقهقرين، من اجل الامكنة بالسيارات.



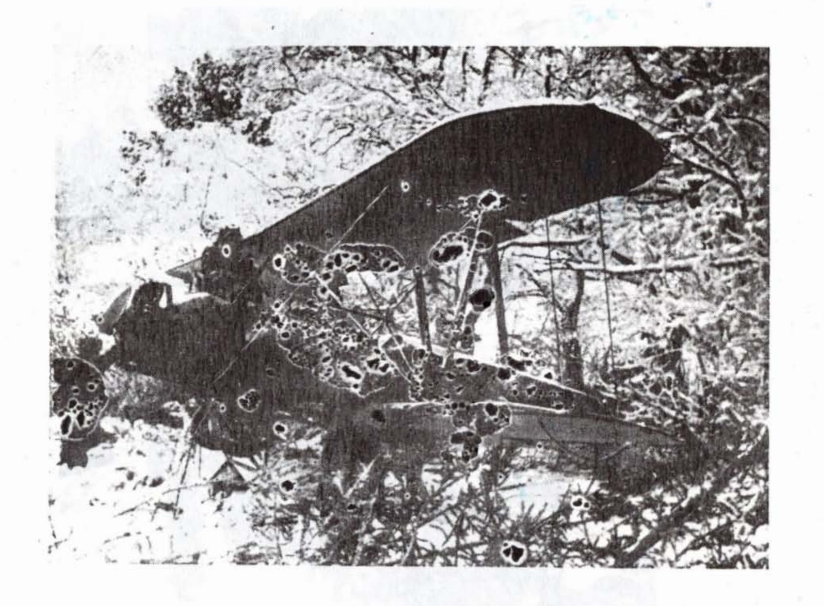


الطريق هو منظر لا ينسى. كان مكتظا تماما بالسيارات والدبابات والمدرعات الالمانية المتروكة.

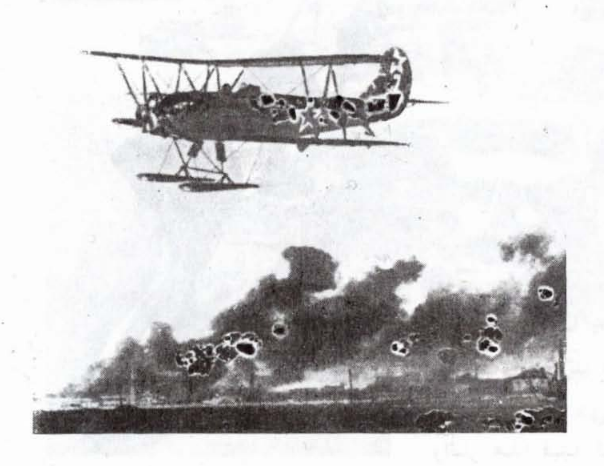




ان صور كل ما يحيط بنا
مطبوع في ذاكرتنا مع محارق الجثث
التي تركوها على طريقنا.
واثار هذا فينا كرها لاسعا.



انهم وعدوا بأن يعطونا طائرة أ-٢.



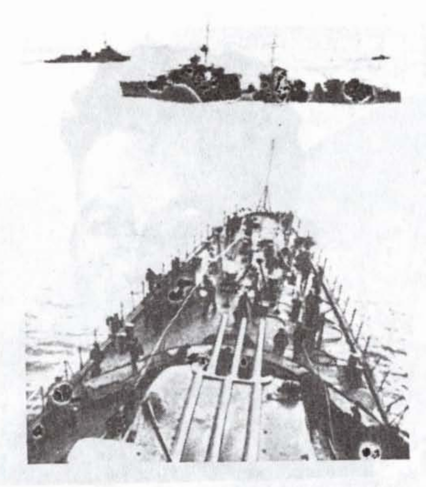


المصور الصحفي لجريدة *Фотокорре*
"كراسنايا زفيوزدا" ميخائيل بيرنشتين،
استشهد سنة ١٩٤٣ قرب مدينة خاركوف.

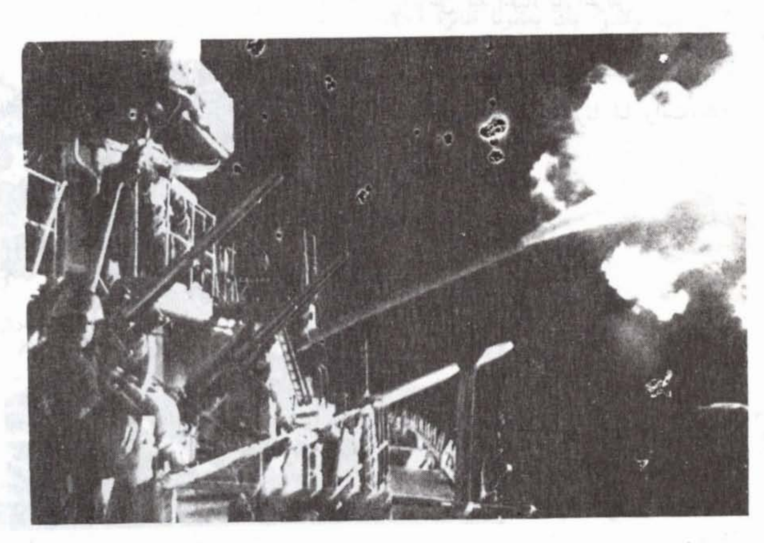
نشرب نخب النصر.
ونخب جريدتنا.
اما اذا سوف لا نبقى
على قيد الحياة يا أعزائي
فان شخصا ما،
سيسمع ويصور ويكتب.
ان احدهم سيتذكرنا انا وأنت...

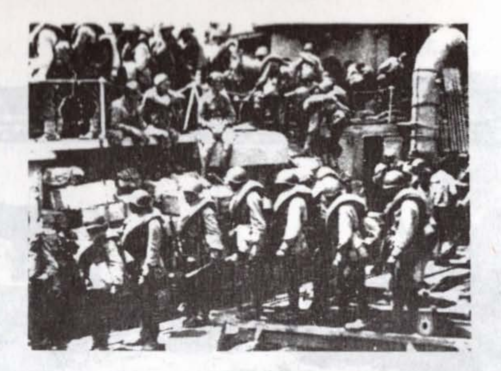


المراسل الصحفي لجريدة "ازفيستيا"
بافيل تروشكين قتل سنه
١٩٤٤ قرب مدينة لفوف.

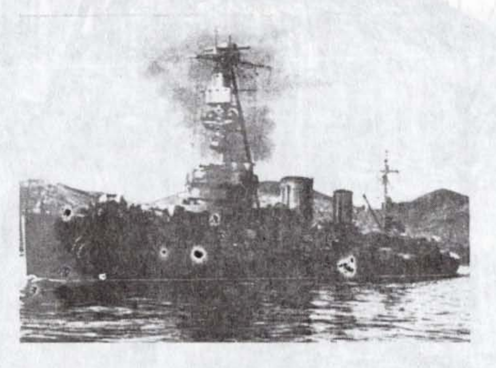


في الساعة الثانية ليلا، وصل فجأة بيان عن بدء عملية انزال لنا في كل من كيرتش وفيودوسيا. وكان يجب ارسال شخص الى هناك.

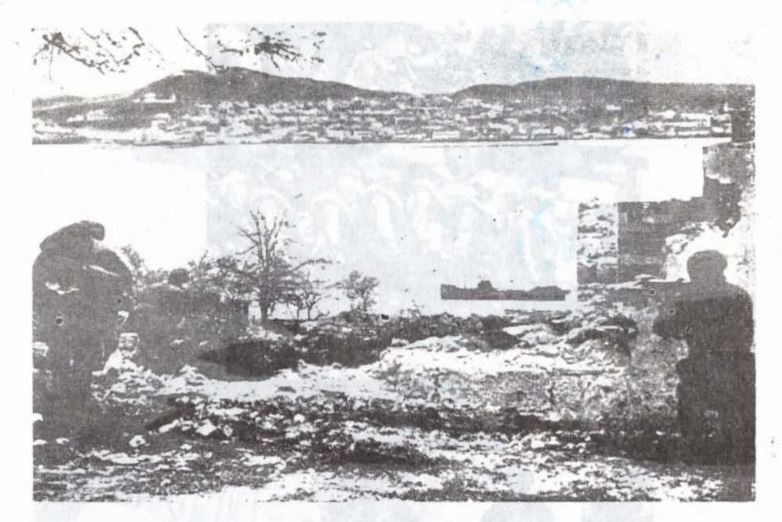








كانت المراسي غاصة بالسفن. وقد شحنوا السفينة بالاسلحة وصناديق العتاد والسيارات وكثير من الاشياء الاخرى.



دارت المعارك في كل من فيردوسيا وكيرتش.

في هذه الدار كان يقيم الغستابو الالماني.



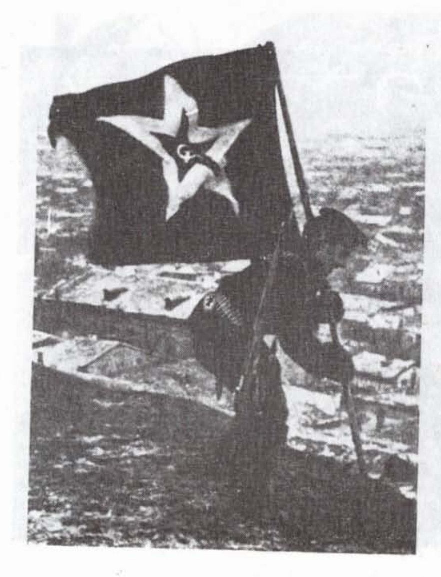


يبدو رئيس بلدية فيودوسيا في الخمسين من العمر من حيث المنظر. ان هذا الشخص كان مكروها عندي اكثر من اي اسير الماني.





في احدى اوائل المدن المحررة في ذلك الشتاء.



ـ صدر عن دار المأمون الكتب الآتية المترجمة الى العربية ـ حسب تأريخ نشرها

العنوان	السنة	تاليف	ترجمة
١ ـ دليل مترجم المؤتمرات	١٩٨١	جان هيربرت	سمير عبدالرحيم الچلبي
٢ ـ رباعية الحرب (قصيدة طويلة من الادب الانكليزي)	١٩٨٥	جورج ماكبث	ياسين طه حافظ
٣ ـ فن الرواية (دراسة نقدية)	١٩٨٦	كولن ولسن	محمد درويش
٤ ـ العاصفة (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٥ ـ كلب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء (رواية من الادب الروسي)	١٩٨٦	جافرييل تروبيولسكي	عبدالواحد محمد
٦ ـ مكبث (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٧ ـ الملك لير (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٨ ـ بين الفن والعلم (دراسة نقدية)	١٩٨٦	دولف رايسر	د . سلمان الواسطي
٩ ـ بلاد الثلوج (رواية من الادب الياباني)	١٩٨٦	يوسوناري كاواباتا	لطفية الدليمي
١٠ ـ مدن لامرئية (رواية من الادب الايطالي)	١٩٨٦	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ
١١ ـ السيدة دالاواي (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	فرجينيا وولف	عطا عبدالوهاب

١٢ ـ	جن (رواية من الادب الفرنسي)	١٩٨٦	الان روب غرييه	د . سعيد علوش وخديجة بناني
١٣ ـ	عطيل (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٤ ـ	هاملت (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٥ ـ	شكسبير والانسان المستوحد (دراسة نقدية)	١٩٨٧	جانيت ديلون	جبرا ابراهيم جبرا
١٦ ـ	الحداثة (الجزء الاول) (دراسة نقدية)	١٩٨٧	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد حسن فوزي
١٧ ـ	صناعة المسرحية (دراسة نقدية)	١٩٨٧	ستيوارت غريفتش	عبدالله الدباغ
١٨ ـ	القطار السريع (رواية من الادب الالماني)	١٩٨٧	ارمگارد كوين	اقبال ايوب
١٩ ـ	الازهار البرية (مجموعة قصص قصيرة من الادب الامريكي)	١٩٨٧	ارسكين كالدويل	علي الحلي
٢٠ ـ	حبة قمح (رواية من الادب الافريقي)	١٩٨٧	نغوغي واثيونغو	سلمان حسن ابراهيم
٢١ ـ	قبو البصل (قصص قصيرة من الادب الالماني)	١٩٨٧		د . سامي حسين الاحمدي
٢٢ ـ	معجم التعابير الاجنبية في اللغة الانكليزية	١٩٨٧	ب . ا .فثيان	سمير عبدالرحيم الچلبي
٢٣ ـ	مصطلحات المؤتمرات	١٩٨٧	جان هيربرت	سمير عبدالرحيم الچلبي
٢٤ ـ	الثعلب (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٧	د . هـ . لورنس	نمير عباس مظفر
٢٥ ـ	مذكرات مالوان عالم الاثاروزوج اجاثا كريستي	١٩٨٧	ماكس مالوان	سمير عبدالرحيم الچلبي
٢٦ ـ	الرجل العاشر (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٧	غرَيَم غرين	هادي عبدالله الطائي

العنوان	السنة	المؤلف	المترجم
النفق (رواية من الادب الاسباني)	١٩٨٧	ارنستوساباتو	مروان ابراهيم صديق
حوار الرؤية (دراسة فنية)	١٩٨٧	ناثان نوبلر	فخري خليل
ملحمة رامايانا (من الادب الهندي)	١٩٨٧	ر . ك . نارايان	د . جوزيف نادر بولس
جويس (دراسة نقدية)	١٩٨٧	جون كروس	عبدالوهاب الوكيل
الورقة الخضراء (مختارات شعرية من الادب السوفييتي المعاصر)	١٩٨٧	ايغور يرماكوف	د . عباس خلف
الخطوات الضائعة (رواية من ادب امريكا اللاتينية)	١٩٨٧	اليخوكاربنتير	سالم شمعون
الانطباعية (دراسة فنية)	١٩٨٨	جان ليماري	فخري خليل
ايلول بلا مطر (قصص قصيرة من الادبين الانكليزي والامريكي)	١٩٨٨		جبرا ابراهيم جبرا
الازرق ... الازرق	١٩٨٨	آنا زيجرز	د . سامي حسين الاحمدي
بحر ساركاسو الواسع	١٩٨٨	جين ريز	فلاح رحيم
المعنى الادبي	١٩٨٨	وليم راي	د . يوئيل يوسف عزيز
الاوهام البصرية	١٩٨٨	نيكولاس ويد	مي مظفر
الحلو ـ المر	١٩٨٨	موريس بونس	رعد اسكندر
طريق فلاندرا	١٩٨٨	كلود سيمون	باسيل قوزي
فن الشرق الأدنى القديم	١٩٨٨	سيتن لويد	محمد درويش
موسوعة المصطلح النقدي	١٩٨٨	د . سي . ميويك	د . عبدالواحد لؤلؤة
جاك بريفير	١٩٨٨	(قصائد مختارة)	سامي مهدي
مئة عام من الرسم الحديث	١٩٨٨	جي . إي مولر فرانك ايلغر	فخري خليل
كوكورو	١٩٨٨	ناتسومي سوسكي	عبدالواحد محمد
الليلة الثانية عشرة	١٩٨٩	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
الحرب والمجتمع في اوربا (١٨٧٠ ـ ١٩٧٠)	١٩٨٩	براين بوند	سمير عبدالرحيم الچلبي
زبد الحديد	١٩٨٩	ايڤان اوخانوف	د . حسن البياتي

٤٩ ـ	طفيليات العقل	١٩٨٩	كولن ولسن	محمد درويش
٥٠ ـ	احزان سوني	١٩٨٩	جيمس بالدوين	ناصرة السعدون
٥١ ـ	العقل والجسم	١٩٨٩	هربرت بنسن	د . محمد جابر
٥٢ ـ	عصر اساطين العمارة	١٩٨٩	ريز بانهام	سعاد عبد علي
٥٣ ـ	ميرين وقصص فرنسية اخرى	١٩٨٩	اندريه موروا	مؤيد مهدي ابراهيم
٥٤ ـ	تيزيه	١٩٨٩	آندريه جيْد	خليل الخوري
٥٥ ـ	هنري ميشو	١٩٨٩	هنري ميشو	سامي مهدي
٥٦ ـ	دراسات في الرواية الامريكية المعاصرة	١٩٨٩	مجموعة من النقاد	عنيد ثنوان رستم
٥٧ ـ	السيناريو	١٩٨٩	سَدْ فيلد	سامي محمد
٥٨ ـ	اللعب في الغسق	١٩٨٩	انيتا ديساي	امجد حسين
٥٩ ـ	العراق في الوثائق البريطانية	١٩٨٩		فؤاد قزانجي
٦٠ ـ	اللغة في الادب الحديث	١٩٨٩	جاكوب كورك	ليون يوسف عزيز عمانوئيل
٦١ ـ	الليمون (قصص من اليابان والصين)	١٩٨٩		احمد مديني
٦٢ ـ	ضوء نهار مشرق	١٩٨٩	انيتا ديساي	لطفية الدليمي
٦٣ ـ	السيد بالومار	١٩٨٩	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ
٦٤ ـ	نساء عاشقات ج١	١٩٩٠	د.هـ . لورنس	امجد حسين
٦٥ ـ	نساء عاشقات ج٢	١٩٩٠	د.هـ.لورنس	امجد حسين
٦٦ ـ	الترميز	١٩٩٠	جون ماكوين	عبدالواحد لؤلؤة
٦٧ ـ	العرس الوحشي	١٩٩٠	يان كيفيليك	ميسون ابو الحب
٦٨ ـ	موسوعة الحرب الحديثة ج١	١٩٩٠	روجر پاركتسن	سمير عبدالرحيم الجلبي
٦٩ ـ	خطوات على الثلج	١٩٩٠		سعيد احمد الحكيم



يوميات صحفي شاب

اشتهر الاديب الروائي الروسي كونستانتين سيمونوف، بأنه واحد من ابرز الكتاب المعاصرين في الاتحاد السوفييتي في ميدان ادب الحرب، اذ غطى حيزا كبيرا من احداث الحرب العالمية الثانية التي خاضها الاتحاد السوفييتي ضد الاحتلال الالماني في عهد هتلر وكذلك احداث حرب التدخل الياباني ضد منغوليا التي وقف الاتحاد السوفييتي الى جانبها بكل طاقاته العسكرية.

وله في الشعر باع طويلة، حيث تحولت بعض قصائده الى ترانيم شعبية مثل قصيدة "أنتظريني" و "اليوشا". كما دخلت في المناهج المدرسية الروسية، ملحمته "ابن المدفعي" التي الفها سنة ١٩٤١ في بداية اشهر الحرب العالمية الثانية.

ويعتبر كتابه هذا " يوميات صحفي شاب " مصدرا للخبرة التعليمية في فنون الصحافة والتحقيق الصحفي بالذات، ونموذجا عمليا للجمع بين الادب والصحافة.

ويتضمن هذا الكتاب ذلك النوع من الملاحظات التي تلتقطها عين الصحفي الثاقبة، بحيث يبدو للقارىء وكأن الكاتب يرويها الان في عهد زلزال ثورة البيروسترويكا - اعادة البناء - في الاتحاد السوفييتي.

دار المأمون للترجمة والنشر
السعر، ثلاثة دنانير

دار الحرية للطباعة